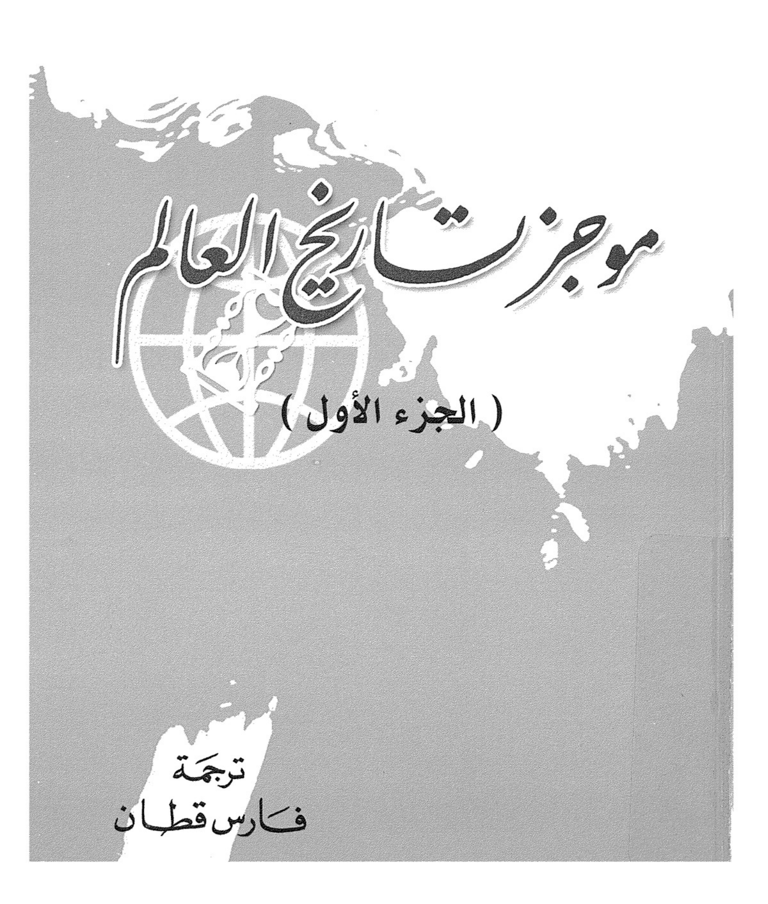
ج. م. روبرتس



موجز تاريخ العالم

(الجزء الأول)

إهـــــــداء ٢٠٠٨
وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

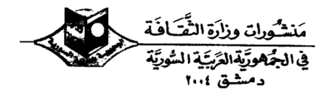
ج.م. روبرتس

موجز تاريخ العالم

(الجزء الأول)

ترجمة

فارس قطان


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٤

موجــز تــاريخ العالم / ج. م. روبرتس ؛ ترجمة فــارس قطان . -
دمشق : وزارة الثقافــة ، ٢٠٠٤ .- ٢ ج ؛ ٢٤ سم . -
(تواريخ ؛ ١).

١- ٩٠٩ ر و ب م ٢- ٩٣٠ ر و ب م ٣- العنوان
٤- روبرتس ٥- قطــان ٦- السلسلة
مكتبة الأســد

تــواريـخ
«١»

عن الكاتب

ولد ج. م. روبرتس في مدينة باث بإنكلترا، ودرس في كلية تونتُن ومعهد كبل بجامعة أُكسفُورد. ثم عاد إلى أُكسفورد في عام ١٩٥٠ بعد خدمة العلم، وأصبح زميلاً في كلية ماغدالِن في العام التالي. في عام ١٩٥٣ ذهب إلى الولايات المتحدة كزميل لصندوق الكومنوِلث، وكانت تلك أولى سفراته العديدة إلى أمريكا التي شغل خلالها عدة مناصب بينها عضو في معهد الدراسات العليا في پْرِنستون عام ١٩٦٠، ومنصب أستاذ زائر في جامعة كارولاينا الجنوبية وجامعة كولُمبيا في نيويورك. كان زميلاً ومدرسًا في معهد مُرتن بأُكسفوُرد من ١٩٥٣ إلى ١٩٧٩، ونائب رئيس جامعة ساوثامبتُن من ١٩٧٩ إلى ١٩٨٥. ثم عاد بعد ذلك إلى مُرتن كناظر كلية في عام ١٩٨٥ حتى تقاعده في عام ١٩٩٤. وفي عام ١٩٩٦ حاز على لقب شرف CBE من أجل (خدماته للتعليم والتاريخ).

حرر الدكتور روبرتس الكتاب الناجح والمحبوب: تاريخ پُرنِل للقرن العشرين. وشارك من عام ١٩٦٧ إلى ١٩٧٦ في تحرير المجلة النقدية الإنكليزية للتاريخ، وهو أيضًا صاحب الكتب التالية:«تاريخ العالم»، «أوربا١٨٨٠– ١٩٤٥»، «أسطورة الجمعيات السرية»، «كوميونة باريس من وجهة نظر اليمين»، «عصر الثورة والتطور»، «الثورة الفرنسية»، «تاريخ أورُبا»، في عام ١٩٨٥ بث إذاعة ٢ BBC سلسلة تاريخية من ثلاث عشرة حلقة كتبها وقدمها د. روبرتس، وفي وقت لاحق من العام نفسه نشرها في كتاب. كما أنه كان مستشارًا تاريخيًا لسلسلة البي بي سي التلفزيونية الناجحة: قرن الناس People's Century .

توطئة المترجم

وقعت على النسخة الأكبر من هذا الكتاب History of the World عندما كنت أدرس الطب في الولايات المتحدة في عام ١٩٩١. وقد شدني إليه منذ البداية، فبعد أن أتممت قراءته كنت على مدى السنوات التالية أعود إليه مرارًا لأقرأ فصولاً منه، ثم أعيد قراءتها، وأجد فيها كل مرة أشياء تُحفّز على البحث والتفكير. وشيئًا فشيئًا راحت أجزاء الصورة الكبيرة تتراكب وتتداخل ويكمل بعضها بعضًا، وتضم إليها ملامح قديمة ارتسمت في ذهني مما كنت قد قرأته أو سمعت عنه، فتتحول بالتدريج من قصة شيقة إلى ملحمة خلابة وغنية. وكانت فكرة ترجمة الكتاب تراودني في بعض الأحيان، ولكن كما يحلم الواقف عند سفح الجبل ببلوغ سقف العالم. وما أكثر ما يبدأ الحلم بعمل هو بين اللهو والجد، ثم يكتسب من بداياته البسيطة حماسًا واندفاعًا أكبر. وكنت قد قطعت نحو نصف الطريق من دون أن أجد رد فعل مشجع من دور النشر المختلفة التي عرضته عليها، ولا يمكنني أن ألوم أيًا منها، لأن الأصل يقع في أكثر من ١١٠٠ صفحة! ثم كان أن لحقت سورية بركب الإنترنت، فعلمت في إحدى جولاتي فيه أن للمؤلف كتابًا آخر موجزًا عن الموضوع نفسه، وهو ما كنت أتمناه من دون أن يخطر ببالي أن يمكن اختزال هذا الموضوع أكثر من ذلك! وكم كانت دهشتي وفرحتي كبيرتين عندما وجدت الكتاب الأصغر أسلس حتى من أخيه الأكبر، مع أنه في الحقيقة أمر غير مستغرب بالنظر إلى موهبة الكاتب العظيمة في تقريب التاريخ إلى القارئ من دون إسفاف.

يهتم الكاتب بشرح كيف أصبح عالمنا على الصورة التي نألفها اليوم، وتظهر الخطوط العامة للقصة من عناوين الفصول نفسها. فهو بعد وصف عام لأصول الإنسان فيما قبل التاريخ، يتحدث عن جذور الحضارة ونشأتها. ثم يتناول أربع حضارات قديمة، هي حضارات بلاد الرافدين، ومصر، والهند، والصين. وينتقل بعدئذ ليتحدث عن «أسس عالمنا» في الشرق الأدنى واليونان، وهي الأسس التي بني عليها «العالم الروماني»، الذي ولدت فيه المسيحية وضربت جذورها. أما الفصل التالي فهو يقابل عمر بيزنطية الطويل، الذي شهد ولادة الإسلام وانتشاره، وتنصير الشعوب السلافية، وقدوم شعوب آسيا الوسطى إلى الشرق الأدنى، حتى انتقال بيزنطية إلى العثمانيين عند بداية العصور الحديثة. وهذه البداية هي نفسها المحطة التي ينتهي عندها الفصلان التاليان، حيث يعود الكاتب أولاً إلى آسيا وكأنه يسير بعكس اتجاه تلك الهجرات، فيتم قصص الهند والصين واليابان حتى بدء وصول الأوربيين إليها. ثم يصف «صنع أوربا»، وهي قصة مسيحية القرون الوسطى في الغرب من بعد سقوط روما، وبدايات الدول الحديثة في أُورُبا.

بعد ذلك تبدأ «الاستكشافات والمواجهة» بين «المبادرة الأوربية» واستعمارها لشعوب أفريقيا والأمريكتين وآسيا. ويكرِّس الكاتب فصلاً لوصف الأوضاع الاقتصادية والسياسية والدينية في أوربا عند بداية الأزمنة الحديثة؛ يتلوه فصل أكثر عالمية، لأنه لا يقتصر على موضوع الأفكار الجديدة في أوربا، بل يشمل أيضًا التجارة الدولية، وعلاقة الإسلام بالعالم الغربي، والثورة الأمريكية، والثورة الفرنسية مع نتائجها حتى ١٨٤٨-٤٩. ثم لا يلبث أن يحدث «التسارع الكبير» في أنماط الحياة، ويقوم «النظام العالمي الأوربي»، قبل أن نصل في النهاية إلى «العصر الأخير»،

الموزعة قصته على ثلاثة فصول، يتناول أولها السكان والثروة والأفكار والعلوم والمرأة، والثاني الوصف السياسي من بداية «الحرب العظمى» حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، أما ثالثها فيمتد حتى نهاية الاتحاد السوفييتي.

لقد ساعدني في رحلتي الطويلة هذه أشخاص كثيرون لا يتسع المجال لذكرهم جميعًا، ولكنني أحب أن أذكر الذين أشعر أنني مدين لهم بشكل خاص: الدكتور صادق جلال العظم، الأستاذ عبد الإله الملاح، الأستاذ ندرة اليازجي، الأستاذ موسى الخوري، الدكتور شفيق فياض، وزارة الثقافة، الأستاذ عمار عبد الحميد، والأستاذ جمال سعيد. ولا أنسى فضل الأصدقاء الكثيرين الذين اهتموا بالموضوع وقرؤوا مقاطع من الترجمة وقدموا لي آراءهم المفيدة في مناسبات عديدة.

فارس قطان

دمشق في ٦ كانون الأول ٢٠٠٣

لقد اعتمدت في رسم أسماء العلم اعتمادًا رئيسيًا على «المنجد في الأعلام»، لأنني وجدت غالبيتها فيه أقرب إلى الأصل وإلى الأذن العربية معًا، فضلاً عن أنه على ما أعلم أشمل قاموس في هذا المجال ومتاح بين أيدي الكثيرين، فيسهل عليهم بذلك الرجوع إليه لمزيد من المعلومات عن الشخصيات والبلاد والأحداث المذكورة. والكلام الذي بين قوسين هو دومًا من أصل الكتاب، بعكس الحواشي التي أضفتها بالاعتماد على مصادر أذكرها عند الحاجة. وتبقى أفكار الكتاب بالطبع أفكار المؤلف نفسه وأحكامه.

لقد مرت بي منذ بداية اهتمامي بالتاريخ العام عناوين عدد من الكتب الأخرى بالعربية عن هذا الموضوع، بعضها وضع بالعربية وبعضها مترجم. ولكنني لم أجر بحثًا منهجيًا عنها في المكتبات العامة، وقد صنفتها في ثلاث مجموعات:

مؤلفات قديمة غير عربية

هيرودوتُس (٤٨٤؟-٤٢٥؟ ق.م) مؤرخ ورحالة إغريقي

- «تاريخ هيرودوتس الشهير» ترجمه عن الفرنسية حبيب أفندي بسترُس (مجلدان ٦٣٦ ص، حلب ١٨٨٦-١٨٨٧)
- «تاريخ هيرودوت» ترجمة عبد الإله الملاح (المجمع الثقافي بأبو ظبي، ٢٠٠١)

القديس أوغسطينُس: (٣٥٤-٤٣٠ م) من آباء الكنيسة المشهورين. أسقف هيبون في الجزائر.

- «مدينة الله» (فلسفة مسيحية للتاريخ) ترجمة الخورأسقف يوحنا الحلو (دار المشرق، بيروت – ٢٠٠٢)

أوروسيوس (باولُس) (ولد على الأرجح في براغا بإسبانيا وزها بين عامي ٤١٤-٤١٧ م)

- «تاريخ العالم لأوروسيوس» (كتبه بناء على طلب القديس أوغسطينُس) – تحقيق وتقديم د. عبد الرحمن بدوي عن ترجمة عربية قديمة من منتصف القرن الرابع الهجري (المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الطبعة الأولى ١٩٨٢)

مؤلفات عربية قديمة(*)

الدِّينَوَرِيّ (أبو حنيفة أحمد) (ت ٨٩٥ م) عالم ومؤرخ عربي

- «الأخبار الطوال» (تاريخ عام من وجهة النظر الفارسية)

اليعقوبي (أحمد) (ت بعد ٩٠٥ م) جغرافي ومؤرخ بغدادي كثير الأسفار

- «التاريخ» (ينتهي سنة ٢٥٨ هـ/٨٧٢ م)

الطَّبَرِيّ (أبو جعفر محمد بن جرير) (ت ٣١٠ هـ/٩٢٣ م): مؤرخ ومفسر وفقيه شافعي. ولد في آمل بطبرستان. استوطن بغداد وتوفي بها.

- «تاريخ الأمم والملوك» (من خلق العالم حتى ٣٠٢ هـ/٩١٥ م)

المَسعوديّ (أبو الحسن علي) (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م): مؤرخ ورحالة من أهل بغداد، من ذرية الصحابي ابن مسعود. رحل إلى بلاد كثيرة وأقام في مصر وتوفي فيها. لقب بـ «هيرودوتس العرب»

- «مروج الذهب ومعادن الجوهر» (حتى ٩٤٧ م)
- «التنبيه والإشراف» (في فلسفة التاريخ والطبيعة)

مِسكَوَيه (أو ابن مسكويه، أبو علي أحمد) (ت ١٠٣٠ م) مؤرخ له مشاركة في المنطق والكيمياء، عاش في أصفهان، خدم بني بُوَيه.

- «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» ينتهي بعام ٩٧٩ م.

(*) للاطلاع على أكثر هذه النصوص وغيرها من التراث العربي راجع موقع الوراق www.alwaraq.com

ابن الأثير (عز الدين علي) (١١٦٠-١٢٣٤ م) مؤرخ كبير ولد بجزيرة ابن عمر على دجلة وزها في الموصل.

- «الكامل في التاريخ» (ضمّنه مختصره لتاريخ الطبري موصلاً ذكر الحوادث إلى ١٢٣١ م)

ابن الجَوزي (سِبط) (١١٨٦-١٢٥٧ م): مؤرخ بغدادي.

- «مرآة الزمان في تاريخ الأيام» (من الخلق حتى ١٢٥٦ م)

أبو الفداء (إسماعيل) (١٢٧٣-١٣٣١ م): أمير عربي مؤرخ وجغرافي. صاحب حماة.

- «المختصر في أخبار البشر» (ملخص تاريخ ابن الأثير أوصله إلى عصره)

ابن خلدون (عبد الرحمن، أبو زيد) (١٣٣٢-١٤٠٦ م): مؤرخ وفيلسوف اجتماعي عربي. من أعلام زمانه في الإدارة والسياسة والقضاء والأدب والعلوم. ولد في تونس وتوفي بالقاهرة. تولى أعمالاً سياسية في فاس وغرناطة وتلمسان.

- «المقدمة» و «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»

مؤلفات حديثة

مُطران (خليل) (١٨٧١-١٩٤٩): شاعر وأديب لبناني. هاجر إلى مصر.

- «مرآة الأيام في ملخص التاريخ العام» (١٨٩٧). وتوجد منه نسختان في مكتبة الأسد بدمشق، إحداهما أصلية والأخرى أحدث صادرة عن دار مارون عبود.

نهرو (جواهر لال) (١٨٨٩-١٩٦٤): سياسي هندي ورئيس وزارة (١٩٤٧-١٩٦٤)

- «لمحات من تاريخ العالم» (١٩٣٤) – تعريب لجنة من الأساتذة الجامعيين (دار الجيل – بيروت – طبعة جديدة ١٩٩٧)

ديورانت، ويل (١٨٨٥-١٩٨١) وزوجته آرِيل (١٨٩٨-١٩٨١)(*)

- «قصة الحضارة» (الطبعة الإنكليزية ١٩٣٥-١٩٧٥) ترجمت بإشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية. وتوجد لها الآن نسخة رخيصة الثمن في مشروع مكتبة الأسرة.

- «الوجيز في قصة الحضارة» عن كتاب ديورانت السابق في سبعة أجزاء صغيرة من إعداد د. غازي مختار طليمات (دار طلاس، دمشق، ١٩٩٧).

- «دروس التاريخ» لويل وآريل ديورانت (ترجمة علي شلش، دار سعاد الصباح، الكويت ١٩٩٣).

- «أبطال من التاريخ» لويل ديورانت (ترجمة سامي الكعكي وسمير كرم، مراجعة عمر الأيوبي – دار الكتاب العربي – بيروت ٢٠٠٣).

وِلز (هربرت جـ.) (١٨٦٦-١٩٤٦): روائي إنكليزي.

- «موجز تاريخ العالم» (الطبعة الإنكليزية ١٩٤٤) – ترجمه عبد العزيز توفيق جاويد، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٩٩٩.

(*) ثمة مؤسسة تعنى برعاية أعمال وأفكار الزوجين ديورانت www.willdurant.com

أساتذة من جامعة السوربون

- «تاريخ الحضارات العام» الواقع في سبعة مجلدات كبيرة (ترجمه عن الفرنسية: فريد م. داغر، وفؤاد ج. أبو ريحان، ويوسف سعد داغر، وأحمد عويدات - منشورات عويدات، بيروت-باريس، الطبعة الثالثة ١٩٩٣). عن:

Histoire Générale des Civilizations ed. Maurice Crouzet (١٩٥٣-١٩٥٥)

توينبي (آرنولد) (١٨٨٩-١٩٧٥) مؤرخ إنكليزي

- «تاريخ البشرية» (Mankind and Mother Earth ١٩٦٧) ترجمة الدكتور نقولا زيادة (الطبعة الرابعة ٢٠٠٣ - الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت)

مؤرخون سوفييت

- «موجز تاريخ العالم» وهو يقع في ثلاثة أجزاء من تأليف جماعة من المؤرخين السوفييت من معهد التاريخ بأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، ترجمه محمد عيتاني وسليمة شعلان ووداد مراد (دار الفارابي - بيروت ١٩٨٩-١٩٩٠).

مقدمة

لقد كتبت منذ سنوات كتابًا عنوانه «تاريخ العالم»، ثم اقترح علي ناشري أن أكتب تاريخًا موجزًا للعالم. وكنت أعلم أن هذا الأمر سوف يكون أصعب من تأليف الكتاب الأكبر. فليست هذه نسخة مركزة من الكتاب السابق، لأنك لا تستطيع أن تختصر تاريخًا عامًا بأن تختزل الصفحات إلى فقرات والفقرات إلى جمل، بل يجب أن تعيد توزيع المواضيع بشكل مختلف وأحيانًا بتسلسل مختلف أيضًا إذا أردت ضم الأفكار الأساسية في حيز أصغر. كما أنه لا بد من حذف بعض الأشياء بينما تأخذ أشياء أخرى وزنًا أكبر. ولا بأس بذلك، لأن التاريخ إنما هو سرد الأمور التي يجدها المؤرخ هامة عندما يريد الإجابة عن أسئلة يطرحها، فالحقيقة أنه مهما بدا موضوعه صغيرًا ومهما كان كتابه كبيرًا، فإنه لن يقدر إلا على ذكر الأشياء التي يراها هامة ومرتبطة بموضوعه من وجهة نظره في الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها هو نفسه.

قد يستغرب بعض القرّاء اختياري للأشياء أو الأشخاص الذين وجدهم هامين ومرتبطين بموضوعي في هذا الكتاب، وربما وجدوا تفسيرًا لهذا في المقدمات التي كتبتها لطبعات من النسخة السابقة الأكبر حيث كانت مقاربتي أطول. وأنا لم أعط في هذا الكتاب الزمن نفسه لكل جزء من أجزاء العالم ولا لكل فرع من فروع البشر، فصحيح أن اتجاه التاريخ وشكله يتحددان عادة بأعمال الجماعات الكبيرة من الناس، إلا أنه ليس ديمقراطيًا أبدًا، إذ إن الأعداد الكبيرة من البشر ذات دور هام

في تحديد مجرى الأمور عندما يرتحل الناس في هجرات كبيرة مثلاً أو يضعون أنماطًا من الزراعة أو الصناعة ترسم مصائر أماكن هامة من كوكبنا، أو عندما يتبعون معلمًا دينيًا أو عقائد أو حتى قادة سياسيين بأعداد غفيرة، وما إلى ذلك. ولكن الأعداد وحدها لا تشكل العنصر الهام في التاريخ؛ فالصين مثلاً تضم منذ بداية الأزمنة التاريخية نسبة كبيرة من العرق البشري، إلا أن تأثيرها بقي شبه معدوم لزمن طويل. كذلك فإن النساء يشكلن نصف العرق البشري تقريبًا، ورغم أنه كانت لهن أحيانًا سلطة ونفوذ كبيران في بعض الأماكن، فإن أكثر المجتمعات كانت ومازالت تعطي سلطة ونفوذًا أكبر للرجال. ولهذا يحق أن نقول إن التاريخ هو قصة الظلم والقمع الذي مارسته الترتيبات الإجتماعية «الأبوية» على النساء. ولا يهمنا ما فعلته الأعداد الكبيرة من البشر فقط، بل همّنا أيضًا مصائر الأعداد الكبيرة منهم.

إن أكثر طريقة منطقية في تحديد الأشياء المهمة في التاريخ هي أن نعرف عدد الناس الذين تأثّروا بها في المحصلة. فقد غيرت بعض الأفكار والحقائق الجغرافية والاكتشافات والمجتمعات وحتى بعض الأفراد حياة مئات بل آلاف الملايين من الأشخاص، وهي التي حددت السبل التي سلكتها البشرية دون سواها. ويجب أن أقول هنا إن هذه الرواية المختصرة لتاريخ العالم لا تسمح إلا بذكر أسماء أفراد قلائل هم الذين غيروا الإمكانيات المتاحة لغيرهم من البشر. ولا يعني هذا أن تاريخ الملايين من الناس المغمورين غير جدير بالدراسة، بل إن كل شيء في الماضي يستحق الدراسة، ولكن يبقى هذا الكتاب الموجز دليلاً على أن تلك الملايين من الناس ربما كانت ستعيش بصورة مختلفة تمامًا لو لم يأت أولئك الأفراد القلائل بأعمالهم التي غيرت العالم.

ولما كان هذا الكتاب قد نشأ من كتاب سابق له فيجب علي من جديد أن أوجِّه شكري إلى كل من ساعدني والذين شكرتهم في المقدمات السابقة. ولكن يجب أيضًا أن أقدِّم اعترافًا خاصًا بالجميل لشخصين اثنين من أجل مساهمتهما في هذا الكتاب. إنني أدين بالمعروف الكبير لناشري ديڤيد أتوُل لأنه هو الذي اقترح هذا المشروع أصلاً، ولمحررتي آن لوسي نورتُن لأنها كثيرًا ما حفزت همتي الضعيفة في هذا المشوار الذي كانت العوائق فيه أكبر مما ظننا في البداية. وأجد نفسي الآن ممتنًا لهما امتنانًا عميقًا وأشكرهما شكرًا حارًا، ولو أنني لم أكن واعيًا لفضلهما هذا أثناء إنجاز العمل.

الخامس من آب (أغسطس) ١٩٩٣

ج. م. ر.

الفصل الأول

قبل التاريخ

البدايات

تستخدم كلمة تاريخ عادة للدلالة على شيئين مختلفين: فهي تعني ما حدث في الماضي؛ كما أنها تعني الوصف الصحيح لما حدث فيه. وعندما نصف ما حدث في الماضي فإننا دائمًا نختار منه أشياء دون غيرها، وعندما نصف تاريخ العالم كله لا نستطيع أن نأخذ بعين الاعتبار كل الزمن الماضي، بل يمكننا أن نتجاهل القسم الأكبر منه. فلا حاجة بنا أن نعود إلى زمن «الانفجار الكبير» الذي انبثق منه الكون لكي نفهم وضعنا الحالي. إن التاريخ هو قصة البشر، لذلك فإن ما يهمنا هو ماضي البشر، وحتى عندما يبحث المؤرخون في أمور خارج سيطرة البشر مثل الجغرافية والمناخ والأمراض فإنهم يبغون من ذلك أن يعرفوا لماذا عاش الناس وماتوا بطرق ما دون سواها؛ أي أن التاريخ بمعناه الأول – ما حدث في الماضي – هو ما حدث للبشر وما فعلوه هم أنفسهم.

يختصر هذا الأمر قسطًا كبيرًا من الزمن الذي ينبغي علينا دراسته، ولكنه يترك مع ذلك قدرًا كبيرًا جدًا لا بد من معالجته. كما أنه لا يبين لنا تمامًا أين يجب أن نبدأ. يمكننا نظريًا أن نبدأ بأول كائن بشري. ولكننا لا نعلم متى ظهر ذلك

الكائن ولا أين، بل يمكننا أن نخمن ذلك بحذر وضمن حدود واسعة. والأصعب من هذا أنه ليس ثمة إجماع على الكائنات التي يمكن أن نعتبرها «بشرية» بين التي عاشت في الأزمنة الباكرة، وأين عبرت الخط الذي يفصل بينها وبين غيرها من الحيوانات.

من العسير أن نرسم خطًا واضحًا بين البشر والكائنات السابقة لها، ولم يعد الناس يتحدثون عن «البشر القردة» أو «الحلقات المفقودة» (كما كانوا يفعلون في السابق). صحيح أن الفيزيولوجية تساعدنا في تصنيف المعلومات، إلا أن صفة «بشري» ما زالت موضوع تعريف قد يختلف الناس فيه. إن ما يتفرَّد به البشر بشكل أكيد ومميز ليس امتلاكهم خصائص معينة فحسب، بل ما يفعلونه بتلك الخصائص. لقد أبدى البشر دومًا قدرة تراكمية على صنع التغيير لم يُبد مثلها أي نوع آخر، وصنعوا تاريخهم بأنفسهم - ولو كان ذلك ضمن حدود بالطبع- وقد صارت هذه الحدود اليوم واسعة جدًا، ولكنها كانت ذات يوم ضيقة للغاية، بحيث لا يمكننا أن نميز الخطوة الأولى التي أخرجت التطور البشري من حتمية الطبيعة. إن تاريخ البشر قد ابتدأ عندما اخترق الاختيار الواعي للمرة الأولى ميراث الجينات والسلوك بعد أن كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة للبقاء.

فعندما ظهرت إمكانية التحرر من حتمية الطبيعة ولو بأوهى درجاتها كانت تلك بداية تغير عظيم جدًا. ومنذ ذلك الحين صارت ثقافة البشر تطورية، ولم تعد تبنى بالصدفة وضغوط الطبيعة وحدها، بل أيضًا بالاختيار الواعي وبتراكم رأس مال من الخبرة والمعرفة وباستغلالها. وعند هذا التحول ينبغي علينا أن نبدأ قصتنا، لو كان بإمكاننا أن نعرف متى حدث.

يقبل أكثر علماء البيولوجية اليوم شكلاً ما من أشكال نظرية تُفَسِّرُ التطوّر «بالاصطفاء الطبيعي»، ويتفق الكثيرون منهم -ولكن ليس كلهم- على أن التطوّر يعمل من خلال البيئة، بحيث تشجع بيئة معينة بقاء سلالات جينية معينة بينما تعيق بقاء سلالات غيرها. ثم تنتقل تلك الرسائل الجينية التي بقيت إلى الجيل التالي، أما الأخرى فلا تنتقل لأن البيئة تستأصلها قبل انتقال الميراث الجيني. فهناك مثلاً آليات معينة لحفظ حرارة الجسم في بعض الأنواع تسمح لها بالاستمرار في العيش ضمن المناخات الباردة – كما هي حال طائر البطريق – أما الأنواع الأخرى التي لا تمتلك تلك الآليات فإنها لا تقدر على العيش في تلك المناخات، ولا تجدها إلا خارجها – هذا إذا وجدت أصلاً.

قد يبدو هذا الأمر بعيدًا عن قصة البشرية، ولكنه ضروري من أجل فهم جذور قصتنا الكامنة في الماضي السحيق. لقد بقي التطور البيولوجي زمنًا طويلاً يسير ببطء عجيب ضمن الإمكانيات التي تتيحها البيئات المختلفة للمتعضيات ثم للحيوانات المختلفة، وكان العامل الحاسم في توفير تلك البيئات المختلفة هو المناخ. منذ حوالى أربعين مليون سنة بدأت نهاية حقبة مناخية طويلة كانت موائمة للزواحف الكبيرة، وأشهرها الدينوصورات. كان العالم يبرد عندئذ، وراحت الظروف المناخية الجديدة تقلص بيئة تلك الزواحف الكبيرة حتى أدت في النهاية إلى اختفائها – ويعتقد البعض أن هناك عوامل أخرى غير المناخ قد لعبت دورها أيضًا- إلا أن الظروف الجديدة كانت ملائمة لسلالات أخرى من الحيوانات كانت موجودة من قبل، ومنها ثدييات كانت أجدادها الصغيرة جدًا قد ظهرت قبل ذلك بحوالى مئتي مليون سنة. لقد ورثت تلك الثدييات الأرض أو جزءًا كبيرًا منها، ثم مرت

سلالاقما بتطور فيه الكثير من الانقطاعات وحوادث الاصطفاء، حتى تطورت إلى عائلات الثدييات التي تعيش اليوم، ومنها عائلتنا.

ولكن هذه لم تكن نهاية قصة المناخ كعامل انتقاء في التطور، بل بقيت تحدث تقلبات عظيمة في درجات الحرارة، ولو أنها كانت تستغرق مئات آلاف بل ملايين السنين لكي تأخذ كامل مجراها. لقد مرت الأرض بدرجات قصوى من التجمد من ناحية والجفاف من ناحية أخرى، قضت على بعض خطوط التطور الممكنة، بينما ظهرت بالمقابل في أزمنة وأمكنة غيرها ظروف موائمة سمحت لبعض الأنواع بالازدهار وشجعت انتشارها في مواطن جديدة. كانت تلك عملية طويلة للغاية، وكان المناخ يهيئ خلالها خشبة المسرح لتاريخ البشرية حتى قبل ظهور الكائنات التي سوف يتطور منها البشر، وكان يشكل عبر الاصطفاء الميراث الجيني النهائي للبشرية نفسها.

منذ حوالى خمسة وخمسين مليون سنة كانت الثدييات البدائية على نوعين أساسيين: أحدهما يشبه القوارض وقد بقي على الأرض، بينما سكن النوع الآخر الأشجار، وبذلك انخفض التنافس بين العائلتين على موارد الطبيعة. ثم استمرت سلالات من كل منهما لتصبح في النهاية الكائنات التي نعرفها اليوم. تسمى المجموعة الثانية الآن اللّيْمُوريات prosimians، ونحن من بين أحفادها، لأنها كانت أجداد الرئيسات الأولى(*). إن السلالات التي بقيت في المرحلة التالية من تطور الليموريات هي السلالات الجينية الأكثر ملاءمة لتحديات الغابة ومخاطرها.

(*) الرئيسات رتبة من الثدييات تشمل البشريات والقرديات والليموريات – المترجم

كانت الغابة بيئة خطرة قد لا تنفذ أشعة الشمس إليها إلا قليلاً، لذلك صار للتعلم أهمية قصوى، وقد زالت السلالات المعرضة للحوادث في تلك الظروف، بينما استمرت تلك التي استطاع ميراثها الجيني أن يستجيب ويتأقلم مع أخطار الظلام الدامس والأشكال الغامضة وصعوبة التثبت بالأيدي. من تلك الأجناس التي ازدهرت -من الناحية الوراثية- أنواع ذوات أصابع طويلة سوف تتطور إلى الأصابع التي نعرفها، وإلى الإبهام الذي يستطيع مقابلة الأصابع الأخرى فيسهّل الإمساك بالأغصان - ثم بالأدوات في مرحلة لاحقة. وتطورت أنواع غيرها نحو الرؤية الثلاثية الأبعاد وتراجع حاسة الشم وشكل الوجه القريب من الشكل البشري. ولا حاجة بنا هنا إلى تتبع تفاصيل هذه القصة أكثر من هذا -فهي في غاية التعقيد وما زالت موضع أخذ ورد بين المختصين- ولكنها الخلفية الضرورية لفهم إحدى نتائج التطور، ألا وهي ظهور الفرع الأساسي من عائلة الرئيسات الذي ينتمي إليه البشر، أي فرع البشريات.

البشريات

ظهرت أولى القردة منذ حوالى ٢٥ مليون سنة - وكانت أرقى الرئيسات تطورًا في زمانها. وقد كانت أجسامها وأدمغتها أكبر بكثير من الرئيسات الأسبق. ثم تطورت منها سلالات جديدة ملائمة لحياة السهوب التي بدأت تمتد على حساب الغابات بسبب تغيُّر المناخ. كانت هذه السلالات أفضل من فصائل القرديات -أي القردة والقردة الكبيرة- في مواجهة الظروف الجديدة، وكانت بعضها تمشي منتصبة وتستطيع الجري بصورة لا تقدر عليها القرود. من هذه السلالات نشأ الخط التطوري المسمى «البشريات». وتشير بقايا المستحاثات إلى إمكانية تمييز كائنات عاشت بين ثلاثة إلى أربعة ملايين سنة مضت يمكن اعتبارها من بين «أجدادنا»،

وتوجد أولى آثارها في جنوب أفريقيا وشرقها. لقد جرت في تنــزانيا الحالية في موقع يدعى ممر أولدُڤاي اكتشافات في خمسينيات القرن العشرين قلبت الأفكار التي كانت سائدة قبلها حول أصول البشر رأسًا على عقب. وطوال الأربعين عامًا التالية راحت اكتشافات العلماء الجديدة توسع المجال الزمني الذي يدور فيه الجدل حول أصول الإنسان. صحيح أن اكتشافات أخرى هامة قد حدثت في أفريقيا بعدها، وأن الاستنتاجات الأولى صارت -الآن- موضع تساؤلات كثيرة، إلا أن البقايا التي وجدت في ممر أولدَڤاي ما زالت أفضل نقطة بداية لسرد ما نعرفه.

لم تبدُ تلك البقايا ذات أهمية كبيرة في البداية، فالبحث الطويل لم يعط إلا مجموعة من القطع المتفرقة التي يمكن أن تتسع لها طاولة واحدة كبيرة. لقد وجد أكثر من ألف سن وحوالي اثنتي عشرة جمجمة، أما من عظام الحوض فلم يكتشف إلا ثلاثة بالإضافة إلى لوح كتف واحد وعظام أخرى متفرقة. ولكن أهمية هذا الاكتشاف تكمن في أن هذه العظام كانت بقايا كائنات من نوع غير معروف سابقًا، سمي قرد الجنوب الأفريقي Australopithecus africanus ، وبدا أن عمر تلك البقايا بين مليونين وثلاثة ملايين سنة.

كان طول قرد الجنوب هذا حوالي أربعة أقدام(*)، وكان حوضه وساقاه وقدماه أقرب إلى البشر منها إلى القردة. أما جمجمته فكانت أشبه بالشكل القردي وتحمل دماغًا كبيرًا من حجم دماغ الغوريلا بالإضافة إلى فك ضخم. وكان طرفاه الأماميان ينتهيان بيدين حقيقيتين، ورؤوس أصابعه منبسطة النهايات مثل أصابع البشر. كما يمكننا استنتاج بعض الأمور عن سلوكه أيضًا، إذ تشير الأدلة إلى إقامته

(*) ١٢٠ سم تقريبًا

في المكان نفسه لفترات طويلة، ويعتقد بعض العلماء أن ممر أولدُڤاي يقدم أول دليل على قيام البشريات بعملية البناء، لأنهم وجدوا حاجزًا لاتقاء الريح مبنيًا من الحجارة. من المؤكد أن تلك الكائنات كانت من آكلات اللحم، إذ وجدت أيضًا عظام سحقت لاستخراج النقي منها والدماغ من الجماجم. وبما أنه لم تكن هناك نار لطهيها فلابد أنهم كانوا يأكلونها نيئة. كان هذا اللحم على الأرجح لحم جيف وجدوه أثناء بحثهم عن الطعام، ولكن تناول اللحم أمر ذو أهمية كبيرة، لأنه في الحقيقة طعام مركز، لذلك لا يحتاج من يتناوله إلى الأكل بشكل دائم أو متكرر. ومن ناحية أخرى يشكل تناول اللحم مشاكل تقنية، لأن سحق العظام وكشط الجلد واللحم لا يمكن أن تكون عملية سهلة بالنسبة لكائنات متحدِّرة من كائنات نباتية، وبالتالي ليست لها الأسنان والمخالب الحادة التي تملكها بعض الثدييات الأخرى. لقد كانوا إذًا بحاجة إلى مساعدة في حل هذه المشاكل، وربما كان في هذا الأمر تفسير لواحدة من أكثر الحقائق إثارة بين اكتشافات أولدڤاي، ألا وهي أن قرد الجنوب كان صانع أدوات.

الصفات البشرية

لقد دلت الحفريات على أن أنواعًا مختلفة من الحجر قد جلبت إلى أولدُڤاي بعد التقاطها في مكان آخر، أي أنها انتقيت من بين غيرها. وقد عولجت تلك الأحجار بأن نــزعت عنها رقائق من أجل الحصول على حد مسنن، فتحولت إلى سواطير فجة يمكن إمساكها باليد — وكانت تلك أول أدوات قاطعة صنعت بشكل مقصود- أي أن التقنية قد ابتدأت هنا منذ مليوني سنة. إن ممر أولدڤاي هو أول معلم في عملية صنع الأدوات، وهي عملية طويلة انتشرت ببطء في كافة أنحاء العالم. سوف تحسَّن تلك الأدوات ويكثر عددها بشكل كبير، ولكن الأدوات

الحجرية بقيت طوال القسم الأكبر مما قبل تاريخ البشر وطوال القسم الأكبر من حياة جنسنا نفسه أيضًا هي الأدوات الأساسية في معالجة البيئة.

ما زالت هناك أسئلة كثيرة معلقة فيما يخص مكتشفات أولدُفاي، وأهم تلك الأسئلة هو: هل كانت تلك الكائنات حقًا جزءًا من أجداد البشر أصلاً؟ إنها بالتأكيد بشريات، ولكنها ربما كانت تنتمي إلى سلالة غير التي تحدَّرنا منها نحن، أي أنهم، ربما، كانوا أولاد عمومة بعيدين لنا وليسوا أجدادًا مباشرين. صحيح أنهم يشتركون ببعض الصفات مع البشر اللاحقين -إلا أنهم في الوقت نفسه- يختلفون عنهم كثيرًا في شكل جمجمتهم مثلاً وفي قصر قامتهم. وإن بعض العلماء يقولون بوجود «جد» مشترك في سلسلة أخرى أقدم تحدَّر منها كل من البشر وقردة الجنوب. ولكن الموضوع الأهم هو: ما موقع قرد الجنوب على سلم التطور؟ هل هو شكل أولي من الكائنات البشرية؟ أو يمكننا أن نسأل السؤال نفسه بطريقة أخرى: أين ينتهي التاريخ الطبيعي ويبدأ ما قبل التاريخ؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة تعتمد على تعاريفنا أصلاً، لأن الجواب يعتمد على ما نختار أن نعتبره من جوهر الطبيعة البشرية.

قال البعض إن اللغة هي التي تميز البشر، ولكن الحقيقة أن هناك حيوانات أخرى تصدر أصواتًا مختلفة كإشارات كما تقوم بحركات يبدو أن لها معاني، فما هي النقطة التي يمكننا أن نعتبر عندها هذه الأشياء لغة؟ أما فيما يتعلق بعملية البناء فلا ننس أن النمل والنحل والطيور وحيوانات القندس قادرة عليها بشكل رائع. لقد اقترح بعضهم معيارًا آخر لتمييز البشر هو استخدام الأدوات، ولكن هذا الأمر أيضًا ليس محصورًا بالبشر وحدهم، فقد رأينا القردة تستخدم العصي لوكز أعشاش الحشرات، أو لمساعدتها في الوصول إلى أشياء بعيدة عن متناول يدها. إلا أن

الرئيسات العليا القليلة غير البشر التي وجد أنها تستخدم الأدوات إنما تستخدمها بطريقة بسيطة جدًا -كما تبين هذه الأمثلة- ويبدو أنها لا تصنع الأدوات بهدف معين من أجل الوصول إلى فائدة ما في المستقبل. فربما كان صنع الأدوات إذن معيارًا أفضل من استعمالها يميز البشر عن غيرهم من الكائنات. وإن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي نعلم أنه يفكرٌ بشكل واع في التغيرات الممكنة في بيئته وفي أساليب تحقيقها.

ثمة سبب يجعلنا نعتقد أن سكان موقع أولدُڤاي أولئك كانوا مختلفين عن غيرهم من الرئيسات. فلما كانت الأحجار وربما اللحم أيضًا تجلب من مناطق بعيدة نسبيًا، ولما كان جسم قرد الجنوب لا يسمح بتعلق صغاره بأمهم أثناء تنقُّلها مثل الرئيسات الأخرى على ما يبدو، فربما كان أولدڤاي أول مثال نعرفه عن كائنات لها بيت تأوي إليه. إن البشر وحدهم من بين الرئيسات لديهم أماكن تبقى فيها الإناث والصغار لفترات طويلة بينما يبحث الذكور عن الطعام ويحضرونه إليهم. ويوحي هذا بأمر آخر يتعلق بعقل قرد الجنوب: يبدو أن تلك الكائنات كانت قادرة على التفكير بما سيحدث ولو بشكل فظ ومبهم، وقادرة على مقاومة الرغبة بتقطيع طعامها وتناوله حيث تجده، وتبدي ما يكفي من السيطرة على النفس لكي تحمله إلى بيتها لاستهلاكه هناك. إن كبح الدوافع الطبيعية من أجل تأمين الرضى في المستقبل يكمن في أصل كل ما أنجزته البشرية، ويسمي علماء النفس هذه الآلية بعملية «النهي»، وهي البداية البعيدة للتخطيط الواعي.

إلا أن الاكتشافات التي حصلت- بعد ذلك- قد زادت الأمور تعقيدًا. إذ يبدو -الآن- أن قرد الجنوب قد وجد بأنواع عديدة، كما وجدت مؤخرًا في مكان آخر

من شرق أفريقيا أدلة على كائنات أخرى كانت تعيش في الزمان نفسه، وهي تبدو أقرب إلى البشر اللاحقين، أقله من الناحية الجسمانية. أي أن قردة الجنوب لم تكن البشريات الوحيدة في العالم منذ حوالى مليونين أو ثلاثة ملايين سنة. ولما كانت بعض تلك الكائنات الأخرى أشبه بالبشر من الناحية الجسدية فقد أطلق عليها اسم فصيلة Homo –وهي الكلمة اللاتينية التي تعني الإنسان– وقد وجدت بقايا بعضها –منذ سنوات قليلة– قرب بحيرة رودُلف[1] في كينيا، ويبدو أن طولها يبلغ حوالى خمسة أقدام[2]، وأن دماغها أكبر بمرتين تقريبًا من دماغ الشمبانـــزي الحالي.

ليس من السهل على غير المختص أن يجد طريقه بين أدلة ما زال الجدال محتدمًا حولها بين المختصين، ولا ننس أبدًا أننا في أكثر الحالات تحت رحمة ما حالفنا الحظ بإيجاده، فليس من الضروري أن يكون ما اكتشف في أولدُڤاي نموذجًا لبقية أنحاء العالم، أو حتى لشرق أفريقيا في حوالى عام ٢,٠٠٠,٠٠٠ ق.م – أي أن هذه الأشياء –ربما– لم تبق إلا بمحض الصدفة. وربما تبدلت الصورة إذا ما اكتشفت أدلة أخرى. ولكن مع هذا يبدو من المرجَّح أن يكون البحث عن أصول البشرية في أفريقيا، حيث كانت تعيش منذ –ثلاثة وربما أربعة ملايين سنة– كائنات تنتمي لأكثر من نوع واحد وتشبه البشر من بعض النواحي. ويبدو أن بعضها – وبالأخص قردة الجنوب – قد نجحت نجاحًا كبيرًا من الناحية البيولوجية، إذ تشير الأدلة إلى أنها كانت في حوالى عام ١,٠٠٠,٠٠٠ ق.م موجودة في كافة أنحاء العالم خارج الأمريكتين وأوستراليا.

---

(١) توركانا.

(٢) ١٥٠ سم تقريبًا.

الإنسان المنتصب

تزداد قصتنا تعقيدًا بسرعة بعد حوالى عام ٢,٠٠٠,٠٠٠ ق.م، إلا أن العلماء باتوا اليوم ماهرين في التمييز بين البشريات المختلفة. وما يهمنا بالنسبة لغرضنا هنا هو أن السلالة البيولوجية التي نشأ منها البشر كانت متفوقة في قدراها، ويدل على هذا استمرارها، فرغم تقلُّبات المناخ على مدى ملايين السنين أظهرت الأنواع ذات الصفات البشرية قدرة على البقاء والانتشار والتأقلم مع الظروف المتغيِّرة تفوق قدرة كائنات كثيرة، ولو بدت لنا ضعيفة التطور. صحيح أننا نتحدث عن تغيُّرات مناخية استغرقت عشرات الألوف من السنين، إلا أها كانت تغيُّرات سريعة بالقياس إلى الظروف الأكثر ثباتًا خلال ملايين السنين التي سبقتها. إن هذه التقلُّبات السريعة نسبيًا تشمل ما نسميه «العصور الجليدية»، التي استمر كل منها بين خمسين ومئة ألف سنة. خلال العصور الجليدية كانت مناطق شاسعة من نصف الكرة الشمالي مغطاة بألواح جليد هائلة - بما فيها قسم كبير من أوربا، وأمريكا حتى مدينة نيويورك الحالية جنوبًا- تزيد سماكتها أحيانًا عن الميل(*). وقد ميَّز العلماء -الآن- سبعة عشر أو تسعة عشر عصرًا جليديًا -ما زال الخلاف دائرًا حول عددها الدقيق- ابتدأ أولها منذ أكثر من ثلاثة ملايين عام، أما آخرها فقد انتهى منذ حوالى عشرة آلاف عام.

كان أثر عصور الجليد على الحياة والتطور أثرًا هائلاً، لأن امتداد الجليد البطيء كان حاسمًا وقد يكون أحيانًا كارثيًا على كل ما يقع في طريقه. ومازالت تضاريس طبيعتنا اليوم مشكّلة بفعل حت الجليد- منذ آلاف القرون- وعندما ذاب

(*) ١,٥ كم تقريبًا.

الجليد نتجت عنه فيضانات واسعة لا بد أن يكون لها فعل الكارثة محليّاً، لأنها خربت مواطن الكائنات التي تأقلمت مع تحدي الحياة القطبية. إلا أن ذوبان الجليد كان يحمل أيضًا فرصًا جديدة، لأن المناطق التي يكشفها بزواله تصبح مساكن لأنواع جديدة. وربما كان الأهم من ذلك في مجمل قصة التطور هو تتالي حدوث البرودة والدفء بصورة متكررة على بعد آلاف الأميال من الجليد نفسه. لقد ظهرت بيئات جديدة، وبدّل التجفاف وانتشار المناطق العشبية فرص عيش الأنواع الموجودة، والتي يشكل بعضها جزءًا من قصة تطور البشر. وكانت أفريقيا بعيدة عن أكبر حقول الجليد.

ما زال المناخ بالطبع مهمًا جدًا في أيامنا أحيانًا، ولكن بشكل محلّيْ وعلى مدى أقصر بكثير من الماضي، فهو لم يعد يحدد أماكن بقاء البشر بشكل مطلق. أما في عصور ما قبل التاريخ فقد كان المناخ هو الذي يحدد ذلك، و لم يتمكن البشر من التغلب عليه إلا بصفات جسدية وعقلية اكتسبوها ببطء. كانت بعض سلالات البشريات أقدر من غيرها على التعامل مع الطبيعة والتحكم بها إلى حد ما. ولنعد إلى موضوع إصبع الإبهام عند البشر، الذي ذكرنا سابقًا أصوله البعيدة. كثيرًا ما تغيب عن بالنا فائدة إصبع الإبهام هذا وأهميته الكبيرتان: إن تقريبه من السبابة يسمح لنا بالتقاط الأشياء الصغيرة، كما يمكننا أن نلفه حول جذع سلاح أو أداة لكي نحكم قبضتنا عليها، وهو يُسَهلُ كثيرًا عملية صنع الأدوات -عدا عن عزف البيانو ورسم اللوحات وممارسة الرياضة بالطبع- إلا أن الناحية الحاسمة في تفوق البشر على غيرهم من الحيوانات كانت على الأرجح كبر حجم دماغهم، وربما كان هذا هو ما سمح لبعض البشريات بالتفكير في الغد. لقد تضافر هذا العامل مع وجود بيت تأوي إليه البشريات فجعلا بقاءها أسهل. إن صغار البشريات بحاجة إلى

زمن طويل لكي ينموا، ولا بد أن تكون القدرة على التفكير مع وجود بيت يلجؤون إليه قد سهلت نموهم حتى يصبحوا بالغين ويربوا صغارًا بدورهم. كما أن البيت قد مكّنَ من الراحة والتعافي من الأمراض والحوادث. وكيفما جرت تلك الأمور فإن النتيجة النهائية واضحة: فقد اختيرت الأنواع ذوات الصفات الأكثر «بشرية» رويدًا رويدًا من آلية الاصطفاء الطبيعي القاسية. كانت الطبيعة -حتى ذلك الحين- قد عملت على إزالة السلالات الجينية العاجزة عن التأقلم الجسدي مع تحديات البيئة، ولكن عندما تسلّحت بعضها بالحذر وبعد النظر والمهارة صار بإمكانها أن تتجنب الكوارث وصارت هناك قوة جديدة في عملية الاصطفاء — وهي تشبه كثيرًا ما نسميه الذكاء البشري- فعند هذا المنعطف نبدأ البحث عن المحطة التي نزلنا منها إلى البشرية. وتقدم تلك القوة العلامات الأولى على ذلك التأثير الإيجابي والواعي على البيئة، والذي يدل على أبكر إنجازات البشر.

إلا أن هذه الأفكار كلها تبقى ضربًا من التخمين، ولا يجوز أن ننسى أبدًا أن معلوماتنا عن قسم كبير مما قبل التاريخ هي معلومات زهيدة للغاية، فأوربا مثلاً لا تحوي إلا كهفًا واحدًا وجدت فيه أدوات تشبه أدوات قرد الجنوب في أفريقيا، ولا يزيد عمرها عن المليون سنة إلا قليلاً.

بعد ذلك الزمان بمرحلة طويلة نجد أدلة على خطوة أخرى هامة في التطور البشري. فقد ظهر كائن ذو نمط جسماني جديد في حوالى عام ٨٠٠,٠٠٠ ق.م، ثم انتشر رويدًا رويدًا في كافة أنحاء «العالم القديم» (أي برّ أفريقيا وأوربا وآسيا، التي انفصلت الآن عن الأمريكتين وعن جزر جنوب شرقي آسيا) بحلول عام ٢٥٠,٠٠٠ ق.م تقريبًا. تدعى الأشكال الأبكر من هذا الكائن «الإنسان الماهر»، وقد دعيت تطورات لاحقة إلى نوع آخر بـــ «الإنسان المنتصب».

إن الفرق الحاسم بين الإنسان المنتصب والكائنات الأسبق الشبيهة بالإنسان هو في الحجم، وخصوصًا حجم الدماغ. فقد طورت إحدى السلالات دماغًا أكبر بمرتين تقريبًا من دماغ قرد الجنوب، وأقرب بكثير إلى الإنسان الحديث من دماغ أي من البشريات الأسبق. وكانت هناك كائنات أخرى شبيهة بالإنسان وذوات دماغ كبير، وجدت أجزاء بعضها في أماكن بعيدة مثل الصين وجاوه(*)، ولكن يبدو أن الإنسان المنتصب قد نشأ في أفريقيا ثم انتشر إلى أوربا والقسم الأكبر من آسيا. وقد حاول العلماء أن يقيسوا الفترة التي استغرقها هذا الانتشار، وتقول إحدى النظريات إنها دامت ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، كان ينتشر فيها بمعدل ميل واحد(**) في العام باتجاه الشمال عبر الصحراء الكبرى الحالية والشرق الأدنى إلى فرنسا. ورغم أنه لم يترك مستحاثات له في أوربا فإنه قد استمر فترة أطول بحوالى عشر مرات من فترة وجود البشر كما نعرفها. ويمكننا تقصّي أثره من خلال أدوات خاصة كان يستخدمها، أهمها الأداة الحجرية المسماة بـــ«الفأس اليدوية». وقد دلت أماكن اكتشاف هذه الأداة العلماء على الأماكن التي سكنها الإنسان المنتصب وازدهر فيها.

الصيد

بالرغم من الفجوات الهائلة في معرفتنا بالإنسان المنتصب فإننا نعلم أنه كان نوعًا ناجحًا جدًا. ولكن كيف حصل على هذا الدماغ الكبير؟ ما زال هذا الأمر غامضًا، ولكن الأرجح أن يكون تبدل الغذاء هو سبب ظهور هذا النمط الجسماني

(*) جزيرة في إندونيسيا

(**) ١,٥ كم تقريبًا

الجديد، إذ يبدو أن تناول كمية أكبر من اللحم قد ساعد الكائنات ذوات القوام الأكبر من المتوسط على البقاء والتكاثر. وربما كان لهذا الأمر علاقة بظهور أول مهارة متخصصة، أي مهارة الصيد.

يبدو أن اللواحم الأولى كانت تعتمد إما على الفرائس الصغيرة مثل الزواحف والقوارض، أو أنها كانت تأكل جيف حيوانات أكبر بعد موتها. تجد في أولدُفاي عند بداية سجل المستحاثات فيلاً -وربما- زرافات وجواميس أُكل لحمها، أما بعد هذا التاريخ فيغلب وجود عظام حيوانات أصغر بين الفضلات ولزمن طويل. ولكن العيش على بقايا حيوانات ميتة لا يمكن أن يكون طريقة يُتكل عليها، بل لا بد أن يكون قد تحول إلى صيد حقيقي – وصيد حيوانات كبيرة أيضًا – ولو ببطء شديد، ولقد كان هذا التحول ذا نتائج عظيمة جدًا. يلاحظ بين بقايا أطعمة تلك الكائنات ازدياد حجم الحيوانات المأكولة، ويقابله نمو في حجم جماجم الكائنات التي تقتات عليها. في حوالى عام ٣٠٠,٠٠٠ ق.م كانت الأفيال تقتل وتقطّع بنفس المكان، وقد وجدت بقايا أعداد كبيرة منها -بينها موقع فيه حوالى الخمسين- وخلال هذه الفترة نفسها -وحتى أزمنة لاحقة أيضًا- تطورت أشكال أسنان وأفكاك تلك الكائنات الشبيهة بالإنسان رويدًا رويدًا مبتعدة عن الأشكال المميزة لآكلات النباتات. ولا يمكن تمييز السبب عن النتيجة في هذا التطور، لأن الصيد المنظّم الذي يسمح بتناول اللحم لا يمكن أن تقوم به إلا كائنات أحرزت بالأصل من التطور ما يمكّنها من القيام بهذه العملية المعقدة. ويدل هذا الأمر من جديد على تسارع عملية التطور. لقد ظهر بين عامي ١,٠٠٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ ق.م مجال هائل من القدرات والمهارات الجديدة، وهي التي مكّنَتْ من نشوء المجتمعات البشرية الأولى.

قبضة جديدة على العالم

قبل أن يصبح صيد الحيوانات الكبيرة ممكنًا كان يجب أن يُعرَف الكثير عن عاداها، وأن يمكن نقل هذه المعرفة إلى الآخرين المشاركين في مغامرة الصيد التعاونية، ومن جيل إلى جيل أيضًا. فلا بد أن يكون إذًا ثمة نوع من أنواع الكلام. يقول بعضهم إن الاصطفاء الجيني الذي أدى إلى تغيُّرات شكل الدماغ قد ساعد أيضًا في تطور اللغة. قد لا يُعرف أبدًا كيف كانت قردة الجنوب تتفاهم فيما بينها، ولكننا نعلم أن رئيسات أقل تطورًا منها تملك طرقًا للتفاهم. ربما كانت الخطوات الأولى في تنظيم اللغة هي تقطيع نداءات تشبه نداءات الحيوانات الأخرى إلى أصوات متميزة يمكن إعادة ترتيبها، بحيث يمكن إيصال رسائل مختلفة. وربما كانت هناك تطورات أخرى مساعدة أيضًا، لأن البصر كان يتحسن، وكذلك الإحساس بالعالم كمجموعة كبيرة من الأشياء المنفصلة، وصناعة الأشياء الجديدة -الأدوات- هذه كلها كانت تحدث بشكل متزامن مع تطور اللغة على مدى مئات الآلاف من السنين. إن تضافر هذه العوامل معًا هو الذي مكَّن من ظهور التفكير المجرد -أي التفكير بأشياء ليس لها وجود ملموس- ولا بد أن يكون الصيد قد عزَّز هذا التطوُّر لأنه زاد من أهمية حفظ المعلومات وتذكُّرها.

يحتاج الصيد أيضًا إلى مجال واسع من التقنيات والمهارات، لأن الإيقاع بحيوانات عملاقة مثل الماموث ووحيد القرن الصوفي وقتلها باستخدام أسلحة من الحجر والخشب فقط هو في الحقيقة أمر في غاية الصعوبة، ولا بد من الكثرة والتنظيم من أجل دفع الحيوان إلى مكان مناسب لقتله، مثل وجود مستنقع يتخبَّط فيه، أو نقاط إشراف جيدة وآمنة للصيادين. وحتى بعد موته تبقى مشاكل تقطيعه بتلك الأدوات الخشبية والحجرية ثم نقل اللحم إلى البيت.

كان وجود كميات أكبر من اللحم خطوة صغيرة جدًا نحو توفر- بعض وقت الفراغ- لأنه يحرر آكليه -بشكل مؤقّت- من عناء التنبيش الدائم عن كميات زهيدة من الطعام ولو كانت متوفرة دومًا، ويتيح لهم الوقت لفعل أشياء أخرى، فيمكنهم عندئذ أن يضيفوا شيئًا ما إلى التقنية الموجودة. لقد حسن الإنسان المنتصب الفؤوس اليدوية ذوات الوجهين، كما خلّف أولى الأدلة الأكيدة على بناء المساكن، وأول خشب مشغول، وأول رمح خشبي، وأول وعاء وهو طاسة خشبية. إن اختراع أشياء على هذا المستوى يدل على سرعة في التطور وقدرة مختلفة تمامًا عما كان موجودًا من قبل. كان العقل يشكّل أفكارًا عن الأشياء قبل البدء بصنعها، بل يقول بعضهم إن الأشكال البسيطة -من مثلثات وأشكال إهليلجيَّة وبيضويَّة- والمستخدمة على أعداد هائلة من الأدوات الحجرية يمكن اعتبارها البدايات الأولى للفن - أي إنتاج أشياء تسر بشكلها عدا عن فائدتها.

قدوم النار

إن أعظم التطورات التقنيَّة والثقافيَّة للإنسان المنتصب إنما هو تعلم تدبير النار. وتجد أول دليل على استخدام النار في الصين (في حوالى عام ٦٠٠,٠٠٠ ق.م)، ولكنه لا يدل على وجود القدرة على توليدها، ويُرجَّح ألا يكون الإنسان المنتصب قد توصل إلى توليد النار قط. بالرغم من هذا تبقى قدرته على استخدامها مكسبًا هائلاً، بل أهم تغيُّر مفرد في التقنية قبل قدوم الزراعة. وقد كان ذلك أول استغلال كيميائي للطاقة بطريقة مختلفة عن عملية تحويل الطعام داخل الجسم.

تجد عند كثير من الشعوب أساطير عن أبطال أو حيوانات سحرية استولت على النار للمرة الأولى من الآلهة عادة، وربما كان هذا انعكاسًا لذكرى بعيدة عن

أن النار الأولى قد أُخذت من مصدر طبيعي، مثل نشاط البراكين أو اندفاعات الغاز الطبيعي أو حرائق الغابات. كان استخدام النار على كل حال عملية ثورية – ولكن لا ننس أنها استغرقت مئات الألوف من السنين لكي تظهر تأثيرها الكامل. من النتائج المباشرة للنار أنها أمَّنتْ الدفء والنور والانتصار على البرد والعتمة، فضمنت بالتالي امتداد بيئة حياة الإنسان إلى الأماكن الباردة والمعتمة، ولو بصورة ضئيلة في البداية. لقد صارت العائلات قادرة على العيش في مناطق أبرد من ذي قبل، كما سهَّلت قليلاً حياتها في المناطق المعتدلة، وسمحت بسكن الكهوف المعتمة وبالتالي بوقاية أفضل من الطقس، كما صار بالإمكان طرد الحيوانات من ملاجئها وإبقاؤها خارجًا –وربما نشأت من هنا فكرة استخدام النار لملاحقة الحيوانات الكبيرة في الصيد– ثم إن النار قد مكَّنت أيضًا من تقسية الرماح الخشبية ومن الطبخ، فصار تناول الطعام أسهل. إن امتصاص النقي من العظام أمر ممكن إذا كانت مطبوخة، ولكن استخراجه منها نيئًا عملية شاقة جدًا. لهذا ترى الجِبَّوْن والغوريلا يقضيان جزءًا كبيرًا من وقتهما في مضغ الطعام النيء، بينما يوفر الطبخ الوقت لأن الطعام لا يحتاج عندئذ إلى المضغ الطويل، فيفسح المجال لفعل أشياء أخرى. والأهم من هذا أن الطبخ يمكّن من تناول مواد لا تهضم بشكلها النيء، ونباتات كريهة أو مرة الطعم. ولا بد أن يكون هذا قد زاد من موارد الطعام –وسَهَّل بالتالي نمو عدد السكان قليلاً– –وربما– حَفَّزَ الانتباه أيضًا إلى تنوع الحياة النباتية وتوفرها، فكان بداية علم النبات وفن الطبخ. وأخيرًا فإن تناول الطعام المطهي قد ساهم على المدى الطويل في تغيير شكل الوجه والأسنان.

وربما ساهم الطبخ أيضًا في كبح الدوافع الآنيَّة، لأن تأجيل الأكل يمنع إشباع الشهية الآني بابتلاع الطعام نيِّئًا. وإن وجود نار الطبخ كبؤرة للضوء والدفء يلم

الناس من حوله بعد حلول الظلام، ويزيد من وعي المجموعة لنفسها كجماعة مشتركة. ولا بد أن يتكلموا -فيما بينهم بشكل ما- فيتسارع تطوُّر اللغة، ولا نعرف عن أصولها إلا القليل. وأخيرًا سبَّبت النار تمايزات جديدة بين أفراد الجماعة، إذ ظهر في وقت من الأوقات حملة النار والمختصون بها، وهم أفراد ذوو أهمية مهيبة وسريَّة، لأن حياة بقية الجماعة وموتها قد يعتمدان عليهم. كان هؤلاء يحملون الأداة المحررة العظيمة ويحرسونها، ويتحكّمون بقدرتها من أجل تحطيم الإيقاع القاسي لليل والنهار بل للفصول أيضًا.

ترى إذن أن النار خلال عصر الإنسان المنتصب كانت قد خففت قليلاً من ضغوط الإيقاعات الخارجية الكبرى لعالم الطبيعة على حياة البشريات، فصارت الحياة -الآن- أقل روتينية وآلية مما كانت عليه عند قرد الجنوب، وباتت بعيدة جدًا عن حياة الحيوانات التي لا يحكم سلوكها إلا ما وهبتها الطبيعة من غرائز وجينات. لقد كان بإمكان الإنسان المنتصب أن يختار، وهذه هي خير حجة تسمح لنا أن نقول إن هذا النوع كان أقرب إلى الإنسان كيفما رُسمت الحدود بين القردة والبشر، ومهما بدت حياته مقيّدة وتعيسة.

المجتمع الباكر

إن تشكيل صورة عن الظروف المادية للحياة قديمًا أسهل من تشكيل صورة عما كان يدور داخل الأدمغة الأكبر التي كانت تصارع تلك الظروف، وليس لنا إلا أن نتأمل بقاياها المادية علّها تخبرنا بشيء عن ذلك. ومن المفيد هنا أن نعود للتفكير بصيد الطرائد الكبيرة. ما إن صار الإنسان المنتصب معتمدًا على اللحم حتى أمسى طفيليًا على قطعان الطرائد - فبات مضطرًا للحاق بها حيثما ذهبت، أو

استكشاف أراض جديدة بحثًا عنها - وصار أكثر قابلية للاستقرار والتكاثر في بعض الأماكن منه في بعضها الآخر. هناك كان يؤسس له بيوتًا يأوي إليها، ويبدو أن بعضها قد ظل مسكونًا طوال آلاف وآلاف السنين.

وكانت العائلة المقيمة في البيت تتطور أيضًا، لأن وجود ذلك المأوى قد جعل تطور العائلة البشرية مختلفًا جدًا عن عائلات الحيوانات. وازداد التباين بينهما مع ازدياد حجم أسلاف الإنسان العاقل، لأن زيادة حجم الدماغ تعني بالضرورة زيادة حجم الرأس، وبالتالي زيادة حجم الجنين قبل الولادة - وقد انعكس هذا الأمر في تغيرات في حوض الأنثى سمحت بولادة صغار ذوي رؤوس أكبر - كما اقتضى استطالة فترة النمو بعد الولادة حتى يبلغ الأطفال سن النضج. ولم يكن بإمكان جسم الأنثى أن يتطور فيزيولوجيًا بحيث يحتضن الطفل حتى نضجه الجسماني قبل ولادته، لذلك يحتاج أطفال البشر إلى عناية طويلة من الأم بعد الولادة، بعكس أطفال أكثر الثدييات التي تنضج صغارها خلال أشهر قليلة. إن استطالة فترة الطفولة واعتماد الأطفال على دعم أسرهم ومجتمعهم قبل نضجهم اقتضيا أن تتطور عائلة البشر بشكل مختلف كل الاختلاف عن عائلات الحيوانات الأخرى. وقد لعب الاصطفاء الجيني هنا دورًا أيضًا، إذ لم تعد كثرة عدد الصغار طريقة لضمان بقاء النوع، بل تعلّمت المجتمعات البشرية أن تعطي عناية أكثر وأطول لحماية صغارها وتربيتهم وتدريبهم -وكثيرًا ما تمتد هذه العناية في أيامنا حتى العشرينيات- وظهرت أيضًا فروق أشد بين أنماط حياة الذكور والإناث، فصارت أمهات البشريات أكثر تقيُّدًا بكثير من أمهات الرئيسات الأخرى، بينما بات الآباء أكثر انشغالاً بتأمين الطعام عن طريق الصيد، الذي يتطلب نشاطًا شاقًا وطويلاً يصعب على الإناث المشاركة فيه.

من النتائج الأخرى لاستطالة فترة الطفولة أن التعلم والذاكرة قد صارا أكثر فأكثر أهمية. ويبدو أن الإنسان المنتصب قد عبر خطًا هامًا من هذه الناحية أيضًا، إذ زال السلوك المبرمج بالجينات عند أسلاف البشر، ليحل محله التعلُّم الواعي حول البيئة والتفكير فيها. وقد حدث تغيُّر كبير حلَّت فيه التقاليد والثقافة - أي الأشياء التي يتعلمها أفراد جماعة ما بعضهم من بعض - محل الميراث الفيزيولوجي كعامل في الاصطفاء التطوُّري، ولو أننا قد لا نعلم أبدًا متى حدث هذا التغيُّر بالضبط.

إلا أن الميراث الفيزيولوجي ما زال هامًا جدًا بالطبع. فقد كانت هناك مثلاً صفة جنسية فريدة حصلت عليها إحدى السلالات الجينية في زمن بعيد جدًا، وكان لها تأثير كبير على شكل المجتمع البشري في المستقبل. عند جميع الثدييات الأخرى تكون جاذبية الأنثى للذكر وخصوبتها أيضًا محصورتين بفترات معينة من التهيُّج الجنسي، تتعرَّض حياتها خلالها إلى اضطراب شديد، فلو كانت مضطرة فيها للعناية بصغارها لما استطاعت الاستمرار بتربيتها. أما إناث البشر فليس لديهن هذه الدورة، ولهذا الأمر أهمية كبيرة، لأنهن لو كن مثل غيرهن من الحيوانات لتعرَّض صغارهن إلى فترات طويلة من الإهمال خلال نضجها البطيء في الطفولة، ولصار من الصعب عليها أن تستمر في الحياة. تسمى هذه الدورة «الدورة النــزوية»، وربما احتاج ظهور سلالة جينية متحررة منها حوالى مليون سنة، ولكنها عندما ظهرت كانت نتائجها على مستقبل تطور البشرية هائلة، وسوف تؤثر في نواح كثيرة من طريقة حياتنا نعتبرها اليوم عادية. كانت إناث البشر إذن يجتذبن الذكور بشكل دائم -ولم يكن ذلك محصورًا بفترات يخضع كلا الجنسين فيها لآليات أوتوماتيكية من الانجذاب- ولا بد أن يكون هذا الأمر قد جعل الخيار الفردي عاملاً أهم بكثير في التزاوج. كانت تلك بداية طريق غامضة وطويلة جدًا سوف

تؤدي إلى مفاهيم الحب الجنسي فيما بعد. وهي تتضافر مع الطفولة الطويلة والاعتماد المتزايد الناتج عن تحسُّن عملية جمع الطعام، لكي تسير باتجاه الوحدة العائلية البشرية الثابتة والمستمرة - المؤلفة من الأب والأم وذريتهما - الذين يقون معًا ويشكّلون جماعة مشتركة حقيقية. إن هذه المؤسسة لا توجد إلا عند البشر، ولو أن عائلات البشر ليست كلّها على هذه الصورة، كما أن الترتيبات الاجتماعية الحديثة كثيرًا ما تنتقص منها.

ومن جديد نجد أنفسنا تحت رحمة التخمين، ويجدر بنا أن نكون حذرين جدًا. إن الأشياء الأكيدة التي نستطيع معرفتها عن الحياة الاجتماعية لأسلافنا قليلة جدًا، ولكننّا نشعر -في الوقت نفسه- أن ما حدث للبشريّات الباكرة -مهما كان بطيئًا- قد وضع الخطوط الأساسية لقسط كبير من حياة البشر قبل وجود أناس مثلنا بزمن طويل. لقد أخذت الثقافة والتقاليد رويدًا رويدًا دور الطفرات الجينية والاصطفاء الطبيعي كمصدر أساسي للتغير بين البشريات - أو يمكننا أن نقول إن التعليم قد صار يمثل أهمية الميراث البيولوجي من أجل البقاء- فالجماعات التي استطاعت تذكُّر الطرق الفعَّالة في أداء الأمور والتفكير فيها بأفضل من غيرها قد حملت تطور البشرية إلى الأمام بشكل أسرع. وقد جرت محاولات لتتبُّع ذلك في التطوُّر الفيزيولوجي لقشرة المخ، أي كتلة الخلايا التي تكوِّن الدماغ نفسه.

ولكننا عندما نحاول التفكير بالعمليَّات الذهنيَّة في مرحلة ما قبل التاريخ فإن الشيء الوحيد الذي نعلمه بشكل أكيد هو أنها كانت بعيدة كل البعد عن عمل أذهاننا. وكل ما يمكننا أن نقوله هو أن حياة الإنسان المنتصب تبدو أقرب إلى حياة البشر منها إلى أسلاف البشر. فمن الناحية الجسدية كان حجم دماغه على مستوى يقارب حجم دماغنا نحن، ولو أن شكل جمجمته مختلف عنا بعض الشيء. كما أنه

يصنع الأدوات بأساليب تختلف من مكان لآخر، ويبني الملاجئ ويحتمي في المخابئ الطبيعية باستخدام النار، ثم ينطلق منها ليصطاد ويجمع الطعام. وهو يقوم بهذا كله في جماعات على درجة من التنظيم وقادرة على نقل الأفكار عبر الكلام، ومبنيَّة على أساس وجود بيت وتمييز بين نشاطات الذكور والإناث. بل ربما كانت هناك تخصصات أخرى أيضًا، لأن حملة النار والأفراد الأكبر سنًا الذين تختزن ذاكرهم خبرة «مجتمعاهم» كانوا يعتمدون في معيشتهم على جهد الآخرين إلى حد ما.

من العبث أن نحاول البحث عن خط فاصل في مرحلة ما قبل التاريخ، إذ ليس ثمة دليل على شيء من هذا القبيل، وكل ما يمكننا أن نقوله بثقة هو أن الأمور قد سارت باتجاه معين. وعندما تطور أخيرًا نوع فرعي أو أكثر من الإنسان المنتصب إلى نمط جسماني جديد هو الإنسان العاقل، كان يملك في حوزته إنجازًا وميراثًا كبيرين. إن الأفراد يأتون إلى العالم عراة، أما البشرية فلم تأت عارية، بل إنها قد حملت معها من الماضي كل ما يجعلها بشرية.

الإنسان العاقل

إذا نظرنا إلى العمر الذي عاشه نوعنا، أي الإنسان العاقل-حتى الآن- بالقياس إلى طول الأزمنة قبل التاريخية وجدناه عمرًا قصيرًا، فالإنسان المنتصب قد عاش على الأرض واستغلها بنجاح لفترة أطول منا بحوالى عشر مرات. ولكن كما قلنا في السابق لا توجد خطوط فاصلة واضحة، ولا بد أن تكون أنواع مختلفة وكثيرة من البشريات قد عاشت على الأرض طوال آلاف السنين وبصورة متداخلة، بحيث عاصرت الأجيال الأخيرة من بعض فصائلها الأجيال الأولى من فصائل أخرى. وهذا واحد من الأسباب التي تجعل من الصعب تحديد زمان ظهور

النوع التالي الهام من البشريات، وكل ما يمكننا أن نقوله هو أنه ازدهر بين عامي ٢٥٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ قبل الميلاد، وكان في هذا التاريخ الأخير على وشك أن يفسح المجال لكائنات بشرية تشبهنا بشكل أوضح.

النياندرتاليون

تبدأ القصة باكتشاف جمجمتين في أوربا عمرهما حوالى ربع مليون سنة. كان شكل هاتين الجمجمتين مختلفًا عن جمجمة الإنسان المنتصب، كما كان دماغهما أكبر منه، ولكنهما لا تشبهان جمجمة البشر الحديثين كثيرًا، وكل ما تدلاننا عليه هو وجود شيء مختلف عن الإنسان المنتصب. بعد ذلك يحل عصر جليدي جديد ويسدل الستار، فتختفي بقاياه وبقايا البشريات إلى أن تعود المستحاثات لتظهر منذ حوالى عام ١٠٠,٠٠٠ ق.م، أي في منتصف المرحلة الدافئة التالية. تدل هذه الآثار الجديدة على قطع خطوة كبيرة نحو الأمام، لأنها أول أثر ضمن فصيلة الإنسان على النوع المسمى الإنسان العاقل. ويسمى هذا النوع تحديدًا الإنسان العاقل النياندرتالي، على اسم المكان الذي اكتشفت فيه أول جمجمة تنبئ بوجوده — أي وادي نياندرتال في ألمانيا، غير البعيد عن دوسلدورف. كان شكل النياندرتاليين مختلفًا بعض الشيء عن شكل أكثر البشر الحديثين، إذ كانت ذقنهم صغيرة جدًا وكانوا ذوي بنية غليظة جدًا، والحقيقة أن شكل أول جمجمة وجدت كان غريبًا إلى حد أن بعض العلماء حسبوها جمجمة إنسان حديث متخلف عقليًا. ولكن ربما كان بعض البشر الحديثين يشبهون النياندرتاليين قليلاً، فلا داعي إذًا للمبالغة بالفروق بيننا وبينهم، كما أننا نعلم أنهم كانوا يستخدمون اليد اليمنى مثل

أكثر البشر الحديثين، أي أن نقاط التشابه بيننا عميقة. إن الفرق الحاسم الذي يميز النياندرتاليين عن البشريات الأبكر إنما هو حجم دماغهم الأكبر.

ولما كان من الصعب ربط النياندرتاليين بالبشريات الأسبق فقد مال البعض في البداية إلى الظن أنهم انفصلوا عنها لسبب ما، ربما بسبب الجليد. ولكن مع تزايد المعلومات بات من الواضح أنهم كانوا منتشرين انتشارًا واسعًا جدًا، من أوربا الغربية والمغرب حتى الصين، وكانت لهم مستوطنات غيرها في الشرق الأدنى والعراق وإيران. والحقيقة أن أبكر إنسان نياندرتالي في الصين قد يعود إلى عام ٢٠٠,٠٠٠ ق.م. من المؤكد على كل حال أنهم كانوا يعيشون في قسم كبير من أوربا وآسيا في حوالى عام ٨٠,٠٠٠ ق.م، أي مباشرة قبل بداية عصر جليدي آخر -هو من أسوأها- صحيح أن شكل النياندرتاليين يبدو لنا بدائيًا، إلا أنهم كانوا في الحقيقة على درجة كبيرة من النجاح، وأكثر قدرة وتطورًا ذهنيًا من أي كائن ظهر على الأرض قبلهم. وعندما عاد الجليد لم يتجهوا إلى الجنوب، بل بذلوا قصارى جهدهم للتعايش مع البرد، فانتقلوا إلى الكهوف بحثًا عن الحماية، واستخدموا النار التي كانوا يبقونها مشتعلة في حفر جعلوها بأرض كهوفهم تلك. ولا يمكن لحياة الكهوف أن تكون مريحة، فالنار تملؤها بالدخان -كانوا على الأرجح يحرقون دهن الحيوانات وعظامها لأن الخشب ازداد ندرة في سهول التَّنْدرة الجديدة الناتجة عن الجليد- عدا عن الرائحة الكريهة المنبعثة من الفضلات على الأرض، والرطوبة الكامنة في أعماقها حيث لا تصل حرارة النار. إلا أن الكهوف قد سهَّلت بقاءهم، وكانوا في جميع الحالات تقريبًا يختارونها متجهة نحو الجنوب

لكي يضمنوا أكبر قدر ممكن من أشعة الشمس، وربما غطوا مداخلها بستائر من الجلد في أشهر الشتاء.

لقد كان هذا استخدامًا للتقنية بطريقة جديدة. كان النياندرتاليون يرتدون الجلود أيضًا، وكانت أدواتهم الحجرية أفضل شكلاً من أدوات أسلافهم. ويوحي تزايد سلطتهم على الطبيعة بأنهم كانوا يملكون لغات معقدة، ولو أن بعض العلماء يقولون إن جماجمهم توحي بأن أجزاء الدماغ التي تعالج الكلام كانت أقل تطورًا من الأجزاء الأخرى. ومع هذا فلا بد أنهم كانوا يملكون بعض الأفكار المتقدمة جدًا – وبالتالي الكلمات اللازمة للتعبير عنها، لأنهم أيضًا كانوا يمارسون أمرًا جديدًا كل الجدة: لقد كانوا يدفنون موتاهم. تدل بعض قبور النياندرتاليين على عناية كبيرة بالدفن، فقد وجد قرب سمرقند مثلاً جسم طفل نياندرتالي دفن ضمن حلقة من قرون الحيوان، بينما تجد في العراق قبرًا آخر يضم جسد رجل محاط بأكداس من الأزهار والأعشاب البرية وضعت في القبر قبل دفنه. إن هذه الأمور مهمة، لأنها أولاً أقدم حالة تمكِّننا من معرفة حقائق عن الماضي من خلال القبور – وكثيرًا ما تعطينا القبور معلومات غنية– كما أنها من ناحية أخرى تدل على تغيُّر هائل في التفكير، فلماذا كان النياندرتاليون يدفنون موتاهم؟

إننا لا نملك الجواب الدقيق، ولن نعرفه على الأرجح، ولكن ربما كان بعض النياندرتاليين قد بدؤوا بتجريب الطقوس، فربما كانوا يحاولون التحكم بالطبيعة عبر القيام بأفعال معينة من أجل إحداث أشياء ما، بل ربما كانت عمليات الدفن هذه والآثار الضئيلة لطقوس متعلقة بالحيوانات في مواقع أخرى لهم علامات على بدايات الدين. وربما كان بعضهم قد بدأ يؤمن بعالم آخر، غير منظور ولكنه قوي، بل ربما

كانت الحياة بعد الموت ممكنة فيه. إننا لا نعلم الحقيقة، إلا أن التأمل في هذا الموضوع يبين بصورة واضحة أن النياندرتاليين قد بلغوا مستوى جديدًا من العقل. إن العلامات الجديدة، مثل حجم جمجمتهم ودماغهم الكبير، تدل على أنهم كانوا بشرًا يستطيعون بطريقة ما أن يفكروا بشكل مجرد - كما نفعل نحن- كانت مواردهم العقلية على مستوى جديد مكّنهم من مواجهة تحديات آخر العصور الجليدية، فتأقلموا معها بنجاح وعاشوا ردحًا طويلاً ضمن الحقبة الباردة. لقد عاشوا على الأرجح إلى جانب سلالات بشرية أخرى، وربما تزاوجوا معها أحيانًا، وربما تنازعوا معها، إلا أنهم في النهاية قد هُزموا من الناحية الجينية.

وحل محلهم فرع من الفصيلة ننتمي إليه نحن، ألا وهو الإنسان العاقل العاقل. ويبدو أن هذا الفرع الجديد قد نشأ بشكل منفصل عن النياندرتاليين، وأنه يمثل خطًا مختلفًا من تحدُّر البشريات، خطًا ذا جماجم أخف ووجوه أصغر وأطراف أكثر استقامة. وتجد أقدم أفراد هذا النوع في شرق المتوسط(*) والشرق الأدنى والبلقان بين عامي ٥٠,٠٠٠ و٤٠,٠٠٠ ق.م، وربما تقدموا نحو الشمال والغرب مع انحسار الجليد. في التاريخ الأخير كانوا قد ثبّتوا أقدامهم في غرب أوربا -حيث يسمى الإنسان العاقل أحيانًا «إنسان كرومانيون»- ويبدو أن وصولهم إلى الشرق الأقصى قد حصل في زمن لاحق. وفي حوالى عام ٣٠,٠٠٠ ق.م كان بعض البشر قد عبروا مضيق بيرنغ بعد انسحاب الجليد فدخلوا الأمريكتين -ولم يكن فيهما حتى ذلك الحين سكان من البشريات على ما نعلم- وخلال الخمس عشرة ألف سنة التالية انتقل خلفاؤهم رويدًا رويدًا نحو الجنوب حتى صار البشر يعيشون في كافة

(*) the Levant

أنحاء الأمريكتين. وفي تلك الأثناء كان غيرهم قد بلغوا أوستراليا، حيث أُرخت أولى بقايا البشر بحوالى عام ٢٥,٠٠٠ ق.م.

لقد كان هذا الإنجاز عظيمًا، إذ لا يوجد نوع آخر من الرئيسات انتشر مثل هذا الانتشار الواسع، ولن ينتشر أي منها مثله، إلا بواسطة البشر. ولكن رغم أن البشر قد انتشروا في كافة أنحاء العالم، وبسرعة كبيرة مقارنة بالأنواع الأسبق، فقد بقيت أعدادهم قليلة لزمن طويل. ويقدر أحد العلماء أن العدد الكلي للبشر لم يتجاوز العشرة ملايين في عام ٤٠,٠٠٠ ق.م -كما قدَّر غيره أن عددهم لم يتجاوز العشرين ألفًا في فرنسا كلها في الأزمنة النياندرتالية- أي أن ذاك العالم كان مختلفًا كل الاختلاف عن عالمنا. إلا أن البشر كانوا قد حققوا فيه أشياء مدهشة، وكانت قدرتهم على تغييره لصالحهم تزداد وضوحًا.

النمط الجسماني

يعتبر علماء البيولوجيا جميع البشر أفرادًا في نوع واحد. صحيح أن التشابه بين أي شخصين قد لا يكون إلا ضئيلاً -ماعدا حالة التوأمين الحقيقيين- وأنه لا يوجد حيوان تختلف أفراده في الشكل إلى هذه الدرجة، ولكننا نبقى جميعًا بالرغم من هذا كائنات بشرية. إن الفروق اللافتة فيما بيننا من ناحية المظهر - في لون الجلد وشكل العينين والأنف وملوسة الشعر أو تجعده وغيرها - لا تمنع البشر من اختيار شركاء ذوي ملامح جسدية مختلفة عن ملامحهم، ومن إنجاب أطفال يحملون صفات جسدية مأخوذة عن الوالدين بدرجات متباينة. ومن الضروري ألا تغيب هذه الحقيقة عن بالنا، لأن بعض الناس ظنوا في مراحل عديدة من الماضي أن الفروق الأساسية في المظهر بين البشر بناء على صفات عرقية تعكس فروقًا أعمق

هي أيضًا جزء من ميراثهم الجسدي. ولكن هذا الرأي لم يعد مستحسنًا اليوم، ولو بقي له مؤيدوه. إن الفروق في طرق سلوك الجماعات المختلفة من البشر هي فروق حقيقية تمامًا، ولكن يعتبر الآن أن أصولها تكمن في اختلاف ظروف العيش والتقاليد وأساليب الحياة – أي في الثقافة، وهي مجمل ما يتعلمونه من جماعاقم – وليس في الميراث الجيني كما هي الحال في لون الجلد أو شكل الملامح.

ما زالت هذه الفروق الجسمانية تقسم الجنس البشري إلى مجموعات كبرى معينة متباينة في المظهر. ويقع أكثر الناس ضمن واحد مما اصطلح منذ زمن طويل على تسميته «العروق» البشرية الأساسية، فيما يتعلق بالمظهر. صحيح أن هذه التقسيمات ليست مطلقة من الناحية الجينية، وأنها اليوم غير محبذة لأنها تتخذ أحيانًا أساسًا للتمييز العنصري الظالم، إلا أنها تبقى الملامح التي رآها البشر واعترفوا بها طوال الحقبة التاريخية. فعلى هذا الأساس، وبعد استبعاد فروق أخرى أكثر تعقيدًا هي في أغلب الحالات أكثر أهمية، يقع القسم الأكبر من سكان العالم في ثلاث مجموعات أساسية، هي المجموعات الزنجانية والقوقاسية والمغولانية. فالزنجانيون ذوو بشرة سوداء أو داكنة جدًا، وشعرهم صوفي عادة، ويتباينون كثيرًا من ناحية القامة، ويكون أنفهم عادة واسعًا ومسطحًا وشفاههم ثخينة. وتجد أكثر شعوب هذا النمط الجسماني في المناطق الاستوائية من أفريقيا، إلا أن بينهم شعوبًا تعيش على الطرف الآخر من المحيط الهندي حتى غينيا الجديدة وجزر فيجي والفلبين بل وحتى تسمانيا(*). والقوقاسيون أيضًا كانوا موزعين –منذ وقت– مبكر على امتداد رقعة

(*) جزيرة في أوستراليا

واسعة، إلى الشمال من الشعوب الزنجانية، في شمال أفريقيا وأوربا وغرب آسيا، وكثيرًا ما يطلق على هذه المجموعة اسم «البيض»، مع أن لون بشرتهم يتباين من الفاتح جدًا -الذي لا يصطبغ بأشعة الشمس- إلى الأسمر الداكن جدًا، بل إنك تجد قوقاسيين في الهند وسيلان ذوي بشرة سوداء، ولكنهم يشبهون الأوربيين كثيرًا لكون أنفهم وشفاههم رفيعة نسبيًا وشعرهم أملس أو متموجًا، كما أن شعر لحيتهم كثيف عادة. وبالمثل فإن لون جلد المغولانيين يتباين من الأصفر إلى الأسمر الداكن، أما صفاتهم الأخرى فهي الشعر الأملس والأسود عادة، وقلة شعر اللحية، والوجه المسطح، والعينان المائلتان اللوزيتا الشكل، ومواطنهم الأساسية في آسيا الوسطى والصين واليابان، ولكنهم يعيشون أيضًا في ماليزيا وإندونيسيا. ويعتقد بعض العلماء أن هنود أمريكا الأصليين في كل من الشمال والجنوب كانوا أيضًا مغولانيين، ولكن هذا الأمر لم يحسم بعد، فربما كان المهاجرون إلى الأمريكتين منذ حوالى ٢٠,٠٠٠ سنة مضت من مجموعات أقرب إلى القوقاسيين من ناحية الشكل.

لقد توزعت هذه المجموعات الأساسية الثلاث اليوم في أنحاء الأرض وتزاوجت فيما بينها كثيرًا، فأمست البشرية معقدة جدًا من ناحية المظهر، عدا عن تعقد ميراثها الجيني. كما أن هناك شعوبًا في أماكن أخرى، خاصة في نصف الكرة الجنوبي، لا يمكن تصنيفها في أي من هذه المجموعات الثلاث، مثل سكان أوستراليا الأصليين وشعب البُشْمان(*) في صحراء كالاهاري. أما كيف ظهرت تقسيمات الجنس البشري الأساسية الثلاثة هذه فلا نعلم عنه الشيء الكثير؛ إن جسم الإنسان

(*) شعب من القناصين الرحل – المورد

لا يحافظ على نفسه بعد الموت باستثناء العظام، فالجلد والدهن وغيرها من الأنسجة تتحلل بسرعة. إن بحوزتنا جماجم تعود لأزمان قديمة جدًا، أما الأجسام المحفوظة والتي تسمح لنا باستنتاج بعض الحقائق حول المظهر فلا تتوفر إلا -منذ آلاف قليلة من السنين فقط- أي بعد أن كانت الفروق الأساسية في المظهر قد ترسخت تمامًا. ولكن من المرجح أن تكون المجموعات الأساسية الثلاث قد ظهرت في أماكن مختلفة ثم انتشرت منها حتى التقت بالأخريات وامتزجت بها أحيانًا. وكانت الآليات الأساسية في البداية هي على الأرجح آليات الاصطفاء الطبيعي من خلال البيئة لسلالات جينية ملائمة لبعض المناطق والمناخات وأنواع الطعام والارتفاعات وخطوط العرض وغيرها، بعد أن كان البشر الأوائل قد اكتسبوا وسائل البقاء فيها. ففي المناخات الباردة مثلاً يستطيع المغولانيون العيش بكفاءة عالية، لأن لديهم تحت الجلد كمية من الدهن أكبر من القوقاسيين والزنجانيين، أما القوقاسيون فلم يكونوا بحاجة لهذا لأنهم كانوا يعيشون غالبًا في مناطق أكثر اعتدالاً، كما أنهم لم يكونوا بحاجة لصباغ الجلد الذي يحمي الشعوب السوداء من أشعة الشمس، فالشمس ليست شديدة في أوربا وغرب آسيا. ولكننا نعلم أيضًا أن تغيرات الطعام والبيئة قد تعطي تغيرات لافتة في البنية والمظهر خلال أجيال قليلة فحسب. فيبدو إذًا أن ما نعتبره فروقًا جسمانية دائمة بين البشر لم يظهر إلا بعد حوالى عام ٤٠,٠٠٠ ق.م، أي في الحقبة التي انتشر فيها الإنسان العاقل ليثبت أقدامه في كافة أنحاء الأرض ويواجه الظروف الجديدة. وإن هذه الفروق هي التي مكّنت البشر من الاستقرار بسهولة في بعض المناطق أصلاً. وبعدما استقروا سرعان ما توزعوا توزعًا عرقيًا بقي ثابتًا حتى وقت قريب جدًا - فهو لم يتغير كثيرًا إلا منذ حوالى عام ١٥٠٠ للميلاد.

التسلسل الزمني والتسميات العلمية
في العصر الحجري (الباليوليتي)

٦٠٠,٠٠٠ ق.م	بداية المرحلة الباليوليتية السفلى
٦٠٠,٠٠٠-٥٤٠,٠٠٠	عصر جليدي
٥٤٠,٠٠٠-٤٨٠,٠٠٠	مرحلة بين عصرين جليديين
٤٨٠,٠٠٠-٤٣٠,٠٠٠	عصر جليدي
٤٣٠,٠٠٠-٢٤٠,٠٠٠	مرحلة بين عصرين جليديين
٢٤٠,٠٠٠-١٨٠,٠٠٠	عصر جليدي
١٨٠,٠٠٠-١٢٠,٠٠٠	مرحلة بين عصرين جليديين
١٢٠,٠٠٠-١٠,٠٠٠	عصر جليدي
١٠٠,٠٠٠	بداية المرحلة الباليوليتية الوسطى
٥٠,٠٠٠	بداية المرحلة الباليوليتية العليا
	إنسان كرومانيون يحل محل الإنسان النياندرتالي
١٠,٠٠٠	بدايات الثورة النيوليتية مع انحسار الجليد وبداية المستوطنات البشرية

يقع القسم الأكبر من حياة الإنسان على الأرض فيما يسمى «العصر الحجري»، وهي تسمية قديمة ومألوفة ولكنها تستخدم استخدامًا مطاطًا جدًا. وتسمية العصر الحجري واحدة من ثلاث تسميات اخترعت للحديث عما قبل التاريخ: أي عصور الحجر والبرونـــز والحديد، وكثيرًا ما يعود العلماء إلى هذا التقسيم لأن الطرق الأدق والأكثر تعقيدًا في وصف ما قبل التاريخ لا تخلو من العيوب. إن هذه التقسيمات مبنية على حقيقة أن البشرية قد تعلمت بالتسلسل كيف تستخدم الحجر أولاً ثم البرونـــز ثم الحديد، أي أنها تصنيف لتطور البشرية، وهي تريحنا من التقسيمات الزمنية المبنية على أنواع الصخور أو البيولوجيا أو المناخ - والتي يستخدمها الجيولوجيون وعلماء المستحاثات القديمة - كما أنها تركز على ما فعله البشر وعلى الأدوات التي يستخدمونها. إلا أن هذه الطريقة في النظر لماضي البشر لها هي الأخرى بعض المتاعب رغم فائدتها، لأن هذه التقسيمات ليست لها نهايات وبدايات واضحة، فقد استمر العصر الحجري في بعض أنحاء العالم حتى وقت قريب جدًا، بل مازال هناك حتى اليوم عدد قليل ممن يستخدمون أدوات ليست أفضل بكثير من أدوات إنسان ما قبل التاريخ، ولو أن أعدادهم تتقلص بسرعة. ثم إن هناك مشكلة أخرى في تسمية «العصر الحجري»، هي أنها تغطّي امتدادًا هائلاً من الزمن، صُنعت فيها الأدوات الحجرية واستُخدمت من قبل كائنات عديدة، ولكننا غير واثقين من أنها كلها بشر بالمعنى الكامل للكلمة -كالإنسان المنتصب مثلاً- فلهذه الأسباب قسَّم علماء ما قبل التاريخ العصر الحجري تقسيمات أدق. ولا حاجة بنا في هذا الكتاب لأكثر تلك التسميات، إلا أن بينها واحدة هي تسمية العصر «الباليوليتي» -وهي كلمة مشتقّة من اليونانية تعني

«العصر الحجري القديم»- تشمل القسم الأعظم مما قبل تاريخ الإنسان وتستمر حتى حوالى عام ١٠,٠٠٠ ق.م. ويضم هذا العصر آخر الحقب الباردة والمرحلة التي ثبّت فيها الإنسان العاقل قدميه بشكل واسع، وهي مرحلة فرعية تسمى أحيانًا «العصر الباليوليتي الأعلى» -لأن آثارها توجد عادة في الطبقات الأعلى من الحفريّات- وهذه المرحلة طويلة جدًا - ربما بلغت ٣٠,٠٠٠ سنة - لذلك يجب أن نكون حذرين في وصف الحياة خلالها. كانت المناخات تختلف كثيرًا من منطقة إلى أخرى في العالم، وكانت الحيوانات والنباتات تقدم فرصًا مختلفة وتحدّيات مختلفة، بينما كان البشر يزدادون تنوعًا في أساليب أدائهم للأشياء، التي يمكننا أن نسميها ثقافاتهم التقليدية.

صنع الأدوات

من المؤكد أن سرعة التغيُّر في العصر الباليوليتي الأعلى كانت بطيئة جدًا. كانت حياة الناس أثناءه قليلة التنوع إلا ما يفرضه توفُّر الغذاء، ولابد أن العيش على الصيد وجمع الطعام كان هو القاعدة. يبدو أن إنسان كرومانيون في أوربا كان خبيرًا في صيد الأسماك والحيوانات، وأنه طور تقنيات جديدة باستخدام الشباك والرماح المشوّكة. وكانت أدوات الإنسان العاقل خيرًا من أدوات أي من أسلافه كما أنها استمرت بالتحسن. قبل ذلك بوقت طويل، في الأزمنة قبل البشرية، كانت أولى الأدوات القاطعة تصنع من أية مادة مناسبة تقع بمتناول اليد، فقد وجدت أدوات مصنوعة من الحصى والكوارتزيت وحتى من مستحاثات الخشب، ولكن بمرور الزمن صار استخدام الصوان يزداد بشكل مستمر. وربما صارت كمياته نادرة في بعض الأماكن بعد مئات الألوف من السنين، لأن الطرق الباكرة في تشكيله كانت تهدر كميّات كبيرة منه، فأحيانًا كانت تسعة أعشار الكتلة تقشّر عنها

لإعطائها حدًا قاطعًا. وفي العصر الباليوليتي الأعلى بدأ الحرفيون البدائيون بابتكار طرق جديدة في صنع أدوات الصوان، فكانوا يصنعون منه لبًا بشكل أنبوب أو مخروط بحيث يمكن أن ينـــزعوا عنه «شفرات» ذوات وجهين متوازيين وسماكة متجانسة، فكانت هذه طريقة اقتصادية، كما صار بالإمكان تحسين الشفرات من أجل صنع أدوات رقيقة جدًا وجميلة، ويبدو أن أفضلها كانت تصنع في أوربا وشرق المتوسط.

من بين هذه الأدوات الجديدة والمتخصصة التي أمكن صنعها إزميل لحفر الخشب والعظم يسمى «المنقاش». كانت للمنقاش حواف ضيقة للقطع والتقعير والحفر، تدعمها حواف عريضة تكسبها القوة، ولا بد أن يكون قد ساهم في تقدُّم البشر ضمن مناطق جديدة، خصوصًا نحو الشمال، لأنه مَكَّنَ من استخدام قرون الوعل وأنياب الماموث لصنع رؤوس الرماح والحرابين(*). إن العاج وقرن الوعل أقوى من الخشب وأكثر مرونة من الصوان، فكانت هذه الأدوات أطول عمرًا من الأدوات الأسبق. لقد وجدت آثار تقنية صنع المنقاش على امتداد نصف الكرة الشمالي من أوربا حتى مضيق بيرنغ وألاسكا، وقيل إنها ربما هي التي مكّنت البشر من غزو الأمريكتين. أما في نصف الكرة الجنوبي فلا تجد أثرًا للمنقاش، فربما كان هذا دليلاً من النوع السلبي على أهميته الخاصة في شغل المواد من أجل تأمين الطعام واللباس في المناخات الباردة. ثم إن هناك مهارة أخرى جديدة في شغل الصوان، هي صنع «شفرات» دقيقة منه تثبَّت في الأسلحة وغيرها من الأدوات المصنوعة من الخشب أو العظم. ومن تلك الأدوات المنجل، الذي كان مستخدمًا في قطع

(*) الحَرْبون رمح يستخدم لصيد الأسماك.

النباتات في أماكن عديدة عند نهاية العصر الحجري القديم. ولا يدل استخدام المنجل على أن الناس كانوا يزرعون المحاصيل، بل على أنهم كانوا قد تعلموا تمييز بعض نباتات الحبوب البرية التي تصلح للطعام وجمعها. وقد صار صيد الحيوانات أسهل أيضًا، لأن الصيادين باتوا مزودين بالأقواس وبالسهام والرماح ذوات الرأس الصواني وبقاذفات الرماح. وكانت هذه الأسلحة على درجة كبيرة من الأهمية، لأن القوس وقاذف الرمح قد زادا سرعتها بدرجة كبيرة - فاتسع بالتالي المجال الذي تبلغه الأسلحة المقذوفة كما ازدادت دقتها وقدرتها على القتل- وكان الكثير من هذه الأدوات الجديدة يصنع من مواد جديدة، مثل العظم وقرن الوعل والخشب. وكان بالإمكان استخدام بعضها للحصول على مصادر جديدة من الغذاء بصنع خطافات وحرابين لصيد الأسماك. وقد مكّن العظم أيضًا من صنع الإبر، ومازالت هناك نماذج دقيقة جدًا منها تعود لثقافات الصيد الأخيرة في العصر الباليوليتي.

أساليب الحياة

تشير هذه المعلومات إلى توافر كمية أكبر من الطعام، ولكن بالرغم من هذا، وبالرغم من شبههم بنا جوهريًا من الناحية الجسمانية، كان البشر في العصر الحجري أقصر من البشر اللاحقين وأخف وزنًا. ولا يمكن أن يكون غذاؤهم متوازنًا -يبدو أن النياندرتاليين كانوا يعانون من عوز الفيتامينات- ولابد أن اللحم الذي يأكلونه كان في أكثر الأحيان قد بدأ بالتعفن - ولكن الحقيقة أنه حتى في أيامنا هذه مازال الناس يحبون تناول لحم حيوانات الصيد عندما يكون زنخًا- والأرجح ألا يكون قد بلغ سن الأربعين من بشر العصر الحجري إلا قلائل، وحتى الذين بلغوه كانت حياتهم تعيسة جدًا بمعاييرنا، بسبب آلام التهاب المفاصل

والروماتزم وداء الحَفَر(*)، وأخطار الموت كلما كسر لهم عظم أو نخرت سن – ولو أنهم لم يعرفوا السكر الذي يساهم في تلف أسناننا اليوم– وسوف تبقى هذه حال الكثيرين من الناس في العالم لزمن طويل بالطبع.

كان استخدام النار قد وسَّع خيارات مكان العيش إلى حد كبير. وتعود أولى الأدلة على توليد النار إلى حوالى عام ٣٠,٠٠٠ ق.م، ولا بد أن تكون قد جعلت الحياة أسهل. إلا أن الملابس والمساكن المصنوعة تشير إلى التحكم بالبيئة بأساليب أخرى في العصر الباليوليتي الأعلى، ولولاها لكان من المستحيل على البشرية أن تستقر على كافة سطح الأرض كما فعلت. لم تكن هناك في ذلك الزمان أقمشة منسوجة، ولكنهم كانوا يقطعون الجلود بشكل شرائط متباينة العرض ثم ينعّمونها ويطرّونها باستخدام حجر الصوان من أجل الحصول على الملابس. إن أقدم جثة ترتدي الملابس وجدت حتى الآن يعود تاريخها لحوالى عام ٣٥,٠٠٠ ق.م، وقد اكتشفت في روسيا وكانت ترتدي بنطالاً من الفرو وقميصًا مزركشًا.

في العصر الباليوليتي الأعلى تبدأ بالظهور أيضًا العلامات الضعيفة الأولى على البناء المقصود للمساكن. صحيح أن هناك حيوانات أخرى تستطيع البناء، إلا أنها تفعل ذلك بطرق محدودة وموروثة ومبرمجة بالغريزة؛ أما البشر فيستطيعون البناء في أي مكان، وتعديل الأسلوب والتقنيَّة بحيث تتلاءم مع المناخ المحلي وطبيعة الأرض والمواد، وبالحجم الذي يناسب أغراضهم. فعدا عن وضع الصخور بعضها فوق بعض، كانت المواد الأساسية المستخدمة في صنع الملاجئ في البداية هي الطين والقش، وهي مواد سريعة الهلاك. لقد ظل البشر مضطرين للتنقل مع قطعان الطرائد

(*) الإسقربوط – داء ينجم عن عوز فيتاميني.

التي يصطادونها على مدار السنة حتى نهاية العصر الحجري القديم، ورغم أن هذا الأمر كان يعيدهم المرة تلو الأخرى إلى كهوف معينة تحمل آثار إقامة طويلة، فإنه لم يترك آثار أبنية دائمة. ولكن وجدت في الشرق الأدنى بعض بقايا أكواخ تعود لحوالى عام ٩٠٠٠ ق.م، كما يبدو أنه كانت هناك مساكن كبيرة في سهول شرق أوربا -حيث كانت الكهوف قليلة- ذوات هياكل مصنوعة من عظام الماموث أو أنيابه ومغطاة بالجلود. كانت أرضها على عمق قدمين أو ثلاثة تحت الأرض، وكانت أحيانًا مجمعة في مستوطنات يسكنها بضع مئات من الناس، ويوحي هذا الأمر ببدايات مستوى جديد من التنظيم الاجتماعي.

أول الفنون

من الواضح أن البشرية كانت قد قطعت دربًا طويلاً في أواخر العصر الحجري، ومن أبرز العلامات على ذلك ما نراه في جزء صغير نسبياً من غرب أوربا، حيث يوجد أبهى دليل نملكه -حتى الآن- على بدايات الفن. تبدأ تلك الأدلة بمجموعات صغيرة مخزنة من صباغ المَغْرَة الأحمر جمعها نياندرتاليون منذ حوالى خمسين ألف سنة خلت. لقد درست هذه الأصبغة كثيرًا ولكننا لا نعلم فيم كانت تستخدم. إن سبب صعوبة الحديث عن أصول الفن هو ندرة الأدلة الباقية على بداياته الأولى. يحق لنا أن نخمن أن البشر الباكرين كانوا يخربشون أشكالاً في الطين، ويلطخون أجسامهم بالألوان، ويشكّون الأزهار أو الريش في شعورهم، أو يرقصون بأنماط معقدة مثل غيرهم من الشعوب اللاحقة - ولكن هذه الأشياء كلها إن وجدت لم يبق منها أي أثر- والصعوبة الثانية هي أننا لا ندري لماذا تكلّف البشر عناء صنع الفن الأول الباقي وماذا كانوا يعتقدون أنهم يفعلون. في الأزمنة التاريخية اللاحقة كان الكثير من الناس يلونون وجوههم وأجسادهم لأسباب مختلفة

جدًا، وربما قام بعضهم بأشياء مثل هذه في الأزمنة القديمة، إما لأسباب دينية أو عملية (التمويه) أو كجزء من ثقافتهم الجنسْية، أو لمجرد التسلية والمتعة. ولكننا على الأرجح لن نعلم أبدًا ماذا كان الغرض من تلك المَغْرة الحمراء؛ فلو تخيلنا أن علماء الآثار بعد آلاف السنين من أيامنا لم يكن لديهم كدليل على بعض مجتمعات القرن العشرين إلا بضع علب من كحل العينين وحمرة الشفاه، لشق عليهم معرفة الغرض منها.

إلا أننا منذ حوالى عام ٣٥,٠٠٠ ق.م فما بعد نجد في أوربا زادًا مستمرًا من المعلومات، وهي أدلة أُنتجت على مدى فترة زمنية طويلة استمرت حتى عام ١٠,٠٠٠ ق.م تقريبًا. كما أن هناك كهوفًا وصخورًا في أماكن أخرى مثل أفريقيا نجد فيها الكثير من التصوير والحفر من فترة ما قبل التاريخ. ولكننا لم نجد –حتى الآن– فنًا قديمًا قدم الفن الباليوليتي في أوربا، وأغلب ما بقي منه يوجد في منطقة محدودة جدًا، هي عدد من المواقع في جنوب غرب فرنسا وشمال إسبانيا. إن أقدم الأشياء التي وجدت هناك هي أغراض صغيرة مزينة وملونة ومصنوعة في أغلب الحالات من العظم والعاج – كقاذفات الرماح المحفورة مثلاً– وكثيرًا ما نجد عليها صورًا محفورة لحيوانات. بعد ذلك، في حوالى عام ٢٠,٠٠٠ ق.م، تبدأ مرحلة– ربما استغرقت خمسة آلاف سنة – وتركت سلسلة باهرة من اللوحات والرسوم المحفورة على جدران الكهوف وأراضيها، وأكثرها تمثِّل الحيوانات أيضًا. ثم تأتي بعدها المرحلة الأخيرة من الفن الباليوليتي – حيث تسود صور الأيِّل – وتنتهي بمجموعة وفيرة من الأدوات والأسلحة المزخرفة. والغريب أن هذا التقليد ينقرض بعد ذلك على ما يبدو، ولا يظهر فن جميل طوال ستة آلاف عام.

إن بقاء هذا الفن أمر مذهل، ولكنه غامض في الوقت نفسه. لقد جرت محاولات تخمين كثيرة لتفسيره، وأكثر ما اجتذب اهتمام العلماء هو السلاسل العظيمة من رسوم الكهوف، فهي متوضعة في زوايا قاصية من الكهوف يصعب الوصول إليها، ولا يمكن أن تؤدى إلا باستخدام ضوء اصطناعي. ومن الواضح أن الكثرة الغالبة للحيوانات هي أمر هام أيضًا، ففنان العصر الباليوليتي لم يكن يمضي وقته في رسم المناظر الطبيعية ولا حتى البشر. واللافت أن البشر يظهرون دومًا بشكل مجرد وغير واقعي، بينما ترسم الحيوانات بعناية دقيقة بالتفاصيل، فربما كان رسم الأشياء بصورة واقعية يعني السيطرة عليها. لقد حاول بعض العلماء البحث عن أنماط ما في طريقة تكرار بعض الحيوانات، ولكن من دون جدوى. يحق لنا أن نخمن أن تلك الرسومات كانت تحمل رسائل إلى الذين ينظرون إليها في تلك المجتمعات التي لم تعرف الكتابة، فإذا تذكّرنا أيضًا الأدلة القليلة على عادة الدفن في الأزمنة النياندرتالية فإننا نميل للاعتقاد بأن طقوسًا دينية أو سحرية كانت تمارس في تلك الكهوف المعتمة. وإذا كان هذا صحيحًا فربما كان مرتبطًا بمحاولة للتأثير في حركات وسلوك الطرائد التي كان البشر الباكرون يعتمدون عليها في معيشتهم. ويتوافق هذا التفسير مع تزايد صور الأيَّل بمرور الزمن – لأن الرنَّة والماموث الموجودين في الصور الأبكر كانا ينقرضان مع انسحاب الجليد البطيء.

إن ما نعرفه عن أول فن عظيم هو في الحقيقة ضئيل جدًا، ولكن ما يوجد منه كاف للدلالة على أن البشر في أواخر العصر الباليوليتي كانوا قادرين على القيام بإنجازات عقلية مدهشة، وعلى مراقبة العالم من حولهم بدقة. ربما كانوا يفقدون ثقتهم بقدرتهم على التأثير في سلوك الحيوانات – لأنهم لم يكونوا يعلمون أن سلوكها هذا محكوم بالمناخ – ففقدوا معها الحافز لإنتاج الفن أيضًا. ولا يمكن أن

يكونوا قد مارسوا الفن من أجل ذاته أو بغرض بيعه كما هي الحال في عصور لاحقة، ولكن لا ريب في أن ما أنتجوه هو فن بالمعنى الكامل للكلمة، لأنه إبداع خلاق تم بعناية ودقة، يصور أشياء جميلة ومؤثرة وقادرة على اجتذابنا ليس بما يمكن فعله بها فقط، بل بحد ذاتها أيضًا.

قدوم الزراعة

إن للفن ثمنًا لا بد من دفعه حتى عندما لا يُشترى، فالأشخاص الذين نفذوا رسوم الكهوف العظيمة لم يكن بإمكانهم الخروج للبحث عن الطعام عندما كانوا منشغلين بالرسم مهما كانت حاجاتهم بسيطة، فقد كان هناك إذن بعض الغذاء الفائض عن الحاجة المباشرة حتى في مجتمعات الصيد وجمع الطعام الباكرة. إلا أن الخطوة الحاسمة في زيادة ذلك الفائض إنما حصلت عندما تعلَّم الناس زراعة المحاصيل للغذاء وحصادها، وتدجين الحيوانات واستغلالها. فكان هذا هو اكتشاف — أو اختراع — الزراعة. لقد بات من الواضح -الآن- أن قصة البشر كلها هي قصة تغيُّر مستمر، جزء كبير منه من صنع الإنسان، ولكن بعض الخطوات في تلك القصة تبرز بسبب أهميتها الخاصة، والزراعة واحدة منها، مثل السيطرة على النار وتعلُّم الكلام. كانت الزراعة -تقريبًا- آخر الخطوات الكبرى التي خطتها البشرية في حقبة ما قبل التاريخ، والحقيقة أنها قد غيَّرت الحياة بصورة كبيرة وعميقة للغاية، ولولاها لما حصل أي من التغيُّرات اللاحقة.

لقد أنجزت بقاع مختلفة من العالم الزراعة في أزمنة مختلفة، ولا بد أن يكون المناخ والبيئة الطبيعية هما السببان الأساسيان لهذا الاختلاف، كما أنهما يفسران، لماذا توصَّلت بعض الشعوب إلى الزراعة لوحدها؟ ولكن بعد زمن طويل من عالم

أوراسيا(*) القديم -في الأمريكتين مثلاً- ولماذا عجزت غيرها عن التوصُّل إلى الزراعة إلاّ بتأثير من الخارج كما هي الحال في أوربا الغربية في عصور ما قبل التاريخ- يقال إن أقدم آثار النباتات المزروعة تعود لحوالى عام ١٠,٠٠٠ ق.م، وقد وجدت في جنوب شرق آسيا، وهي أشكال باكرة من الدُّخْن (الجاوَرْس) والأرز، وما زال كلاهما نباتين هامين في تلك المنطقة حتى اليوم. وبعد حوالى ٨,٠٠٠ سنة تعلّم الناس في أمريكا الوسطى زراعة نوع من البطاطا الحلوة وشكل بدائي من الذرة. إلا أن منطقة الشرق الأدنى هي التي وُجدت فيها معلومات وافرة عن المراحل الباكرة من الزراعة، فقد انتشرت في هذه المنطقة بين عامي ٩٠٠٠ و ٦٠٠٠ ق.م تقريبًا أنواع كثيرة من الحبوب التي مازلنا نستخدمها حتى يومنا هذا.

الهلال الخصيب

يطلق الناس أحيانًا تسمية «الهلال الخصيب» على منطقة هامة للغاية، هي بشكل قوس تمتد شمالاً من دلتا النيل عبر فلسطين وشرق المتوسط، ثم تنعطف شرقًا على طول هضاب الأناضول إلى أن تنتهي على المرتفعات الواقعة بين إيران وبحر قزوين على الطرف الآخر من وديان أنهار بلاد الرافدين. لقد فقد قسم كبير من الهلال الخصيب هذا جاذبيته اليوم، ولكنّه منذ عشرة آلاف سنة خلت كان يتمتع بأمطار سخيَّة وتربة خصبة جعلته غنيًا بالغابات، وكانت غاباته تعج بحيوانات الصيد. ومع انسحاب العصر الجليدي الأخير صار نمو الغابات أقل كثافة منه في الشمال وكان اقتلاعها أسهل. على الهضاب كانت تنمو أجداد نباتات الحبوب اللاحقة، مثل الشعير البري والعَلَس -قمح بري- وأنواع كثيرة من الأعشاب،

(*) أوربا وآسيا معًا.

ويبدو أن التقنيات الجديدة في الزرع والحصاد قد انتشرت من هذه المنطقة إلى جنوب شرق أوربا وإلى وادي النيل أيضًا.

ويمكننا أن نرتب تسلسل انتشار الزراعة كما يلي: في حوالى عام ٩٥٠٠ ق.م كان الناس يحصدون الأعشاب والحبوب البرية في آسيا الصغرى، وفي عام ٧٠٠٠ ق.م كانت أولى عمليات الزرع وتربية النباتات قد بدأت في شرق المتوسط وبلاد الرافدين، ثم انتقلت خلال الآلاف الثلاثة التالية غربًا حتى نهر الراين (تقريبًا)، إلى أن بلغت أوربا الغربية والجزر البريطانية بحلول عام ٣٠٠٠ ق.م- وربما- توصلت مناطق أخرى إلى طرق جديدة في تربية النباتات للغذاء بصورة مستقلة، أما إلى الشرق والشمال من المتوسط فيبدو أن الناس قد تعلموها من جيرانهم.

كان لتعلُّم تربية الحيوانات تأثير ثوري يساوي تأثير الزراعة تقريبًا. كانت شعوب الصيادين في أوربا قد دجنت الكلاب، فكانت تلك خطوة كبيرة أخرى في تسخير طاقة الطبيعة لاستخدام البشر. ثم جاءت الخطوة التالية في جمع الحيوانات البرية والاحتفاظ بها ضمن قطعان، وقتل بعضها من أجل لحمها وجلدها وصوفها أو قرونها وعظامها. كانت الحيوانات تسرح بكثرة في الهلال الخصيب وكانت طيعة لسيطرة الإنسان. وكانت تكثر الغنم والماعز بشكل خاص -أو أجدادها- بينما كانت أنواع مختلفة من الخنازير تعيش طليقة في كافة أنحاء العالم تقريبًا. وعندما تعلُّم الناس تربية الحيوانات حيَّة بدلاً من اصطيادها ترتبت على ذلك نتائج كثيرة - مثل استخراج الحليب وأخذ البيض من الطيور المدجَّنة- وفي مرحلة تالية سوف يأتي استخدام الحيوان للركوب والحمل والجر.

هناك أربعة حيوانات كان تدجينها أساس استغلال الحيوانات الأليفة ومازال - وهي الماعز والغنم والخنازير والبقر- تنتمي هذه الحيوانات كلها لفصائل ثدييات نصف الكرة الشمالي، وتكمل بعضها بعضًا بصورة مفيدة للإنسان. فالماعز حيوانات شديدة التحمُّل، تستطيع العيش على القليل من العشب، وتمد الإنسان باللحم والحليب والجلد والصوف. ويعيش الغنم حيثما وجد العشب -وكان العشب وفيرًا على هضاب المنطقة المعتدلة- ويمكن استخدامه بنفس طرق استخدام الماعز، وتجد أقدم الآثار على تربيته في حوالى عام ٩٠٠٠ ق.م في شمال العراق. أما الخنازير فهي تمد الإنسان باللحم، وتستطيع التنبيش عن طعامها في الأحراش والغابات، كما أنها تنمو بسرعة وتلد عددًا كبيرًا من الصغار وبتكرار عال. وينتج البقر اللحم والحليب والجلد، كما يمكن استخدامه لجر الأشياء وحملها. ومن أفضل الأدلة على تدجين الحيوان اكتشاف عظام حيوانات كانت تؤكل في المستوطنات الزراعية الباكرة، وهي في جميع الأحوال تقريبًا بقايا صغارها التي كانت تقتل قبل أن تبلغ سن النضج، بينما كانت الحيوانات التي تقتلها شعوب الصيادين كاملة النمو في جميع الحالات تقريبًا.

لقد كانت زراعة الحبوب وتربية الحيوانات هي النواة التي تشكلت من حولها النظم الزراعية، ولكن بعض مناطق العالم لم تعرف إلا جزءًا من هذا التطور، فعندما صار سكان أمريكا الوسطى يزرعون النباتات لم ينتقلوا إلى مرحلة تدجين الحيوانات، والسبب الأرجح هو أنهم لم تكن لديهم حيوانات كثيرة مناسبة لذلك، إلى أن أدخلها بعد زمن طويل من أتوا بعد كولومبُس. لذلك لم يبرع الإنسان في مهارات رعي الحيوانات إلا في جبال الآندس، حيث كان حيوان اللامّة ينتج له كل ما يحتاجه من لحم وحليب وصوف، عدا عن حمل الأثقال. ويدلك هذا على أن

الانعزال سرعان ما بدأ يميز الحياة في الأمريكتين عنها في أصقاع العالم القديم. وحتى ضمن العالم القديم كانت هناك صعوبات في الاتصال، وربما كان هذا هو سبب الاختلافات الكبيرة في طرق تطور الزراعة. فصحيح أن المعرفة والمحاصيل قد انتشرت بسهولة من الشرق الأدنى عبر شمال أفريقيا إلى غرب أوروبا وحتى إلى وادي نهر الدانوب، ولكن يبدو أن انتشارها شرقًا إلى آسيا كان أصعب بكثير، كما أن الفروق المناخية الكبيرة لم تسمح بتطور الأمور على الصورة نفسها. فعندما صارت الصين بلدًا زراعيًا كانت محاصيلها المناسبة لظروفها المحلية مشتقة من نباتات محلية، ولم تأتها من الخارج مثلما أتت الحبوب إلى أوروبا من الشرق الأدنى. والمثال البارز على ذلك هو نبات الأرز، الذي يتميز بأنه لا يحتاج حيوانات لزراعته بل يحتاج إلى مجهود بشري مكثف. وربما لهذا السبب أيضًا لم يربِّ الصينيون إلا حيوانًا واحدًا من أجل لحمه هو الخنـــزير، ولو أنهم استخدموا أنواعًا مختلفة من البقر لاحقًا في أشغالهم. ولكن علماء الآثار مازالوا منقسمين وغير متأكدين من أصول الزراعة في الصين، لذلك يُفضَّل ألا نجزم بالأمر.

عالم يتغير

لقد استغرقت هذه الثورة في ظروف حياة الإنسان التي سببها قدوم الزراعة آلاف السنين. كانت المستوطنات الزراعية الباكرة ذوات عمر قصير، وقد ظل المزارعون الأوائل على الأرجح متنقلين يمارسون زراعة القطع والحرق، وهي طريقة ما زالت مستخدمة بين الشعوب البدائية حتى اليوم. يختار الناس في هذا النوع من الزراعة بقعة من الغابة -تكون تربتها خصبة بسبب تراكم الأوراق والفضلات المتعفّنة- فيقتلون الأشجار بنـــزع لحائها، ثم يحرقونها ويقتلعون ما بقي من جذوعها إذا أمكن، ويزرعون المحاصيل بين الجذور. وبعد بضع سنوات تكون نباتات الغابة

البرية قد صارت كثيفة جدًا أو تستنفد التربة خصبها، فيتحتم عليهم البحث عن موقع آخر. وقد بقيت هذه حال الزراعة لزمن طويل، لأن الناس لم يكونوا يعرفون طرقًا أفضل لحرث التربة، وكان من الصعب عليهم أن يزيلوا ما بقي من جذوع الأشجار بأدواتهم الحجرية ومعاولهم المصنوعة من قرن الوعل. ولكن مع مرور القرون ظهرت في بعض الأماكن حقول نتيجة عودة الناس المستمرة إليها لسكنها وزراعتها، وعندها بدأ المزارعون الأوائل يصبحون أكثر ارتباطًا بمكان واحد - أي أنهم باتوا مستقرين. وقد اكتشف علماء الآثار الكثير من تلك الأماكن الباكرة، وإن هذا الميل للاستقرار هو واحد من أول التأثيرات المعروفة للزراعة على سلوك البشر.

لقد أثرت الزراعة على البيئة غير البشرية أيضًا، لأن الخضار والمحاصيل القديمة كانت مختلفة الشكل كثيرًا عما نعرفه اليوم. فنباتاتنا اليوم أكبر بكثير، كما أنها تختلف أحيانًا عن الأنواع البرية من ناحية الشكل واللون والحجم، لأن البشر تدخلوا في عملية التطور. فهم باختيارهم سلالات معينة للزراعة ونبذهم سلالات أخرى بدؤوا منذ زمن بعيد بتبديل توازن الطبيعة، ولولا تدخلهم لأنتجت الطبيعة أنواعًا مختلفة جدًا.

كانت الحبوب والبذور أهم تلك المحاصيل الجديدة. صحيح أن محاصيل الأوراق والجذور والبصلات كان بالإمكان زرعها وسرعان ما زُرع بعضها فعلاً، إلا أن القمح والشعير والبازلاء والعدس تدوم فترة أطول بكثير، لأنها عندما تجفف يمكن تخزينها فتؤمن الغذاء في الشتاء وفي السنوات التي لا تكفي فيها الغلال. فكانت هذه خطوة جديدة في التحرر من جمود إيقاعات الطبيعة، ولو أنها لم تكن كاملة - لأن عمليات البذار والحصاد تحتاج بدورها إلى متطلبات جديدة - إلا أنها

كانت على كل حال خطوة جديدة نحو حرية فعل أشياء أخرى غير الصيد من أجل البقاء، الذي ابتدأته البشريات اللاحمة منذ زمن بعيد جدًا.

وقد ظهرت آثار أفعال البشر في الحيوانات أيضًا، فلا شك أن أولى الخراف والخنازير المدجنة كانت صغيرة وهزيلة جدًا بالقياس إلى الأغنام السمينة الغزيرة الصوف التي ترعى في هضاب إنكلترا اليوم، أو الخنازير الضخمة الراقدة في زرائبها. ولم تقتصر التغيُّرات على الحجم وحده، ففي أغلب الحيوانات (والطيور) المدجنة نلاحظ قصر الخَطْم(*)، لأن البشر ضمنوا لها طعامها، فتمكنت من البقاء سلالات أسنانها وأفكاكها أقل تطورًا مما تحتاجه في البرية. بل ربما كانت الحيوانات الحالية أقل ذكاء من أجدادها البرية، لأن الإنسان حماها من أعداء وأخطار طبيعية كثيرة، فتمكنت من البقاء سلالات ظلت أجزاء دماغها التي تعالج الرسائل الآتية من العالم الخارجي ضعيفة التطور. ثم إن هناك فرقًا لافتًا آخر، هو أن ألوان الحيوانات تصبح أكثر تنوعًا عند تدجينها، لأن انتزاعها من موطنها الطبيعي يسمح ببقاء أشكال ذوات ألوان مختلفة ربما كانت هلكت في البرية بسبب سهولة تمييزها.

ولكن لا يمكننا أن نعلم متى بدأ الناس بمحاولة إحداث تغيرات كهذه وإلى أي مدى. لقد صار من البديهي اليوم أن مزاوجة الخراف ذوات الصوف الكثيف أو الأبقار ذوات الحليب الغزير تعطي سلالات أفضل، ولكن لا بد أن تكون الصدفة قد لعبت دورًا كبيرًا في المراحل الأولى. وربما كانت الدوافع الأولى لتدخل الإنسان في عملية الاصطفاء الطبيعي مختلفة عن دوافعه اليوم، فربما اختار بعض الرعاة الأوائل مثلاً أن يزاوجوا حيوانات معينة ويربوها بسبب علامات مميزة

(*) أنف الحيوان وفكه الناتئان

أعجبتهم، أو لأنها تسهل التعرف عليها؛ ونحن في الحقيقة لا نعلم شيئًا عن هذا الأمر.

إن النتيجة الأهم لتلك الأساليب الجديدة أو لأي شكل من أشكال الزراعة هي نتيجة واضحة، ألا وهي توفر كميات من الغذاء أكبر بكثير من السابق. صحيح أن الفرق بين الصيد والزراعة يتعلق بنوع حيوانات الصيد من جهة وبنوع النباتات والتربة من جهة أخرى، إلا أن أهمية الزراعة تبقى واضحة إذا عرفنا أن عائلة من البشر تعتمد على جمع الطعام والصيد تحتاج إلى مئات الأكْرات(*) لكي تحصّل كمية كافية، بينما تكفيها خمسة وعشرون أكرًا في حالة الزراعة البدائية. كانت هذه إذن نتيجة أول قفزة كبيرة في إنتاج الغذاء، وقد تبدو ضئيلة بالقياس إلى التطورات الهائلة التي حدثت منذ ذلك الحين، إلا أن الزراعة قد جلبت معها في الحقيقة أول زيادة حادة في تأمين الغذاء بعد عملية الصيد، وكانت تحمل في ثناياها بذورًا أغنى.

لقد أدت وفرة الغذاء إلى زيادة أعداد البشر، لأنها مكّنت من إطعام أعداد أكبر. ولا يمكننا أن نقيّم هذا التطور بشكل جيد، إلا أن نتائجه واضحة لعلماء الآثار في بقايا المستوطنات التي صارت أكبر من السابق – وهي القرى الأولى– يدل ظهور القرى دليلاً أكيدًا على حدوث تغيرات أخرى في الحياة الاجتماعية أيضًا. فقد ازدادت الإقامة المستمرة في المستوطنات نفسها، وضعفت الحاجة للتنقل سعيًا وراء حيوانات الصيد والنباتات الفصلية، وفي الوقت نفسه ظهرت أبنية أكثر صلابة. ومن الأمثلة المعروفة على هذا التطور أريحا، التي كان فيها قبل عام ٩٠٠٠ ق.م قرية على موقع ينبوع ماء لا يشح. بعد ألف عام كان حجمها قد ازداد إلى

(*) الأكْر يساوي نحو أربعة آلاف متر مربع .

أن غطت بيوتها المصنوعة من لبن الصلصال مساحة بين ٨-٩ أكْرات(*)، وكانت محاطة بأسوار كبيرة. من الواضح أن سكانها كانوا يشعرون أن لديهم أشياء تحتاج للحماية، وربما كان لهم أعداء يخشون منهم عليها: لقد كانت لديهم ثروات، ومنذ ذلك الزمان كان البشر قد اكتشفوا طريقة سريعة للحصول على الثروة، هي أخذها ممن يملكونها.

لقد بزغت في أماكن مثل أريحا رويدًا رويدًا أنماط جديدة من الحياة بينما كانت المجتمعات تعالج المتطلبات والفرص الخاصة ببيئاتها بمزيد ومزيد من النجاح. وكان هذا مختلفًا عما حدث بعد عصور الجليد الأبكر، عندما لم يكن هناك كائن واسع الحيلة مثل الإنسان العاقل قادر على استغلال ما خلفته تلك العصور الجليدية. ولكن بما أن عدد الناس في العالم قد ظل قليلاً لزمن طويل، فقد بقيت جماعاتهم معزولة إحداها عن الأخرى في العادة. بعد ذلك طورت تلك الجماعات مهارات جديدة، وتغلّبت على المزيد من التحديات في بيئاتها، وازداد تباعد بعضها عن بعض في أساليب حياتها، أي في ما يمكننا أن نسميه ثقافاتها، التي مابرحت تزداد تعقيدًا. ولا بد أن يكون الناس الذين نشؤوا في تلك الثقافات قد قبلوها دون تفكير -كما هي حال أكثر الناس في العالم اليوم- وأن يكون الروتين هو السائد فيها إذا أرادت الجماعة البقاء، لذلك ظلت الثقافات المختلفة تتباعد لزمن طويل. ولا ريب أن اللغة قد اتخذت أشكالاً مختلفة من أجل تلبية الحاجات المختلفة، فحتى في يومنا هذا مازلت تجد لغات كثيرة تعيش جنبًا إلى جنب في مناطق مازالت بدائية. إن لكل قبيلة تقريبًا لغتها الخاصة التي تلبي حاجاتها الدقيقة الخاصة بها، أما اللغات العالمية

(*) ٢-٤ هكتارات تقريبًا.

الكبرى مثل الإنكليزية والإسبانية الحديثتين فلم تظهر إلا بعد ذلك بزمن طويل جدًا، وهي نتيجة للحضارة.

بالرغم من هذه الفروق كانت تلك الجماعات تعيش بأساليب تبدو لنا متشابهة جدًا، فقد كانت كلها ترتكز على تقنية بسيطة جدًا، ولو أنها أكثر تعقيدًا بكثير مما كانت عليه الحال قبلها بآلاف قليلة من السنين، وكانت تحمل قدرة هائلة على توليد المزيد من التغير المتسارع، كما ستبين المرحلة المتميزة التالية من تطور البشرية.

الثورة النيوليتية

تدل تسمية «نيوليتي» على علاقة بالحجر، مثل تسمية «باليوليتي»(*). وقد حاول الناس أحيانًا تمييز مراحل ضمن «العصر الحجري»، فصاروا يتحدثون عن حقبة «ميزوليتية» وحقبة «نيوليتية». وكما هي الحال في جميع التقسيمات الأخرى في ما قبل التاريخ، تبدأ هاتان الحقبتان وتنتهيان في أزمان تختلف باختلاف المناطق، ولم تحدث فيهما تغيرات مفاجئة، فالناس لم يستيقظوا في يوم من الأيام ليجدوا أنفسهم في حقبة جديدة، بل إن أساليب قيامهم بالأشياء كانت تتغير رويدًا رويدًا -خصوصًا أساليب صنع أدوات معينة من الحجر، وهي أسهل الأمور تتبعًا على علماء الآثار- ولكن رغم أن التغير كان متدرجًا فإن نتيجته النهائية واضحة، ومازالت المجتمعات – وهي أشياء معقّدة – تتغير بنفس الطريقة، ولو أن ذلك يتم اليوم بسرعة أكبر. ولا تهمنا الحقبة الميزوليتية لأغراضنا هنا رغم أهميتها للمختصين، أما الحقبة النيوليتية فهي تدل على مرحلة هامة جدًا في تطور البشرية.

(*) لأن كلمة lithos اليونانية تعني الحجر .

ولكن ما سبب هذه الأهميَّة الكبيرة؟ إن علماء الآثار لا يستخدمون تسمية «نيوليتي» بمعناها الدقيق إلا للدلالة على ثقافة حلت فيها الأدوات الحجرية المشحوذة والمصقولة محل الأدوات المصنوعة بقَشر الرقائق. وقد لا يبدو هذا التطور بحد ذاته أمرًا مثيرًا، ولكن الحقيقة أن الوضوع ينطوي على أشياء أكثر بكثير. فقد أتت المرحلة النيوليتية من وجود الإنسان بعدد من التغيُّرات ذات الأهمية العظيمة والتي تفوق بكثير أهمية التطور في صنع الأدوات الحجرية، ولو كانت هذه الأخيرة طريقة مناسبة لتحديد مراحله. صحيح أن تلك التغيُّرات قد تعود جذورها إلى الماضي السحيق، إلا أنها ما كانت لتبلغ مستواها الكبير ومداها الجغرافي الواسع إلا بفضل اكتشاف الزراعة قبلها. فالزراعة هي التي مكّنت من ظهور مجموعة من التطورات سميت «الثورة النيوليتية»، وإذا كنا نفصلها إلى عناصر متميزة فما ذلك إلا لتسهيل وصفها. إن المجتمعات البشرية كلها مترابطة بأساليب معقدة، ويتعلق عمل كل قسم وتطوره بوجود الأقسام الأخرى، وعندما تدرك الأهمية العظيمة لتوافر كميات أكبر من الغذاء بفضل الزراعة، لا تعود بك حاجة ملحة لاعتبار هذه الناحية أو تلك حاسمة. لنبدأ إذن عند نقطة واضحة، ولو أن اختيارها اعتباطي، هي تقنية شغل الحجارة، وهي التي أعطت هذه الحقبة اسمها.

التغير التقني

طوال عشرات الألوف من السنين كان تقطيع الأشياء القاسية يتم بالفؤوس اليدوية، وهي سواطير حجرية تمسك بقبضة اليد وتشحذ أطرافها بنــزع شرائح عنها. وقد ظلت الأدوات النيوليتية حجرية، ولكنها كانت أنعم وكانت شفراتها تشحذ وتصقل على حجارة أخرى أقسى. كما أن الشفرات صارت تثبَّت بمقبض، وقد زاد هذا من قوة القطع التي كانت قد تحسنت قبل ذلك بتحسن شكل الحجارة

وصقلها. وقد ثبت ببعض الفؤوس الحجرية النيوليتية مقابض حديثة وجربت في الغابات فتبين أنها أدوات قوية للغاية وذوات عمر طويل أيضًا، لأنها عندما تتثلم يمكن شحذها من جديد بنفس العملية التي صنعت بها. وكانت هذه أداة عظيمة الأهمية للزراعة، لأنها سهلت إزالة أشجار الغابات ونباتاتها من أجل زراعة المحاصيل. ومن بعدها جاءت الجواريف الحجرية من أجل حراثة الأرض. كان تغير تقنية الحجر إذن مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بثورة إنتاج الغذاء؛ ومع أننا لا نعلم بالضبط تسلسل الأسباب والنتائج فإن العلاقة بين الاثنين أمر واضح.

إن هذه التطورات الكثيرة والمترابطة في حياة الإنسان خلال الحقبة النيوليتية تبرر اعتبارها مرحلة حاسمة في قصة البشرية. لقد استغرقت تلك التغيرات خمسة أو ستة آلاف سنة، وكانت نتيجتها الإجمالية أكبر تسارع في التطور الاقتصادي والاجتماعي قبل مجيء طاقة البخار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد. فبالإضافة إلى إطعام عدد أكبر من الناس، صار بالإمكان إطعامهم من دون أن يشاركوا في عملية تنمية الغذاء وإحضاره. ربما كان هناك بعض المختصين في أزمنة أبكر، ولكن التخصص الاقتصادي والتقني صار أكثر احتمالاً وأسهل بكثير مع اختراع الزراعة. وضمن تلك الجماعات الأكبر والأكثر استقرارًا صار هناك عدد أكبر من الحرفيين، الذين يقومون بأعمال - مثل صنع الأدوات والأغراض المزينة - ويأخذون مقابلها ما يلزم لمعيشتهم من غيرهم. وكانت بعض نشاطاتهم ذات أهمية كبيرة في إحداث فروق جديدة في حياة الأفراد بعضهم عن بعض، وفي تحقيق اكتشافات تقنية جديدة أيضًا.

من تلك الاكتشافات اكتشاف الفخار. ربما صُنع الفخار للمرة الأولى في اليابان في حوالى عام ١٠,٠٠٠ ق.م، ولكنه كان واسع الانتشار في الهلال الخصيب بعد بضعة آلاف من السنين. كانت الأوعية المصنوعة من الخشب وربما من الحجر أيضًا مستخدمة في أزمنة أبكر، ولكنها صارت أكثر ضرورة بقدوم الزراعة وإمكانية تخزين الطعام. لقد لاحظ بعضهم -ربما بطريق الصدفة- أن معاملة الطين بالنار تبدل من طبيعته، فصار بالإمكان صنع الأوعية بشكل أسرع وأسهل بكثير. وبالتالي صار من الممكن الطبخ بطرق مختلفة -وبالتالي زيادة تنويع الأطعمة- عدا عن تخزين الطعام -وبالتالي التخفيف من عناء تأمينه- كما أن الخزف يمكن تزيينه بسهولة إما بتلطيخه بالألوان أو بتغيير شكله، فقدّم بذلك وسيلة جديدة للفن، ولو أنه بقي فظًا لزمن طويل. وقد نتجت عن هذا كله سلسلة واسعة من النتائج. كان النسيج المحبوك اختراعًا نيوليتيًا آخر. كان الناس يرتدون التنانير منذ آلاف السنين، وربما بدت ملابسهم في أفضل الأحوال مثل الملابس التي كان يرتديها هنود أمريكا الشمالية في القرن الماضي(*)، أو الإسكيمو في القرن الحالي(**) -ويمكن اعتبار هذين الشعبين من شعوب العصر الحجري حتى وقت قريب- أما في الأزمنة النيوليتية فقد ظهرت أولى المواد المحبوكة - أي الأنسجة - في الشرق الأدنى.

تدل الزراعة والفخار والأنسجة وحدها على تغيرات واسعة خلال بضعة آلاف من السنين. لقد كانت تلك المرحلة بحق تمهيدًا لحضانة المرحلة التالية من تطور البشرية، وهي المرحلة التي مازلنا نعيش فيها، أي حقبة الحضارة. ولكن العصر

(*) التاسع عشر، لأن الكتاب صدر في عام ١٩٩٣.

(**) العشرين،

النيوليتي لا يقتصر على هذه التغيرات، بل حدث فيه تغير آخر يمتد إلى عصر الحضارة -لهذا لا يعتبره بعض العلماء جزءًا من العصر النيوليتي- ألا وهو اكتشاف استخدام المعادن.

قدوم التعدين

لقد غير استخدام المعادن عالم البشر على المدى الطويل بقدر ما غيرته الزراعة تقريبًا. إلا أن هذا التغيير حدث بشكل أبطأ وهو أصعب على التحديد، إذ كان لابد من حدوث أشياء كثيرة قبل الشعور بتأثيراته الكاملة. وقد بقيت الخامات قليلة لزمن طويل، حتى عندما اكتشف الناس كيف يعالجونها، وكان استخدام المعادن في مراحله الباكرة قليلاً ومتفرقًا و لم يكن ذا تأثير كبير. بالرغم من هذا تقع آثاره الأبكر ضمن الحقبة النيوليتية. كان النحاس أول معدن استغله الإنسان، وقد حدث هذا بين عامي ٧٠٠٠ و٦٠٠٠ ق.م في موقع بالأناضول، حيث كان من السهل إيجاد خاماته، كما أنه ظهر في قبرص وبعض جزر بحر إيجة. وتبين الدلائل انتشار استخدام النحاس رويدًا رويدًا نحو الغرب إلى حوض المتوسط، ثم إلى إيطاليا وهنغاريا على البر الرئيسي، بالإضافة إلى الجزر البريطانية.

في المراحل الباكرة كان النحاس يشغل بعملية التطريق، و لم يكن هذا ممكنًا إلا بالخامات النقية جدًا. وكانت الخطوة التالية هي سبكه – أي تسخينه إلى أن يصبح سائلاً ثم صبه في قوالب. وأخيرًا اكتشف الناس أن الخامات المشوبة يمكن تحسينها -بالحرارة أيضًا- من أجل الحصول على معدن أنقى. وعندما صارت هذه العمليات معروفة وضعت للتعدين نمطه الأساسي الذي سوف يستمر لآلاف السنين. وقد تابع التطور طريقه باكتشاف مصادر جديدة للخامات، وإجراء

التجارب عليها، واكتشاف معادن مختلفة وتخصيص استعمالها لأغراض معينة، والحصول على درجات حرارة أعلى لشغلها وتنقيتها، وبمزج المعادن أيضًا للحصول على معادن صنعية — أي ما نسميه اليوم سبائك.

يبدو أن أول سبيكة كانت البرونـــز، وهو مزيج من القصدير والنحاس، ويكفي مزج مثل واحد من القصدير مع عشرة أمثال من النحاس للحصول على نوع جيد منه. كان البرونـــز على درجة عظيمة من الأهمية، ومن هنا أتت تسمية عصر البرونـــز. لقد بقي الناس يعتقدون لزمن طويل أنه صنع واستخدم للمرة الأولى في بلاد الرافدين قبل عام ٣٠٠٠ ق.م بقليل، وكان من المعروف أنه كان يصنع في الصين بعد ذلك بحوالى ألف سنة. ولكن أشياء مصنوعة من البرونـــز في شمال شرق تايلاند قد أرخت مؤخرًا بعام ٣٦٠٠ ق.م، أي أنها أبكر ما اكتشف في العالم. وما زلنا بحاجة إلى أدلة أكثر قبل أن يتفق العلماء على تحديد أول مجتمع قديم استخدم البرونـــز، ولكن النقطة الأساسية هي أن عصر البرونـــز كان مرحلة في تطور المجتمع البشري تمكن فيها الإنسان من تلبية حاجاته الأساسية للمعادن عن طريق هذا المعدن المزيج. إن البرونـــز معدن أفضل بكثير من النحاس، إذ يمكن أن تصنع منه شفرات أكثر حدة بكثير وأطول عمرًا -أما النحاس فهو أضعف حتى من الصوان من هذه الناحية- و يمكن سبكه في قوالب بسهولة أكبر، وبالتالي صنع أشكال أكثر تنوعًا. وقد أضفى اكتشافه بالطبع أهمية على أماكن تواجد القصدير أيضًا، والتي كانت أحيانًا في نفس مناطق توضع النحاس.

إننا لا نعلم كيف حدث هذا التطور، ولكن ربما لاحظ بعضهم أن النحاس عندما يترك في فرن الخزف يذوب - ويمكن بالتالي صبه في قوالب. تتطور التقنية

دومًا بفضل نتائج جانبية، أي أن نتائج ثانوية لتطور ما تصبح خطوات أساسية في تطور آخر؛ فمقالي الطبخ الحديثة التي لا يلتصق بها الطعام مثلاً قد صنعت بالاستفادة من المعرفة بالمواد المقاومة للحرارة والناتجة عن بناء صواريخ الفضاء. وعندما تلاحَظ نتيجة ثانوية ما يبدأ الخبراء بإجراء التجارب عليها، فتعطي هذه التجارب نتائج جانبية أخرى. لقد قال بعض العلماء مؤخرًا إن عملية تنقية الخامات المعدنية لم تكتشف بطريق الصدفة، بل كانت نتيجة ما نسميه اليوم "أبحاثًا" وتجارب مقصودة، فإذا كان هذا الأمر صحيحًا فهو دليل واضح على أن البشر كانوا صانعي تغيير بصورة مقصودة منذ العصر النيوليتي.

لقد اكتشف الذهب أيضًا واستخدم منذ زمن باكر. والأرجح أنه كان يوجد في العالم القديم بشكل توضعات قريبة من سطح الأرض، فكان الحصول عليه أسهل منه في أزمنة لاحقة. ولكن استخدامه ظل محصورًا بأمور الزينة تقريبًا، بعكس النحاس الذي استفيد منه لصنع الأسلحة والأدوات عدا عن صنع أغراض الزينة، و لم يكن هذا الأمر ممكنًا باستخدام الذهب.

وحتى البرونز نفسه كان أقل أهمية للأسلحة والأدوات من معدن الحديد. والحقيقة أن استغلال الحديد يدخل في حقبة التاريخ وليس ما قبل التاريخ، لأنه لم يظهر إلا بعد أن كانت الحضارات الأولى قد ثبتت أقدامها، كما أن استعماله لم ينتشر بشكل واسع إلا بعد عام ١٠٠٠ ق.م، أي في زمن متأخر جدًا. وقد عاش جميع مستخدمي الحديد بعد بداية الحضارة ولو لم يكونوا متحضرين، أي أنهم عاشوا في الحقبة التي نعتبرها عادة حقبة التاريخ وليس ما قبل التاريخ. ولكن من المنطقي أن نتناول موضوع الحديد هنا، لأن قدومه هو فعلاً تتمة قصة التعدين في الأزمنة الباكرة، كما أن علماء ما قبل التاريخ مازالوا يتحدثون عن «عصر الحديد»

و«ثقافات عصر الحديد»، وهي تعابـــير لا تدل على حقبة معينة من الزمن، بل على مرحلة من الثقافة المادية. ويمكننا اعتبار عصر الحديد ذروة الحقبة النيوليتية ونهايتها معًا، ولو أن الشعوب التي تستخدمه قد عاشت لزمن طويل إلى جانب شعوب أخرى لا تستخدم إلا الأدوات الحجرية.

يتفق أكثر العلماء على أن شغل الحديد قد ابتدأ في آسيا الصغرى، مثل شغل النحاس، ولكن هناك اختلافات كثيرة حول تحديد ذلك المكان. لا ريب أن بداية شغل الحديد في هذا الجزء من العالم تفسَّر بتوفر خاماته المعدنية، فضلاً عن تنامي خبرة شغل المعادن الأخرى. إن تنقية الحديد تحتاج إلى حرارة أعلى بكثير من النحاس، وكان الناس في الأناضول يعرفون كيف يصنعون أفرانًا حرارتها عالية تكفي لصنع الفخار عن طريق إشعالها بالفحم النباتي ونفخ الهواء فيها. ولكنهم مع هذا لم يستطيعوا الوصول إلى حرارة كافية لصب الحديد في قوالب مثلما كانوا يفعلون بالنحاس والبرونـــز، لهذا بقي شغل هذا المعدن لزمن طويل مقتصرًا على عملية التطريق دون السبك.

لقد انتشر صنع الحديد انتشارًا سريعًا. هناك شعب أوربي سمي لاحقًا الشعب السلتي كان من أفضل شاغلي الحديد -وكان السلتيون ماهرين في شغل البرونـــز أيضًا، ولو أن الصينيين احتفظوا بقصب السبق لزمن طويل- ولكن استخدام الحديد كان معروفًا قبل ذلك في مناطق كثيرة؛ وأول شعب استخدمه بشكل كبير هو شعب من الأناضول اسمه الشعب الحثي. كان الحثيون يحكمون إمبراطورية كبيرة في الشرق الأدنى في حوالى عام ١٥٠٠ ق.م، وسوف يبيّنون أن النصر العسكري أيسر بكثير على من يمتلكون الأسلحة الحديدية، لأن السيف الحديدي أقوى بكثير من السيف البرونـــزي – فما بالك بالخنجر النحاسي أو الفأس الحجرية. إلا أن تأثير

الحديد في تغيير التاريخ كان أكبر من خلال استخدامه في الزراعة، فالأدوات الحديدية أفضل من أية أدوات أخرى لحراثة الأرض، لأنها مكّنت من الحفر بصورة أسهل وأعمق، فأمّنت بالتالي كميات أكبر من الطعام، ونتجت عن ذلك محاصيل أفضل. كما أمكن زراعة نباتات أعمق جذورًا، وصار قطع الأشجار أسهل أيضًا. ولكن تأثير الحديد بقي لزمن طويل بطيئًا جدًا كما كان غاليًا جدًا. وقد ظلت المحاريث الخشبية هي السائدة في روسيا -منذ مئة سنة فقط- ومازالت الملايين منها تعمل في كافة أنحاء العالم اليوم.

وتغيَّر شغل الخشب أيضًا بفعل المعادن. كانت الأدوات النحاسية والبرونــزية قد مكّنت من شغل الخشب على مستوى يجوز لنا أن نسميه «نجارة»، بينما سار به الحديد خطوة أخرى إلى الأمام. لقد أمَّن الحديد للناس أغراضًا أكثر للاستعمال والمتعة، وزاد من إمكانية التخصص في المهارات المختلفة. كانت أهمية المناطق الحاوية على خامات المعادن تزداد بشكل مستمر، وعندما نصل إلى عصر الحضارة يصبح بر أوربا أكثر أهمية للعالم الخارجي من أي وقت مضى بسبب ذلك، ويزداد اهتمام الغرباء بها. لقد بقيت الشعوب الأوربية لزمن طويل شعوبًا متخلّفة بالقياس إلى الشعوب الأخرى، ولكن قارتهم كانت غنيَّة بخامات يسهل استخراجها وغابات كثيفة خلّفها انسحاب الجليد يمكنها أن تؤمن الوقود. وكان المنقّبون من الشرق الأدنى قد بدؤوا يبحثون عن المعادن في أوربا قبل عام ٣٠٠٠ ق.م بزمن طويل، وبعد ألف سنة سوف تكون فيها مناطق عديدة مختصة بالتعدين، خاصة في إسبانيا واليونان ووسط إيطاليا، وسرعان ما ستصبح أوربا منطقة تصنيع كبرى عدا عن كونها منتجة للخامات. وقد كانت للتعدين بعض التأثيرات البيئية الضارة أيضًا، إذ يبدو أن استنفاد الخشب لم يبدأ بإزالة الأشجار من أجل الزراعة، بل بقطعها من

أجل الحصول على الفحم اللازم لصهر المعادن. ولكن هذه القصة تصل بنا إلى مرحلة متقدمة جدًا بالنسبة لعصر ما قبل التاريخ، وهي بداية موضوع هائل — هو قصة صعود أوربا رويدًا رويدًا حتى صارت في النهاية مسيطرة على العالم بفضل استغلال مواردها المعدنية والتقنية.

على عتبة التاريخ

تبدو الحيوانات التي تعيش في جماعات – مثل النمل والنحل وقطعان الأيِّل – على درجة عالية من التنظيم، كما تبدو خيرًا من البشر في الحفاظ على القواعد في مجتمعاتها. ولكن السبب هو أنها في الحقيقة مختلفة كل الاختلاف عن البشر، فهي لا تلتزم أبدًا بالقواعد –كما نفهمها نحن– بل تسلك سلوكًا آليًا تقريبيًا، أي أنها تفعل ما تفعله لأنها مبرمجة من خلال جيناتها أو من خلال أنماط سلوك محفورة فيها بصورة عميقة أو مغروزة، لذلك نسميها «غرائز». ولا يمكنها أن تسلك غير هذا السلوك إذا أرادت، بل إنها في الحقيقة لا تملك أن تريد أو لا تريد.

أما المجتمعات البشرية فأمرها مختلف. صحيح أنها مضطرة أن تأخذ بعين الاعتبار طبيعة البشر الأساسية بحاجاتها ودوافعها، ولكنها تقدم طرقًا مختلفة كثيرة للقيام بهذا الأمر، وكثيرًا ما يختار أفرادها هذه الطرق بإرادتهم. ففي كل أنحاء العالم مثلاً ينجذب الرجل والمرأة أحدهما إلى الآخر ويعيشان معًا وينجبان الأطفال، ولكن هناك الكثير من المجموعات المختلفة من القواعد التي يمكنهما أن يقوما بهذا الأمر ضمنها، وهذه القواعد وضعها البشر و لم تضعها الطبيعة. ففي إنكلترا لا يسمح لك القانون باتخاذ أكثر من زوجة واحدة أو زوج واحد في الوقت نفسه، بينما يجيز لك ذلك في بعض البلاد الأخرى. أو لنأخذ مثالاً آخر مختلفًا تمامًا. منذ بضع مئات من

السنين لم يكن ممكنًا في أوربا أن يتخذ المرء مهنًا معينة -كصنع الأحذية مثلاً- إلا بعد أن ينتمي إلى نقابة خاصة بمن يمارسون تلك المهنة ويخضع لقواعدها في طريقة أداءه لعمله. ثم انهار هذا النظام لأسباب مختلفة، وانخفضت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر القيود القانونية المفروضة على الإنسان في اتخاذ المهنة التي يريدها والعمل بها كما يشاء. ولكن بقي من الصعب في بعض البلاد أن يختار الإنسان مهنًا معينة من دون الانتماء للنقابة المهنية المناسبة. قد لا يبدو للوهلة الأولى أن لهذا الأمر علاقة بما قبل التاريخ، ولكنه يجب أن يلفت انتباهنا إلى حقيقة أن ما نسميه «مؤسسات اجتماعية» - أي طرقًا في تنظيم الناس لفعل الأشياء - هي إلى حد ما من اختيار المجتمعات المختلفة، وأنها قد تتباين كثيرًا من مجتمع إلى آخر. وقد كان هذا الأمر صحيحًا حتى في الأزمنة الباكرة.

تدل الفروق في الأساليب التقليدية لفعل الأشياء على أن بعض المجتمعات البشرية كانت قد أصبحت متميزة جدًا منذ نهاية الأزمنة قبل التاريخية. وكان نقشها لتقاليدها الخاصة قد ابتدأ منذ زمن بعيد في العصر الباليوليتي. إلا أن تلك الفروق قد صارت أكثر حدة بكثير مع الاستقرار، وكان هذا بالطبع نتيجة أخرى من نتائج قدوم الزراعة. في أعالي وادي أحد روافد نهر دجلة، على هضاب الأكراد، كانت هناك بحلول عام ٦٥٠٠ ق.م قرية صغيرة في مكان يدعى جَرمو. لم يكن أهلها يعرفون تسخين الفخار بعد، ولكن كانت لديهم منازل من الصلصال، وكانت أساساتها من الحجر أحيانًا وفيها أكثر من غرفة واحدة. وكان في بعض مساكنهم قطع أثاث ثابتة، مثل الأفران والأحواض المتوضعة في الأرض. وكان بإمكان سكانها أن يصنعوا أواني من الحجر الأملس عن طريق قطعه وشحذه، كما كانوا يصنعون منه أغراضًا للزينة مثل حبات الخرز والأساور. وكانوا يمارسون الزراعة وكانت

لديهم حيوانات مدجنة من نعاج وماعز وثيران وخنازير وكلاب أيضًا. ومنذ ذلك الحين كان بعض الناس في جرمو يتميزون عن غيرهم بامتلاك ثروات صغيرة – من أغراض زينة وأسلحة يعتزون بها. وكان هناك دور للأفراد المختصين في هذا المكان، إذ لم يكن هناك بد من تنظيم شؤونها والإشراف على عمليات الحصاد وتخزين المحاصيل، ولكن عدد الأشخاص في جَرمو لم يتجاوز بضع مئات على الأرجح. فإذا ابتعدنا غربًا إلى فلسطين، وجدنا أن أريحا كان يسكنها نحو ثلاثة آلاف شخص في ذلك الوقت، وكانت هذه مجموعة كبيرة من الناس. كانت في أريحا واحة هامة تحتاج إدارتها وصيانتها إلى تنظيم كبير، لذلك كانت الحاجة فيها للمهارات المختصَّة والحكومة المنظَّمة أكبر بكثير منها في جرمو. كانت تنشأ خلال العصر النيوليتي إذن، على الأقل في الشرق الأدنى، جماعات أكبر يؤدي لها الناس الولاء والطاعة، وكانت حياة البشر قد ابتعدت كثيرًا عن حياة القبائل الرحّل، وسارت باتجاه تنظيم الحياة الاجتماعية في وحدات أرضية مستقرة وخاضعة للقوانين نفسها. ومازالت هذه هي طريقة حكم الناس التي نألفها اليوم.

مازلنا نجهل كيف كان كل من الرجل والمرأة يرى دور الآخر في تلك المجتمعات الباكرة، ولكن لابد أن تكون جذور هذا الأمر كامنة في الحقائق البيولوجية والاقتصادية المذكورة آنفًا. لما كان أطفال البشر — وهم مستقبل القبيلة – محتاجين إلى الكثير من العناية المديدة، فقد ترسخ تقسيم العمل بين الجنسين على الأرجح قبل أن تصبح الجماعات أكثر استقرارًا، فصار الرجال يذهبون إلى الصيد وجمع الطعام، بينما تبقى النساء في البيت. وعلى هذا التقسيم سوف تنمو تقاليد مختلفة من التربية، فيذهب الصبية مع الرجال عندما يكبرون ويصبحون قادرين على مجاراتهم في الصيد –أو لا يعودون مصدر إزعاج لهم على الأقل– أما النساء فربما

كن يتعلمن مراقبة الحياة النباتية بعناية قرب البيت، فيجمعن المحاصيل المفيدة والمغذية، وربما كن يشكلن في أماكن كثيرة قوة العمل الأساسية في الزراعة - كما هي الحال اليوم. إننا نعلم بالتأكيد أنه قبل أن نصل إلى عصر التاريخ كانت قد ظهرت أشياء كثيرة سوف تصبح عادية طوال آلاف السنين، وسوف تستمر حتى اليوم.

لنأخذ عام ٥٠٠٠ ق.م كنقطة إشراف وهمية، وليس لهذا التاريخ أية ميزة خاصة عدا عن أنه سهل التذكر. في ذلك الزمان كان شكل الأرض قريبًا جدًا من شكلها الحالي، و لم تتغير أشكال القارات وحواجز الاتصال ومسالكه الطبيعية كثيرًا منذ ذلك الحين. كما يمكننا أن نعتبر المناخ قد استقر خلال هذه الفترة -لأن سبعة آلاف سنة هي فترة زمنية لا تذكر بالقياس إلى تقلّبات المناخ العنيفة على مدى مئات الألوف من السنين قبل آخر عصر جليدي- ولا يحتاج المؤرخ بعدها إلا للنظر في تقلباته القصيرة المدى. في المستقبل كان يقبع العصر -الذي مازلنا نعيش فيه- والذي كان أكثر التغيير فيه من صنع الإنسان.

كانت بعض أجزاء العالم في عام ٥٠٠٠ ق.م قد قطعت شوطًا بعيدًا ضمن الحقبة النيوليتية، فصارت حياة البشر كثيرة التنوع والتعقيد، ومختلفة جدًا عن حياة الإنسان المنتصب، الذي كان قد بقي على حاله في كل مكان تقريبًا رغم تطوراته الكبيرة. ولكن حياة الإنسان المنتصب كانت بدورها مختلفة جدًا عن حياة الأشكال الضعيفة البائسة من قرد الجنوب، التي كانت تتنقل حول البحيرة التي كانت تملأ ممر أولدُفاي الحالي منذ مليوني عام خلت، والتي لم تكن وسائلها في البقاء بأفضل من وسائل البهائم التي تزحف قربها وتشاركها موارد غذائها.

بحلول الأزمنة النيوليتية صرت في عالم ملأه البشر بتنوعهم وطاقاقم الكامنة، وسوف يزداد هذا التنوع. سوف تتطور بعض الجماعات البشرية بسرعة، بينما تتطور بعضها ببطء، وسوف تلعب قوى جديدة دورها في تطور البشر مع اتصال الشعوب المختلفة بعضها ببعض وتعلمها الواحد من الآخر، أو مع تفكيرها في خبراقما واندفاعها نحو تجارب جديدة. أي أن تنوع البشرية سوف ينشأ أكثر فأكثر من قدرقما على تغيير الأمور بشكل واع فضلاً عن حقائق البيئة العمياء. وسوف تكون النتيجة المزيد من التعقيد، فلم توجد يومًا إمكانيات لاختلاف خبرات البشر كما هي الحال في عالمنا اليوم. ولكن العالم كان متنوعًا جدًا حتى في عام ٥٠٠٠ ق.م، وليس ثمة خط واضح يفصل نهاية حقبة بشرية عن الأخرى، بل مرحلة زمنية ضبابية غير واضحة الحدود، فيندفع بعض الناس إلى الأمام على طريقهم نحو الحضارة، بينما يبقى غيرهم عالقين في العصر الحجري الذي سوف يظل بعضهم فيه آلاف السنين بعد.

لقد صار تسارع التغيير في هذا العالم هائلاً، وكان قد ابتدأ في زمن بعيد من مرحلة ما قبل التاريخ. ومن المهم هنا أن نرى الأمور بأبعادها الصحيحة. إن من يذكر اليوم أن الطائرة لم تكن موجودة في عام ١٩٠٠، وأن الطاقة الذرية لا يزيد عمرها عن نحو خمسين سنة، وأن الكثير من أمم أفريقيا لم تكن قد اختُرعت قبل أربعين عامًا، وأن مرض الأيدز لم يعرف إلا في الثمانينيات؛ يُعذر إذا شعر أن شيئًا لم يتغير لقرون طويلة في العصور الوسطى مثلاً، فقد بقي الناس في قسم كبير من أوربا يزرعون في القرن الخامس عشر بنفس الطريقة التي كانوا يزرعون بها في القرن التاسع. ولكنك إذا نظرت إلى الفن الأوربي - في الأبنية مثلاً - في عام ٨٠٠ للميلاد ثم بعد ذلك بخمسمئة سنة، وجدت أن تغيرًا كبيرًا جدًا قد حصل. أما فيما

يتعلق بأول الفنون التي ظهرت، أي فن العصر الباليوليتي الأعلى، فيقول لنا الخبراء إن رسوم الكهوف العظيمة تكاد تُظهر تغيُّراً لا يذكر في الأسلوب طوال خمسة أو ستة آلاف سنة. وإذا عدت إلى الماضي الأبعد، وجدت أن الاستمرار الطويل لطرق صنع الأدوات من الحجر دليل على بطء أكبر في التطور. وإذا رجعت إلى أزمان أبكر منها أيضًا وجدت أن التطور الفيزيولوجي للكائنات البشرية يمكن ملاحظته، ولكنه كان يبطء أنهار الجليد حتى بالقياس إلى التغيرات الهزيلة في الفن الباليوليتي .

إن السبب الحاسم لهذا التسارع الكبير في حدوث التغيير بحلول عام ٥٠٠٠ ق.م هو أن المصدر الأساسي للتجديد كان قد انتقل في ذلك الحين من القوى الطبيعية إلى البشر أنفسهم، وعند نهاية ما قبل التاريخ باتت قصة البشرية قصة اختيارات متزايدة. إن البشر يتخذون قرارات أكثر فأكثر للتصرف والتأقلم بأساليب معينة من أجل مواجهة مشاكلهم وتطوير طرق معينة في أداء الأشياء واستخدام مواد أو مهارات معينة. لهذا فإن ما يمكننا اعتباره أهم تغير على الإطلاق قد حدث في البداية، ولو أننا لا نستطيع أن نعلم زمانه أو مكانه بالتحديد. لقد حصل هذا عندما بدأ كائن ما ربما يكاد يكون بشريًا في أعيننا يفكر بالعالم كمجموعة من الأشياء المنفصلة والمتميزة عنه. ولو أمكننا أن نعلم متى حدث هذا التطور لربما كانت تلك خير بداية لما قبل تاريخ الإنسان، لأنها هي التي فتحت الطريق لاستخدام العالم. وتلكم هي قصة كل الانتقال من الحياة التي تشكّلها الطبيعة بصورة عمياء إلى الحياة التي تشكلها ثقافة البشر وتقاليدهم. ومن بعد ذلك يظهر ما يشبه الفائدة المركبة، لأنه مع ازدياد أعداد البشر اتسعت ساحات مواهبهم وتراكمت إنجازاتهم وخبراتهم التي يمكنهم التعويل عليها واستثمارها، وحتى الجماعات الصغيرة لم تعد بها حاجة لتجشم عناء تعلم كل شيء من البداية.

إلا أننا نعلم جيدًا أن البشر بالرغم من كل هذا قد خلقوا مشاكل جديدة بمثل سرعة حلهم للمشاكل القديمة، وأن قصة البشرية مليئة بالنكسات والفشل المأساوي أحيانًا. ولكن هذا الأمر يعود فيؤكد من جديد حقيقة أساسيَّة تتعلق بالبشر عند اقترابهم من حقبة خلق الحضارات الأولى - هي أنهم فريدون من ناحية قيامهم باستخدام العالم وتغييره بشكل واع. إن إحدى الطرق القليلة الجيدة لوصف الإنسان العاقل هي أنه قبل كل شيء حيوان صانع للتغيير، والدليل على هذا إنما يكمن فيما فعله - أي في تاريخه. وراء هذا التاريخ يقبع كل ما نظرنا إليه في هذا الكتاب نظرة سريعة، ملايين من السنين كانت خلالها الكائنات تتشكل بطرق جعلت البشر وحدهم من بين الرئيسات قادرين على قولبة مصائرهم، ومع أنهم لم يكونوا قادرين على فعل ذلك إلا ضمن حدود ضيقة، فإن أبكر الأدلة على تأثيره تعود إلى أزمان قديمة جدًا.

الفصل الثاني

أبكر الحضارات

جذور الحضارة

يقول البعض إن ما صنعه البشر الأوائل، حتى إذا اتفقنا على من كانوا، ليس تاريخًا على الإطلاق، ويشيرون إلى أننا لا يمكن أن نبدأ بفهم الناس فعلاً وكتابة تاريخ حقيقي إلا عندما تكون لدينا أدلة تعطينا صورة جيدة عن أفكارهم. ويعني هذا من الناحية العملية أنه يجب أن تكون بين أيدينا كلمات وأن نفهمها، لهذا لا يمكن أن يكون «التاريخ» كقصة لماضي البشر أقدم بكثير من الكتابة الأولى. لقد اكتُشف رمزان من الكتابة الصينية يقال إنهما يعودان لعام ٥٥٠٠ ق.م، إلا أن أول كتابة أكيدة قد اختُرعت بين عامي ٣٥٠٠ و ٣٠٠٠ ق.م. وخلال بضع مئات من السنين راح الناس يضعون سجلات مكتوبة بشكل نقوش في ألواح الحجر أو الصلصال، ثم تتسع تلك السجلات مع مرور الزمن اتساعًا كبيرًا باستخدام ورق البردي والرق والورق، إلى أن تغدو فيضًا متزايدًا من الوثائق المكتوبة التي تزودنا بالأدلة على الحقبة التي حدثت فيها أكثر التغيرات اللافتة والسريعة في طريقة حياة الناس. لقد انقلبت حياة البشر خلال الخمسة آلاف سنة الماضية، ويقول بعض العلماء إن هذا هو موضوع «التاريخ»، أي حقبة السجلات المدوّنة.

يسمى ما حدث قبل الكتابة عادة «ما قبل التاريخ»، وقد تركه المؤرخون لعلماء آخرين، وجميع الأدلة المستخدمة لاستكشافه هي أدلة غير مكتوبة. ولكن أشياء كثيرة قد ترسَّخت في ما قبل التاريخ فضمنت أن البشر سوف يتمكنون من الكتابة – فضلاً عن الهندسة والبناء والتنظيم وأشياء كثيرة غيرها. صحيح أن أشياء كثيرة قد حدثت خلال زمن قريب جدًا –أثناء الـــ ٥,٠٠٠ سنة الماضية تقريبًا– إلا أنها لم تبدأ من دون تحضير. ويقبع القسم الأطول من قصة البشرية في الأزمنة قبل التاريخية، لهذا بدأنا من هناك، لأننا عندما ننظر إلى بدايات الحياة المتحضِّرة ينبغي علينا أن نبتدئ أولاً بما كان يكمن وراءها.

كان ما حمله أجدادنا معهم إلى حقبة الحضارة ذا أهمية كبيرة في تشكيل الكيانات التي نسمِّيها حضارات، فلو لم يكتشف الناس أولاً كيف يصنعون الثياب لما تمكنوا من العيش على هذا الجزء الكبير من سطح الأرض الذي يسكنونه اليوم. إن استخدام الثياب مع كل ما جاء بعده، من الخياطة والنسج حتى اختراع المواد الخاصة برحلات الفضاء، هو علامة على قدرة البشر على التأقلم مع البيئات المختلفة. ولولا اختراع الثياب لتغيَّرت أشياء كثيرة، كالعلامات التي يستخدمها الناس للدلالة على هويتهم الجنسية مثلاً. ولا حاجة بنا للتخمين في هذه الأمور لأن الفكرة الأساسية بسيطة، وهي أنه لولا الميراث الذي حملته الجماعات البشرية الأولى من ماضيها لما تمكنت من صنع الحضارة. والحقيقة أن بعضها لم تصنعها قط، بل كان عليها أن تنتظر قدومها إليها من الخارج.

إن تحديد ما يشكل «حضارة» يشبه قليلاً تحديد البشر الأوائل، لأن ثمَّة مرحلة زمنية ضبابية نعلم أن تحولاً قد حصل فيها، وقد نتفق على تحديد الزمن الذي

تم فيه عبور خط ما، أما البحث عن تواريخ دقيقة فهو أمر لا جدوى منه. نحن نعلم أنه في حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م كانت توجد في كافة أرجاء الشرق الأدنى قرى زراعية قادرة على تأمين فائض زراعي. بعض تلك المستوطنات الصغيرة كانت فيها ممارسات دينية معقّدة، وكانت تصنع خزفًا ملونًا متقنًا، وقد كان الخزف فنًا واسع الانتشار في الحقبة النيوليتية. ولكننا عندما نستعمل كلمة حضارة نعني بها عادة شيئًا أوسع من وجود طقوس ما، أو فن أو تقنية معينة، وهي بالتأكيد أكثر من مجرد تجمُّع للناس في مكان واحد، ولو أن للحجم أهمّيته. والأفضل أن نبدأ بما اتفق الناس على اعتباره حضارات.

الحضارات الأولى

بزغت الحضارات الأولى بين عامي ٣٥٠٠ ق.م و ٥٠٠ ق.م، واستهلت العصر الذي صارت فيه كل التغيرات الهامة في حياة البشر من صنع الإنسان نفسه. وفيها يمكننا البحث عن أسس عالمنا نحن، لأنها مازالت تحدد جزءًا كبيرًا من الخريطة الثقافية للعالم حتى اليوم. لقد كانت تلك الحضارات نتيجة امتزاج مهارات البشر وعوامل الطبيعة بأشكال معينة، فأعطت في كل حالة مستوى جديدًا من الحياة المبنيَّة على استغلال الطبيعة صحيح أن أبكر الحضارات قد ظهرت كلها خلال بضعة آلاف من السنين - وهي تكاد تكون لحظة صغيرة أمام حقبة ما قبل التاريخ المديدة - ولكنها لم تظهر بشكل متزامن، ولا كانت على نفس الدرجة من النجاح، فقد اندفعت بعضها إلى الأمام فأحرزت إنجازات دائمة، بينما تقهقرت بعضها الأخرى أو اختفت، ولو من بعد ازدهار مذهل. إلا أنها جميعًا قد أظهرت ازديادًا حادًا في سرعة التغيُّر ومستواه بالقياس إلى أي من إنجازات الأزمنة الأبكر.

يبدأ تسلسل الأمور بشكل تقريبـــي في حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م في بلاد الرافدين، عندما ظهرت للعيان أول حضارة يُعترف بها. وظهرت الحياة المتحضِّرة في مصر في تاريخ لاحق ولكنَّه باكر أيضًا، ربما في حوالى عام ٣١٠٠ ق.م. ثم نجد في جزيرة كريت بحلول عام ٢٠٠٠ ق.م تقريبًا معلمًا آخر هو الحضارة التي تسمى الحضارة المينوية. ومنذ ذلك الحين يمكننا تجاهل موضوع الأسبقيات في شرق المتوسط والشرق الأدنى، لأن المنطقة أمست مكونة من مركَّب من حضارات متداخلة ومتبادلة في التأثير. في تلك الأثناء، ربما بحلول عام ٢٥٠٠ ق.م، كانت الحضارة قد نشأت في الهند، أما حضارة الصين فتبدأ بعدها في نحو منتصف الألف الثانية ق.م، وهي حالة منعزلة تدل على أن التفاعل قد لا يكون بالضرورة عاملاً هامًا في تفسير ما يحدث. ومنذ ذلك الحين لم تظهر حضارات من دون تحفيز خارجي أو صدمة أو ميراث من حضارات أخرى نضجت قبلها، إلا في أمريكا الوسطى والجنوبية.

ليس من السهل أن تجد أمورًا مشتركة بين الحضارات الأولى عدا عن اعتمادها الكامل على الزراعة المحلية، وإنجازها الكتابة، وتنظيمها المجتمع على مستوى جديد في المدن. وحتى إذا كانت تقنيتها متقدِّمة بالقياس إلى تقنيَّات أسلافها غير المتحضِّرين، فإن مصادر الطاقة فيها مازالت قوة عضلات الحيوان والإنسان التي كانت تستخدمها لتلبية أغراضها المادية. وقد ظل شكل تلك الحضارات وتطورها يتحددان إلى درجة كبيرة ببيئتها، ولكنها بدأت تقضم قيود الجغرافية وتزداد قدرة على استغلالها والتغلب عليها. إن تيارات الرياح والمياه التي كانت توجّه السفر البحري الباكر مازالت اليوم هي هي، وحتى في الألف الثانية

ق.م كان الناس يتعلّمون تسخيرها لمنفعتهم، لذلك كانت إمكانيات التبادل والتفاعل بين البشر منذ زمن باكر جدًا أوسع بكثير منها في الأزمنة قبل التاريخية.

بعض معالم التطور الزراعي

في الحضارات الباكرة

٨٠٠٠–٥٠٠٠ ق.م	زراعة أنواع مدجَّنة من القمح والشعير، تدجين الغنم والماعز والبقر في جنوب غرب آسيا والأناضول واليونان وفارس وحوض بحر قزوين. انتقال تقنيَّات الزرع والحصاد من آسيا الصغرى إلى أوربا. زراعة الدخن -الجاورس- في الصين.
٣٤٠٠–٣١٠٠	استخدام الكتان لصنع الأنسجة في مصر، وأول دليل على الحراثة وتقليب الأرض وتسميدها فيها.
٣٠٠٠	الحمير تستخدم للحمل في مصر. السومريون يزرعون الشعير والقمح والتمر والكتان والتفاح والخوخ -البرقوق- والعنب.
٢٩٠٠	تدجين الخنـــزير في شرق آسيا.
٢٥٤٠	تعتبر بداية صناعة الحرير في الصين.
٢٥٠٠	الأفيال المدجَّنة في وادي نهر الهندوس. البطاطا تزرع في البيرو.
٢٣٥٠	صناعة الخمر في مصر.
١٦٠٠	زراعة الكرمة والزيتون في كريت.

١٥٠٠–١٣٠٠	الشادوف يستخدم للري في مصر، وأدلة على قنوات الماء فيها.
١٤٠٠	المحاريث الحديدية تستخدم في الهند.
١٢٠٠	الجمال المدجّنة في شبه الجزيرة العربية.

لا يجوز إذن أن نجزم في أصول الحضارات أو أسباب نشوئها أصلاً، لأن الحضارة لم تظهر بطريقة واحدة. لا ريب أنها كانت تنتج عادة من تضافر عدد من العوامل التي تؤهّب منطقة معينة لإعطاء شيء معقّد يُعترف به فيما بعد كحضارة، ولكننا لا نعلم ما هي العوامل التي تسرّع هذه العملية أو تطلقها. لقد كانت البيئات والتأثيرات الخارجية والمواريث الثقافية تختلف من مكان إلى آخر، لذلك لم يكن تطور البشرية بنفس السرعة ولا نحو النتائج نفسها في كل مكان. إن البيئة الجغرافية المناسبة هي عامل أساسي، ولكن للثقافة أهميتها أيضًا. لقد كان على الشعوب أن تستغل بيئاتها وأن تواجه التحدّيات، ومن الواضح أن وديان الأنهار كما في بلاد الرافدين ووادي الهندوس والصين ومصر كانت بيئات ملائمة، لأن أراضيها غنيَّة وسهلة الزراعة وقادرة على إطعام جماعات كثيفة من الفلاحين في قرى سوف تنمو لتشكّل المدن الأولى. إلا أن الحضارات قد ظهرت أيضًا في بيئات مختلفة جدًا، مثل ميزو–أمريكا(*) وكريت المينوية واليونان، ونحن نعلم عن وجود تأثيرات خارجية هامة في الحالتين الأخيرتين، ولكن مصر ووادي الهندوس أيضًا كانا على اتصال ببلاد الرافدين منذ زمن بعيد جدًا. وقد تكون الاتصالات الخارجية هامة حتى في

(*) الجزء المتحضر من المكسيك وأمريكا الوسطى قبل زمن الإسبان – الموسوعة البريطانية .

حالة الصين، ولو بدت منعزلة عن العالم الخارجي تقريبًا للوهلة الأولى. كان الناس يقولون في السابق بالبحث عن مصدر مركزي واحد للحضارة أتت منه جميع الحضارات الأخرى، ولكن هناك حالة الحضارات المنعزلة في القارتين الأمريكيتين التي يصعب تفسيرها بهذه النظرية، كما أنه من الصعب جدًا أن نضع تسلسل هذا الانتشار المفترض بشكل يتفق مع تحسُّن معلوماتنا عن التواريخ القديمة بفضل استخدام طريقة الكربون المشع.

الحقيقة أن تمييز الحضارات الباكرة بعد ظهورها أسهل من معرفة طريقة نشوئها، ولا يمكننا إعطاء أحكام مطلقة تنطبق على نشوئها جميعًا. إننا نطلق كلمة حضارة على تفاعل البشر بطريقة خلاّقة جدًا، عندما تتراكم كمية حاسمة من القدرة الثقافية والموارد المادية، فتتحرر طاقات البشر على التطور الذي يسير عندئذ بقوته الذاتية. تضم الحضارة الجهود المشتركة لأعداد أكبر من الناس، وذلك بضمهم معًا في تجمعات أكبر، وإن كلمة حضارة civilization مرتبطة بكلمة لاتينية تعني المدينة city، وقد قدمت المدينة أكثر من أية مؤسسة أخرى ذلك التجمع الكبير والحاسم من البشر، ودعمت الإبداع بأكثر من أية بيئة أخرى -حتى الآن- ففي المدن الأولى استُخدمت الثروة الناتجة عن الزراعة لإعالة طبقات الكهنة، التي طورت بنى دينية معقدة، وشجعت على تشييد أبنية كبرى لها وظائف أوسع من دورها الاقتصادي، وبهذا خُصصت موارد أكبر بكثير من الأزمنة السابقة لأغراض غير الاستهلاك المباشر. ومع ظهور الكتابة تركّز تخزين الأعمال والخبرات، وباتت هذه الثقافة المتراكمة بالتدريج أداة أكثر فأكثر فعاليَّة في تغيير العالم.

مع قدوم الحضارة ازداد تباين الشعوب بعضها عن بعض سرعة في أصقاع العالم المختلفة. إن أوضح حقيقة حول الحضارات الباكرة هي التنوع المدهش بين أساليبها المختلفة، ولكننا نغفل هذه الحقيقة في العادة بسبب وضوحها الكبير. لقد سبب قدوم الحضارة تباينًا متزايدًا وسريعًا في الملابس والعمارة والتقنيَّة والسلوك والأفكار والأعراف الاجتماعية. ولا ريب أن حقبة ما قبل التاريخ قد أعطت مجتمعات تختلف فيما بينها في أنماط الحياة والعادات والذهنية عدا عن صفاتها الجسمانية المختلفة، إلا أن غياب الثروة والتقنية المتخصصة في ذلك الحين قد حد من درجة الاختلاف. أما مع الحضارات الأولى فيصبح التمايز أوضح بكثير، وهو نتيجة للطاقة الخلاقة للحضارة نفسها. ومنذ الحضارات الأولى حتى يومنا هذا توجد في الوقت نفسه نماذج متباينة من المجتمعات البشرية التي تؤثّر إحداها في الأخرى وتخصبها، سواء كان ما تعرفه إحداها عن الأخرى كثيرًا أو قليلاً. إن جزءًا كبيرًا من هذه القدرة الجديدة عصيّ على الكشف اليوم، لأن معلوماتنا زهيدة جدًا عن حياة الفكر في المراحل الأولى من الحضارة، إلا ما يتعلق منها بالمؤسسات -حسبما نفهمها- والرموز المقصودة، والإشارات غير المقصودة في الفن، والأفكار المجسَّدة في الأدب.

تفاعل الثقافة في الهلال الخصيب

يظهر هذا التفاعل المتبادل بين الثقافات المختلفة واضحًا للمرة الأولى في الشرق الأدنى. فقد تعرضت هذه المنطقة لاضطراب عظيم بسبب قدوم عروق مختلفة إليها ورحيلها عنها طوال ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، فأغنتها ومزقتها في الوقت نفسه. وسوف يصبح الهلال الخصيب في الجزء الأكبر من الأزمنة التاريخية بوتقة عظيمة للثقافات، ومنطقة للاستيطان والعبور أيضًا، تدفق الناس عبرها

يتبادلون الأفكار والمؤسسات واللغات والمعتقدات، التي مازال الكثير منها يؤثّر فينا اليوم.

كان السبب الأساسي لترحال الشعوب هو على الأرجح زيادة عدد السكان في مواطنها الأصلية. إلا أن عدد سكان العالم في نحو عام ٤٠٠٠ ق.م قد قُدِّر بثمانين إلى تسعين مليونًا فقط، وسوف يزداد خلال الأربعة آلاف سنة التالية بمعدَّل خمسين بالمئة ليصبح مئة وثلاثين مليونًا تقريبًا. إن معدَّل هذه الزيادة ضئيل جدًا بالقياس إلى الأزمنة اللاحقة، وهو يدل على البطء النسبي في تزايد قدرة البشر على استغلال العالم الطبيعي، ولكنه في الوقت نفسه انقطاع ديمغرافي هائل يميز هذه الحقبة عن الأزمنة قبل التاريخية. كان هذا التزايد يعتمد على هامش ضئيل جدًا من الموارد، فقد كان بإمكان الجفاف والقحط أن يدمرا موارد الغذاء في منطقة ما بصورة حادة ومفاجئة، ولابد أن يؤدِّي هذا إلى خطر المجاعة، وهي واحدة من القوى الأولى المحركة للتاريخ الباكر. فطوال آلاف السنين لم يكن بالإمكان نقل الغذاء إلا بواسطة الحيوان، لذلك كان الجفاف أو العواصف المدمرة أو حتى ارتفاع الحرارة أو انخفاضها لسنوات قليلة تجبر الشعوب على الترحال، فتدفع التقاليد المختلفة بعضها إلى بعض، فتتصادم وتتعاون وتتعلم إحداها من الأخرى، وتزداد بذلك غنى وقدرة على التطور.

يمكننا تمييز شعوب أزمنة الحضارة الباكرة في الهلال الخصيب من خلال الفروق اللغوية فيما بينها. وتنتمي تلك الشعوب كلها إلى واحدة من مجموعات أربع هي: مجموعة نشأت في أفريقيا إلى الشمال والشمال الشرقي من الصحراء الكبرى تسمى «الحاميّة»، ثم مجموعة «الساميين» الذين نشؤوا في شبه الجزيرة

العربية، ومجموعة «الهنود الأوربيين» الذين نشؤوا في جنوب روسيا وانتشروا بحلول عام ٤٠٠٠ ق.م أيضًا إلى أوربا وإيران، وأخيرًا المجموعة التي يمكن أن نسمِّيها «قوقاسية» وأصلها من جورجيا ومنطقة القوقاس. ويبدو أن الجزء الأكبر من الهلال الخصيب كانت تسكنه مجموعة القوقاسيين هذه في حوالى عام ٤٠٠٠ ق.م، وهم أبطال القصة الأساسيون في أبكر تاريخ للشرق الأدنى. ولكن الشعوب السامية أيضًا كانت قد بدأت بالتغلغل في المنطقة في ذلك الحين؛ وفي منتصف الألف الثالثة ق.م كانت قد ثبتت أقدامها في وسط بلاد الرافدين على امتداد الألسنة الوسطى لنهري دجلة والفرات. لقد تمكن القوقاسيون من التمسك بالمرتفعات المحيطة ببلاد الرافدين من الشمال الشرقي، وكان التفاعل والتنافس بين الشعوب السامية والقوقاسية موضوعًا مستمرًا في التاريخ الباكر لهذه المنطقة. بحلول عام ٢٠٠٠ ق.م كانت قد دخلت المسرح شعوب أخرى تشكل لغاتها جزءًا مما يسمى المجموعة «الهندية الأوربية». من هذه الشعوب الشعب الحثي الذي اندفع إلى الأناضول قادمًا من أوربا، بينما كان شعب هندي أوربي آخر هو الشعب الإيراني يدخل من الشرق. وبين عامي ٢٠٠٠ ق.م و ١٥٠٠ ق.م تنازعت واختلطت فروع من هاتين المجموعتين مع الشعوب السامية والقوقاسية في الهلال الخصيب نفسه، بينما يكمن التفاعل بين الحاميين والساميين وراء قسم كبير من التاريخ السياسي لمصر القديمة. إن هذا السيناريو المشوش هو بالطبع عام للغاية وتفاصيله غير أكيدة، ولكن بالرغم من هذا تبقى هجرات الشعوب ضمن هذا النمط العام هي الخلفية التي ظهرت عليها الحضارة الأولى وازدهرت، مهما كانت طبيعة تلك الهجرات وأسبابها.

سومر

لقد ظهرت تلك الحضارة الأولى في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين، أي في أرض العراق الحالية. فعلى هذه الأرض التي يبلغ طولها ٧٠٠ ميل(*)، والتي يشكّلها واديا نهري دجلة والفرات، كان الناس يعيشون منذ زمن طويل. وقد صارت في الأزمنة النيوليتية مكتظة بالقرى الزراعية، ويبدو أن بعض أقدم المستوطنات كانت في أقصى الجنوب. كان الساحل الجنوبي لبلاد الرافدين أعلى بنحو ١٠٠ ميل(*) إلى الشمال مما هو عليه اليوم، وبفضل قرون طويلة من تصريف مياه النهرين الكبيرين من الداخل وفيضاناتهما السنوية تراكمت تربة على درجة عظيمة من الخصب في المناطق المحيطة بالدلتا. وكانت المحاصيل تنمو بيسر إذا ما توفر الماء بشكل مستمر وآمن، وكان هذا الأمر ممكنًا في العادة لأن قاع النهر كان أحيانًا أعلى من مستوى الأرض المجاورة، أما المطر فقد كان شحيحًا وغير منتظم. وقد ظهرت هنا في زمان باكر إمكانية زراعة كمية تزيد عن حاجة الاستهلاك اليومي، وهذا الفائض هو الذي سمح بظهور حياة المدن، كما كان صيد السمك من البحر المجاور ممكنًا أيضًا.

كانت هذه البيئة تحدِّياً وفرصة في الوقت نفسه، لأن دجلة والفرات قد يغيِّران أحيانًا مجريهما بشكل مفاجئ وعنيف، لذلك كان من الضروري تدبير أرض الدلتا المستنقعيَّة الواطئة عن طريق تكويم السدود وحفر الأقنية من أجل تصريف المياه. كانت تُصنع منصَّات من القصب والطين لتبنى عليها أولى المساكن

(*) ١١٠٠ كم تقريبًا.

(*) ١٥٠ كم تقريبًا.

في بلاد الرافدين، وقد بقيت تلك التقنيَّات مستخدمة حتى هذا القرن(*). وكانت الرقع الصغيرة المزروعة من الأرض تتجمَّع حيث تكون التربة في أخصب حالاتها، ولم يكن بالإمكان تدبير أمور تصريف المياه والري اللازمة إلا بشكل جماعي. لقد اضطرَّهم هذا بلا ريب إلى التنظيم الاجتماعي من أجل استصلاح الأراضي، ومعه ظهر نوع من السلطة المشروعة. وكيفما حدث ذلك، فإن استصلاح الأراضي من المستنقعات المائية في سومر كان أول إنجاز من نوعه على ما يبدو، ولا بد أن يكون قد دفع إلى درجة جديدة من التعقيد في طريقة عيش أهل بلاد الرافدين معًا.

ومع زيادة أعدادهم صاروا يأخذون مساحات أكبر من الأرض من أجل الزراعة، وعاجلاً أو آجلاً سوف يتواجه سكان القرى المختلفة بسبب الحاجة لاستصلاح المستنقعات التي تفصل بينهم، بل ربما كانوا على اتصال بعضهم ببعض قبل ذلك بسبب حاجات الري المختلفة، وقد كان أمامهم أحد خيارين: إما الاقتتال أو التعاون؛ وفي مرحلة ما من هذا التطور بات من المنطقي أن ينضم الناس بعضهم إلى بعض في مجموعات أكبر من أجل حماية أنفسهم فضلاً عن تدبير بيئتهم.

من النتائج الماديَّة لهذا التطوُّر ظهور المدن. كان مقام الإله المحلي محاطًا بسور من الطين في البداية لصد الفيضانات والأعداء، ثم صار يُرفع على منصة فوق مستوى المياه، وكان من الطبيعي أن يُختار هذا المقام موقعًا لمستوطنة أكبر: فقد كان الإله يقف وراء سلطة الجماعة، التي يمارسها كاهنه الأكبر، والذي أضحى رئيس حكومة دينية صغيرة تتنافس مع غيرها.

(*) العشرين.

يفسِّر مثل هذا الأمر الفرق بين جنوب بلاد الرافدين في الألفين الثالثة والرابعة ق.م من جهة، والمناطق الأخرى ذوات الثقافة النيوليتية التي كانت على اتصال بها عندئذ من جهة أخرى. صحيح أنه كانت هناك أشياء كثيرة مشتركة تجمع بلاد الرافدين والأناضول وأشور وإيران في العصر النيوليتي، ولكن في هذه المنطقة الصغيرة وحدها بدأ ينمو ويتبلور بصورة أسرع نمط من قرى الشرق الأدنى ليصبح شيئًا جديدًا، هو أول مدنية حقيقية. كانت لتلك المدنية مراكز كثيرة، وكانت فيها أول حضارة يمكن تمييزها، أي حضارة سومر، وهو الاسم القديم لأقصى أجزاء بلاد الرافدين جنوبًا. يطلق اسم السومريين على الذين كانوا يتحدثون لغة سميت فيما بعد اللغة السومرية، وهم على الأرجح ذوو جذور قوقاسية. ومازال العلماء منقسمين حول زمان وصولهم إلى المنطقة، ولكنهم كانوا في عام ٤٠٠٠ ق.م قد رسخوا أقدامهم فيها. والحقيقة أن سكان سومر المتحضِّرة صاروا مزيجًا من الأعراق، وربما كان بينهم سكان أبكر من هذه المنطقة، وكانت في ثقافتهم عناصر أجنبيَّة ومحليَّة.

كان السومريون الأوائل يعيشون في قرى مثل جيرانهم، وكانت لديهم بعض مراكز العبادة الهامة والمسكونة بصورة مستمرة منذ زمن طويل. منها مركز في مكان يدعى أريدو(*)، نشأ على الأرجح في حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م، ثم راح ينمو بشكل مستمر حتى وقت متقدم من الأزمنة التاريخية، وفي منتصف الألف الرابعة كان فيه معبد يعتقد بعضهم أنه كان النموذج الأصلي لعمارة النُصُب في بلاد الرافدين، ولكن لم يبق منه اليوم إلا المنصة التي كان يقوم عليها. لقد بدأت مراكز

(*) هي اليوم أبو شَهرَين القريبة من أور

العبادة هذه كأماكن للتعبُّد والحج، و لم يكن فيها عدد هام من السكان المقيمين، إلا أن المدن تبلورت من حولها -فيما بعد- ويساعد هذا الأمر في تفسير العلاقة الوثيقة التي ظلت قائمة دومًا بين الدين والحكم في بلاد الرافدين القديمة.

سومر الباكرة

حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م	اللغة السومرية متداولة
حوالى عام ٤٠٠٠	الاستقرار في الموقع الذي سيصبح بابل فيما بعد
حوالى عام ٣٥٠٠	اللغة السومرية تظهر بشكل مكتوب
حوالى عام ٢٨٠٠	السلالة السومرية الأبكر
حوالى عام ٢٣٥٠-٢٢٠٠	حكم سرجون الأول وسلالة أكّد
حوالى عام ٢١٥٠	الغوتيون والأموريون يطيحون بالسلالة الأكدية
حوالى عام ٢٠٠٠	عودة الحكم الأكدي باسم سلالة أور الثالثة
حوالى عام ١٨٠٠-١٦٠٠	تفوق بابل على سومر

الكتابة

استمرت الحضارة السومرية من عام ٣٣٠٠ إلى عام ٢٠٠٠ ق.م تقريبًا. فمنذ زمن باكر جدًا كان الناس فيها يصنعون أختامًا أسطوانية الشكل، محفور عليها صور صغيرة يدورونها على الصلصال. ومن هذه الصور طور السومريون صورًا مبسطة كانوا ينقشونها على ألواح الصلصال بواسطة ساق القصب، فكانت هذه

خطوة كبيرة نحو الكتابة الحقيقية. ثم تطورت هذه إلى أسلوب يسمى الكتابة المسمارية، تستخدم إشارات ومجموعات من الإشارات للدلالة على الأصوات والمقاطع الصوتية. وقد أدى استخدام الكتابة المسمارية إلى تحسن في تبادل المعلومات لا سابق له، وسهَّل كثيرًا العمليات المعقدة من ري الأراضي والحصاد وتخزين المحاصيل، فمكَّن بالتالي من استغلال الموارد بفعالية أكبر، كما أنه متَّن الحكم بصورة كبيرة وارتباطاته بطبقات الكهنة الذين كانوا يحتكرون معرفة الكتابة في البداية.

لقد حفظت لنا الكتابة -منذ ذلك الحين- أعدادًا كبيرة من السجلات، وأتاحت لنا معرفة أشياء كثيرة عن ذلك الزمان لأنها حفظت الأدب، فصار بإمكاننا أخيرًا أن نتعامل بالعملة الصعبة عند الحديث عن الأفكار. إن أقدم قصة في العالم هي ملحمة كلكامش، وهي رواية ظهرت في الأزمنة السومرية، ودُوِّنت بعد عام ٢٠٠٠ ق.م بقليل. كان كلكامش رجلاً حقيقيًا يحكم مدينة أُرُك (أوروك)، وقد صار كذلك أول فرد وأول بطل في الأدب العالمي، وإن اسمه هو أول اسم شخص يجب ذكره في هذا الكتاب. إن أكثر ما يلفت نظر القارئ الحديث في تلك الملحمة هو قدوم طُوفان عظيم يقضي على البشرية جمعاء، ما خلا عائلة محظية نجت بفضل بنائها فُلكًا، ومنها ينشأ عرق جديد ليعمِّر الأرض من بعد همود الطوفان. ولا تجد هذه القصة في أقدم نسخ الرواية، بل في قصيدة منفصلة تظهر بأشكال كثيرة في الشرق الأدنى -وبعد ذلك في العهد القديم لليهود- وسبب دمجها في الملحمة السومرية واضح، لأن الفيضانات كانت كوارث مميزة لجنوب بلاد الرافدين، وقد حاول

علماء الآثار تحديد فيضان كارثي مفرد كان وراء أسطورة الفُلك، ولكنهم لم يتوصلوا إلى نتائج مقنعة، ولو أن هناك أدلة وافرة على حدوث الفيضانات المتكررة.

من الصعب أن ننفذ إلى التاريخ من خلال هذه الملحمة، فما بالك أن نعرف عن علاقتها بشخصية كلكامش التاريخية. تقول الملحمة إن الأرض تبزغ في النهاية من الماء، فربما كانت هذه رواية السومريين عن خلق العالم، عن تكوينه. وفي الكتاب المقدس المسيحي أيضًا تبزغ الأرض من المياه بإرادة الله، وقد ظلت هذه الرواية مقنعة لأكثر الناس المثقّفين في أوربا طوال ألف سنة، فنحن إذن ندين بشيء من تراثنا الفكري لأسطورة بناها السومريون بعناصر مما قبل تاريخهم، عندما كانت الأراضي الزراعية تُستصلح من مستنقعات دلتا ما بين النهرين.

لقد ظلت الأفكار السومرية واسعة الانتشار في الشرق الأدنى بعد أن انتقلت بؤرة التاريخ بعيدًا عن بلاد الرافدين بزمن طويل، وظهرت نسخ وأجزاء مختلفة من تلك الملحمة في أراشيف وبقايا شعوب كثيرة في أنحاء مختلفة من هذه المنطقة في الألف الثانية ق.م. ورغم أن كلكامش قد توارى عن الأنظار إلى أن أعيد اكتشافه في الأزمنة الحديثة، فقد بقي طوال ألفي سنة تقريبًا اسمًا معروفًا يذكره الأدب في لغات كثيرة. وقد عاشت اللغة السومرية أيضًا قرونًا في المعابد ومدارس الكتبة، مثلما استمرت اللاتينية بين المتعلمين في أوربا من بعد انهيار العالم الكلاسيكي الغربي لروما.

الديانة السومرية

تجسد تقاليد الكتابة واللغة أفكارًا وصورًا تجعل الناس يرون العالم بأساليب معينة، فتفتح لهم طرقًا وتحدّ طرقًا أخرى، أي أن لها وزنها التاريخي. تعطينا ملحمة

كلكامش بعض المعلومات عن آلهة بلاد الرافدين في زمن باكر، وكانت أهم الأفكار التي بقيت حيَّة بفضل اللغة السومرية أفكارًا دينية على الأرجح. في حوالى عام ٢٢٥٠ ق.م كان قد ظهر مَجمع من الآلهة الفردية تُجسِّد إلى حد ما عناصر الطبيعة وقواها، وسوف تبقى هذه الآلهة هي العمود الفقري لديانة بلاد الرافدين طوال آلاف السنين، وبداية اللاهوت. كان للمدن في الأصل آلهتها الخاصة بها، التي كانت تشكِّل تسلسلاً هرميًّا فضفاضًا يعكس النظرة إلى المجتمع البشري ويساهم في صياغتها أيضًا، وقد أعطي لكل منها نشاط أو دور خاص، فكان هناك إله للهواء، وإله للماء، وإله للمحراث، وإلهة للحب والتكاثر -ولكن للحرب أيضًا- وعلى قمة هذا الهرم كان يتربع ثالوث مؤلف من ثلاثة آلهة مذكرة كبرى: هي أب الآلهة، و«السيد الريح» الذي لا يمكن فعل شيء من دونه، وإله للحكمة والمياه العذبة التي تعني الحياة نفسها بالنسبة إلى سومر. وإن هذه الصورة لدليل على نظرة إلى عالم ما فوق الطبيعة لا مثيل لها في تعقيدها وغناها في ذلك الزمان الباكر. ثم إن هناك ملاحظة هامة أخرى هي أن المعابد كانت تزداد حجمًا وفخامة بمرور القرون ومن أسباب ذلك أنهم كانوا يبنون المعابد الجديدة على بقايا القديمة منها- وكانوا يقدِّمون فيها الذبائح لضمان جودة المحاصيل، وبلغنا أن أحدها قد بني بأرز مجلوب من لبنان ونحاس من الأناضول. لن تجد في ذلك الزمان مجتمعًا أعطى الدين مثل هذه المكانة البارزة، أو كرس مثل هذا القدر من موارده الجماعية لدعمه، وربما كان السبب أنه لا يوجد مجتمع قديم أعطى الناس الشعور بمثل هذا الاعتماد المطلق على مشيئة الآلهة. إذ يبدو أن بلاد الرافدين السفلى كانت في الأزمنة القديمة أرضًا مسطَّحة رتيبة مكونة من سهول الطين والمستنقعات والماء، فلم تكن ثمَّة جبال تسكن فيها الآلهة على الأرض مع البشر، بل السماء الخاوية في الأعلى، وشمس

الصيف التي لا ترحم، والرياح العاتية، والفيضانات التي لا تقاوم، وهجمات القحط المدمرة التي لا يملكون ردها إلا بأوهى الأسباب. وكانت الآلهة تعيش في قوى الطبيعة هذه، ويمكن التقرُّب إليها في الأماكن العالية الوحيدة المشرفة على السهول، أي في الأبراج والزِّقُّرات المبنية بالقرميد -والتي تجد انعكاسًا ضعيفًا لها في برج بابل في الكتاب المقدَّس- فليس من الغريب إذن أن يكون السومريون قد اعتبروا أنفسهم شعبًا خُلق ليكدح من أجل الآلهة.

كانت الآلهة تصويرًا فكريًا لمحاولات السيطرة على الطبيعة - ولو كان من المستحيل على أهل بلاد الرافدين أن يعبِّروا عن ذلك بهذه العبارة، أي أنها كانت محاولات لمقاومة كوارث الفيضان والعواصف الرمليَّة المفاجئة، وضمان استمرار دورة الفصول عن طريق تكرار احتفال الربيع الكبير، حينما تزوَّج الآلهة من جديد ويعاد تمثيل دراما الخلق، فيضمنون عندئذ استمرار العالم لسنة أخرى؛ وما كان لديهم من خيار آخر. في زمن لاحق صار الناس يبغون من الدين أن يساعدهم في مواجهة رعب الموت الذي لا مفر منه، ويبدو أن السومريين والذين ورثوا عنهم أفكارهم الدينية كانوا يرون العالم الآخر مكانًا حزينًا كئيبًا، وهنا تكمن جذور فكرة جهنم التي ستظهر في زمن لاحق. ولكننا نعلم أيضًا أن ملكًا وملكة سومريين من منتصف الألف الثالثة قد لحقت بهما حاشيتهما إلى القبر حيث دفنت معهما -ربما بعد تناول دواء ما- فلعلهم كانوا يؤمنون بأن الموتى يذهبون إلى مكان تفيدهم فيه الحاشية العظيمة والمجوهرات البديعة. أما من الناحية السياسية للديانة السومرية، فقد كانت الأرض كلها جوهريًا ملكًا للآلهة التي كان الملك وكيلاً عنها، والأرجح أنه كان ملكًا كاهنًا مثلما كان قائدًا محاربًا. ومن حوله كانت طبقة الكهنة التي تقوم برعاية مهارات ومعارف خاصة، ومن هذه الناحية أيضًا

كانت سومر منشأ تقليد آخر، هو تقليد عرّافي الشرق ومتنبئيه وحكمائه، وكان هؤلاء مسؤولين عن أول جهاز تعليم منظَّم ومبني على الاستذكار والنسخ.

الحياة في سومر

من الأشياء الأخرى التي نتجت عن الديانة السومرية أول تصوير للبشر يشبههم شبهًا حقيقيًا، وتراهم أحيانًا مجمعين في مواكب، وبذلك تأسَّس واحد من المواضيع الكبرى في فن التصوير، فضلاً عن موضوعين آخرين بارزين، هما الحرب وعالم الحيوان. لقد رأى البعض أيضًا في صور الناس في سومر الصفات النفسية التي مكنتهم من تحقيق الإنجازات المدهشة لحضارتهم، أي اندفاعهم نحو التفوق والنجاح، ولكن الشيء الذي تراه بشكل أكيد في الفن السومري هو الحياة اليومية التي كانت خافية عنك في الأزمنة الأبكر، فإذا أخذت بعين الاعتبار اتصالات سومر الواسعة وتشابه الحياة الزراعية بينها وبين الشعوب المجاورة لها، فقد تنبِّئك تلك الرسوم عن صورة الحياة كما كانت تعاش في جزء كبير من الشرق الأدنى القديم. تُظهر الأختام والتماثيل والرسوم شعبًا يرتدي في العادة تنورة من الفرو – لعله فرو الماعز أو الغنم؟ – وتضع النساء أحيانًا ثنية منها فوق إحدى الكتفين. أما الرجال فهم حليقون عادة ولكن ليس دائمًا، ويرتدي الجنود الزي نفسه، ولكنهم يحملون أسلحة ويعتمرون أحيانًا قبعة جلدية مستدَّقة الطرف. وأما الرفاهية فيبدو أنها كانت تتمثل بوقت الفراغ والممتلكات، خصوصًا المجوهرات، التي يبدو أن الغرض منها كان الإشارة إلى المرتبة، فإذا كان الأمر كذلك فإنما هو علامة أخرى على تزايد تعقيد المجتمع.

كان رأس العائلة هو الزوج، الذي يتخذ امرأته بعقد يبرمه مع أهلها، ويرأس أهل بيته من أقارب وعبيد، وهذا هو النمط الأبوي الذي بقي شائعًا –حتى وقت

قريب جدًا– في أنحاء كثيرة من العالم. إلا أن تغيُّرات لافتة قد طرأت عليه، فيما بعد، إذ يبدو أن النساء السومريات كن أقل انسحاقًا من أخواتهن في كثير من مجتمعات الشرق الأدنى حتى في أزمان لاحقة، وربما كان هناك اختلاف بين التقاليد السامية وغير السامية في هذا المجال. توحي قصص السومريين عن آلهتهم بمجتمع شديد الوعي لجاذبية المرأة الجنسية، والحقيقة أن السومريين كانوا أول شعب كتب عن عاطفة الحب الجنسي. وقد منح قانونهم –الذي يمكن تتبع أثره بعد عام ٢٠٠٠ ق.م بزمن طويل– النساء حقوقًا هامة استمرت حتى الأزمنة بعد السومرية، فلم تكن المرأة مجرد متاع، بل حتى العبدة لها حقوق إذا كانت أمًا لأولاد رجل حر. وكان يحق للمرأة مثل الرجل أن تطلب الانفصال، وأن تتوقَّع معاملة عادلة بعد الطلاق. صحيح أن زنى الزوجة يعاقب بالموت ولا يعاقب به زنى الزوج، إلا أن هذا الفرق يمكن فهمه في ضوء الحرص على الميراث والأملاك. ولم يبدأ قانون بلاد الرافدين بالتشديد على أهمية العذرية وفرض الحجاب على النساء المحترمات إلا بعد ذلك بزمن طويل، وكان هذان الأمران علامة على أن دور المرأة في الحياة يزداد قسوة وتقييدًا لها.

عند نهاية تاريخهم كحضارة مستقلّة كان السومريون قد تعلموا العيش في جماعات كبيرة، ويقال إن إحدى المدن كانت تحوي ستة وثلاثين ألف ذكر، وقد تطلّب هذا الأمر مهارات كبيرة في البناء، خاصة في تشييد الصروح الضخمة. ولم يكن في جنوب بلاد الرافدين حجارة، لذلك كان أهلها في البداية يبنون بالقصب الذي كانوا يلصقون بعضه ببعض بواسطة الطين، ثم انتقلوا إلى استخدام لِبْن الصلصال المجفَّف بأشعة الشمس. وعند نهاية الحقبة السومرية كانت تقنية البناء بالصلصال قد بلغت درجة من التطور سمحت بتشييد أبنية كبيرة جدًا لها أعمدة

وسطوح، وأعظمها زِقُّرة أور، التي كان لها طابق علوي يبلغ ارتفاعه أكثر من مئة قدم(*)، وقاعدة طولها مئتا قدم وعرضها مئة وخمسون(**). وقد اكتشفت أول عجلة معروفة لصنع الفخار في أور، فكانت تلك خطوة تقنيَّة أخرى، وكان هذا أول استغلال نعرفه للحركة الدائرية، وعليه ارتكزت صناعة الفخار بالجملة، فأضحت مهنة رجال من بعد أن كانت مهنة نساء فيما مضى، وسرعان ما استخدمت العجلة في النقل بحلول عام ٣٠٠٠ ق.م. ومن اختراعات السومريين الأخرى اختراع الزجاج، كما كان حرفيوهم المختصون يسبكون البرونــز في بداية الألف الثالثة ق.م.

وتثير هذه الحقيقة أسئلة أخرى: فمن أين أتت المواد الأولية؟ إذ ليست هناك أيَّة معادن في جنوب بلاد الرافدين، وحتى في الأزمنة النيوليتية لا بد أن تكون المنطقة قد استوردت الصوان والسَّبَج(***) لصنع الأدوات الزراعية. من الواضح إذن وجود شبكة واسعة من الاتصالات الخارجية، مع شعوب الخليج الفارسي من جهة، ومع شرق المتوسط وسورية البعيدين من جهة أخرى. ومن المؤكد أن بلاد الرافدين كانت في عام ٢٠٠٠ ق.م تحصل على البضائع من وادي الهندوس أيضًا - ولكن ربما بصورة غير مباشرة- وتدل هذه الأمور، بالإضافة إلى بقايا بعض الوثائق المتفرقة، على بدايات نشوء نظام تجاري بين المناطق مابرح ينسج أنماطًا من الاعتماد الاقتصادي المتبادل.

(*) نحو ٣٠ متراً.

(**) نحو ٦٠ × ٤٥ متراً.

(***) زجاج بركاني.

إلا أن أساس المجتمع قد ظل الزراعة من أجل الاستهلاك المحلي، فكان الشعير والقمح والدُّخْن والسمسم تزرع بكميات كبيرة، وربما كان الشعير هو المحصول الأساسي، وهذا ما يفسر كثرة الأدلة على وجود الكحول في بلاد الرافدين القديمة. كانت التربة التي يخلفها الفيضان سهلة يمكن زراعتها زراعة مكثّفة من دون الحاجة لأدوات حديدية، إلا أن المساهمة الكبرى للتقنيَّة هنا كانت في مجالات الري والبناء ونمو نظام الحكم. وقد تراكمت هذه المهارات رويدًا رويدًا، ولا ننس أن الأدلة على الحضارة السومرية تمتد على مدى أكثر من ألف وخمسمئة عام من التاريخ؛ وإذا كنا تحدَّثنا عنها -حتى الآن- كأنَّ شيئًا لم يحدث خلالها، أو كأنَّها كانت وحدة ثابتة لم تتغيَّر، فإنها بالطبع لم تكن كذلك. فمهما كنا متحفِّظين حول بطء التغيُّر في العالم القديم، والذي قد يبدو لنا جامدًا اليوم، فإننا نعلم أن تلك كانت خمسة عشر قرنًا من التغير الكبير في بلاد الرافدين، ولو بقي جزء كبير منها غامضًا وتواريخه تقريبية.

التغير السياسي

يمكنك هنا تمييز ثلاث مراحل عريضة. فالمرحلة القديمة لسومر قد استمرت بالتقريب من عام ٣٣٦٠ ق.م إلى عام ٢٤٠٠ ق.م، وهي قصة من الحروب بين دول المدن وما يعتريها من بزوغ وأفول. ومن الأدلة على ذلك المدن المحصَّنة واستخدام العجلة في التقنيَّة الحربية في عربات فظة ذوات عجلات أربع. نحو منتصف هذه المرحلة بدأت السلالات المحلية تثبت أقدامها بقدر من النجاح. ويبدو أن المجتمع السومري كان فيه بالأصل نوع من القاعدة التمثيلية أو حتى الديمقراطية، إلا أن النمو المتزايد قد أدى إلى تميُّز الملوك عن الحكام الكهنة الأسبق، وربما بزغ هؤلاء الملوك كأمراء حرب عينتهم المدن لقيادة قواها، ثم بقوا متشبثين بالسلطة

بعدما زالت حالة الطوارئ التي استدعتهم، ومنهم انبثقت السلالات التي راحت تتقاتل فيما بينها.

ثم يظهر فجأة رجل عظيم يفتتح مرحلة جديدة هو سرجون الأول، الذي كان ملكًا على مدينة تقع على قسم أعلى من الفرات اسمها أكّد لم يكتشف موقعها بعد. لقد فتح سرجون المدن السومرية بين عامي ٢٤٠٠ و ٢٣٥٠ ق.م، واستهلّ مرحلة من السيادة الأكدية عليها. وكان شعبه من القبائل السامية التي طالما ضغطت على حضارات وديان الأنهار من الخارج في الماضي. ثمة رأس محفور يعتقد أنه يمثله، فإذا كان هذا صحيحًا فهو من أولى صور الملوك. كان سرجون الرجل الأول في سلسلة طويلة من بناة الإمبراطوريات، وقد زعموا أنه أرسل قواته حتى مصر وإثيوبيا. ولم يكن حكمه مبنيًا على السيادة النسبية لإحدى دول المدن على غيرها، بل إنه قد أسس إمبراطورية موحدة دمجت المدن كلها في كيان واحد، وخلّفت أسلوبًا جديدًا في الفن السومري يتميز بموضوع انتصارات الملوك. إلا أن هذه الإمبراطورية الأكدية لم تكن نهاية سومر، بل فترة فاصلة وثاني مراحلها الأساسية، وهي تعبِّر عن إنجاز جديد في التنظيم. ففي عهد سرجون كانت قد ظهرت دولة حقيقية، وكانت السلطتان الدنيوية والدينية قد افترقتا افتراقًا كاملاً، فظهرت القصور إلى جانب المعابد في المدن السومرية، وكان الملوك يستمدون سلطتهم من الآلهة.

إن اختراع الجندية كمهنة تُحترف قد لعب على الأرجح دورًا في التطور السابق، فإنك ترى على صروح أور فرق المشاة المنضبطة تسير ضمن تشكيلات عسكرية، يغطي كل ترس فيها طرف الترس المجاور له، والرماح كلها مسددة إلى

الأمام. كانوا يتباهون بأن لدى سرجون ٥٤٠٠ جندي يأكلون بحضرته في قصره، وكان هذا الأمر بلا ريب نتيجة للغزوات التي أمَّنت الموارد اللازمة للإنفاق على قوة كهذه. كانت سلطة الدولة قد نشأت بالأصل من التحديات والحاجات الخاصة ببلاد الرافدين، ومن الواجب الأول للحاكم في تنظيم الأشغال الكبرى من أجل الري والسيطرة على الفيضانات، وإن هذه السلطة القادرة على تعبئة المجهود البشري اللازم أمكنها أن تعبئ الجنود أيضًا. وقد ازداد الميل للاحتراف مع زيادة الأسلحة تعقيدًا وكلفة، ومن أسباب نجاح الأكديين استعمالهم سلاحًا جديدًا، هو القوس المركبة المصنوعة من شرائح من الخشب وقرن الحيوان.

لقد أطيح بالهيمنة الأكدية بعد سرجون بقرن ونصف القرن، أي على عهد ابن حفيده، ويبدو أن ذلك الأمر قد تم عن أيدي شعوب جبلية تسمى الشعوب الغُوتية. فبدأت عندئذ ثالث مراحل سومر وآخرها، وهي التي يسميها العلماء «المرحلة السومرية الجديدة»، فعادت الهيمنة من جديد إلى السومريين الأصليين الذين كان مركزهم في أور، وقد استمرت هذه الهيمنة حوالى مئتي سنة أخرى، أي حتى عام ٢٠٠٠ ق.م. إن أول ملك من سلالة أور الثالثة مارس هذه السيادة قد سمى نفسه ملك سومر وأكد، ولا نعلم تمامًا ماذا كان هذا اللقب يعني من الناحية العملية. يبدي الفن السومري في هذه المرحلة ميلاً جديدًا لتمجيد سلطة الأمير، كما صار الحكام يسعون لتجسيد عظمتهم في زِقُّرات أكبر وأفضل. وتُظهر الوثائق الإدارية الميراث الأكدي أيضًا، وربما كان الطموح إلى ملكية أوسع انعكاسًا لهذا الميراث، فقد كانت البلاد الخاضعة لآخر ملوك أور الناجحين تمتد من

شُوش –سوس– على حدود أرض عيلام على القسم السفلي من دجلة، حتى بيبلوس(*) على ساحل لبنان.

كانت هذه حقبة أفول الحضارة الأولى، وهي لم تختف بل سوف تضيع فرديتها في التاريخ العام لبلاد الرافدين والشرق الأدنى. وقد انتهت بذلك حقبة كبرى من الإبداع. ومن بعد هذه المنطقة الصغيرة نسبيًا سوف يتسع أفق تاريخنا. كان الأعداء يعجّون على حدود سومر، وفي نحو عام ٢٠٠٠ ق.م جاء العِيلاميون وسقطت أور بأيديهم. ونحن لا نعلم السبب، ولكننا نعلم أن سقوطها قد تم من بعد عداوة متقطعة استمرت ألف عام، وقد اعتبر سقوط أور هذا نتيجة صراع للسيطرة على الطرق المؤدِّية إلى مرتفعات إيران والمعادن التي يحتاجها أهل بلاد الرافدين. وكانت هذه على كل حال نهاية أور ونهاية التقاليد السومرية المتميزة، التي اندمجت ،الآن، في دوامات عالم مكون من حضارات عديدة. إلا أن سومر كانت طوال خمسة عشر قرنًا تقريبًا قد وضعت أول تربة للحضارة في بلاد الرافدين، مثلما استصلح أسلافها الأرض نفسها في عصر ما قبل الحضارة. لقد خلف السومريون كتابة، وأدبًا، وميثولوجيا، وصروحًا ضخمة، وفكرة عن العدالة والشرعيَّة، وجذور تقليد ديني عظيم. وإن هذه الأشياء كلها لتشكِّل سجلاً رائعًا، وسوف تكون بذرة لأشياء كثيرة غيرها، لأن انتشار الحضارة كان قد بلغ شوطًا بعيدًا عندما ماتت سومر.

(*) جبيل الحالية.

بلاد الرافدين بعد سومر

كان الشرق الأدنى -عندئذ- خليطًا من الشعوب ما برح يزداد تعقيدًا. كان الأكّديون قد اندفعوا بالأصل من منبع الشعوب السامية الكبير في شبه الجزيرة العربية لينتهوا في بلاد الرافدين، أما الغوتيون الذين شاركوا في الإطاحة بالأكديين فكانوا قوقاسيين من الشعوب الأصلية في المنطقة. وأما الأموريون (العموريون) فكانوا شعبًا ساميًا انتشر في طول المنطقة وعرضها، وانضم إلى العيلاميين للإطاحة بجيوش أور وتحطيم سطوتها، وقد ثبتوا أقدامهم في دمشق وأشور، أي القسم العلوي من بلاد الرافدين، وفي بابل أيضًا، في سلسلة من الممالك الممتدة حتى ساحل فلسطين، بينما بقوا يتنازعون على جنوب بلاد الرافدين مع العيلاميين. أما في الأناضول فكان جيرانهم هم الحثيون، وهم شعب هندي أوربي عبر من البلقان في الألف الثالثة. وعلى حواف هذه الصورة المتداخلة كانت توجد شعوب أخرى قوية.

بابل

من معالم قصتنا ظهور إمبراطورية جديدة في بلاد الرافدين، هي إمبراطورية بابل. ومن ملوكها حَمُّورابيّ، الذي تكفي شهرته كصاحب شريعة لكي تضمن له مكانًا في التاريخ ولو لم نكن نعرف عنه شيئًا غيرها. فالحق أن شريعته هي أقدم تعبير مكتوب عن مبدأ العين بالعين. كما أنه كان أول حاكم وحد بلاد الرافدين كلها، ومع أن الإمبراطورية لم تعمر طويلاً فسوف تصبح مدينة بابل منذ أيامه المركز الرمز لشعوب الجنوب السامية. ربما ابتدأ حكم حمورابي في عام ١٧٩٢ ق.م، وقد حافظ خلفاؤه على تماسك الأمور إلى ما بعد عام ١٦٠٠ ق.م، عندما عادت بلاد الرافدين فتقسّمت من جديد.

كانت الإمبراطورية البابلية الأولى تمتد في أوجها من سومر والخليج حتى أشور، أي القسم الأعلى من بلاد الرافدين شمالاً، وكان حمورابي يحكم مدينتي نينوى ونُمرود على نهر دجلة، ومدينة ماري في أعلى الفرات، كما كان يسيطر على هذا النهر حتى أقرب نقطة منه إلى حلب. كان طول هذه الدولة نحو سبعمئة ميل(*) وعرضها نحو مئة(**)، أي أنها كانت دولة كبيرة، بل هي في الحقيقة أكبر دولة ظهرت في المنطقة حتى ذلك الزمان -لأن أور لم تكن أكثر من تجمع فضفاض من المدن- كان الهيكل الإداري في بابل محكمًا، وإن شريعة حمورابي لجديرة بشهرتها ولو أن للصدفة دورًا في هذا. لقد كانت هذه الشريعة منقوشة في الحجر ومنصوبة في ساحات المعابد لكي يراجعها الشعب، مثلما كان الأمر على الأرجح في المجموعات الأقدم من الأحكام والقوانين، والتي لم تبق منها إلا نتف قليلة. كانت شريعة حمورابي أطول وأحسن تنظيمًا من المجموعات الأسبق، وهي تضم نحو ٢٨٢ بندًا تعالج مجالاً واسعًا من الأمور معالجة شاملة: مثل الأجور والطلاق وأتعاب العناية الطبية وأمور كثيرة غيرها. إلا أنها لم تكن تشريعًا، بل إعلانًا عن قانون موجود، ويجب ألا يغيب هذا الأمر عن بالنا عندما نسميِّها «شريعة»، أي أن حمورابي قد جمع قوانين كانت دارجة أصلاً و لم يبتكرها من لا شيء.

لقد أمنت هذه المجموعة من القوانين المبنية على العرف والعادة خطًا أساسيًا من خطوط الاستمرارية في تاريخ بلاد الرافدين، ومن المؤسف أن عقوباتها قد

(*) ١٠٠٠ كم تقريبًا

(**) ١٥٠ كم تقريبًا

ازدادت قسوة بمرور الزمن على ما يبدو بالقياس إلى قوانين سومر، أما من النواحي الأخرى فقد استمر التقليد السومري في بابل في مجال القانون.

يتضمن هذا القانون بنودًا تتعلّق بالعبيد، لأن بابل كانت تقوم على العبودية مثل جميع الحضارات القديمة، ومثل كثير من حضارات الأزمنة اللاحقة أيضًا. كانت العبودية هي المصير الذي ينتظر الخاسر عادة في حروب التاريخ الباكر، ونساءه وأولاده أيضًا. وعلى عهد الإمبراطورية البابلية الأولى كانت هناك أسواق منتظمة للعبيد، وكانت الأسعار الثابتة دليلاً على انتظام هذه التجارة. وكان العبيد الآتون من مناطق معينة يثمَّنون بشكل خاص. ورغم أن سطوة السيد على العبد كانت مطلقة، فإن بعض العبيد في بابل كانوا يتمتعون باستقلال اقتصادي ملحوظ ويعملون بالتجارة، بل قد يملكون بدورهم عبيدًا لحسابهم. وكانت لهم حقوق قانونية ولو أنها ضيِّقة. من الصعب أن نعرف ماذا كانت العبودية تعني من الناحية العملية، ولا فائدة من إطلاق أحكام عامة، لأن الأدلة تشير إلى أن العبيد كانوا يقومون بمهام متنوعة، وإذا كانت حياة أكثرهم شاقة فقد كانت هذه حال أكثر الناس على الأرجح. لقد كانت الحضارة في الأزمنة القديمة تقوم على استغلال كبير للإنسان من قبل الإنسان، وإذا لم يشعر الناس بأن هذا الوضع وحشي، فذلك لأن أحدًا ما كانت لتخطر بباله طريقة أخرى لتسيير الأمور.

الفكر البابلي

مازالت حضارة بابل أسطورة من العظمة والأبهة. فقصر ماري الكبير على القسم الأعلى من الفرات كانت له أسوار حول ساحاته تبلغ سماكتها أربعين قدمًا(*)

(*) ١٢ م تقريبًا.

في بعض الأماكن، وكان فيه نحو ثلاثمئة غرفة تشكل مجمّعًا واحدًا، تصرّفه أنابيب مبطنة بالقار تجري على عمق ثلاثين قدمًا(*)، وكان يغطي مساحة ١٥٠ × ٢٠٠ ياردة(**). كما وجدت فيه كميات كبيرة من رُقُم الصلصال التي تكشف لنا أعمال حكومة بابل، وهي تعطينا أيضًا أدلة على حياة الفكر، ففي ذلك الحين أخذت ملحمة كلكامش الشكل الذي نعرفها فيه.

لقد دفع علم التنجيم في بابل مراقبة الطبيعة إلى الأمام. كان البابليون يأملون بمعرفة مصائرهم من خلال مراقبة النجوم، فأسسوا بذلك علمًا هو علم الفلك، ووضعوا سلسلة هامة من الأرصاد الفلكية. فبحلول عام ١٠٠٠ ق.م كان من الممكن التنبؤ بخسوف القمر، وخلال قرنين أو ثلاثة بعد ذلك كانت مسارات الشمس وبعض الكواكب قد حُددت بدقة لافتة بالنسبة إلى مواقع النجوم التي تبدو ثابتة. وقد اعتمدت الرياضيات في بابل على الإنجازات الفكرية للسومريين، الذين ندين لهم بطريقة التعبير عن الرقم بحسب موقعه بالإضافة إلى شكله (كما يدل الرقم ١ مثلاً على الواحد أو العُشر أو العشرة أو غيرها من القيم بحسب موقعه بالنسبة إلى الفاصلة العشرية). كان السومريون يعلمون عن النظام العَشري ولكنهم لم يستغلوه، وقد توصلوا إلى طريقة لتقسيم الدائرة إلى ستة أقسام متساوية، ثم طور البابليون هذا الاكتشاف فقسموها إلى ٣٦٠ درجة وقسموا الساعة إلى ستين دقيقة، كما أنهم وضعوا جداول في الرياضيات والهندسة الجبرية ذات منفعة عملية كبيرة.

(*) ٩ م تقريبًا.
(**) ١٤٠ × ١٨٠ م تقريبًا.

كان علم الفلك قد ابتدأ في المعبد، في تأمل حركات الأجرام السماوية التي تعلن قدوم احتفالات الخصب والبذار، وقد ظلت الديانة البابلية أيضًا وثيقة الصلة بالتقليد السومري. يبدأ خلق العالم عند البابليين، كمَا هي الحال في سومر، من غمر من المياه -وثمة إله يعني اسمه «الطمي»- ثم يُصنع الإنسان في النهاية كعبد للآلهة، وفي إحدى النسخ تصنع الآلهة البشر من قوالب الصلصال، مثلما تُصنع قطع القرميد، وكانت هذه الصورة للكون ملائمة للملكية المطلقة. كان لبابل إلهها مثل المدن القديمة، وهو مَردوك، الذي شق طريقه رويدًا رويدًا إلى أن تصدر منافسيه من آلهة بلاد الرافدين. وقد استغرق هذا الأمر زمنًا طويلاً، وقال حمورابي إن آلهة سومر قد منحت مردوك رئاسة مَجْمَع آلهة بلاد الرافدين، ورجته أن يحكم الناس جميعًا من أجل خيرهم. ومن بعد القرن الثاني عشر ق.م كانت مكانة مردوك لا غبار عليها في العادة. في هذه الأثناء بقيت اللغة السومرية مستخدمة في طقوس بابل الدينية، وفي أسماء الآلهة والنعوت التي كانت تتمتع بها.

إلا أن إنجازات حمورابي لم تعمر طويلاً من بعده. كان قد أطاح بمملكة أمورية تأسست في أشور عند نهاية هيمنة أور، ولكن هذا النجاح كان مؤقتًا. وبقيت أشور طوال ألف عام بعدها ساحة قتال وغنيمة معًا، إلى أن طغت على بابل في النهاية، فانتقل مركز ثقل تاريخ بلاد الرافدين إلى الشمال بشكل حاسم. أما الحثيون الذين كانوا قد ثبتوا أقدامهم في الأناضول في الربع الأخير من الألف الثالثة ق.م، فقد اندفعوا ببطء إلى الأمام خلال القرون القليلة التالية، وتبنوا هم أيضًا الكتابة المسمارية وكيفوها لكتابة لغتهم الهندية الأوربية. وفي عام ١٧٠٠ ق.م كانوا يحكمون البلاد الواقعة بين سورية والبحر الأسود، ثم وجهوا غزواتهم نحو بابل التي كانت قد ضعفت وتقلصت، إلى أن قضوا أخيرًا على سلالة حمورابي وإنجازاته.

وعندما انسحب الحثيون حكمت شعوب أخرى بلاد الرافدين وتنازعت عليها طوال أربعة قرون غامضة لا نعلم عنها إلا القليل، صار خلالها انفصال أشور عن بابل نهائيًا، وسوف تكون لهذا الانفصال أهمية كبرى في الألف التالية. وفي ذلك الحين كانت بؤرة تاريخ العالم قد انزاحت بعيدًا عن بلاد الرافدين.

مصر القديمة

يمكنك رؤية أولى علامات الحضارة في مصر بعْد ظهورها في سومر بزمن قصير. ومن المحتمل أن يكون المصريون قد تعلموا من سومر، ولكن إذا كان هذا صحيحًا فإننا لا نعلم مداه ولا كيف حصل، ومن الأسهل أن نعزو ظهور الحضارة هنا إلى البيئة، كما هي الحال في جنوب بلاد الرافدين. كان تغير المناخ في حقبة ما قبل التاريخ قد جفف شيئًا فشيئًا القسم الأكبر من مصر خارج وادي النيل، إلا أن ذلك الشريط الضيق من الأرض الخصبة كان كافيًا. فكان الطين ينجرف من المرتفعات الداخلية ليتوضع هناك، وهذا ما جعل الزراعة سهلة. فتشكلت ضفاف من الطمي طولها ١١٠٠ كم وعرضها من ستة إلى عشرين، استطاع المصريون الأوائل أن يبدؤوا الزراعة فيها. وتحولت أرضهم رويدًا رويدًا إلى واحة طويلة تمتد في غير انتظام، وتحيط بها الصحراء والصخور. وقد كانت هذه البيئة تختلف عنها في بلاد الرافدين القديمة اختلافًا هامًا كبيئة لمرحلة جديدة من تطور البشر، فالمصريون لم يكونوا بحاجة لاستصلاح الأرض مثل السومريين، لأن النيل ألطف من دجلة والفرات. صحيح أنه يفيض مثلهما في كل عام، إلا أن فيضاناته متوقعة وليست كوارث مفاجئة، حتى إن انتظامها قد وضع نمط السنة الزراعية، فكان النيل ساعة عظيمة تنظم حياة المصريين القدامى على إيقاع لا يتغير من عام إلى عام.

السلالات المصرية

١-٢	المرحلة السابقة للسلالات	حوالى ٣٢٠٠-٢٦٦٥ ق.م
٣-٨	المملكة القديمة	٢٦٦٤-٢١٥٥ ق.م
٩-١١	المرحلة المتوسطة الأولى	٢١٥٤-٢٠٥٢ ق.م
١٢	المملكة الوسطى	٢٠٥٢-١٧٨٦ ق.م
١٣-١٧	المرحلة المتوسطة الثانية	١٧٨٥-١٥٥٤ ق.م
١٨-٢٠	المملكة الحديثة	١٥٥٤-١٠٧٥ ق.م

مصدر الجدول:

R. A. Parker's table in The Legacy of Egypt, 2nd edn, ed. J. R. Harris (Oxford, 1971), pp. 24-5.

في نحو عام ٣٣٠٠ ق.م كانت هناك أعداد كبيرة من الناس تعيش على طول خمسمئة إلى ستمئة كيلومتر من النيل الأسفل في قرى بعضها صغيرة لا تفصل بينها مسافات كبيرة. ويبدو أن أولئك المصريين كانوا يعتبرون أنفسهم في البداية أفرادًا في عشائر لا جماعات مستقرة. و لم تنشأ المدن على طول نهر النيل إلا بعد مرور آلاف السنين، ربما لأنه لم يكن ثمة جيران أقوياء يهددون المزارعين ويدفعونهم إلى العيش في مدن لحماية أنفسهم. من الصعب أن نعرف الكثير عن تلك الأزمنة الباكرة، لأن النيل كان يخرب آثار الناس كل عام، فيجرفها إلى الدلتا أو يدفنها عميقًا في ضفاف الطمي التي صارت ترتفع عن مستوى الفيضان بمرور القرون.

ولكننا نعلم أن أولئك المصريين كانوا يعرفون صنع القوارب من نبات البردي، وشغل الحجر الصلب، وتطريق النحاس من أجل صنع أغراض للاستعمال اليومي. وفي حوالى منتصف الألف الرابعة أيضًا نجد علامات على الاتصال بمناطق أخرى - خاصة ببلاد الرافدين. ثم نشعر فجأة بحدوث تبلور سريع.

وسرعان ما تكثر المعلومات عن الحضارة الباكرة في مصر بصورة لا مثيل لها في ذلك الزمان. لقد كان للمصريين منذ البداية تقريبًا شكل من الكتابة يسمى «الهيروغليفية»، وكانت هذه الكتابة بالأصل تصويرية، أي أنها مكونة من صور صغيرة ترمز لأسماء الأشياء، وبمرور الزمن صارت ترمز للأصوات. كانت الهيروغليفية أصعب كتابة من المسمارية لذلك لم تنتشر مثلها قط، ولكن حياتها لا تقل عنها طولاً، فآخر نموذج معروف منها قد كتب في عام ٣٩٤ للميلاد. ثم ضاعت مهارة الكتابة بها فلم تعد مقروءة. في بداية القرن التاسع عشر أُحضر «حجر رشيد» من مصر إلى فرنسا، وكان منقوشًا عليه باليونانية والكتابة «الديموطية» وهي كتابة مصرية لاحقة، عدا عن الهيروغليفية. وهذا ما مكّن من ترجمتها، ففتحت الطريق لفهم مصر القديمة بصورة لا سابق لها، بفضل الأعداد الكبيرة الباقية من الكتابات المنقوشة على المدافن والصروح وأوراق البردي.

ومن هذه الكتابات الهيروغليفية تبزغ قصة مصر القديمة. كانت مصر في عام ٣٠٠٠ ق.م قد انتظمت في مملكتين، شمالية هي مصر السفلى، وجنوبية هي مصر العليا(*)، وتخبرنا السجلات أن ملكًا من الجنوب اسمه مينيس سرعان ما غزا الشمال وأسس سلالة استمرت حتى عام ٢٨٨٤ ق.م، وكانت تحكم من مدينة مَنف

(*) الصعيد.

(ممفيس)(*) في مصر السفلى. كان طول هذه المملكة حوالى ١٠٠٠ كم - أي أنها أكبر بكثير من أية دولة معاصرة لها. ومن الصعب أن نعرف المعنى الحقيقي لهذا الحكم، إلا أن الادعاء بحكم منطقة بهذا الحجم هو بحد ذاته إنجاز مبهر. والأعجب من هذا أنها كانت بداية ألفي عام تقريبًا ظلت مصر فيها عادة تحت حاكم واحد، ونظام ديني واحد، ونمط واحد من الحكم والمجتمع، من دون أن يؤرقها تأثير هام من الخارج. صحيح أنها قد مرت بفترات من المد والجزر، وأن الدولة كانت أحيانًا قوية ومزدهرة وأحيانًا أخرى ضعيفة وفقيرة، إلا أن استمرارها المديد هذا يبقى أمرًا مذهلاً، وقد مكّن من تحقيق إنجازات باهرة سوف تظل آثارها تسحر ألباب البشر كأعظم تراث منظور من العصور القديمة.

تمكّن السجلات التاريخية العلماء من الحديث عن مصر القديمة كسلسلة من السلالات تقع في ثلاثة أقسام زمنية كبرى. يسمى القسم الأول منها بـــ«المملكة القديمة»، وهو يمتد من عام ٢٦٦٤ إلى عام ٢١٥٥ ق.م، ثم يتلوه نحو قرن من الفوضى قبل أن تبدأ في عام ٢٠٥١ «المملكة الوسطى» التي استمرت حتى عام ١٧٨٦ ق.م، عندما ابتدأت مرحلة ثانية من الاضطراب انتهت في عام ١٥٥٤ مع بداية «المملكة الحديثة». وضمن هذا المخطط الثلاثي تُدخل بعد ذلك مرحلتان «متوسطتان» وتواريخ السلالات. ومن المناسب أن نختم قصة مصر القديمة عند بداية الألف الأولى ق.م، عندما كانت أعظم إنجازات المصريين قد ولت، ولو أن

(*) آثارهـــا اليوم بمحافظة الجيزة على الضفة الشمالية للنيل، ٣٠ كم جنوبي القاهرة — المنجد في الأعلام

بلادهم قد بقيت مستقلة تحت حكم أبنائها حتى عام ٣٠ ق.م، عندما بلغت نهايتها بانتحار ملكتها الشهيرة كليوپاترة.

الملكية في مصر

كانت الدولة نفسها تجسيدًا للحضارة المصرية، وكان مركزها أولاً في مَنف عاصمة المملكة القديمة، ثم صار على عهد المملكة الحديثة في طيبة (ثيبة)(*) عادة. وكان هذان المكانان عبارة عن مركزين دينيين كبيرين ومجمّعات من القصور، ولم يكونا مدينتين حياتهما منفصلة عن الحكم. ومن أسباب ذلك أن ملوك مصر لم ينشؤوا كوجهاء في دولة مدينة وكّلتهم بالتصرُّف نيابة عنها، كما أنهم لم يكونوا بشرًا عاديين مثل غيرهم يخضعون لآلهة تحكم الناس جميعًا كبيرهم وصغيرهم، بل سوف يصبحون هم أنفسهم آلهة. فمنذ مرحلة مبكرة كان ملوك مصر يتمتعون بسلطة عجيبة، كما تدل صورهم الهائلة على الصروح الأولى، وكانوا قد ورثوا تلك السلطة بالأصل عن ملوك ما قبل التاريخ، الذين كانت لهم قدسيَّة خاصة بسبب قدرتهم على ضمان الازدهار من خلال إنجاح الزراعة. وكان الناس يعتقدون أن الملوك يتحكَّمون بارتفاع النيل وانخفاضه السنويين، أي بالحياة نفسها عند الجماعات التي تعيش على ضفتيه، وإن أول طقوس للملكية المصرية نعرفها تتعلق بالخصب والري واستصلاح الأراضي، وأبكر صور لمينيس تظهره وهو يحفر قناة.

على عهد المملكة القديمة تظهر فكرة أن الملك أو «فرعون» هو السيد المطلق، وسرعان ما صار يعبد كإله. كانت العدالة هي «ما يحبه فرعون»، والشر

(*) في صعيد مصر على النيل بمحافظة قنا الحالية — المنجد في الأعلام.

هو «ما يكرهه فرعون»، وهو إله كلي العلم ولا حاجة به إلى شريعة تهديه. بعد ذلك، على عهد المملكة الحديثة، صار الفراعنة يصوَّرون بهيئة المقاتلين الأبطال العظام، فتراهم في عرباتهم رجال حرب جبابرة يدوسون أعداءهم ويذبحون بكل جرأة فرائس صيدهم. ولكن رغم هذا الجانب الدنيوي بقيت الملكية في مصر مقدَّسة ومهيبة، وحتى في عام ١٥٠٠ ق.م كتب موظف مصري من موظفي فرعون يقول: «هو إله يعيش المرء بأعماله، هو أب وأم الناس جميعًا، هو وحده، لا كِفاء له».

في ذلك الزمان كانت مصر قد اكتسبت تسلسلاً هرميًا من البيرُقراطيين مدهشًا بإحكامه، وكان أهمهم يأتون عادة من طبقة النبلاء ، وقد دُفن بعض عظمائهم بفخامة تضاهي ما كان للفراعنة. أما العائلات الأقل بروزًا فكانت تقدم آلاف الكتبة لخدمة هذا النظام المتقن من الحكم، وكان الكتبة يدرَّبون في مدرسة خاصة في طيبة، ويمكننا أن نستشف قيمهم من خلال النصوص التي تسرد الفضائل المطلوبة في الكاتب لكي ينجح، وهي الانكباب على الدراسة وضبط النفس والحذر واحترام الرؤساء، والتقيد الدقيق بقدسية الأوزان والمقاييس وملكية الأرض والأعراف القانونية.

إلا أن غالبية المصريين كانت من الفلاحين، وهم الذين كانوا يبذلون الجهود اللازمة للقيام بالأشغال العامة الكبرى، ويقدِّمون الفائض الزراعي الذي تعيش عليه طبقة النبلاء والبيرقراطية والمؤسَّسة الدينية الكبيرة. كانت الأرض خصبة، وكانت خصوبتها تتحسن باستمرار بفضل تقنيات الري، وهذا واحد من أقدم الأدلة على القدرة الكبيرة لحكومة مصر في تعبئة المجهود الجماعي، وهي قدرة استمرت لزمن

طويل. كانت الخضار والشعير والعَلَس(*) هي المحاصيل الأساسية في الحقول الممتدة على طول قنوات الري، وكانوا يأكلون أيضًا لحم الطيور والسمك وحيوانات الصيد -وكلها تظهر بوفرة في الفن المصري- وكانت الأبقار تستخدم للجر والحراثة منذ المملكة القديمة على الأقل، وقد بقيت هذه الزراعة عماد الحياة في مصر من دون تغير هام حتى الأزمنة الحديثة.

البناء في مصر

لقد مكّن هذا الأمر أيضًا من تشييد أشغال عامة مبنية من الحجر لا يضاهيها شيء في زمانها. كانت البيوت وأبنية المزارع تبنى من لبن الصلصال، ولم يرد لها أن تبقى إلى الأبد، أما القصور والمدافن والصروح التذكارية للفراعنة فقد شيِّدت لكي تعرف الخلود. وهي انتصارات اجتماعية وإدارية فضلاً عن أنها انتصارات في فن العمارة. فقد كان آلاف العبيد وأحيانًا أفواج من الجنود يفرزون بإدارة كاتب واحد لتقطيع كتل الحجارة الهائلة ووضعها في مكانها بقوة عضلاتهم، وكانت تزين بعناية بواسطة أدوات من النحاس أولاً ثم من البرونـــز، وكثيرًا ما تحفر وتلوَّن بدقة كبيرة. ولم يكن لديهم إلا عتلات بسيطة ومزالج – إذ لم تكن ثمة بكرات للرفع – بل كانوا يبنون منحدرات هائلة من التراب يرفعون عليها الأبنية رويدًا رويدًا، فتمكّنوا من تشييد سلسلة من الصروح مازالت تذهل الناظرين. إن أشهر تلك الصروح هي الأهرام، وهي الأكبر في تجمعات كبيرة من الأبنية التي يسكنها الملك بعد موته. من أبنية السلالة الثالثة تجد في سَقّارة قرب مَنف «الهرم المدرّج» وهو أعظم أعمال إمحوتب، أول مهندس عمارة معروف ومستشار الملك. وقد أُله

(*) نوع من القمح البري

إمحوتب فيما بعد – كإله للطب – وكان يبجل كعالم فلك وكاهن وحكيم، كما نسبت إليه بداية البناء بالحجر. يبلغ ارتفاع هذا الهرم مئتي قدم(*)، وهو شيء لم يكن الناس قد رأوا مثله من قبل قط، فلا عجب إذن أن يعتبروا بناءه دليلاً على قدرة إلهيَّة. إلا أن أهرامًا أكبر منه سوف تكتمل في الجيزة على عهد السلالة الرابعة؛ مثل هرم خوفو الذي استغرق بناؤه عشرين سنة، وتطلَّب إحضار كميَّات هائلة من الحجارة –من خمسة إلى ستة ملايين طن– من مسافة ٥٠٠ ميل(**). وهذا البناء العملاق موجَّه توجيهًا دقيقًا، ورغم أن طول أضلاعه يبلغ ٧٥٠ قدمًا(***) فإنها لا تتفاوت إلا بمقدار يقل عن عشر بوصات (٢٥ سم)، وليس من الغريب أن تعتبر الأهرام في زمن لاحق من عجائب الدنيا السبع. إلا أنها لم تكن بالطبع الأبنية الكبرى الوحيدة في مصر، بل كانت هناك في أماكن أخرى صروح عظيمة غيرها، مثل المعابد والقصور ومدافن وادي الملوك.

تفسر لنا هذه الأشغال العامة الضخمة لماذا اعتقد الناس فيما بعد أن المصريين كانوا علماء عظامًا، إذ إنهم كانوا يحسبون أن أبنيَّة كهذه تحتاج إلى أرقى المعارف الرياضية والعلمية. صحيح أن المصريين كانوا ماهرين جدًا في مساحة الأراضي، وأن موظفيهم قد برعوا كمهندسين مدنيين، إلا أن تلك الأبنية لا تحتاج في الحقيقة إلا أبسط أشكال الحساب، مثل القياس الدقيق ومعالجة معادلات معينة لحساب الأحجام والأوزان. ولم تتجاوز الرياضيات في مصر هذا الحد، فالمصريون لم يتفوقوا

(*) ٦٠ م تقريبًا.

(**) ٨٠٠ كم.

(***)٢٢٥م.

على البابليين في العلوم. لقد بقي المنجمون قرونًا طويلة يُحلّون أرصاد المصريين الفلكية المنقوشة، ولكن الحقيقة أن قيمتها العلمية كانت ضئيلة وقدرتها التنبؤية قصيرة المدى نسبيًا. إلا أن إنجازهم الراسخ هو التقويم، إذ إن المصريين قد وضعوا السنة الشمسية المؤلفة من ٣٦٥ يومًا، وقسموها إلى اثني عشر شهرًا، كل منها مؤلف من ثلاثة «أسابيع» طول الواحد منها عشرة أيام، وأضافوا خمسة أيام عند نهاية السنة -ونذكر هنا أن الثوار الفرنسيين قد أعادوا إحياء هذا الترتيب في عام ١٧٩٣ في محاولة لإحلال تقويم أكثر عقلانية محل التقويم المسيحي.

الدين

كانت الحياة الدينية في مصر القديمة أمرًا أدهش الأجانب أيضًا إلى حد كبير. ولكن مازال من الصعب علينا أن نستوعبها، لأنها كانت هيكلاً شاملاً يتخلل كافة نواحي الحياة، وحقيقة طبيعية تسري فيها كما تسري الدورة الدموية في جسم الإنسان، ولم تكن بنية مستقلة مثل مفهوم الكنيسة في أزمان لاحقة. فالمصريون لم يكونوا يرون الدين قوة حية تنمو، بل مظهرًا من مظاهر الواقع ووصفًا لكون لا يتبدل. ولكن حتى هذا الوصف قد يكون مضللاً، لأن المفاهيم والفروق التي نعتبرها بديهية لم يكن لها وجود لدى قدماء المصريين، فهم لم يكونوا يهتمون بالتمييز بين الدين والسحر مثلاً.

ومهما كان الدين يعني في مصر القديمة، فقد كان لديهم طوال زمن حضارتهم تقريبًا نـــزوع دائم لأن يبحثوا من خلاله عن طريق للنفاذ من عالم الحواس المتغير أبدًا، من أجل بلوغ عالم لا يتبدل يمكن فهمه من خلال حياة الموتى فيه. وربما تشعر بنبض النيل هنا أيضًا، لأنه كان يجرف كل شيء ليعيد خلقه من

جديد في كل عام، ولكن من دون أن تتغير دورته، بل إنها ما تبرح تتكرر باستمرار مجسِّدة إيقاع الكون. كان التغير الأعظم الذي يتهدد الناس هو الموت، وهو أبشع تعبير عما يمرون به جميعًا من انحلال وتبدُّل. ويبدو أن الديانة المصرية كانت مهووسة بموضوع الموت منذ البداية، كما تدل المومياوات والأغراض التي وجدت في الغرف الجنائزية والمحفوظة في متاحفنا. على عهد المملكة الوسطى صاروا يؤمنون أن جميع الناس يمكنهم رجاء الحياة في العالم الآخر وليس الملك وحده، لذلك كان المرء يحضّر لحياته المقبلة بالطقوس والرموز، وبتهيئة القضية التي سوف يضطر لعرضها أمام قضاته في العالم الآخر، وهو على ثقة كافية بأنه قادر على بلوغ الهناء الأبدي المتاح له من حيث المبدأ. لم تكن نظرة المصريين إلى ما بعد الموت نظرة كئيبة إذن كما هي في بلاد الرافدين، بل إن بإمكان المرء أن يكون سعيدًا فيها. وقد جاهد المصريون جهادًا امتد قرونًا طويلة لكي يضمنوا تلك الحياة، ويفسر هذا الأمر العناية العجيبة بتحضير المدافن وقيادة الميِّت إلى مكان راحته الأبدي.

كان مجمع آلهة المصريين هائل العدد، فقد كان يضم نحو ألفي إله، وعددًا من العبادات الهامة التي نشأ بعضها من الآلهة الحيوانية في حقبة ما قبل التاريخ. من تلك العبادات عبادة حورس، الإله الصقر، الذي كان أيضًا إله السلالة. لقد مرت هذه الحيوانات بتحول بطيء وغير كامل إلى الشكل الإنساني، فصار الفنانون يضعون رؤوسها على أجساد بشرية، وكانت العلاقات بينها يعاد ترتيبها بأشكال جديدة كلما حاول الفراعنة تحقيق أهداف سياسية من خلال دمج عباداتها. وهكذا تم دمج عبادة حورس بعبادة الإله الشمس، الذي صار فرعون يعتبر تجسيدًا له. ولم تكن تلك نهاية القصة بعد، لأن حورس قد مر بعد ذلك بتحول آخر، فصار ابنًا لأوزيريس – وهو الشخصية المركزية في عبادة وطنية – ولزوجته إيزيس. كانت

إيزيس إلهة الخلق والحب، وهي على الأرجح أقدم الآلهة جميعًا — إذ تعود أصولها هي الأخرى إلى حقبة ما قبل السلالات، وهي من تطورات الإلهة الأم التي نملك أدلة على وجودها في كافة أنحاء الشرق الأدنى في العصر النيوليتي. وسوف تستمر زمنًا طويلاً لتظهر وهي تحمل الطفل حورس بين ذراعيها في الإيقونات المسيحية بصورة مريم العذراء. وقد كانت هناك أيضًا أشكال من العبادة ذات صفة عقائدية وتأمّليَّة، يجب أن نذكر منها محاولة مشهورة قام بها فرعون في القرن الرابع عشر لترسيخ عبادة أتون، وهو تظاهر آخر للشمس. ويعتبر البعض هذه العبادة أول ديانة توحيدية.

الفن والتقنية في مصر

تشغل الآلهة حيزًا كبيرًا في فن مصر القديمة، إلا أن فيه أشياء كثيرة غيرها. كان هذا الفن مبنيًا على الواقعية، ومع أن تعابير الوجه والوضعيات كانت تقليدية، فقد منحته تلك الواقعية طوال ألفي سنة بساطة جميلة في البداية، وحتى في فترة تراجعه بعد ذلك بقي محتفظًا بسحره وقربه. وقد سمح بالتصوير الواقعي لمشاهد الحياة اليومية، فترى فيه المواضيع الريفية من زراعة وصيد سمك وصيد حيوانات، كما ترى الحرفيين يعملون على منتجاتهم، والكتبة منكبِّين على أعمالهم. وقد بقي الفنانون طوال -ألفي سنة تقريبًا- يعملون ضمن نفس التقليد الكلاسيكي مع استعارة تأثيرات خارجية، ولكن بقوة ورسوخ لا يتزعزعان، ولا ريب أن هذا الأمر كان من أكثر ما يبهر نظر الزائر لمصر في الأزمنة القديمة، لأنه كان يرى الأشياء كلها مثل كيان واحد؛ وإن هذا التقليد هو أطول وأقوى تقليد مستمر في كل تاريخ الفن في عصر الحضارة.

لقد بقي بعض الفن المصري القديم بفضل اختراع ورق البردي -منذ السلالة الأولى- ويتكون هذا الورق من لب نبات القصب الذي يوضع بشكل متصالب ويدق معًا حتى يصير صفحة متجانسة. وكانت تلك مساهمة حقيقية في تقدُّم البشرية، لأنها ساهمت في نقل المعلومات أكثر من الهيروغليفية، فورق البردي أرخص من الجلد -الذي كان يصنع منه الرق- وأسهل استعمالاً من رُقُم الصلصال أو الحجر -ولو أنه أكثر هلاكًا منها- لهذا سوف يصبح أكثر وسائل المراسلة وحفظ السجلات في الشرق الأدنى حتى وقت متقدم من الحقبة المسيحية، عندما وصل اختراع الورق من الشرق الأقصى -وقد أخذ الورق اسمه في اللغة الإنكليزية paper من ورق البردي papyrus- وبعد ظهور ورق البردي بزمن قصير صار الكتَّاب يلصقون صفحات منه معًا ليصنعوا لفة طويلة، فاخترع المصريون بذلك الكتاب مثلما اخترعوا أول مادة له، وإن جزءًا عظيمًا مما نعرفه عن الأزمنة القديمة إنما وصلنا على ورق البردي.

إن القوى العجيبة التي نسبت لكهنة مصر وسحرتها، والتجسيد الباهر لإنجازاتها السياسية في الفن والعمارة، تفسِّر الكثير من مكانة مصر الدائمة. ولكنك إذا نظرت إلى حضارتها بالقياس إلى حضارات أخرى لا تجدها شديدة الخصب ولا قوية التفاعل، فقد بقيت العمارة بالحجر هي التجديد الأساسي الوحيد لزمن طويل بعد قدوم الكتابة، وقد اخترع المصريون العمود. كما يشير تاريخ التقنيَّة فيها إلى أن شعبها كان بطيئًا في تبني المهارات، ونفورًا من التجديد بعد أن قام بقفزته الخلاَّقة نحو الحضارة. فأنت لا تجد أدلَّة أكيدة على وجود عجلة صنع الفخار قبل المملكة القديمة، ورغم المهارة الكبيرة في شغل الذهب والنحاس لا يظهر صنع البرونــز إلا في زمن متقدِّم من الألف الثانية ق.م، ولا تظهر المخرطة إلا بعده بزمن طويل،

ويكاد المثقاب القوسي يكون الأداة الوحيدة المتاحة للحرفيين المصريين من أجل مضاعفة الطاقة ونقلها. صحيح أن ورق البردي والعجلة كانا معروفين على عهد السلالة الأولى، إلا أن مصر قد ظلت على اتصال ببلاد الرافدين طوال ألفي عام قبل أن تأخذ عنها اختراع الشادوف المستخدم لرفع الماء من الآبار، مع أنه كان يستخدم لري الأراضي هناك منذ زمن طويل.

كانت حياة الفقراء في مصر شاقة، ولكن ليس بصورة دائمة. ولا بد أن العبء الأكبر كان أعمال السخرة، أما عندما لا يأمر فرعون بتلك الأعمال فيتوفر للفلاح وقت كبير من الفراغ بانتظار فيضان النيل الذي يقوم بالعمل عوضًا عنه. كما أن القاعدة الزراعية كانت غنية وكافية لإعالة مجتمع معقد وفيه تنوع كبير من الحرفيين، وإن ما نعرفه عن نشاطاتهم أكثر مما نعرفه عن حرفيي بلاد الرافدين بفضل ما بقي من رسوم ونقوش حجرية. كان التمييز الأكبر في هذا المجتمع هو بين المتعلمين الذين يمكنهم الانخراط في خدمة الدولة من جهة، وبقية الشعب من جهة أخرى. وكانت العبودية هامة، ولكن يبدو أنها كانت مؤسسة أقل وزنًا منها في بقية أنحاء الشرق الأدنى القديم.

المرأة في مصر القديمة

تذكر تقاليد الأزمنة اللاحقة إغراء نساء مصر وسهولة منالهن، ويعطي هذا الأمر انطباعًا بأن المجتمع كان يعطيهن استقلالاً أكبر ومكانة أعلى من أخواتهن في حضارات أخرى. ويصور الفن المصري سيدات البلاط في ملابس قطنيَّة رقيقة تكشف أجسادهن، بشعورهن المتقنة الزينة وجواهرهن الرائعة ومواد التجميل الموضوعة بعناية كبيرة، والتي كان تجار مصر يهتمون بتأمينها أي اهتمام. كما أن

الصور التي تظهر كيف كانت تعامَل نساء الطبقة الحاكمة تترك في النفس الانطباع بالكرامة والاستقلال. وهي صور هامَّة لا بد من إعطائها بعض الوزن من دون المغالاة في التعويل عليها. وترى الفراعنة أحيانًا مع زوجاتهم – وغيرهم من النبلاء مع زوجاتهم أيضًا – في حال من الألفة الحميمة لا تراها في أي من فنون الشرق الأدنى القديم قبل الألف الأولى ق.م، ويوحي هذا الأمر بمساواة عاطفية حقيقة لا يمكن أن تكون مجرد صدفة.

إن النساء الجميلات والفاتنات اللواتي تراهن في الكثير من الرسوم والتماثيل قد يعكسن أهمية سياسية للمرأة لا وجود لها في البلاد الأخرى. فكثيرًا ما كان العرش ينتقل من الناحية العملية عن طريق سلسلة النسب الأنثوية، أي أن وريثة العرش تحمل لزوجها حق الخلافة. لذلك كان زواج الأميرات مصدر قلق كبير، وكثيرًا ما كانت الزواجات الملكية تتم بين أخ وأخته، من دون أن تعطي نتائج وراثية ضارة على ما يبدو. كما كان بعض الفراعنة يتزوجون بناتهم، ولكن ربما لمنع غيرهم من الزواج بهن وليس لضمان استمرار الدم الإلهي في السلالة. وقد مارست بعض زوجات الفراعنة سلطات هامة، بل إن إحداهن قد شغلت العرش نفسه، فكانت تظهر في الطقوس ملتحية وفي ثياب رجل طوعًا منها، كما أنها اتَّخذت لقب فرعون.

وتجد أيضًا حضورًا كبيرًا للأنثى في مجمع الآلهة المصرية، خصوصًا في عبادة إيزيس، ولهذا الأمر دلالات هامة. كما يشدِّد الأدب والفن على احترام للزوجة والأم يتجاوز حدود حلْقة الوجهاء، وتركز قصص الحب ومشاهد الحياة العائلية على العاطفة الجنسية اللطيفة والاسترخاء والعفوية. وقد كانت بعض النساء معلّمات، بل إن هناك كلمة مصرية تدل على الكاتبة، ولكن لم تكن هناك بالطبع

مهن كثيرة متاحة لهن خارج البيت عدا عن مهنتي الكاهنة والمومس. وكان بإمكان الميسورات منهن حيازة أملاك، ويبدو أن حقوقهن القانونية كانت مشابهة لحقوق نساء سومر من أكثر النواحي.

المملكتان القديمة والوسطى

رغم كثرة السجلات فإن من الصعب أن نعرف علاقات مصر بالعالم الخارجي بأبعادها الصحيحة، أو مد وجزر السلطة ضمن وادي النيل نفسه. فنحن نتحدث عن فترات زمنية طويلة جدًا من دون أن نعلم بالتأكيد ما الذي كان يحدث فيها وما مدى أهميته. ويمكننا اعتبار تاريخ مصر معزولاً طوال ألف سنة تقريبًا بعد مينيس، وسوف يعتبرون هذه المرحلة فيما بعد فترة استقرار للبلاد ومناعة للفراعنة. إلا أن العلماء قد اكتشفوا على عهد المملكة القديمة انتقالاً للسلطة من المركز إلى الولايات، حيث صار الولاة يبدون أهمية واستقلالاً متزايدين، بل إن فرعون نفسه كان مضطرًا لوضع تاجين اثنين وكان يدفن مرتين، مرة في مصر العليا ومرة في مصر السفلى، إذ إن انقسامهما قد بقي انقسامًا حقيقيًا. ولم تكن علاقات مصر بجيرانها لافتة، عدا عن سلسلة من الحملات قامت بها ضد شعوب فلسطين قرب نهاية المملكة القديمة. ثم انعكست الآية عندما جاءت المرحلة المتوسطة الأولى، فغُزيت مصر من بعد أن كانت هي الغازية، ولا ريب أن الضعف والانقسام قد ساعدا الغزاة الآسيويين على تثبيت أقدامهم لفترة من الزمن في وادي النيل الأسفل.

أما المملكة الوسطى فقد استهلها ملك قوي أعاد توحيد المملكة من عاصمته في طيبة، وتمتعت مصر لحوالى مئتين وخمسين سنة بعد عام ٢٠٠٠ ق.م بفترة من

التعاقي، عاد فيها التشديد على النظام والتماسك الاجتماعي. وتغيرت المكانة الإلهية لفرعون تغيرًا دقيقًا، ففضلاً عن كونه إلهًا صاروا يشددون على أنه متحدِّر من آلهة وأنه سوف تتلوه آلهة، وعلى أن النظام الأزلي سوف يبقى راسخًا بعد الأيام السود التي ألقت الشك في قلوب الناس. من الواضح أيضًا حدوث توسع ونمو ماديين، فقد أُنجزت أشغال استصلاح كبرى للأراضي في مستنقعات النيل، وفتحت بلاد النُّوبة في الجنوب بين الشلالين الأول والثالث واستغلت مناجم ذهبها، كما أُسست مستوطنات مصرية أبعد منها جنوبًا، في البلد التي سوف تصبح ذات يوم مملكة غامضة اسمها مملكة كوش. وقد تركت التجارة آثارًا تدل على تطور لا سابق له، كما أعيد شغل مناجم النحاس في سيناء أيضًا، إلا أن المملكة الوسطى قد انتهت بهيجان سياسي وتنازع بين السلالات.

واستمرت المرحلة المتوسطة الثانية نحو مئتي عام، وتميزت بغزو جديد أخطر بكثير من الغزو السابق قام به شعب أجنبي أطلق عليه اسم الهِكسوس. إننا لا نعرف عنهم الكثير، ولكن لعلهم كانوا شعبًا ساميًا استفاد من الميزة العسكرية للعربات الحربيَّة المزوَّدة بالحديد من أجل السيطرة على دلتا النيل. ويبدو أنهم قد تبنوا عادات المصريين وأساليبهم، بل حافظوا في البداية على البيرقراطيين الموجودين. إلا أن هذا الأمر لم يؤد إلى اندماجهم، بل تم طردهم على عهد السلالة الثامنة عشرة. وكانت تلك بداية المملكة الحديثة، التي تابعت انتصاراتها بعد عام ١٥٧٠ ق.م بمطاردة الهكسوس حتى معاقلهم في جنوب كنعان، إلى أن احتلت في النهاية قسمًا كبيرًا من سورية وفلسطين.

المملكة الحديثة

كانت المملكة الحديثة في ذروة أبهتها على درجة كبيرة من النجاح على المستوى الدولي، كما أنها قد خلفت صروحًا مادية غنية. لقد حدثت على عهد السلالة الثامنة عشر نهضة في الفنون، وتبدُّل في التقنيَّات العسكريَّة بتبني اختراعات آسيوية مثل العربة، والأهم من كل هذا هو التمتين الهائل للسلطة الملكية. واللافت أن امرأة هي حتشبسوت قد شغلت العرش لفترة من الزمن في هذه المرحلة أيضًا. وراحت مصر تحرز المزيد من الأمجاد العسكرية طوال قرن كامل، فوصل زوج حتشبسوت وخليفتها تحوتمس الثالث بحدود الإمبراطورية إلى الفرات، وتشهد الصروح التي تسجل وصول الجزية والعبيد والزواجات من أميرات آسيويات على صدارة مصر، كما تعتبر هذه المرحلة عادة ذروة إنجازاتها الفنية، ولو أن بالإمكان اكتشاف تأثيرات أجنبية فيها أتتها من جزيرة كريت.

قرب نهاية المملكة الحديثة تظهر العلامات على اتصالات مصر المتزايدة بالخارج، وتشير أيضًا إلى أن العالم خارج مصر كان قد تغير من نواح كثيرة: كان تحوتمس الثالث قد لزمه رغم قوته سبع عشرة سنة لكي يخضع شرق المتوسط، وقد عجز مع هذا عن غزو إمبراطورية كبيرة يحكمها شعب يدعى شعب الميتاني، كان يسيطر على شرق سورية وشمال بلاد الرافدين. بعد ذلك تزوج فرعون أميرة من الميتاني، فصارت المملكة الحديثة تعتمد على صداقة شعبها لحماية مصالح مصر في تلك المنطقة، وباتت مصر مكرهة على الخروج من عزلتها التي طالما أمنت لها الحماية في الماضي. إلا أن الميتاني كانوا خاضعين لضغط الحثيين المتزايد من الشمال، والحثيون واحد من أهم الشعوب التي راحت طموحاتها وتحركاتها تمزق عالم الشرق الأدنى في النصف الثاني من الألف الثانية ق.م؛ وما برحت الأمور تتبدل.

لقد بلغت مصر ذروة مكانتها وازدهارها على عهد أمنحوتب الثالث -نحو ١٤١٠-١٣٧٥ ق.م- وكانت تلك أعظم حقب طيبة، حيث مُنح أمنحوتب الدفن اللائق به في أكبر مدفن أعد لملك في يوم من الأيام، ولو لم تبق منه الآن إلا بقايا التمثالين العملاقين اللذين سماهما الإغريق فيما بعد جباري ممنون -وهو بطل أسطوري كانوا يظنون أنه إثيوبي- لقد حاول خليفة هذا الفرعون، أي أمنحوتب الرابع، القيام بثورة دينية تتمثل بإحلال عبادة توحيدية هي عبادة الإله الشمس أتون محل الديانة القديمة، وللدلالة على جديته غير اسمه إلى أخناتون، كما أسس مدينة جديدة في تل العمارنة على بعد ثلاثمئة ميل -خمسمئة كم- إلى الشمال من طيبة، وجعل فيها معبدًا قُدْسُه مكشوف لأشعة الشمس لكي يكون مركزًا لهذا المعتقد الجديد. إلا أن هذه الثورة الدينية قد حرضت معارضة ساهمت في شل أخناتون على جبهات أخرى. وفي تلك الأثناء كان ضغط الحثيين يبدي آثاره على البلاد التابعة لمصر، وقد عجز أخناتون عن إنقاذ الميتاني، فخسر هؤلاء كل أراضيهم إلى الغرب من الفرات عندما أخذها منهم الحثيون في عام ١٣٧٢، ثم نشبت حرب أهلية أنبأت بزوال مملكتهم بعد نحو ثلاثين سنة. وهكذا كان عالم مصر الإمبراطوري يتداعى.

حقبة التراجع

لقد غير أمنحوتب الرابع اسمه لأنه أراد أن يمحو كل ما يذكّر بعبادة الإله القديم أمون. أما خليفته وزوج ابنته فقد غير اسمه من توت عنخ أتون إلى توت عنخ أمون لكي يعبر عن إعادة العبادة القديمة والإطاحة بمحاولة الإصلاح الديني. وربما كان العرفان له بهذا الجميل هو الذي أدى إلى دفنه ذلك الدفن الفخم والمذهل في وادي الملوك من بعد حكم قصير ليس فيه شيء آخر يستدعي الانتباه. عندما مات

توت عنخ أمون كان أمام المملكة الحديثة قرنان من الحياة بعد، ولكنهما كانا قرنين من التراجع المتسارع الذي لا يتمهل إلا نادرًا. وقد بذل ملوك لاحقون جهودهم من أجل استعادة ما ضاع، ونجحوا في ذلك أحيانًا، وظلت موجات الغزوات تتقلب جيئة وذهابًا فوق فلسطين. واتخذ أحد الفراعنة أميرة حثية زوجة له مثلما كان أسلافه يتزوجون من أميرات الشعوب الأخرى، إلا أن أعداء جددًا سوف يظهرون، وحتى التحالف مع الحثيين لن يعود ضمانة كافية ضدهم. كان بحر إيجة في حالة هيجان، وتقول سجلات مصر إن الجزر «قد لفظت سكانها كلهم معًا» و«لم تقف في وجههم بلد». وقد تم طرد «شعوب البحر» هذه في النهاية، ولكن من بعد صراع شاق. ومنذ عام ١١٥٠ ق.م تقريبًا تكثر علامات التفكك الداخلي أيضًا، فقد مات الملك رعمسيس الثالث نتيجة مؤامرة في حريمه، وكان آخر ملك أحرز بعض النجاح في صد موجة الكوارث المتعاظمة. ثم تسمع عن إضرابات ومشاكل اقتصادية على عهد خلفائه، وعن انتهاك لحرمة مدافن الملوك في طيبة ونهبها. والحقيقة أن عصر سلطة مصر الإمبراطورية كان قد ولى.

ومثلها ولت سلطة الحثيين، وإمبراطوريات غيرها عند نهاية الألف الثانية. كان العالم الذي أحرزت فيه مصر إنجازاتها يتوارى، وكان هذا سببًا أساسيًا من أسباب تقهقرها. إلا أنك تشعر أيضًا شعورًا لا يقاوم بأن نهاية المملكة الحديثة تكشف عن نقاط ضعف كانت كامنة فيها منذ البداية. والحقيقة الغريبة هي أن إبداع حضارة مصر لم يؤت في النهاية أُكُله. لقد كان المصريون يحشدون الجهود الجبارة تحت إشراف موظفين بارعين، ولكن لمجرد تشييد المدافن العملاقة، وكان حرفيوهم يكرسون مهاراتهم الرائعة ولكن من أجل صنع أغراض مآلها القبور.

وكانت لديهم نخبة معلمة جدًا تستخدم لغة معقدة ودقيقة، وتملك في ورق البردي مادة مناسبة لا مثيل لها، استعملتها بغزارة في النصوص والنقوش، إلا أنها لم تترك للبشرية أفكارًا فلسفية أو دينية عظيمة. ومن الصعب ألا تشعر بالعقم والتفاهة في قلب هذا الاستعراض الباهر. وحدها قدرة حضارة مصر العجيبة على الاستمرار تبقى أمرًا مذهلاً، لأنها ظلت تعمل زمنًا طويلاً جدًا، وقد تعرضت لمرحلتين من الكسوف الكبير على الأقل، ثم تعافت منهما من دون أن يغيرها على ما يبدو. إن حياة بهذا الطول إنما هي نجاح مادي وتاريخي عظيم، ويبقى السؤال المحير هو لماذا اقتصرت حضارة مصر على أرضها؟ فالحقيقة أن سلطتها العسكرية والاقتصادية لم تغير العالم بشكل دائم، وحضارتها لم تنتشر بنجاح إلى الخارج قط.

لقد كان التغير الاجتماعي والثقافي في تلك الأزمنة الباكرة بطيئًا وغير محسوس بالطبع. وقد تعودنا نحن على التغير السريع بحيث صار من الصعب علينا أن نشعر بالجمود الكبير في الأنظمة الاجتماعية القديمة -وهي على كل حال أنظمة ناجحة لأنها مكنت الناس من معالجة بيئتهم المادية والعقلية- كانت مصادر التجديد في تلك الحضارات أقل بكثير منها اليوم؛ إن سرعة التاريخ كبيرة في مصر القديمة بالقياس إلى حقبة ما قبل التاريخ، ولكنها تبدو لنا بطيئة للغاية إذا فكرنا بقلة تبدل الحياة اليومية بين زماني مينيس وتحوتمس الثالث، وهي فترة تمتد لأكثر من ألف وخمسمئة سنة، وتقارب المسافة بيننا وبين نهاية بريطانيا الرومانية. ولم تكن التقنية أو القوى الاقتصادية بقادرة على دفع الأمور نحو التغيير كما اعتدنا اليوم إلا بصورة بطيئة جدًا. أما الحوافز الفكرية فلا يمكن لها أن تكون قوية في مجتمع مكرس لغرس الروتين في النفوس والتحضير للموت.

أولى حضارات آسيا

إذا نظرت إلى العالم في عام ١٠٠٠ ق.م - وهو تاريخ اعتباطي - وجدت أن الحضارة كانت قد ترسخت فيه إلى الشرق من الهلال الخصيب ومصر، فكانت كل من الهند والصين قد طوَّرت لنفسها أنماطًا متميِّزة من الحياة المتحضِّرة، ومختلفة تمامًا عن تلك الحضارات الأسبق الواقعة إلى الغرب منها، ولو حصلت اتصالات سطحية بها. وكانت الثقافات الأصلية في الهند والصين قد خلقت فيهما طرقًا في التفكير والسلوك متميزة تمامًا وممتدة على رقعة شاسعة من الأرض. وكان هذان البلدان هما قلبا المنطقتين الجغرافيتين (ثم الثقافيتين) الأساسيتين اللتين تقسمان آسيا إلى الشرق من أفغانستان ومرتفعات إيران وجنوب سيبيريا. فالمنطقة الهندية تحدها جبال الهملايا وسلاسل الجبال المجاورة لها، أي مرتفعات بورما وسيام(*) وسواحل أرخبيل إندونيسيا. أما المنطقة الأساسية الثانية في شرق آسيا فهي تتكون من أرض الصين الكبيرة، ولكنها تشمل أيضًا كوريا واليابان والهند الصينية. وطوال القسم الأكبر من الأزمنة التاريخية كانت الحضارات التي تظهر في الهند والصين تنـزع إلى السيطرة على هذين الجزءين الكبيرين من آسيا، وهما منطقتان متنوعتان تنوعًا كبيرًا من حيث طبيعة الأرض والمناخ والجغرافية، وتضمان بعض أكبر أنهار العالم - مثل الهندوس(**) والغانج والبرَهْمابُترا والميكونغ واليانغ تسي كيانغ والنهر الأصفر - وجميعها تصرّف كميات هائلة من المياه من مرتفعات آسيا الداخلية؛ وقد كان واديا اثنين من هذه الأنهر موقعين لأول أشكال الحياة المتحضِّرة في آسيا.

(*) تايلند اليوم.

(**) السند.

وإذا نظرت إلى شبه القارة الهندية نظرة أقرب وجدتها تعادل أوربا في الحجم تقريبًا، وقد بقيت معزولة لزمن طويل بسبب جغرافيتها، فلم تُغز إلا نادرًا من خلال ممرات الشمال الغربي، وذلك حتى القرن السادس عشر. إن جبال هذه المنطقة - خاصة منها الأبعد نحو الشمال - هي من أعلى الجبال في العالم، وإلى الشمال الشرقي تمتد الأدغال. أما الضلعان الآخران لشبه القارة الهندية فهما يطلان على المحيط الهندي الواسع. وقد منحتها هذه الجغرافية مناخًا متميزًا ومتنوعًا جدًا ولكنه استوائي، فالجبال الشمالية تصد الرياح الجليدية القاسية الآتية من آسيا الوسطى - ولو أن شمال الهند قد يكون أحيانًا قارس البرودة في الشتاء- بينما تجد السواحل الطويلة مفتوحة أمام الغيوم المحمَّلة بالمطر، والتي تجري إليها من المحيط لتروي سهول الشمال الجافة بأمطارها الموسميَّة السنوية. ويحدد هذا الترتيب ساعة الهند المناخية وبالتالي الزراعية، فيأتي بالمطر خلال أكثر شهور السنة حرارة، ويؤمن لمرتفعات الدكّن الجنوبية غطاء من الغابات الكثيفة، ويبدو أن الزراعة قد ترسخت أول ما ترسخت في سهول نهر الهندوس الغرينية في الشمال الغربي.

أما منطقة الصين الثقافية فهي أكبر حتى من هذه، وهي أكبر من الولايات المتحدة، إذ إن بين بكين وهونغ كونغ إلى الجنوب حوالى ١٢٠٠ ميل(*) في خط مستقيم. وتضم هذه الأرض الشاسعة مناخات كثيرة ومناطق كثيرة؛ ففي الصيف يكون الشمال حارقًا وجافًا بينما يكون الجنوب رطبًا ومعرضًا للفيضانات؛ ويبدو الشمال عاريًا ومغبرًا في الشتاء بينما يبقى الجنوب أخضر على الدوام. وكانت الحضارة في الصين تنـزع دومًا إلى الانتشار من الشمال إلى الجنوب، وإلى التأثر

(*) ١٩٠٠ كم تقريبًا.

بتيارات آتية من منغوليا وآسيا الوسطى. وينقسم هذا البلد الكبير إلى ثلاثة أقسام طبغرافية أساسية تحددها وديان ثلاثة أنهار كبرى تصرف القسم الداخلي من البلاد، وتجري عبرها من الغرب نحو الشرق تقريبًا. هذه الأنهار هي من الشمال إلى الجنوب: الهوانغ هو أو النهر الأصفر، واليانغ تسي كيانغ، والسيكيانغ. ولم تساعد هذه الأنهار في ربط الصين بالعالم الخارجي إلى أن جاء الأوربيون، لذلك بقيت الصين زمنًا طويلاً منعزلة مثلها مثل الهند. وتغطي الجبال قسمًا كبيرًا منها، ومازالت حدودها تمتد بلا انتظام عبر سلاسل كبيرة من الجبال والمرتفعات وعلى امتدادها، إلا في أقصى الجنوب والشمال الشرقي. وتقع منابع نهر اليانغ تسي كيانغ مثل منابع الميكونغ في مرتفعات كون لون شمالي التبت. وإن هذه الحدود الجبلية هي عوامل عزل كبيرة، وهي تشكل قوسًا لا يقطعها إلا جريان النهر الأصفر نحو الجنوب آتيًا إلى الصين من وسط منغوليا.

حضارة الهند الباكرة

إن الحضارة في الهند أقدم منها في الصين، ولكن تاريخها أكثر تفككًا. ومازالت الهند القديمة تعيش بيننا من بعض النواحي بعكس جميع مراكز الحضارات الباكرة الأخرى. فحتى بداية القرن العشرين كان كثير من الهنود يعيشون مثل جميع أجدادنا القدامى، أي على الصيد وجمع الطعام، ومازالت العربة التي يجرها الثور وعجلة صنع الفخار في قرى كثيرة اليوم مثل التي كانت مستخدمة منذ أربعة آلاف سنة على ما يبدو، بل مازالت تُعبد في مقامات القرى آلهة وإلهات تعود في أصولها إلى العصر الحجري. كما أن الترتيبات الاجتماعية التي وضعت خطوطها الأساسية

قبل عام ١٠٠٠ ق.م بزمن طويل مازالت تنظِّم حياة الملايين من الهنود، من مسيحيين ومسلمين فضلاً عن الهندوس.

إن الشعوب ذات البشرة الداكنة والتي تسمى شعوبًا دراويدية وتجد أحفادها اليوم بشكل أساسي في جنوب الهند، كانت تعيش في الشمال أيضًا منذ حوالى خمسة آلاف سنة، وربما كان هؤلاء هم الهنود الأصليون، ولكن هذا الأمر غير مؤكد. وقد دخلت شعوب كثيرة إلى شبه القارة الهندية من خلال ممرات الجبال في الشمال الغربي، وربما جاء شعب آخر وأطلق شرارة الحضارة في وادي الهندوس، حيث بدأت الزراعة في الهند وحيث توجد الأدلة الأولى على صنع الفخار على عجلة، ولكن لا أحد يعلم الحقيقة بشكل أكيد. صحيح أن بعض العلماء قد اجتذبتهم فكرة أن تكون الهند أخذت حضارتها عن الشرق الأدنى، ولكن ربما توصَّل الهنود إلى الحضارة بأنفسهم، مثلهم مثل أهل بلاد الرافدين.

لقد ظهرت الحضارة في الهند منذ عام ٢٥٠٠ ق.م تقريبًا، وتشهد على ذلك أعمال علماء الآثار في أربعين أو خمسين موقعًا – من بينها بقايا مدينتين كاملتين في موهنجو دارو وهَرابّا، وكلتاهما قريبتان من نهر الهندوس، ولكن بينهما مسافة ٤٠٠ ميل (٦٥٠ كم تقريبًا). كانت هاتان مدينتين كبيرتين ومدهشتين حقًا، وربما، كان في كل منهما ثلاثون ألف نسمة عندما كانتا في ذروة امتدادهما، وكان محيطهما بين ٢–٢,٥ ميل (٣–٤ كيلومترات). من الواضح أن وادي نهر الهندوس لم يكن في ذلك الزمان جافًا بعد، لأن حضارة على هذا المستوى –وكانت حضارة هرابّا هذه تشمل منطقة واسعة جدًا– تحتاج إلى زراعة غنية جدًا، ولا بد من وجود طرق للتحكم بنهر الهندوس المعرض دومًا للفيضانات عن طريق نُظُم للتصريف والري من

أجل أن تنشأ حياة المدن، ويشير هذا بدوره إلى مهارات عالية في التنظيم والإدارة والتقنية. وربما كان اختراع القرميد المشوي اختراعًا حاسمًا، لأنه المادة التي بنيت بها مدن هرابّا، وهو مناسب للتحكم بالفيضانات في هذا الوادي الخالي من الحجارة، إذ يمكن استخدامه لبناء السدود والمجارير والأقنية، بينما لا يمكن ذلك باستخدام القرميد المجفف بأشعة الشمس الذي كان يصنع في بلاد الرافدين.

كانت هناك أرصفة للسفن أيضًا، منها رصيف في لوثال تصله بالبحر قناة طولها ميل كامل (١,٥ كم)، ويدل هذا على وجود تجارة مع العالم الخارجي -ربما كانت تجارة بالبضائع القطنية لأنك تجد في هذه الحضارة أبكر الأدلة على صنعها- ويعزز هذا الأمر الانطباع الذي تعطيه بقايا المدن بأنها كانت مدنًا غنيَّة. فقد كان في كل مدينة قلعة ومناطق سكنية منازلها مرتبة بانتظام على مخطط متصالب، و لم تكن الشوارع مبلطة ولكن منازلها كانت متينة ومبنية من قطع قرميد ذات حجم واحد ومجهزة تجهيزًا حسنًا، كما كانت هناك جوارير مبطنة بالقرميد تحمل الماء من أحواض الغسيل والمراحيض، ولها فوهات مغطاة تسمح بتنظيفها وفحصها، وكانت البيوت مزودة بأنابيب لرمي الأنواع الأخرى من الفضلات ثم جمعها. وقد اكتشفت أيضًا حمامات أو أحواض كبيرة في أماكن عامة مثل التي تراها اليوم في قرى الهند التي لا حصر لها، ولعلها كانت تستخدم للعناية بنظافة الجسم لأن ثمة أدلة على ممارسة هذه العادة، أي أنه ربما كانت هناك أصول قديمة جدًا لعادة الاغتسال التي طالما شدَّدت عليها ديانة الهند، وطقوس الوضوء في الديانة الهندوسية اللاحقة.

كانت حضارة هرابّا تعرف الكتابة، وتجد كتاباتها على آلاف الأختام التي يبدو أنها كانت تستخدم لتعليم بالات البضائع التي كانت تباع للخارج، كما

تجدها على كُسَر قليلة باقية من الفخار. وكانت هذه الكتابة تصويرية، ولم تكشف الكثير لبحوث العلماء عدا عن احتمال أن تكون لغة هرابّا قريبة من اللغات الدراويدية التي مازالت حيَّة في جنوب الهند اليوم، ولكن من الواضح أن الكتابة كانت هامة جدًا لعمل جهاز الإدارة الفعَّال والواسع. ويبدو أيضًا أن الأوزان والمقاييس كانت موحَّدة على امتداد منطقة واسعة؛ وأنه كانت هناك أهراء -مخازن حبوب- عامة كبيرة في المدن. كما تدل أحجار المراسي التي وجدت في رصيف لوثال على أن سفنًا كبيرة كانت ترسو فيه، وقد وجدت بقايا من الأختام المستخدمة لتعليم بالات البضائع في الطرف العلوي من الخليج الفارسي، أي أن تجارة هرابّا كانت تجارة واسعة المدى. ومن المعروف أيضًا أن أفكارًا وتقنيَّات من وادي الهندوس قد انتشرت عبر السند والپنجاب وعلى طول الساحل الغربي لغُجرات، ولكن هذه العملية استغرقت قرونًا طويلة، ومازالت الصورة التي تكشفها لنا الآثار مشوَّشة وغير واضحة.

الهند الآرية

بعد عام ٢٠٠٠ ق.م ببضعة قرون آلت حضارة وادي الهندوس إلى نهايتها، ولا نعلم السبب الذي أدى إلى ذلك. يقول البعض إنها ربما راحت ضحية كارثة بيئية من صنع البشر، فربما كان السبب هو المغالاة في قطع الأشجار من أجل تغذية أفران صنع القرميد، وبالتالي تخريب توازن الزراعة الدقيق القائم على ضفاف الهندوس، أو ربما سبب اقتلاع الأشجار للزراعة أو الرعي تعرية وتجفافًا وانهيارًا في الإنتاجية. وإذا كان أحد هذين الاحتمالين أو كلاهما صحيحًا فقد صار التحكم بفيضانات الهندوس المدمِّرة أمرًا أصعب بكثير - وهي أخطار كانت ماثلة على الدوام - إلا أننا في الحقيقة لا نعلم السبب.

هناك أيضًا احتمال وجود عامل آخر زاد الطين بلة في هذه البلد التي خربَّتها أصلاً المغالاة في استغلال بيئتها، وهو احتمال نال بعض التأييد لأنه قد يربط تاريخ الهند بالاضطرابات الكبرى التي كانت تجري في أماكن أخرى من العالم. يبدو أن حضارة هرابّا قد انتهت في حوالى عام ١٧٥٠ ق.م، ويتزامن هذا تزامنًا لافتًا مع اندفاع مجموعة جديدة من الشعوب الغازية إلى شبه القارة، هي الشعوب التي تسمى آرية. لقد كان هؤلاء «هنودًا أوربيين»، وإن تسمية آري هي تسمية تدل على اللغة مثل تسمية «هندي أوربي»، ولكنها تطلق عادة بشكل خاص - وهو استخدام ملائم - على مجموعة واحدة من الشعوب الهندية الأوربية التي بدأت تدخل الهند من جبال هندوكوش في حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م، بينما كان غيرهم من الهنود الأوربيين يتدفقون إلى إيران. وكانت هذه بداية قرون عديدة سوف يزداد فيها امتداد موجات هؤلاء المهاجرين عمقًا ضمن وادي الهندوس وإقليم البنجاب.

وقد وصلوا في النهاية إلى أعلى نهر الغانج. ولا يميل العلماء إلى فكرة أن يكون الآريون وحدهم سبب خراب مدن هذا الوادي، كما أنهم لم يقضوا على الشعوب الأصليَّة، ولكن لا ريب أن قدومهم قد تميَّز بمقدار كبير من العنف، لأنهم محاربون وبدو ومسلحون بأسلحة برونــزية، كما أنهم جلبوا معهم الخيل والعربات، وقد وجدت في مدن وادي الهندوس هياكل عظمية توحي بحدوث اقتتال. ولكن ثمة علامات كثيرة أيضًا تدل على أن السكان الأصليين في أماكن أخرى قد عاشوا إلى جانب الوافدين الجدد محتفظين بمعتقداتهم وعاداتهم، وقد امتزجت بعض تقاليد هرابّا بالتقاليد اللاحقة.

لم يكن لدى الآريين ثقافة متقدِّمة مثل التي وجدوها، وقد زالت الكتابة بقدومهم، ولم تظهر من جديد إلا في منتصف الألف الأولى ق.م. والمدن أيضًا

زالت لتعود فتنشأ من جديد، ولكن كان ينقصها عندئذ الإحكام والنظام اللذان اتصفت بهما مدن وادي الهندوس من قبلها. ويبدو أن الآريين لم يتخلوا عن عاداتهم الرعوية ويستقروا للزراعة إلا ببطء، وقد انتشروا شرقًا وجنوبًا من مناطق استقرارهم الأصلية في امتداد من القرى بغير انتظام. واستغرق هذا الانتشار قرونًا عديدة، ولم يكتمل ولا استوطن وادي الغانج حتى قدوم الحديد، إلا أن الثقافة الآرية قد ساهمت مساهمات حاسمة في تاريخ الهند.

أولى تلك المساهمات هي وضع أسس الديانة الهندية. كان جوهر ديانة الآريين هو مفهوم الأضاحي، فمن خلال القرابين كانوا يعيدون بلا نهاية عملية الخلق التي أنجزتها الآلهة في بداية الزمان. وكان الإله أَغْنِي إله النار، وهو عظيم الأهمية لأنه من خلال لهب قرابينه يمكن للإنسان أن يبلغ الآلهة، كما مُنح البراهمة أهمية ومكانة كبيرتين، لأنهم الكهنة الذين يرأسون هذه الاحتفالات. ومن أهم الآلهة الأخرى اثنان هما ڤارونا إله السموات وضابط النظام الطبيعي وتجسيد العدالة، وإِندرا الإله المحارب الذي يذبح التنين سنة بعد سنة، فيطلق من جديد مياه السموات التي تأتي مع اندفاع الرياح الموسمية. وتخبرنا عن هذين الإلهين وعن غيرهما الريغ ڤيدا، وهي مجموعة تضم أكثر من ألف ترتيلة «ڤيدية» تؤدى أثناء تقديم القرابين، وقد تراكمت عبر القرون.

يبدو أن الريغ ڤيدا تعكس الثقافة الآرية بعد أن غيّرها الاستقرار في الهند، وليس كما كانت في أزمنة أبكر. وكانت في البداية تنتقل كتقليد شفهي، وبسبب قدسيَّتها كان من الضروري استظهارها استظهارًا دقيقًا، وقد حماها هذا الأمر من التحريف عن شكلها الأصلي -الذي جُمع أولاً في حوالى عام ١٠٠٠ ق.م- عندما سجلت للمرة الأولى بعد عام ١٣٠٠ للميلاد. وهي تشكل مع التراتيل الڤيدية

اللاحقة والأعمال النثرية أفضل مصادر معلوماتنا عن الهند الآرية، التي تبقى آثارها بكماء لزمن طويل، لأن الآريين كانوا يبنون بالخشب وليس بالقرميد كما في مدن وادي الهندوس.

تمتد الهند الموصوفة في الريغ فيدا من ضفاف الهندوس الغربية إلى نهر الغانج. ضمنها كانت تعيش شعوب آريَّة وسكان أصليون قاتمو البشرة جنبًا إلى جنب في مجتمعات وحداتها الأساسية هي العائلات والعشائر. وكانت فيها أنماط اجتماعية من أصل آري وسوف تبقى لها أهمية دائمة، وكان أساس حياتهم الاجتماعية هو ما نسمِّيه اليوم نظام الطبقات المنغلقة caste. إن نظام الطبقات المنغلقة هو الميراث الأساسي الذي تركه الآريون للهند، إلى جانب ديانتهم ولغتهم السنسكريتية -وهي أساس لغات الهند التي مازالت محكيَّة اليوم- ثم تطوَّرت تلك الطبقات، فصارت عبارة عن مجموعات من الناس يتبعون نفس المهنة وتحق لهم وحدهم. وعضوية الطبقة وراثية، ولا يتزوج أفرادها في الحالة المثالية إلا من طبقتهم، ويشتركون بطقوس خاصة وأعمال إجبارية، وإذا كانوا متزمتين فإنهم لا يأكلون إلا طعامًا حضره أفراد من الطبقة نفسها. وقد صارت هناك في النهاية مئات من الطبقات وفروع الطبقات، ومع تزايد تعقيد المجتمع وضعت محرمات جديدة في الزواج والطعام، وأصبحت متطلبات هذا الترتيب في النهاية ناظمًا أساسيًا لمجتمع الهند، بل الناظم الأهم في حياة الكثيرين من الهنود. وفي الأزمنة الحديثة أضحت هناك آلاف الطبقات المحليَّة والمهنيَّة، وقد شكلَّت هذه مع روابط العشيرة والعائلة والانتماء المحلي بنية من السلطة في مجتمع الهند يعادل نفوذها نفوذ المؤسَّسات السياسيَّة الرسميَّة والسلطة المركزيَّة.

كان هذا النظام قد بدأ بتقسيم بسيط للمجتمع الآري إلى ثلاث طبقات: هي البراهمة والمحاربون والمزارعون. ولم تكن هذه الطبقات في البدء محدَّدة بدقة ولا حصريَّة كما صارت لاحقًا، بل يبدو أن الانتقال من إحداها إلى الأخرى قد ظل ممكنًا طوال قرون عديدة، ويبدو أن الحاجز الاجتماعي الوحيد الذي كان مستحيل العبور في الأزمنة القديمة هو الحاجز بين الآريين وغير الآريين. إذ يبدو أن هناك طبقة اجتماعية رابعة قد مُيزت وحُدِّدت تحديدًا شديدًا وقاسيًا، وهي تضم السكان الأصليين ذوي البشرة الأقتم من الغزاة، لأن الغزاة أرادوا البقاء منفصلين عنهم فاعتبروهم بالتالي خارج نظام الطبقات الثلاث أصلاً. وصار غير الآريين، أي أفراد الطبقة الرابعة الجديدة، يسمون «النحسين»، ولما كانوا غير آريين فلم يكن يحق لهم الاشتراك في القرابين الدينية أو الدراسة أو سماع التراتيل الفيدية. وفي النهاية أمسى هؤلاء «النحسون»، الذين مُيزوا أصلاً لرغبة في الحفاظ على نقاوة العرق، هم طبقة «المنبوذين» the untouchables في الهند الحديثة، وهي طبقة تترك لها الأعمال القذرة من تنظيف وكنس، وينظر إليها باحتقار شديد، إلى حد أن بعض البراهمة مازالوا يشعرون أن ظل الكنّاس يلوث الطعام إذا وقع عليه.

كان هناك ملوك منذ المجتمع القبلي الآري الباكر، وفي نحو عام ٦٠٠ ق.م كان هناك ما يقرب من ست عشرة مملكة موزعة في وادي الغانج وراسخة فيه. وكانت هذه نتيجة قرون من الضغط الدائم نحو الشرق والجنوب الشرقي، ويبدو أن الاستقرار السلمي والتزاوج قد لعبا دورًا لا يقل عن دور الغزو في هذا التطور، ولكننا لا نستطيع من خلال الميثولوجيا أن نرى بوضوح كيف حدث ذلك. لقد انتقل مركز الثقل في الهند الآريَّة أثناء هذه الحقبة رويدًا رويدًا من البنجاب إلى وادي الغانج مع تبني الشعوبَ التي كانت هناك للثقافة الآريَّة. وكان وادي الغانج

منذ القرن السابع ق.م المركز الرئيسي لسكان الهند، وربما صار هذا ممكنًا بفضل زراعة الأرز. فبدأ عندئذ عصر ثان من المدن الهنديَّة، كانت أبكرها أسواقًا ومراكز تصنيع تجمع الحرفيين المختصين. وبفضل وجود السهول الكبيرة ونشوء جيوش أكبر وأفضل تجهيزًا -بلغنا خبر استخدام الفيلة- سهَّل الاندماج في وحدات سياسيَّة أوسع، كما أن ظهور النقد واكتشاف الكتابة من جديد قد ساعدا في زيادة تماسك الحكومات وانتظامها، وتجد في وثائق لاحقة معلومات عن تلك الحكومات وعن الأسماء الكبيرة المرتبطة بها، خصوصًا في ملحمتين هنديتين كبريين، هما الرامايانا والمَهابَهاراتا، اللتان دونت نصوصهما كما نعرفها للمرة الأولى في نحو عام ٤٠٠ للميلاد.

ومهما كانت السمات المحليَّة للثقافات الهندية، فقد استمرت الحضارة الآرية بالانتشار، فتقدمت نحو البنغال على طول وادي الغانج، كما امتدت جنوبًا على طول السواحل الغربية نحو غُجرات، ثم نحو المرتفعات الوسطى لشبه القارة الهندية، ويبدو أن استيطان الآريين قد توقف هناك. لقد كانت منطقة الدكّن في الجنوب معزولة دومًا عن الشمال بواسطة هضاب مغطاة بالأدغال، هي هضاب فِنديا، كما أن جنوب الهند نفسه مقسَّم بالهضاب، وقد أعاق هذا الأمر بناء دول كبيرة فيه، لذلك بقي مفككًا وبقيت بعض شعوبه تعيش في ثقافات الصيد وجمع الطعام القبَلية بسبب صعوبة الوصول إليها. إلا أن هذا الوصف لا يجوز أن يجعلنا ننسى وجود النصف غير الآري من شبه القارة، ولو أن الكتابات والنصوص الكلاسيكية مقتصرة على الشمال الآري. والحقيقة أن الأدلة القليلة الموجودة من آثار الجنوب تشير إلى تأخره الثقافي الواضح والمستمر عن منطقة نهر الهندوس وبقية شبه القارة منذ المرحلة الباكرة، وإن اسم الهند إنما أتى من اسم نهرها الشمالي هذا. أما في الجنوب فلا يبدأ

البرونـــز والنحاس بالظهور إلا بعد وصول الآريين إلى الشمال بزمن طويل، ومتى خرجت من وادي نهر الهندوس لا تعود تجد تماثيل معدنية ولا أختامًا، كما تندر التماثيل الفخارية العائدة للأزمنة ما قبل الآريَّة، وإن استمرار اللغات الدراويدية في الجنوب لدليل على انعزال هذه المنطقة الدائم.

إن تقديرات أعداد السكان في الأزمنة القديمة تخمينية لا يعوَّل عليها كثيرًا، وقد قُدِّر عدد سكان الهند بحوالى ٢٥ مليونًا في عام ٥٠٠ ق.م، وربما كان هذا تقريبًا ربع سكان العالم كله في ذلك الحين. إلا أن أهمية تاريخ الهند الباكر تكمن في تأثيره المستمر في صياغة حياة مئات الملايين من الناس اليوم، وليس في عدد سكانها الكبير في العصور القديمة. ويصح هذا الأمر بالأخص على موضوع الدين، فقد تبلورت الديانة الهندوسية الكلاسيكية في الألف الأولى ق.م، كما كانت البوذية أيضًا قد ظهرت في الهند كديانة عالمية كبرى في طور النشوء؛ ولما كانت أفعال الناس محكومة بما يؤمنون أنهم قادرون على فعله، فإن هاتين الديانتين هما مفتاحان لتاريخ الهند، أي أن جوهر تاريخ هذا البلد هو صياغته لثقافة معينة وليس صياغة أمة أو اقتصاد، ولقد كانت الديانة في قلب تلك الثقافة.

ديانة الهند الباكرة

إن جذورها لسحيقة القدم. ثمة ختم من موهنجو دارو عليه صورة شخص كأنه شكل باكر للإله شيفا، وهو واحدة من شخصيات العبادة الشعبية الكبرى في الهندوسية، كما وجدت في مدن هرابًا أحجار بشكل قضيب الرجل lingam الذي يمثل شعاره في المعابد الحاليَّة، وربما كانت عبادة شيفا أقدم عبادة باقية في العالم، ولو أن لها ملامح آريَّة هامة. كما أن ثمة أختامًا أخرى من هرابًا توحي بعالم ديني

متمحور حول إلهة أم وثور. ومازال الثور مستمرًا حتى اليوم بشكل الإله ناندي الذي تراه في مقامات القرى التي لا حصر لها في كافة أنحاء الهند الهندوسية، وقد اكتسب قوة جديدة في آخر تجسداته كشعار انتخابي لحزب الكونغرس.

أما الإله ڤشنو فهو آري بصورة أوضح؛ وهو أيضًا يُشكِّلُ عبادة هامة في الهندوسية الشعبية الحديثة، وقد انضم إلى مئات الآلهة والإلهات المحلية التي ما زالت تعبد اليوم لتُشكِّلْ معًا مجمع الآلهة الهندوسية. ومهما كانت آثار عصر هرابّا -أو حتى ما قبل هرابّا- في الديانة الهندوسية، فإن تقاليدها الفلسفية والتأمليَّة الكبرى قد انبثقت من الديانة الڤيدية ومن التراث الآري. إن السنسكريتية هي لغة التعليم الديني التي مازالت تستخدم اليوم في الجنوب المتحدِّث باللغات الدراويدية مثلما هي مستخدمة في الشمال، وقد كانت السنسكريتية رباطًا ثقافيًا عظيمًا، وكذلك الديانة التي حملتها. وكانت التراتيل الڤيدية نواة نظام من الفكر الديني أكثر تجريدًا وفلسفة من الأرواحية البدائية(*)، وقد تطورت المفاهيم الآريَّة حول الجحيم والجنة - أي ما كان يسمى بيت الطين وعالم الآباء - رويدًا رويدًا نحو الإيمان بأن أعمال الإنسان في الحياة هي التي تحدد مصيره.

وبزغت من هذه العناصر بالتدريج بنية هائلة وشاملة من الفكر، ونظرة للعالم ترتبط فيها الأشياء كلها ضمن شبكة عظيمة من الوجود. فقد تمر الأرواح بأشكال مختلفة من حياة إلى حياة ضمن هذا الكل الشاسع، وقد تصعد سلم الوجود أو تهبطه، كأن تنتقل بين الطبقات مثلاً أو حتى بين عالمي الإنسان والحيوان. ويتحدَّد شكل التقمّص من حياة إلى حياة أخرى بالسلوك السليم، كما أن هذا التقمّص

(*) الأرواحية animism هي الاعتقاد بأن لكل ما في الكون، وحتى للكون نفسه، روحًا أو نفسًا - المورد

مرتبط بفكرة التطهُّر والتجدُّد، والثقة بالتحرُّر مما هو عابر وعارض وظاهر، والإيمان بالتطابق الجوهري بين الروح والوجود المطلق في البراهما، أي المبدأ الخالق. وكان واجب المؤمن هو التقيد «بالدارما» - وهي مفهوم لا يمكن ترجمته، ولكنه يجسد شيئًا من الأفكار الغربيَّة عن قانون عدالة طبيعي، وشيئًا من فكرة أن على الإنسان احترام الواجبات التي تفرضها عليه مرتبته في الحياة وطاعتها.

لقد استغرقت هذه التطورات زمنًا طويلاً، ومرت التقاليد الڤيدية بخطوات معقَّدة وغامضة حتى تحوَّلت إلى الهندوسية الكلاسيكية. وكان البراهمة في قلب المراحل الباكرة من هذا التطور، وكان لهم دور أساسي في طقوس تقديم القرابين في الديانة الڤيدية، ويبدو أنهم سرعان ما تعايشوا مع آلهة عالم أقدم. ولم تظهر علامات مقاربة أكثر فلسفية إلا بعد عام ٧٠٠ ق.م تقريبًا، وذلك في نصوص مقدَّسة تسمى الأُپانيشَد، وهي مزيج من التلاوات والتراتيل والحكم والتأملات وضعها رجال قدِّيسون، ترشد إلى المعاني العميقة للحقائق الدينية التقليدية. إن التركيز على الآلهة والإلهات الشخصية فيها أقل بكثير من النصوص الأبكر، كما أنها تضم بعض أبكر التعاليم الزهدية، التي سوف تصبح ملمحًا بارزًا ولافتًا من ملامح الديانة في الهند، مع أن الذين مارسوها كانوا قلة قليلة. لقد لبت الأُپانيشَد الحاجة التي شعر بها البعض للبحث عن الرضى الديني خارج إطار التقاليد، ويبدو أن بعضهم كانت تساورهم الشكوك حول مبدأ القرابين. كانت أنماط جديدة من التفكير قد بدأت بالظهور عند بداية الحقبة التاريخية، وتجد التعبير عن الشك بالمعتقدات القديمة، منذ التراتيل المتأخِّرة في الريغ ڤيدا، وسوف تجسد الديانة الهندوسية الكلاسيكية تأليفًا بين أفكار مثل أفكار الأُپانيشَد -التي تشير إلى مفهوم توحيدي للكون- وبين التقاليد الأقرب إلى تعدّد الآلهة والأكثر شعبية التي كان ينادي بها البراهمة.

الصين القديمة

منذ نحو ألفين وخمسمئة سنة تعيش على الأرض أمة صينية تستخدم لغة صينية، وإن هذا لدليل على حضارة طويلة ومستمرة ومنيعة على التأثير الخارجي، لا يجاريها في ذلك إلا حضارة مصر القديمة. ولقد بقيت حكومة الصين لزمن طويل وحدة واحدة بالرغم من بعض فترات الانقسام والاضطراب، وصاغت لها هذه الخبرة هوية تاريخية ثقافية بقدر ما هي سياسية، لأن ثقافة الصين هي التي سهلت توحيد الحكم. ومنذ تاريخ باكر جدًا تبلورت فيها مؤسسات ومواقف تناسب ظروفها الخاصة، وسوف تستمر لزمن طويل.

تظهر الأدلّة على الزراعة في شمال الصين، في أرض أعلى بقليل من مستوى فيضان النهر الأصفر؛ كانت تلك زراعة من النوع الذي يستنفد التربة بشكل كامل أو جزئي، وتعود الأدلّة عليها لحوالى عام ٥٠٠٠ ق.م. من هذه المنطقة الهامة انتشرت الزراعة شمالاً إلى منشوريا وجنوبًا أيضًا. وسرعان ما ظهرت فيها ثقافات معقّدة تستخدم حجر اليَشْب والخشب للحفر، وتدجن دودة القز، وتصنع الأواني المعدَّة للاحتفالات بأشكال سوف تصبح تقليدية، بل ربما كان الصينيون يستخدمون العيدان في تناول الطعام منذ ما قبل التاريخ. ويقصد من هذا كله أن الصين كانت منذ الأزمنة النيوليتية تبدي ملامح كثيرة سوف تميزها في المستقبل. ومن هذه العلامات الاستخدام الواسع للدُّخْن، وهو نوع من الحبوب ملائم للزراعة الجافة(*) التي كانت تمارس أحيانًا في الشمال، كما أنه قد ظل المادة الأساسية في طعام الصينيين حتى ألف سنة خلت تقريبًا.

(*) نوع من الزراعة يمارس في المناطق الجافة من دون ري، بالحفاظ على طبقة رقيقة من التربة المحروثة أو المِهاد تمنع الرطوبة الطبيعية للتربة من التبخر.

يتحدث كتاب الصين القدامى وأساطيرها عن شخصية اخترعت الزراعة، ويدل ذلك على أهمية هذا الاختراع. إن الأشياء التي يمكنك استنتاجها بشكل أكيد وواضح عن التنظيم الاجتماعي الباكر هي أشياء قليلة جدًا، ولكنهم كانوا يعتبرون أن «كل بقعة تحت السماء هي أرض الحاكم» وربما، كان هذا انعكاسًا لأفكار قديمة تقول إن الأرض برمتها ملك للجماعة ككل. ويمكنك أيضًا أن تنسب إلى الأزمنة الباكرة ظهور بنية العشيرة والطواطم، إذ تكاد القرابة أن تكون أول مؤسسة يمكن تمييزها، وسوف تستمر لتصبح هامة في الأزمنة التاريخية. وتوحي الأدلة التي يقدِّمها الخزف ببعض التعقيد في الأدوار الاجتماعية، لأن هناك قطعًا رقيقة منه تعود إلى الأزمنة النيوليتية لا يمكن أن تكون قد صنعت لأغراض الاستعمال اليومي، فيبدو إذن أن مجتمعًا متعدِّد الطبقات كان قد بدأ يبزغ قبل أن نصل إلى الحقبة التاريخية.

لقد بقيت تلك الزراعة التي قامت عليها ثقافة الصين المتقدِّمة محصورة بشمال البلاد، وإن هناك مناطق كثيرة في هذا البلد الشاسع لم تبدأ بالزارعة إلا بعد زمن طويل، وفي مرحلة متقدِّمة من الحقبة التاريخية. ولكن العلماء متفقون مع التقاليد التي تقول إن قصة الحضارة تبدأ في هذه المنطقة الشمالية الهامة على عهد حكام ينتمون لشعب يدعى الشانغ، وهو أول اسم في اللائحة التقليدية للسلالات له أدلة مستقلة تؤيد وجوده. وقد بقيت هذه اللائحة أساس تقسيم تاريخ الصين لزمن طويل، وسوف تصبح التواريخ أكثر دقة منذ أواخر القرن الثامن ق.م، ولكن ليس ثمة تقسيم جيد لتاريخ الصين الباكر مثل الذي نعرفه عن مصر. وفي حوالى عام ١٧٠٠ ق.م –مع هامش قرن واحد زيادة أو نقصانًا– تمكنت قبيلة اسمها الشانغ، كانت تتميَّز باستخدام العربة في المعارك الحربية، من فرض نفسها على جيرانها على

امتداد رقعة واسعة من النهر الأصفر، وعلى حوالى ٤٠,٠٠٠ ميل مربع (١٠٠,٠٠٠ كم٢) من شمال هونان.

صين الشانغ

كان ملوك الشانغ شخصيًات عظيمة. وقد عاشوا وماتوا في أبهة، وكان العبيد والضحايا يقدِّمون قرابين ويُدفنون معهم في مدافن عميقة وفخمة. ويبدو أن حكومة الشانغ كانت عبارة عن ملاّك أراض محاربين يرأسون سلالات أرستقراطية لها أصول شبه أسطورية، ولكنها تمكنت من توحيد العملة وتشييد تحصينات ومدن على مستوى يحتاج إلى مجهود جماعي واسع. وكان في بلاط الشانغ كتبة وأمناء أرشيف، فقد كانت تلك ملكية تعرف الكتابة، ويبدو أنها كانت تحكم أول ثقافة عرفت الكتابة بحق إلى الشرق من بلاد الرافدين إلا إذا تبين أن الكتابة في وادي الهندوس كانت أكثر تطوُّرًا -مما يبدو الآن- وكان لحضارة الشانغ أيضًا تأثيراً يمتد وراء المنطقة التي سيطرت عليها هذه السلالة سياسيًا.

في الأزمنة الباكرة كانت القرارات الكبرى والأقل منها أيضًا تتخذ عن طريق قراءة الوحي، فكانوا يحفرون رموزًا على تروس السلاحف أو عظام ترقوة الكتف المأخوذة من حيوانات معينة، ثم يوضع عليها دبوس برونـــزي محمّى بحيث يصنع شقوقًا على الطرف المقابل، وينظر في اتجاه هذه الشقوق وطولها بالنسبة إلى الرموز ويقرأ الوحي بناء على ذلك. ويقدم هذا الأمر دليلاً على فترة تأسيس اللغة الصينية، لأن الرموز المنقوشة على هذه العظام -والتي كانت تحفظ كسجلاّت- هي الأشكال الأساسية للغة الصينية الكلاسيكية. كان لدى الشانغ نحو ٥٠٠٠ رمز من هذه الرموز، ولكن لا يمكن قراءتها كلها، إلا أننا نعلم أن بنية اللغة -منذ ذلك

الحين- كانت مثل بنية الصينية الحديثة - أي أنها مكوَّنة من صور يمثِّل كل منها مقطعًا صوتيًّا واحدًا، وهي تعتمد على ترتيب الكلمات وليس على تصريفها من أجل إضفاء المعنى، فقد كان الشانغ إذن يستخدمون شكلاً من أشكال اللغة الصينية. وسوف يتحوَّل قرَّاء الوحي في المستقبل إلى طبقة العلماء النبلاء، وهم خبراء لا غنى عنهم لأنهم يملكون مهارات مقدَّسة وسرِّية. وهكذا بقيت اللغة دومًا حكرًا على نخبة صغيرة نسبيًا وجدت أن امتيازاتها متأصلة فيها، وأن من مصلحتها أن تحميها من الفساد والتحريف. وكانت اللغة قوة عظيمة في تأمين الوحدة والثبات، كما صارت الصينية المكتوبة لغة للحكم والثقافة تسمو على تقسيمات اللهجات المحلية والأديان والمناطق، وسوف يبقى فن التخطيط ذا مرتبة عالية بين فنون الصين، وبهذه الوسيلة تمكَّنت النخبة من ضم هذا البلد الواسع والمتنوع برباط واحد.

حقبة التشو

وانهار الشانغ في النهاية أمام قبيلة أخرى من غرب الوادي، هي قبيلة التشو، وقد حدث هذا على الأرجح في عام ١٠٢٧ ق.م. لقد تم على عهد التشو الحفاظ على الكثير من بنى الشانغ الحكومية والاجتماعية المتقدمة وازدادت تطورًا أيضًا، كما استمرت طقوس الدفن وتقنيات شغل البرونـــز والفنون التزيينية بأشكال لم تتغير تقريبًا. وقد شهدت مرحلة التشو تمتين هذا الميراث وزيادة انتشاره، وتبلور مؤسسات إمبراطورية الصين القادمة. واللافت أن التشو كانوا يعتبرون أنفسهم محاطين بشعوب بربرية تتمنى أن تحقق لها سلالتهم السلام لكي تنعم بخيراته، والحقيقة أن سيادتهم كانت ترتكز على الحرب. كانت الحكومة في العادة عبارة عن مجموعة من الوجهاء والأتباع، بعضهم أكثر اعتمادًا على السلالة من بعضهم الآخر، ويؤدون لها في أيام الرخاء على الأقل اعترافًا شكليًا بسلطتها، كما يزداد اشتراكهم

بثقافة واحدة. كانت الصين ككيان سياسي -من المنطقي استخدام هذا التعبير- ترتكز على أملاك كبيرة على درجة من التماسك تسمح لها بالبقاء طويلاً، وأحيانًا كان سادتها الأصليون يتحولون إلى حكام يمكن أن نسميهم ملوكًا، تخدمهم بيروقراطيات بسيطة خاصة بهم.

في نحو عام ٧٠٠ ق.م طرد البرابرة التشو من مركز أجدادهم إلى وطن جديد إلى الشرق في هونان، ولكن سلالتهم لم تزل حتى عام ٢٥٦ ق.م. وتمتد المرحلة التالية التي يمكن تمييزها من عام ٤٠٣ إلى ٢٢١ ق.م، وتعرف باسم ذي دلالة، هو مرحلة الدول المتحاربة. لقد بات الاصطفاء التاريخي عن طريق الصراع الآن ضاريًا، وراحت الأسماك الكبيرة تلتهم الصغيرة حتى لم يبق في النهاية إلا حوت واحد كبير، فصارت جميع أراضي الصينيين للمرة الأولى إمبراطورية واحدة كبيرة تحكمها سلالة التسين، التي أتى منها اسم الصين - ومن المناسب أن نتوقف الآن عند هذه النقطة- لقد دلتنا سجلاّت الصين التاريخية التقليدية -حتى الآن- على نحو خمسة عشر قرنًا من الصراعات الغامضة بين الملوك والرعايا الأقوياء من دون أن تعطينا خطًا للقصة، إلا أننا نستطيع تمييز عمليات أساسية كانت تجري خلالها سوف تكون لها أهمية عظيمة في المستقبل.

من تلك العمليات الانتشار المستمر للثقافة من حوض النهر الأصفر نحو الخارج. لقد بدأت الحضارة الصينية بشكل جزر صغيرة جدًا في بحر من البربرية، ولكنها صارت في عام ٥٠٠ ق.م ملكًا مشتركًا لعشرات بل ،ربما، مئات الدويلات والإقطاعات الموزعة عبر الشمال، كما انتقلت إلى وادي اليانغ تسي كيانغ. وكانت هذه منذ زمن بعيد أرض مستنقعات وغابات كثيفة ومختلفة جدًا عن الشمال، وكانت تسكنها شعوب أكثر بدائية بكثير. وعند نهاية مرحلة الدول المتحاربة كان

مسرح تاريخ الصين على وشك الاتساع بشكل كبير، فقد تغلغل نفوذ التشو في هذه المنطقة - ولعب التوسع العسكري دورًا في ذلك - وساهم هذا التغلغل في صنع أول ثقافة ودولة كبريين في وادي اليانغ تسي كيانغ.

مجتمع الصين الباكر

منذ عهدي الشانغ والتشو كان قد وضع نمط مجتمع المستقبل بشكل انقسام جوهري إلى طبقتين، هما طبقة النبلاء أصحاب الأرض، وطبقة العامة وسوادها من الفلاحين. لقد دفع هؤلاء الأخيرون وأحفادهم، وهم الأكثرية العظمى من الشعب، ثمن كل ما أنتجته الصين من حضارة وسلطة، ولكننا لا نعلم إلا القليل عن أعدادهم التي لا تحصى، لأن الفلاح الصيني كان يتنقل بين كوخه الطيني في الشتاء ومخيم يعيش فيه خلال أشهر الصيف لكي يحرس المحاصيل ويرعاها، ولم يترك أي من هذين المسكنين أثرًا يذكر. عدا عن هذا، يبدو الفلاح مغمورًا في جماعة لا اسم لها -فهو لا ينتمي إلى عشيرة- ومرتبطًا بالأرض التي يؤخذ منها في بعض الأحيان لكي يؤدي واجبات أخرى ويخدم سيده في الحرب أو في الصيد.

وقد استمر التمييز بين عامة الشعب والنبلاء زمنًا طويلاً جدًا. وفي أزمنة لاحقة كان النبلاء معفيين من عقوبة الجلد التي قد تطبق على العامة -ولو أنهم كانوا بالطبع معرضين لعقوبات مناسبة بل رهيبة في حال ارتكابهم جرائم أخطر- كما كانوا يتمتعون باحتكار فعلي للثروة استمر بعد احتكارهم الأبكر للأسلحة المعدنية. إلا أن الفرق الحاسم في المنـــزلة إنما هو في مكانة النبيل الدينية الخاصة والناشئة من احتكاره طقوسًا دينية معينة. والنبيل وحده ينتمي إلى عائلة - أي أن له أجدادًا، وإن تقاليد توقير الأجداد واسترضاء أرواحهم تعود إلى ما قبل أزمنة الشانغ.

كانت العائلة تطورًا قانونيًا للعشيرة وفرعًا منها، وكان هناك نحو مئة عشيرة لا يحق لأفرادها الزواج من شخص من العشيرة نفسها، وكانوا يعتقدون أن كلاً منها قد أسسها بطل أو إله. كان آباء عائلات العشائر وبيوتها يمارسون سلطة خاصة على أفرادها، وكانوا جميعًا مؤهلون لأداء طقوسها المضنية والطويلة، التي يطلبون فيها من الأرواح أن تتواسط لصالح العشيرة لدى القوى المسيطرة على الكون. ثم صارت هذه الطقوس تميز الأشخاص المؤهلين لامتلاك الأراضي وشغل المناصب. وكان هناك نوع من تساوي الفرص على مستوى العشيرة، لأن أيًا من أفرادها يمكنه أن يعين في أعلى مناصبها، فكلهم مؤهلون لذلك بفضل تحدّرهم جوهريًا من أصول شبه إلهية؛ وبهذا المعنى لم يكن الملك إلا رجلاً أول بين رجال متساوين، ونبيلاً بارزًا بين جميع النبلاء.

أما عامة الشعب فكانت تجد متنفسها الديني في آلهة الطبيعة، وكان استرضاء أرواح الجبال والأنهار وعبادتها واجبًا ملكيًا هامًا منذ الأزمنة الباكرة، ولو أن سلطة عبادات الطبيعة في الصين كانت أضعف منها في أنظمة دينية أخرى. كان جوهر ادعاء الأسرة الحاكمة بحق الطاعة هو صدارتها الدينية، لأنها تستطيع عن طريق ممارسة الطقوس بلوغ رضا قوى غير منظورة، يمكن معرفة نياتها من خلال قراءة الوحي. وعندما يفسر الوحي يمكن تنظيم الحياة الزراعية للجماعة، لأنه هو الذي يحدد زمن البذار والحصاد وغيرها. لذلك كانت أشياء كثيرة تعتمد على المكانة الدينية للملك، وكانت لها الأهمية الكبرى في الدولة. على عهد التشو ظهرت فكرة وجود إله أعلى من الآلهة المؤسسة للسلالات، وأنه قد مُنح «انتدابًا من السماء» بالحكم، فكانت هذه بداية فكرة أخرى أساسية في المفهوم الصيني للحكم، وسوف ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمفهوم التاريخ الدوري، الذي يرسمه صعود السلالات

وهبوطها. وقد أدى هذا الأمر، بالطبع، إلى محاولات تخمين من أجل معرفة العلامات التي تسمح بالتعرف على صاحب الانتداب الجديد.

لا تعطي السجلات الباكرة لحكومة الصين الانطباع بأن الملكية كانت لديها أشغال كثيرة، فعدا عن اتخاذ قرارات السلم أو الحرب في الحالات غير العادية، يبدو أن الملك لم تكن لديه أشياء كثيرة يفعلها سوى أداء واجباته الدينية والصيد واستهلال مشاريع البناء أو تأسيس المستوطنات الزراعية -كما كان يفعل بعض ملوك التشو- وقد بزغ رويدًا رويدًا وزراء كانوا ينظمون حياة البلاط، بينما كان الملك عبارة عن صاحب أراض لا يحتاج في الغالب إلا وكلاء ومشرفين وبعض الكتبة، ولا ريب أنه كان يقضي جزءًا كبيرًا من حياته متنقلاً بين أراضيه. أما النشاط الآخر الوحيد الذي يحتاج فيه إلى مساعدة الخبراء فهو النشاط المتعلق بأمور ما فوق الطبيعة، ومن هنا سوف تنمو رابطة وطيدة بين الحكم وتحديد الوقت والتقويم، وكلاهما على أهمية كبرى في المجتمعات الزراعية. كانت التقنيات اللازمة مبنية على علم الفلك، ورغم أنها اكتسبت أساسًا هامًا من الملاحظة والحساب فقد كانت أصولها سحرية ودينية.

الحديد والمدن

كانت مرحلة التشو قد انتهت باضطرابات اجتماعية متزايدة، سببها الأرجح هو ضغط السكان على الموارد. ولهذا كان الحديد عاملاً هامًا جدًا، ويبدو أنه كان مستعملاً في حوالى عام ٥٠٠ ق.م، وقد أدى استخدامه إلى ارتفاع حاد في الإنتاج الزراعي -وبالتالي في عدد السكان- مثلما حدث في أماكن أخرى. وتعود أولى الأدوات الحديدية التي وجدت إلى القرن الخامس ق.م، أما الأسلحة الحديدية فقد

ظهرت في زمن لاحق. ومنذ تاريخ باكر كانت هذه الأدوات تصنع عن طريق السبك، وقد وجدت قوالب لسبك شفرات المناجل الحديدية تعود إلى القرن الرابع أو الخامس، أي أن تقنية الصين في معالجة هذا المعدن كانت متقدمة جدًا منذ أزمنة باكرة. وسواء أحدث هذا الأمر كتطور لسبك البرونـــز أو للتجريب في أفران الخزف القادرة على إعطاء درجات حرارة عالية، فإن الصين قد توصلت إلى سبك الحديد في نفس الوقت الذي عرفت فيه معالجته بالتطريق، بينما لم تصل مناطق العالم الأخرى إلى درجات حرارة كافية لسبكه إلا بعد نحو خمسة عشر قرنًا.

هناك تطور هام آخر في أواخر عهد التشو هو نمو المدن. لقد نشأت أبكر المدن على الأرجح في مواقع المعابد التي كان أصحاب الأراضي يستخدمونها كمراكز إدارية لأملاكهم، فكانت الجماعات تلتم من حولها ومن حول معابد آلهة الطبيعة الشعبية القائمة عادة في السهول قرب الأنهار. وتجد على عهد الشانغ متاريس مصنوعة من التراب المضروب وأحياء أرستقراطية ومسوَّرة وبقايا أبنية كبيرة. كانت آنيانغ عاصمة للشانغ في حوالى عام ١٣٠٠ ق.م، وكانت فيها مسابك للمعادن وأفران للخزف فضلاً عن قصور ومقبرة ملكية. أما عاصمة التشو بعدها، وانغ تشنغ، فكانت بشكل مستطيل من الأسوار الترابية يبلغ طول كل منها حوالى ثلاثة كيلومترات، وفي عام ٥٠٠ ق.م كانت قد ظهرت عشرات المدن، وكانت لها في العادة ثلاث مناطق محددة: بقعة صغيرة مسوَّرة تعيش فيها الأرستقراطية، وبقعة أكبر منها يسكنها الحرفيون المختصون والتجار، ثم الحقول خارج الأسوار التي تغذي المدينة. كانت أحياء التجار والحرفيين إذن مفصولة عن أحياء الأرستقراطية بأسوار ومتاريس تحيط بالأخيرة، ولكنها كانت هي أيضًا واقعة ضمن أسوار المدينة، وهي علامة على تزايد الحاجة للحماية. كما كنت تجد في

الشوارع التجارية للمدن في مرحلة الدول المتحاربة محالاً تبيع المجوهرات والتحف الغريبة والطعام واللباس، عدا عن الحانات وبيوت القمار والبغاء.

إلا أن قلب مجتمع الصين قد ظل بالرغم من ذلك في الريف. ومع نهاية حقبة التشو صارت طبقة أصحاب الأراضي تبدي علامات لا لبس فيها على استقلال متزايد عن ملوكها. كانت سيطرتها الاقتصادية متأصلة في امتلاكها للأرض بحكم العرف، وهذه الملكية – التي يمنحها الملك نظريًا – لا تقتصر على الأراضي وحدها، بل تشمل أيضًا العربات والحيوانات والأدوات، وبالأخص البشر، فالعمال يمكن بيعهم أو مبادلتهم أو توريثهم بوصية. وكان النبلاء يحتكرون الأسلحة باستمرار أيضًا، وبمرور الزمن لم يعد أحد غيرهم بقادر على امتلاك الأسلحة الأغلى ثمنًا والدروع والخيول التي ما برح استخدامها يتزايد. وفي عام ٦٠٠ ق.م بدا من الواضح أن ملك التشو قد صار خاضعًا لكبار النبلاء. كانت الفوضى تتزايد وكذلك الشك بالمعايير التي تحدد الحق بالحكم، وقد بلغت هذه التطورات ذروتها في الأزمة الاجتماعية والسياسية العميقة والمديدة التي ظهرت في قرون الانحلال الأخيرة من عهدي التشو والممالك المتحاربة، وأدت إلى فورة هامة من الأفكار حول أسس الحكم والأخلاق. فكانت هناك مدرسة من المعلّمين يسمون «القانونيين»، يشددون على أن سلطة التشريع وليس أداء الطقوس(*) يجب أن تكون هي المبدأ الأساسي في الدولة، وأن يكون هناك قانون واحد للجميع، يضعه حاكم واحد ويطبقه بحزم شديد. وقد استهجن البعض هذه الأفكار واعتبروها عقيدة مشككة ومؤيدة للسلطة، ولكنها اجتذبت الملوك في القرون القليلة التالية، وقد استمر الجدال

(*) النص الأصلي تنقصه كلمة «وليس» وقد استوى المعنى بعد مراجعة النسخة الأكبر من الكتاب «تاريخ العالم».

زمنًا طويلاً. إن أكثر من انتقد القانونيين هم أتباع أشهر معلمي الصين قاطبة، كونفوشيوس.

كونفوشيوس والثقافة الصينية

إن اسم كونفوشيوس هو الشكل اللاتيني لاسمه الأصلي كونغ فو تزو، وقد أطلق عليه الأوربيون اسم كونفوشيوس هذا في القرن السابع عشر، أي بعد مرور أكثر من ألفي سنة على ولادته التي حدثت في منتصف القرن السادس ق.م. وسوف يكون له في الصين توقير أعمق من أي فيلسوف آخر، لأن ما قاله – أو نسب إليه – قد صاغ تفكير مواطنيه طوال ألفي سنة. كان كونفوشيوس ينتمي لعائلة من قراء الوحي من طبقة النبلاء الأدنى، وقد أمضى بعض الوقت وزيرًا للدولة ومشرفًا على أهراء الحبوب، وكانت لديه أفكار وتوصيات حول أسس الحكم العادل، ولكنه عجز عن إيجاد حاكم يطبقها بصورة عملية، فتحول عندئذ إلى التأمل والتعليم. وكانت غايته هي أن يقدِّم صيغة نقية ومجردة للحقائق التي كان يؤمن أنها كامنة في جوهر الممارسات التقليدية، وأن يعيد بذلك إحياء الاستقامة الشخصية والخدمة المنــزهة عند الطبقة الحاكمة. كان كونفوشيوس رجلاً محافظًا مصلحًا، وكان يؤمن أن هناك في الماضي عصرًا أسطوريًا كان كل إنسان فيه يعرف مكانه ويؤدي واجبه، وكانت العودة إلى ذلك العصر هي غايته الأخلاقية. وكان يوصي بمبدأ النظام – أي وضع كل شيء في مكانه الصحيح ضمن تجربة الحياة الكبرى – وقد تجلى هذا الأمر في نــزعة قوية لتأييد المؤسسات التي تحافظ على ذلك النظام – مثل العائلة والتسلسل الهرمي والأقدمية — وفي احترام الواجبات الكثيرة والمتدرجة التي تربط بعضها ببعض. وكان من شأن هذه التعاليم أن تعطي

رجالاً يحترمون الثقافة التقليدية، ويشددون على قيمة الأعراف السليمة والسلوك القويم، ويسعون إلى تحقيق واجباتهم الأخلاقية في الأداء الدقيق لمهامهم.

لقد نجحت هذه التعاليم نجاحًا فوريًا من ناحية أن الكثيرين من تلاميذه قد اكتسبوا شهرة ونجاحًا دنيويين -مع أن تعاليمه تستنكر السعي المقصود نحو هذه الأهداف، وتحض على إنكار الذات بشهامة- ولكنها نجحت أيضًا من ناحية أعمق وأطول عمرًا بكثير، لأن أجيالاً من الموظفين الصينيين سوف تدرَّب على مبادئ السلوك والحكم التي وضعها. لقد صارت نصوص كونفوشيوس -وليست كلها أصليَّة- تعامل بما يشبه الخشوع الديني، واستخدمت لقرون طويلة بصورة موحدة وخلاقة من أجل قولبة أجيال من حكام الصين ضمن مبادئ كان يُعتقد أنه قد وافق عليها -ويلفت النظر هنا التشابه مع استخدام الكتاب المقدَّس المسيحي في زمن لاحق، على الأقل في البلاد البروتستانتية- إلا أن كونفوشيوس لم يقل أشياء كثيرة حول أمور ما فوق الطبيعة، فهو لذلك لم يكن معلمًا «دينيًا» بالمعنى المألوف للكلمة -وربما لهذا السبب حقَّق معلمون آخرون نجاحًا أكبر منه بين الجماهير- بل كان همه الأكبر هو الواجبات العملية. ويبدو أن الفكر الصيني اللاحق أيضًا لم يهتم كثيرًا بالأمور النظرية، مثل حقيقة عالم الحواس أو إمكانية الخلاص الفردي، بعكس تقاليد فكرية أخرى أرَّقتها هذه الأفكار، كما أن الفلاسفة الصينيين لم يهتموا كثيرًا بوضع مخطط للمعرفة عبر الاستجواب المنهجي لطبيعة العقل ومدى قدراته، بل صاروا يهتمون بعبر الماضي وحكمة الأزمان الغابرة والحفاظ على النظام السليم، أكثر من تأمل الألغاز الثيولوجية والأحاجي الفلسفية، أو البحث عن الأمان بين ذراعي آلهة غامضة. ولا تدين التقاليد الفكرية الصينية بعد كونفوشيوس بالكثير لتعاليم الأفراد، بعكس التقاليد الأوربية التي تقوم على الاستجواب المنهجي.

ومع ذلك فقد ظهرت أنظمة فكرية منافسة للكونفوشية. فهناك المعلم لاوتسه، وهو حكيم ذائع الصيت جدًا مع أننا في الحقيقة لا نكاد نعلم عنه شيئًا، ويقال إنه مؤلِّف النص الذي يعتبر الوثيقة الأساسيَّة في نظام فلسفي سميً -فيما بعد- «بالطاوية». يدعو هذا النظام إلى الإهمال المقصود لأشياء كثيرة تؤيدها الكونفوشية، مثل احترام النظام السائد واللياقة والتقيّد الدقيق بالتقاليد والطقوس، كما تحض الطاوية على الخضوع لمفهوم كان موجودًا في الفكر الصيني أصلاً ومألوفًا لدى كونفوشيوس، هو مفهوم الطاو أو «الطريق»، وهو المبدأ الكوني الذي يتخلل الكون المتناغم ويدعمه. ومن الناحية العملية يؤدي هذا التفكير إلى الاستكانة السياسية والزهد واتخاذ البساطة والفقر مثالاً. كما أن ثمة حكيمًا آخر أتى لاحقًا في القرن الرابع هو منشيوس (منغ تزو)، علّم الناس أن يسعوا لخير البشرية، فكانت تعاليمه تطويرًا لتعاليم كونفوشيوس وليست افتراقًا عنها. والحقيقة أن جميع مدارس الفلسفة الصينية كان عليها أن تحسب حساب تعاليم كونفوشيوس، إذ أنها قد حظيت بمكانة ونفوذ عظيمين. ولا يمكنك أن تقيّم التأثير الكامل لتعاليمه، التي لم تبلغ فترة نفوذها الكبرى إلا بعد موته بزمن طويل، إلا أنها قد وضعت المعايير والمثل للنخب الإدارية حتى يومنا هذا! وكانت تركز على اهتمام كبير بالماضي سوف يعطي كتابة التاريخ في الصين نـــزعة منحازة ومميزة لها، وربما كانت لها تأثيرات ضارة على البحث العلمي. وقد تغلغل الكثير من مبادئها أيضًا - مثل توقير الأجداد - في الثقافة الشعبية من خلال القصص والمواضيع التقليدية للفن، فزادت بذلك من تمتين حضارة الصين التي كانت ملامحها اللافتة قد ترسخت بحلول القرن الثالث ق.م.

مازال فن الصين أكثر جوانب حضارتها القديمة جاذبية وقربًا. ولم يبق شيء هام من عمارة الشانغ والتشو لأنهم كانوا يبنون بالخشب عادة، كما أن المدافن لا تكشف عن أشياء كثيرة. ولكن من ناحية أخرى دلت الآثار على قدرة على تشييد الأبنية الكبرى، فقد كان سور إحدى عواصم التشو مصنوعًا من تراب مضروب علوه ثلاثون قدمًا -تسعة أمتار- وثخنه أربعون -اثنا عشر مترًا- كما أن الأغراض الصغيرة والكثيرة الباقية تدل على أن هذه الحضارة كانت قادرة على صنع أعمال رائعة منذ أيام الشانغ، وينطبق هذا بالأخص على الخزف، الذي لم يكن يضاهيها فيه أحد في العالم القديم، فضلاً عن أشغال البرونـــز العظيمة، والتي بدأت تصنع في أوائل عصر الشانغ، ثم استمرت بعد ذلك بلا انقطاع. كان فن سبك أوعية القرابين والقدور وجرار النبيذ والأسلحة والأوعية الثلاثية الأقدام قد بلغ ذروته -منذ عام ١٦٠٠ ق.م- ويظهر سبك البرونـــز بصورة مفاجئة وعلى مستوى عال من الإتقان جعل البعض يحاولون تفسيره بانتقال التقنية من الخارج، ولكن ليس هناك من دليل على ذلك. كما أنه ليس هناك من دليل على أن أشغال البرونـــز الصينية قد بلغت العالم الخارجي في الأزمنة الباكرة، إذ لم يكتشف أي عمل في أي مكان آخر يعود لما قبل منتصف الألف الأولى ق.م، وحتى في الأزمنة الأبكر لم يكتشف خارج الصين أي من الأشياء الأخرى التي أولاها الفنانون الصينيون اهتمامهم الكبير، مثل حفر الرسوم الجميلة والدقيقة على الحجر وحجر اليَشْب. ويبدو أن الصين لم تصبح لها علاقات هامة بالعالم الخارجي إلا في زمن متقدِّم من الحقبة التاريخية – فيما عدا بعض الأشياء القليلة التي تعلمتها من جيرانها البرابرة. فكان مثلها مثل حضارة الهند، في أنها لم تُبد من نزعة قوية للتوسع خارج مهدها، على عظمته.

الفصل الثالث

أسس عالمنا

تفاعل وتبادل

في عام ١٠٠٠ ق.م كانت قد ظهرت أنماط عديدة من الحضارة في الشرق الأدنى وشرق المتوسط، وكانت أنماط أخرى قد زالت. وكانت القوى العظمى قد ألفت التعامل إحداها مع الأخرى عبر هذه المنطقة من خلال الدبلوماسية الرسمية، بينما كان الحرفيون والتجار والمرتزقة يتجولون فيها بحثًا عن معيشتهم، والناس يتبادلون الأفكار وأساليب الفن والمهارات التقنية في كافة أنحائها. وكانت تلك بحق أول مجموعة عالمية من المجتمعات. ولقد بقيت هذه المنطقة لزمن طويل المكان الوحيد من العالم الذي يبدي هذه الحيوية والتبادل الخلاق، وفيها يمكنك أن تميز بدايات تيارات سوف تسيطر على تاريخ العالم في قرننا هذا. وإن أفضل نقطة للبدء بفهم الأمور هي مرة ثانية تحركات الشعوب وترحالها. تفسر تلك الهجرات جزءًا كبيرًا من التبدلات الدينامية الجارية، فطوال الألف الثانية ق.م يظهر في كل من الهند وإيران وبلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر وبحر إيجة تأثير الشعوب التي نسمي لغاتها هندية أوربية. تقول إحدى الفرضيات إن الهنود الأوربيين قد أتوا من جنوب روسيا، وكان ذلك على الأرجح قبل عام ٢٠٠٠ ق.م بزمن طويل، وربما كان السبب أن التغيرات المناخية في آسيا الوسطى قد دفعت شعوبًا أخرى في الشرق إلى

الهجرة غربًا، فشكلت بذلك ضغطًا على «الهنود الأوربيين» ودفعتهم بدورهم. ومن الطرق التي سلكوها طريق تمتد في شبه جزيرة البلقان نزولاً إلى اليونان وتراقيا، ومن هناك عبر الأناضول. في هذه الأثناء كان هنود أوربيون آخرون قد نـــزلوا عبر القوقاس، ومن تركستان إلى بلخ وإيران والهند -وإن اسم إيران مرادف لصفة «آري» Aryan- وعدا عن الهنود الأوربيين الذين في منطقة الدانوب بجنوب شرق أوربا، كان آخرون قد تحركوا غربًا إلى ألمانيا وشمال فرنسا بل وحتى الجزر البريطانية، ولكن لنترك قصتهم لمرحلة لاحقة.

في الهلال الخصيب دخلت هذه الشعوب صراعًا مع الإمبراطوريات القديمة التي كانت تسيطر عليه منذ الإطاحة بسومر، وكانت الشعوب السامية تتنقل فيه أيضًا. ويخبرنا العهد القديم من الكتاب المقدس المسيحي أن إبراهيم، الذي يعتبره اليهود الآن في بداية تاريخهم التقليدي، قد انطلق من أور عبر بلاد الرافدين والشام سعيًا إلى المرعى، وهي على الأرجح قصة حفظتها ذاكرة الشعوب. وكانت هناك قبائل كثيرة تتنقل في ذلك الحين -كما أن الهنود الأوربيين كانوا أيضًا رعاة رُحَّلْ- وتتنازع فيما بينها على الكلأ والماء في الهلال الخصيب، وقد انجذبت تلك الشعوب إلى الثقافات المتطورة التي كانت في هذه البلاد، وراحت تستعير منها وتقلدها.

ولا بد أن تكون الهجرة قد سرعت انتشار الحضارة بصورة كبيرة، والدليل على هذا هو انتشار الكتابة. في عام ٢٠٠٠ ق.م كانت الكتابة محصورة إلى حد كبير بحضارات وديان الأنهار، ولو أن المسمارية كانت منتشرة في كافة أنحاء بلاد الرافدين وكانت تكتب بها لغتان أو ثلاث؛ ففي مصر مثلاً كان يحفر على الصروح بالكتابة الهيروغليفية، وكانت الكتابة اليومية تتم بشكل مبسط منها يدعى الهيراطية،

أما المسمارية فكانت مستخدمة في الدبلوماسية. ولكنك بعد حوالى ألف سنة صرت تجد شعوبًا تعرف الكتابة في كافة أنحاء الشرق الأدنى، وفي كريت واليونان أيضًا، ويمكن تمييز هذه الشعوب من خلال لغاها المختلفة. كما أها كانت تخترع كتابات جديدة، ففي كريت مثلاً تجد في حوالى عام ١٥٠٠ ق.م كتابة كانت مستخدمة لتدوين شكل من اللغة اليونانية، أي أها تصل بك إلى مشارف عالم جديد. وإن أول كتابة دون بها أدب غربي كانت مستخدمة في عام ٨٠٠ ق.م، وهي مشتقة من أبجدية اخترعت لكتابة لغة سامية ومأخوذة عن الفينيقيين.

التجارة والسفر

إن الأسفار البعيدة هي مثل اللغة علامة على التغير ومحرك له في الوقت نفسه. ولا تجد في البداية أدلة على الأسفار البعيدة إلا في بعض الآثار، مثل أرصفة مرافئ هَرابا أو بعض الأختام الأجنبية. وتدل هذه الآثار على أن القصدير كان يجلب من بلاد الرافدين وأفغانستان والأناضول إلى ما يمكن أن نسميه الآن مراكز «تصنيع»، كما تجد نحاس قبرص في أماكن كثيرة، ويستنتج من هذا أنه كان سلعة يتاجر بها على نطاق واسع، وكذلك نحاس بر أوربا، لأن هناك مناجم بأرض يوغسلافيا السابقة كانت محفورة حتى عمق ستين أو سبعين قدمًا (٢٠ مترًا) تحت سطح الأرض قبل عام ٤٠٠٠ ق.م. أما بالنسبة للمواد غير المعدنية، فيذكر الكتاب المقدس شهرة خشب أرز لبنان الذي كان يصدر لمصر، كما كان الكهرمان يجلب من البلطيق إلى بحر إيجة، والتوابل من الشرق الأدنى عبر البحر الأحمر إلى مصر، كل هذا قبل عام ١٠٠٠ ق.م. وقد تغيَّرت الجغرافية الاقتصادية ببطء مع نمو هذه الروابط، فظهرت مراكز برعت بالتجارة وازدهرت ازدهارًا عظيمًا. لقد تعاطى الكريتيون والشعوب الباكرة في بر اليونان التجارة إلى حد كبير، وكانت البحرين

تجتذب التجار من الهند وبلاد الرافدين. ومع اقتراب الألفية من نهايتها كان أعظم شعوب التجارة في العالم القديم، أي الشعب الفينيقي المقيم في المدن الساحلية لبلاد الشام، على باب عصر ذهبي من الازدهار.

كان حمل البضائع الكبيرة صعبًا، أقله عن طريق البر، لأنه بقي يعتمد على الحمير إلى أن دجنت الجمال في منتصف الألف الثانية ق.م. وقد فتح تدجين الجمال هذا بيئة كانت عصية على العبور، هي الصحراء الخالية من الماء، فولدت عندئذ تجارة القوافل في آسيا وشبه الجزيرة العربية. أما النقل بالعجلات فيبدو أن أهميته قد بقيت محلية لزمن طويل بسبب رداءة الطرق ورداءة محاور العجلات أيضًا، مع أن العربات كانت تستخدم في بلاد الرافدين في نحو عام ٣٠٠٠ ق.م، وفي سورية في نحو عام ٢٢٥٠ ق.م، وفي الأناضول بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة، وفي بر اليونان في نحو عام ١٥٠٠ ق.م. إلا أن نقل البضائع بكميات كبيرة كان أبسط وأرخص عن طريق الماء منه عن طريق البر، وسوف يظل كذلك حتى عصر القطار البخاري. كانت شعوب العصر النيوليتي تقوم برحلات طويلة عبر البحر في زوارق الكَنو المحفورة، وقد أمَّن المجذاف القوة الدافعة للقيام برحلات بحرية طويلة فضلاً عن تحسين التحكم بحركة القارب. بعد ذلك وضع مصريو السلالة الثالثة شراعًا على سفينة عابرة للبحار، وكان الساري المركزي والشراع المستطيل بداية الإبحار بالاعتماد على قوة غير تيارات المياه وعضلات الإنسان. وقد تحسنت الأشرعة ببطء على مدى الألفين التاليتين، إلا أن سفن الأزمنة القديمة كانت في أكثر الأحيان ذات أشرعة مستطيلة، لذلك كانت الرياح السائدة هي التي تحدد نمط الاتصالات البحرية. مع هذا كان التجار يتبادلون البضائع ويكسبون المال بصورة متزايدة عن طريق البحر، وقبل قوافل الجمال بزمن طويل كانت السفن تحمل ضروب الصمغ

والراتنج من جنوب شبه الجزيرة العربية شمالاً على طول البحر الأحمر، وكانت سفن أخرى تجوب في أنحاء بحر إيجة، وفي القرن الثالث عشر ق.م كانت تبحر في شرق المتوسط سفن قادرة على حمل أكثر من ٢٠٠ سبيكة نحاسية، وبعد قرون قليلة صار بعضها مزودًا بظهر سدود للماء.

ولكن طبيعة هذا التبادل تبقى غير واضحة، حتى في عام ١٠٠٠ ق.م. يبدو أن الناس كانوا يتبادلون البضائع والخدمات قبل أن يتحضروا، ولكن ربما كان هذا الأمر أشبه بعملية إعادة توزيع متفق عليها ضمن الجماعة. في الأزمنة التاريخية صار لبعض الشعوب زعماء يرأسون مخزنًا مشتركًا، و«يملكون» بمعنى ما كل ما يخص الجماعة، ثم يوزعونه على أفرادها من أجل ضمان أعمالها بصورة سلسة، وربما يفسر هذا الأمر تخزين البضائع والمؤن في المعابد السومرية. لقد مر زمن طويل قبل أن تظهر أي وسيلة للتبادل معترف بها على نطاق واسع - أي ما نسميه النقد- ونجد أول دليل عليه في بلاد الرافدين، حيث كانت الحسابات تسجل بمكاييل من الحبوب أو الفضة قبل عام ٢٠٠٠ ق.م، كما يبدو أن مسكوكات النحاس كانت أحيانًا تستخدم كوحدات مالية في قسم كبير من المتوسط في أواخر عصر البرونـــز. إلا أن أول وسيلة للتبادل مختومة ختمًا رسميًا بقيت لنا قد أتت من كَبَدوقية* في أواخر الألف الثالثة ق.م، وكانت هذه عبارة عن مسكوكات فضية، وهي عملة معدنية حقيقية. ومع هذا لم تظهر أولى قطع النقد حتى -القرن السابع ق.م- وكان الناس قبلها يتدبرون أمورهم من دونها، فالفينيقيون مثلاً، وهم مشهورون بحذقهم وفطنتهم في شؤون التجارة، لم تكن لديهم عملة حتى القرن

(*) اسم أطلق قديمًا على آسيا الصغرى.

السادس ق.م، ومصر التي كانت نظامًا اقتصاديًا ذا إدارة مركزيَّة لم تتخذ النقد إلا بعد ذلك بقرنين. إلا أن هذا الأمر لم يمنع الناس من تبادل البضائع، ولا يمكننا أن نسمي عمليات التبادل تلك «تجارة» بمعناها الحالي، كما أنه ليس من الواضح ما إذا كانت السوق في العالم القديم دومًا مكانًا يتوصل الناس فيه إلى قيم السلع عن طريق المساومة. عندما تبدأ حقبة السجلات التاريخية تجد أدلة على انتقال السلع بصورة جزية أو هدايا رمزية أو دبلوماسية بين الحكام أو بصورة عطايا نذرية. لقد ظلت الإمبراطورية الصينية حتى القرن التاسع عشر الميلادي تعتبر تجارتها مع الدول الأخرى جزية من العالم الخارجي، وكان الفراعنة أيضًا ينظرون إلى تجارتهم مع بحر إيجة نظرة مشابهة، كما يبدو من رسوم مدافنهم. وربما شملت هذه العمليات التجارية تبادل أغراض موحدة مثل الأوعية أو القدور ذات الوزن الواحد، أو الخواتم ذات الحجم الواحد، فكانت لها بذلك بعض خواص العملة.

الحرب والتقنية

يشمل تطور الحضارة أيضًا انتقال التقنية، وهي قوة أخرى محررة ومحرضة في الوقت نفسه، وليس من الغريب أن تظهر التقنية أولاً في مجال الحرب، إذ يبدو أن السعي نحو التفوق في الأمور العسكرية هو ميل ثابت في سلوك البشر. لقد غيرت عربات الهنود الأوربيين وخيولهم طبيعة العمليات العسكرية في كافة أنحاء الشرق الأدنى. صحيح أنك ترى المحاربين السومريين مصورين وهم يتجولون في عربات فظة ذات أربع عجلات تجرها الحمير، ولكنها لم تكن على الأرجح إلا وسيلة لنقل القادة أو إيصالهم إلى قلب المعمعة حيث يقاتلون بالرمح والفأس، أما عربة الحرب الحقيقية فهي ذات عجلتين وتجرها الخيول، ويكون فيها عادة طاقم مؤلف من رجلين، أحدهما يقودها والآخر يستخدمها منصة لقذف الأسلحة، خاصة قذف

السهام بواسطة القوس. لقد كان القَسِّيون، وهم من أصل هندي أوربي، أول شعب نعلم أنه استخدم هذا الشكل من القتال، وكانوا يعتمدون على المراعي العالية إلى الشمال والشرق من الهلال الخَصيب حيث تكثر الخيول، أما في وديان الأنهار فقد بقيت الخيل نادرة وكانت تحفًا ثمينة يعتز بها الملوك وكبار القادة. وقد تغيرت الحرب كثيرًا بركوب الخيل، وهي مهارة أتت من مرتفعات إيران، وربما كانت معروفة هناك منذ عام ٢٠٠٠ ق.م، ثم انتشرت عبر الشرق الأدنى وبحر إيجة خلال الألف التالية. والخيال الحقيقي لا يتجول على فرسه فحسب بل يقاتل من على ظهرها أيضًا، وإن التحكم بالخيل والقوس أو الرمح في الوقت نفسه هو فن صعب استغرق زمنًا طويلاً لكي يتطور، أما الخيال المدرع الذي يهاجم هدفه ويهيمن على الجنود المشاة بوزنه وزخم اندفاعه فلم يظهر إلا بعد ذلك بزمن طويل.

وقد ظهرت الخيالة والعربات أخيرًا في جيوش كافة الممالك الكبرى في الشرق الأدنى. وخلال الألف الثانية ق.م صارت بعض أجزاء العربة تصنع من الحديد، خاصة عجلاتها التي كانت تطوق بأطر من هذا المعدن، أما الميزات العسكرية الأخرى للحديد كمادة للأسلحة فهي واضحة. وقد انتشر استخدامه انتشارًا سريعًا عبر الشرق الأدنى وخارجه، بالرغم من أن الذين استخدموه للمرة الأولى في الأناضول قد حاولوا الاستئثار به. لقد كان خام الحديد على قلته أكثر وفرة من النحاس أو القصدير، ومنذ القرن السابع ق.م كان يستخدم لصناعة الأسلحة في قبرص –ويقول بعضهم إن الفولاذ كان يصنع هناك أيضًا–، ثم انتقل إلى بحر إيجة بعد عام ١٠٠٠ ق.م بقليل، ويمكننا اعتبار تاريخ ١٠٠٠ ق.م هذا فاصلاً تقريبيًا بين عصري البرونـــز والحديد، ولو أنه ليس أكثر من طريقة مفيدة للتذكُّر، إذ إن بعض أنحاء ما نسميه «العالم المتحضِّر» قد ظلت تعيش في ثقافة عصر

البرونـــز، الذي استمر حتى وقت متقدِّم من الألف الأولى ق.م - وكذلك العصر النيوليتي في أماكن أخرى - ولم يختف إلا بصورة بطيئة ومتدرجة، والحقيقة أن الحديد قد ظل لزمن طويل معدنًا نادرًا لا يكفي حاجات الجميع.

فروق جديدة

لا تفيدنا التقنيَّة كثيرًا في وضع تسلسل زمني عندما يسير التاريخ وما قبل التاريخ جنبًا إلى جنب، ولكن لا حاجة لأن يعكِّرنا هذا الأمر. صحيح أن بعض التواريخ واضحة في قصة الدول والإمبراطوريات، ولكن يُفضَّل ألا نركز عليها كثيرًا، لأن الأهم هو الاتجاه العام، وهذا الاتجاه وَاضح، وله في الوقت نفسه وجهان متعاكسان. فرغم أن الشعوب والمناطق المختلفة كانت تزداد اتصالاً بعضها ببعض واشتراكًا في أمور كثيرة، فقد كانت أيضًا تزداد تميُّزًا إحداها عن الأخرى، وكانت القبائل والشعوب تكتسب هويات أكثر رسوخًا مع تبلور حكوماتها في أشكال ومؤسسات مستمرة كثيرًا ما كانت مرتبطة بالدين. ورغم أن انحلال الإمبراطوريات إلى وحدات أصغر قابلة للحياة هي قصة مألوفة -منذ سومر حتى الأزمنة الحديثة- فإن بعض المناطق تعود لتبزغ مرة تلو المرة كنوى ثابتة لتقاليد متميِّزة -ومنذ الألف الثانية ق.م- كانت بعض البنى تزداد تماسكًا وقدرة على البقاء، وعندئذ، تصبح المؤسَّسات أكثر خصوصيَّة وتميزًا عن الصفات العامة التي كانت تشترك بها كل الحضارات الباكرة. أي أنه رغم وجود عالميَّة جديدة فإن المجتمعات كانت تسلك ضمنها دروبًا متباينة جدًا.

وصارت هناك مجالات جديدة للتمايز. لقد ساعدت الكتابة على تثبيت التقاليد وتعزيز شعور الجماعة بأنَّها جماعة متميزة. أما الفن فكان قد رسَّخ قدميه

قبل أن تبدأ الحضارة، ولعله ابتدأ كنشاط مستقل غير مرتبط بالدين أو السحر بالضرورة -ولو أنه كثيرًا ما ظلّ مرتبطًا بهما- ثم صارت أساليبه تأخذ أشكالاً تتباين من مكان إلى آخر. ونشأت أيضًا نشاطات ترفيهية مختلفة من بلد لآخر، فظهرت رقع الألعاب في بلاد الرافدين ومصر وكريت، وصار الملوك والنبلاء في كل مكان يمارسون رياضة الصيد بشغف كبير، ويأتون بالموسيقيين والراقصين للترويح عن أنفسهم في قصورهم، ويبدو أن الملاكمة قد صارت رياضة شعبية للمرة الأولى في جزيرة كريت خلال عصر البرونـــز، حيث كان الناس يمارسون أيضًا رياضة القفز على الثيران، وهي رياضة فريدة يبدو أنها كانت شكلاً من أشكال الطقوس.

الحضارة الإيجية(*)

كانت الحياة في الشرق الأدنى وشرق المتوسط في الألف الثانية ق.م غنية بالروابط المشتركة والتفاعل المتبادل، إلا أن بعض مراكز الحضارة فيها كانت على درجة بارزة من النجاح والأهمية، وكانت جزيرة كريت واحدة من تلك المراكز، وهي أكبر الجزر اليونانية. طوال الأزمنة النيوليتية كان يعيش في كريت شعب متقدم -ربما- كانت له اتصالات بالأناضول، ولكن الأدلة غير حاسمة، إلا أن شيئًا ما قد حفزه على القيام بإنجازات لافتة. في حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م كانت هناك مدن وقرى هامة مبنية من الحجر والقرميد على سواحل كريت يمارس سكانها شغل المعادن وقص الأختام والمجوهرات، وكانوا يشتركون بقسم كبير من ثقافة بر اليونان وآسيا الصغرى، ويتبادلون البضائع مع جماعات إيجية أخرى. ثم حصل تغيُّر هام،

(*) إيجة بحر بين اليونان وتركيا الحاليتين، من متفرعات المتوسط.

ففي حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م بدؤوا يبنون قصورًا كبيرة هي أهم صروح الحضارة التي نسميها الحضارة المينوية، وكان أعظم تلك الصروح هو قصر كنوسوس الذي بني للمرة الأولى في حوالى عام ١٩٠٠ ق.م، ولا تجد في أي من الجزر الأخرى شيئًا يضاهيه في عظمته وأبهته.

مينوا

إن الحضارة المينوية هي التسمية التي تطلق على حضارة كريت في عصر البرونـــز، والتي سوف تصير لها هيمنة ثقافية على كافة منطقة بحر إيجة تقريبًا، وليس لهذه التسمية معنى آخر. وهي مشتقة من اسم الملك الأسطوري مينوس، الذي قد لا يكون له وجود حقيقي. لقد اعتقد الإغريق بعد ذلك بزمن طويل – أو قالوا – إن مينوس كان حاكمًا عظيمًا يعيش في كنوسوس ويتداول مع الآلهة، وإنه تزوج پاسيفايه ابنة الشمس، التي ولدت وحشًا هو المينوتور، كان يلتهم الشبان والصبايا المرسلين تقدمة له من اليونان في قلب تيه، إلى أن نجح البطل ثيزيوس أخيرًا في اختراق ذاك التيه وذبح فيه وحش المينوتور. إن هذا الموضوع غني ويوحي بالكثير، ولكن ليس من دليل يؤيد القصة، وربما كان اسم مينوس لقبًا يطلق على عدد من الحكام الكريتيين.

لقد استمرت الحضارة المينوية نحو ستمئة سنة، ولكننا لا نعلم إلا الخطوط العامة لتاريخها. كانت مدنها كلها تعتمد على قصر كنوسوس، وقد ازدهرت طوال ثلاثة أو أربعة قرون وكانت تتاجر -إذا صح هذا التعبير- مع مصر وبر اليونان. في أواخر الأزمنة النيوليتية أدى تطور الزراعة إلى تحسن زراعة الحبوب في كريت وإلى زراعة الزيتون والكرمة أيضًا، ويبدو أن هذه الجزيرة كانت في ذلك الزمان كما هي

اليوم أنسب مناخًا وأرضًا حتى من بقية جزر بحر إيجة وبر اليونان لزراعة هاتين النبتتين، اللتين سوف تصير لهما أهمية كبيرة في زراعة المتوسط، فيما بعد. كانت زراعة الزيتون والكرمة ممكنة حيث لا يمكن زراعة الحبوب، وقد غير اكتشافهما إمكانيات الحياة في المتوسط، وسمح للتو بازدياد عدد السكان في كريت وأدَّت زيادة السكان إلى توفر إمكانيات جديدة، ولكنَّها اقتضت في الوقت نفسه حاجات أكبر من أجل التنظيم والحكم وتدبير زراعة أكثر تعقيدًا والتصرف بالمنتجات الزراعيَّة، وكانت كريت تصدِّر الصوف أيضًا.

كريت القديمة

٢٦٠٠-٢٠٠٠ ق.م	المرحلة المينوية: أولى المدن في شرق كريت وغرف الدفن الدائرية
٢٠٠٠-١٥٧٠	المرحلة المينوية الوسطى - بناء أول القصور في كنوسوس وماليا وفايستُس؛ اتصالات بمصر واليونان؛ تبني الكتابة التصويرية
١٧٠٠-١٦٠٠	وصول اللوڤيين، ظهور الكتابة الخطية (أ)، التأثر بأسلوب بناء القصور في بحر إيجة.
١٥٧٠-١٤٢٥	المرحلة المينوية الوسطى إلى المتأخرة - تطور التجارة والقوة البحرية، الكتابة الخطية (أ) تحل محل الكتابة التصويرية، بناء القصور في كنوسوس وفايستُس وهاجيا تريادا.
حوالى ١٥٠٠-١٤٠٠	تخرب قصر كنوسوس مرتين بسبب الزلازل وإعادة بنائه.

حوالى ١٤٠٠-١٣٠٠	مستوطنات أخائية من ميقينية تبدأ بإزاحة السكان الأصليين، استخدام الكتابة الخطية الأخائية (ب)، النار تدمر قصر كنوسوس.
حوالى ١٣٠٠	إعادة استيطان فايستُس وهاجيا تريادا، ظهور مستوطنات جديدة من كنوسوس في غرب كريت.
١٢٠٠-١١٠٠	الدوريون يدمرون كنوسوس.

بلغت الحضارة المينوية ذروقما في حوالى عام ١٦٠٠ ق.م، وبعد قرن واحد -تقريبًا- دمرت قصورها، وربما، كان هذا بفعل الزلازل، لأن الأبحاث الحديثة تشير إلى حدوث انفجار بركاني كبير في جزيرة ثيرا(*) في وقت يوافق هذا الدمار. لذلك قيل إن سبب الكارثة قد يكون موجات مدية عاتية وزلازل أصابت جزيرة كريت التي تبعد عنها حوالى سبعين ميلاً (١٠٠ كيلومتر)، تلاها هبوط غيوم من الرماد خربت حقولها. ولكن إذا كان هذا التفسير صحيحًا فإن هذه الكارثة الطبيعية إنما قصمت ظهر ثقافة واحدة ولم تكن نهاية الحضارة الباكرة في كريت، لأنها سوف تعرف أزمنة مزدهرة بعد. ورغم أن سيادة حضارتها الأصلية قد زالت، فإن شعبًا من اليونان سوف يأتي ويسكنها لمدة قرن آخر عرفت فيه الازدهار من جديد. إلا أنها في بداية القرن الرابع عشر ق.م عادت فتخربت مرة ثانية بفعل الحرائق ولم يتم بناؤها من بعدها. وهكذا تنتهي قصة حضارة كريت الباكرة.

(*) سانتورين الحالية.

بعد أكثر من ألف سنة كانت التقاليد اليونانية تقول إن كريت المينوية كانت تسيطر على بحر إيجة بفضل قوتها البحرية، ولكن هذه الفكرة قد ضخمت كثيرًا، فربما، كان للمينويين سفن كثيرة ولكن من المستبعد أن يبلغوا حد الاختصاص في ذاك التاريخ الباكر، ولا يمكنك في عصر البرونز أن تميِّز بين التجارة والقرصنة والقرصنة المضادة. إلا أن المينويين كانوا على كل حال مطمئنين إلى الحماية التي يؤمِّنها لهم البحر، إذ إنهم كانوا يعيشون في مدن غير محصنة قريبة من الساحل وعلى أرض غير مرتفعة كثيرًا. وقد استغلوا البحر مثلما استغلت شعوب أخرى بيئاتها الطبيعية، وحفَّزهم هذا الأمر على تبادل البضائع والأفكار، فكانت لهم ارتباطات وثيقة بسورية قبل عام ١٥٥٠ ق.م، وكانت بضائعهم تُنقل على سواحل بحر الأدرياتيك. والأهم من هذا هو تغلغلهم في اليونان، فربما كان المينويون أهم منفذ انتقلت من خلاله بضائع وأفكار الحضارات الأولى إلى أوربا في عصر البرونـــز. وتجد منتجات كريت في مصر أيضًا ابتداء من الألف الثانية ق.م، وتلاحظ تأثير الفن الكريتي في فن المملكة الحديثة، بل إن بعض العلماء يعتقدون أن رجلاً مصريًّا كان يقيم في كنوسوس، ربما للإشراف على مصالح هامة، ويقول بعضهم إن المينويين قد حاربوا إلى جانب المصريين ضد الهكسوس. لقد وجدت المزهريَّات والبضائع المعدنيَّة الكريتية في أماكن عديدة من آسيا الصغرى أيضًا، وكان المينويون يزودون البر بمنتجات كثيرة غيرها - مثل الأخشاب والعنب والزيت وحتى الأفيون - وكانوا بالمقابل يأخذون المعادن من آسيا الصغرى، والمرمر من مصر، وبيض النعام من ليبيا. ولقد كان ذاك العالم عالمًا نشيطًا.

لقد مكَّنت الثروة المينويين من العيش بأبَّهة، وأجمل شاهد عليها هي قصورهم؛ إلا أن المدن أيضًا كانت حسنة البناء ومجهَّزة بأنابيب تصريف ومجارير

محكمة. أما الإنجازات الأخرى فهي فنيَّة أكثر منها فكريَّة؛ إذ يبدو أن المينويين قد أخذوا الرياضيات عن مصر وتركوها على حالها، وزالت دياناتهم بزوالهم من دون أن تترك شيئًا للمستقبل على ما يبدو، بينما أثر الفن المينوي في أساليب حضارات أخرى، وما زال حتى اليوم فنًا بديعًا تتجلى عبقريته في صوره، وقد بلغ ذروته في الرسوم الجدارية التي تجدها في القصور والتي تتصف بحيوية وحركة مدهشتين، كما أنه أسلوب أصيل بحق قلَّدته شعوب ما وراء البحار في كل من مصر واليونان. وسوف يساهم هذا الأسلوب من خلال فنون القصر الأخرى أيضًا، خاصة منها فن شغل الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة، في تحديد أساليب الموضة في الخارج.

يعطينا الفن المينوي أيضًا أدلة على أسلوب حياة الكريتيين؛ ويبدو أنهم كانوا يرتدون ملابس قليلة، فالنساء يصورن عاريات الصدر عادة والرجال حليقين، كما تجد صور الأزهار والنباتات بوفرة توحي بتقدير عفوي لنعم الطبيعة. ويبدو أن المينويين لم يجدوا العالم مكانًا منفرًا. وتشهد على ثروتهم جرار الزيت الكبيرة والجميلة التي وجدت مصفوفة في قصورهم، ويظهر اهتمامهم بالراحة والجمال الأنيق بوضوح في رسوم الدلافين والزنابق التي تزين غرف ملكة مينوية. كما تدل الآثار على عالم ديني فريد لأنه ليس عالمًا مرعبًا، ولكن ليس بين يدينا أية نصوص منه، ولا يمكننا أن نعرف شيئًا عن طقوسه. إنك تلاحظ كثرة مذابح القرابين والفؤوس ذات الرأسين، كما يبدو أن العبادة كانت تتمحور حول شخصية أنثوية -ربما- كانت إلهة خصب نيوليتية من اللواتي يظهرن المرة تلو المرة في كافة أنحاء الشرق الأدنى كتجسيد لطاقة الأنثى الجنسية، مثل عشتار وأفروديت في أزمان لاحقة. وتراها في كريت ترتدي تنورة أنيقة، عارية الصدر، واقفة بين أسدين وممسكة بثعبانين. أما وجود إله ذكر فهو أمر غير واضح، ولكن يوحي به ظهور قرني الثور

في أماكن كثيرة، والرسوم الجدارية التي تصوِّر هذه الحيوانات النبيلة، خاصة إذا ربطناها بالأساطير اليونانية اللاحقة -لأن أوربا أم مينوس قد أغراها الإله زقس بشكل ثور، كما أن پاسيفايه زوجة مينوس ضاجعت ثورًا فولدت وحش المينوتور، الذي كان نصفه ثورًا ونصفه الآخر رجلاً- هذا عدا عن طقوس القفز على الثيران، وهي طقوس غامضة ولكنها هامة. وعلى كل حال لا تبدو ديانة كريت ديانة كئيبة، إذ إن اللوحات الجدارية التي تمثل الرياضات والرقص لا توحي بشعب حزين.

أما الحكم في الحضارة المينوية فما زال أمرًا غامضًا. لقد كان القصر أشبه بمركز اقتصادي، أي أنه كان مخزنًا كبيرًا للسلع يقوم الحاكم بإعادة توزيعها؛ وكان معبدًا أيضًا ولكنه لم يكن قلعة، وفي فترة نضجه كان مركز بنية عالية التنظيم -ربما- كانت مستوحاة من آسيا. كان المينويون يعرفون الكتابة ويحفظون السجلات، ولا نعلم شيئًا عن أدبهم، ولكننا نعلم أشياء قليلة عن إدارتهم من خلال مجموعة هائلة مكونة من آلاف الرقم وجدت في القصر، وتدل على ما كانت الحكومة تطمح إليه على الأقل، أي الإشراف على الأمور إشرافًا شديدًا ومحكمًا لا تجد مثيلاً له إلا في إمبراطوريات آسيا وفي مصر.

ما زال الكثير من تلك الرقم عصيًّا على القراءة، ولكننا نعلم أن أبكرها مدونة بكتابة تصويرية بعض رموزها مأخوذة عن مصر، تليها مجموعة مدوَّنة بالكتابة الخطية (أ)، ثم مجموعة مدونة بالكتابة الخطية (ب). ويتفق العلماء، الآن، على أن هذه الكتابة الخطية (ب) هي أول شكل مدون نملكه من اللغة اليونانية، وهي تعود للفترة بين عامي ١٤٥٠ إلى ١٣٧٥ ق.م تقريبًا. ويوافق هذا التاريخ الأدلة التي تعطيها الآثار عن وصول وافدين جدد من البر الرئيسي -في ذلك الوقت تقريبًا- نجحوا في إزاحة حكام كريت الأصليين وأشرفوا على المرحلة الأخيرة من

الحضارة المينوية. ويبدو أن هذه الشعوب الوافدة تشكّل هي الأخرى جزءًا من قصة الشعوب الهندية الأوربية التي تظهر مرارًا وفي أماكن كثيرة خلال تلك الحقبة الغامضة. وفي فترة لاحقة تبعهم آخرون من البر إلى كريت ونجحوا في استيطانها بعد الانهيار الأخير لكنوسوس واختفاء المينويين من تاريخ العالم.

الميقينيون(*)

قبل ذلك ببضعة قرون كانت الثقافة الكريتية قد أثرت تأثيرًا كبيرًا في البر الرئيسي لليونان. وكانت تعيش فيه بقايا شعوب نيوليتية سماها الإغريق اللاحقون Pelasgoi، بقيت موزعة في شمال بحر إيجة حتى عام ٥٠٠ ق.م. ولكن كان قد حل محلها –عندئذ– أو غزاها شعب اعتبره الإغريق اللاحقون أجدادهم وكانوا يسمونهم «الأخائيين». كان الأخائيون قد وصلوا إلى سهل الأتيك وشبه جزيرة البيلوبونيز في نحو عام ٢٥٠٠ ق.م، وكانوا يتحدثون لغات هندية أوربية. وكانوا رعاة غنم يحبون الحرب ويعرفون استخدام العربات، ويبدو أنهم أعطوا الرجال أهمية أكبر بكثير من النساء في المجتمع، كما كانت أصنامهم مختلفة جدًا عن أصنام الديانات المتمحورة حول إلهات أنثوية والتي كانت سائدة في الشرق الأدنى وبحر إيجة نفسه قبل وصولهم مباشرة، وكانوا برابرة بالقياس إلى الكريتيين.

لقد كان بين مستوطنات الأخائيين مستوطنة واقعة في واد بشبه جزيرة البيلوبونيز هي ميقينية، التي صارت مركز حضارة. كانت ميقينية أكثر تقدُّماً بكثير

(*) أو الميسينيون The Mycenaeans وتسمية ميقينية أقرب إلى اللفظ اليوناني Mukenai وهي المعتمدة في المنجد في الأعلام.

من كل ما ظهر قبلها في اليونان، إلا أنها أقل تقدُّماً من حضارة كريت المينوية، وكانت تدين لها بالكثير. وقد ظهرت هذه الحضارة في نحو عام ١٦٠٠ ق.م، وانتشرت خلال خمسة أو ستة قرون في الجزء الأكبر من بر اليونان، وفي نحو عام ١٣٠٠ ق.م كان الملوك الحثيون في الأناضول يكتبون إلى ملك ميقينية كرجل بارز يحرصون على التعامل معه. ولم تكن ميقينية دولة ذات إدارة كبيرة وأراشيف معقّدة مثل الإمبراطوريات الشرقية بل، ربما، كان لملوكها مجالس يستشيرونها مكونة من الزعماء. وتُظهر الرُقَم التي وجدت في بيلوس بغرب البيلوبونيز وجود ما يشبه طبقة من الموظفين -وهي علامة على التأثير المينوي- ولكن، ربما، كان أكثر منطقيّة أن نعتبر المجتمع الميقيني أشبه بمجموعة من الأملاك الكبيرة، إحداها تابعة للملك على درجة بارزة من المكانة والقوة تجعل الآخرين يقبلون به سيِّدًا عليهم، أي ربما، لم يكن تنظيمها أكثر من تنظيم قبلي أو عائلي مطور قليلاً وتحت زعامة ملوك.

ولم تُخلِّف الحضارة الميقينية أشياء كثيرة، عدا عن بعض الأبنية الباهرة والأغراض الذهبية المتقنة. لقد صار أولئك البرابرة بمر القرون «ميقينيين»، وكانوا أعلى حضارة من الـــ Pelasgoi، إلا أن الشيء الأساسي الذي بقي يميِّزهم إنما هو قدرتهم القتالية. وقد انتشرت مهارات ميقينية الباهرة إلى كثير من جزر بحر إيجة عندما حلت سيادة الميقينيين التجارية محل سيادة المينويين في حوالى عام ١٤٠٠ ق.م. وكانت صادراتهم الفخارية تحل أحيانًا محل الصادرات المينوية، كما وجدت في ميقينية خرزات مصنوعة في بريطانيا من كهرمان البلطيق؛ وربما، صارت هذه الشعوب غنية بفضل التجارة فاكتسبت أهمية تفوق حجمها، بينما كانت القوى العظمى مثل مصر والإمبراطورية الحثية تعاني من المصاعب في عصر سادت فيه هجرات الشعوب.

الفينيقيون

من أهم الشعوب القديمة التي اشتغلت بالتجارة فينيقيو بلاد الشام. لقد كان لهم تاريخ طويل ومضطرب، وكانوا يزعمون أنهم قد وصلوا إلى صور في حوالى عام ٢٧٠٠ ق.م، وهو أمر مستبعد. ولكن الشيء الأكيد هو أنهم قد ثبتوا أقدامهم على ساحل لبنان الحالي في الألف الثانية ق.م، عندما كان المصريون يشترون منهم خشب الأرْز. لقد كان هذا الشريط الساحلي الضيق هو قناة الاتصال التاريخية بين أفريقيا وآسيا، أما من ورائه فتقع أرض داخلية ضحلة فقيرة بالموارد الزراعية تقطعها الهضاب الممتدة من الجبال إلى البحر، بحيث كان من الصعب على المستوطنات الساحلية أن تتحد فيما بينها. ومثل عرب البحر الأحمر، صار سكان هذه المستوطنات بحارة لأن جغرافية بلادهم قد دفعتهم للتطلع نحو الخارج وليس نحو الداخل.

كان الفينيقيون ضعافًا في بلادهم - وقد خضعوا لسيطرة قوى عديدة الواحدة تلو الأخرى - فليس من قبيل الصدفة إذن أنهم لم يبرزوا إلا بعد أن كانت أيام ازدهار مصر وميقينية والإمبراطورية الحثية قد ولت، أي أنهم قد ازدهروا أثناء تراجع سواهم، فتمتعت المدن الفينيقية بيبلوس(*) وصور وصيدون(**) بعصرها الذهبي القصير بعد زمن طويل من انقضاء سيادة المينويين في التجارة. وكان الكتاب القدامى -ومنهم كتاب العهد القديم- يشددون على سمعة الفينيقيين كتجار ومستوطنين، وقد بقيت الأصبغة الفينيقية مشهورة ومطلوبة حتى الأزمنة الكلاسيكية. ولا بد أن تكون الحاجة التجارية قد حفّزت الابتكار لديهم، وإن

(*) جبيل الحالية.

(**) صيدا الحالية.

أبجديتهم هي جد قديم لأبجديتنا -ولو لم يبق لنا أدب فينيقي هام- كانت التجارة اختصاصهم، وراحوا يتخذون لأنفسهم مراكز في مستوطنات أو محطات تجارية كان غيرهم قد تاجر في بعضها، حتى صارت هناك في النهاية نحو خمس وعشرين مستوطنة على طرفي البحر المتوسط. كانت أولاها في لارنكا الحالية بقبرص عند نهاية القرن التاسع ق.م، وكانت أبعدها غربًا تقع مباشرة خلف مضيق جبل طارق في موقع مدينة قادش، بل إنهم قد تبادلوا البضائع مع الناس البدائيين في كورنوول(*). وربما كان تأسيس هذه المستوطنات انعكاسًا لأزمنة مضطربة حلّت بالمدن الفينيقية من بعد استقلالها المثمر القصير عند بداية الألف الأولى. وفي القرن السابع سويت صيدون بالأرض وأُخذت بنات ملك صور إلى حريم الملك الأشوري. وبذلك لم يبق من فينيقيا إلا مستوطناتها.

كان الفينيقيون والميقينيون تجار حضارة، أما المينويون فكانوا ذوي أصالة حقيقية، لأنهم لم يكتفوا بالأخذ عن مراكز الثقافة الراسخة الكبرى، بل أعادوا صنع ما أخذوه قبل أن ينشروه من جديد. إلا أن هذه الشعوب كلها، الوسيطة منها والمبدعة، قد ساهمت في تشكيل عالم ما فتئ يتغيَّر بسرعة. سوف يدفع البحث عن المعادن المستكشفين والمنقّبين إلى أصقاع أبعد فأبعد، حتى إلى المجاهل البربرية في شمال أوربا وغربها، وما برحت التجارة تفعل فعلها البطيء، فتفتت الانعزال وتغيِّر علاقات الشعوب بعضها ببعض وتفرض على العالم أشكالاً جديدة. ولكن ليس من السهل دومًا أن نربط هذا الأمر بالغليان الإثني في بحر إيجة أو بالتاريخ المضطرب للبر الآسيوي منذ الألف الثانية ق.م فما بعد.

(*) في أقصى جنوب غرب إنكلترا.

الإغريق الأوائل

عند نهاية القرن الثالث عشر تدمّرت المراكز الميقينية الكبرى، ربما، بفعل الزلازل، كما كانت قد بدأت غزوات شعوب بربرية جديدة لبر اليونان، فانهارت الحضارة الميقينية، واختفت الكنوز الملكية و لم تبن القصور من بعدها. إلا أن الحياة استمرت، فقد بقيت الشعوب المتأصِّلة متمسِّكة بأرضها في بعض الأماكن لقرون عديدة، بينما جاءت في مناطق أخرى موجات جديدة من المهاجرين استغلت السكان كعبيد في الأرض أو طردتهم من أوطانهم. وكان أولئك الغزاة يتقدمون من الشمال -منذ نحو عام ١٢٠٠ ق.م- و لم يستقروا دومًا في الأراضي التي خربوها، ولكنهم أطاحوا بالبنى السياسية القائمة وسوف ينزع المستقبل من ملكيتهم وليس من المؤسسات الميقينية. إن الصورة مشوَّشة، وقد انتهى ما يمكن أن نسمِّيه العصور المظلمة لبحر إيجة بين عامي ١٠٠٠ و ٧٠٠ ق.م.

لقد ورثت الأزمنة اللاحقة عن ميقينية أساطير وتقاليد انتقلت شفاهًا من خلال الشعراء، وورثت بالأخص اللغة - وهي شكل بدائي من اليونانية كانت تلك الأساطير تغنى بها- ولهذا السبب صار الناس بعد مئات السنين ينظرون إلى الماضي ويرون في الأخائيين أول الإغريق الحقيقيين. إننا في الحقيقة لا نعرف إلا القليل عما حدث في عهد خلفائهم، ولكننا نعلم بالتأكيد أن تقهقرًا كبيرًا قد حصل. فقد هبط عدد السكان، كما يبدو أن الكتابة قد انقرضت. ولكن هذا لا يعني أن الفخارين قد توقفوا عن صنع الفخار أو أن الحدادين قد توقفوا عن شغل المعادن أو الفلاحين عن حراثة الأرض، لأن البشرية كانت قد جمعت رأس مال كبيرًا من الثقافة يسمح للمجتمع بتحمل الضغوط الشديدة. صحيح أن المجتمعات المتحضّرة قد تنحدر من ذراها بل قد تنهار أحيانًا، إلا أنها تساهم عادة في التراكم البطيء

لميراث الجنس البشري بأكمله وفي معرفته وخبرته الجماعية، بحيث يغدو الانكفاء الكامل وغير العكوس إلى البربرية مستبعدًا إلا في مناطق صغيرة.

الدُّوريّون

كان الغزاة الجدد يتحدثون أشكالاً من اللغة اليونانية، وقد تقسّموا إلى أحزاب غازية كثيرة ومجموعات صغيرة من المستوطنين، وساعدت اللغة العلماء في اقتفاء بعض تحركاتهم، وبالأخص تحركات الشعب الذي بات مسيطرًا على جنوب شبه جزيرة البيلوبونيز والذي سمي فيما بعد لاكونيا. كان هؤلاء يُدعون الدوريين، وقد تابعوا تقدمهم من البر الرئيسي فاستوطنوا رودس وكوس وكريت وغيرها من الجزر، ويستدل على أماكن تقدّمهم من خلال لهجتهم. وتشير الأدلة اللغوية إلى أن إيونيا(*)، أي الساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، كانت على الأرجح مستوطنة من قبل مجموعة مختلفة عنهم هي جماعة من الأخائيين الذين فروا من وسط اليونان والبيلوبونيز بعد أن طردهم الدوريون. لقد كانت هجرات الشعوب توسع العالم الإغريقي إذن، ولكن يبدو أن الوافدين الجدد في بعض الأماكن، خصوصًا في سهل الأتيك، لم يكونوا هم المسيطرين -إذا حكمنا ثانية من خلال اللغة- ولو أن الحكم الميقيني قد اختفى. والحقيقة أن تلك الشعوب القبلية لم تصل إلى حوض بحر إيجة بهوية إغريقية، بل إنما صارت إغريقية بحكم وجودها هناك واشتراكها بخبرة واحدة ضمن تلك المنطقة.

(*) ومنها أتت تسمية اليونان بالعربية – المترجم نقلاً عن الموسوعة البريطانية.

من الصعب أن نرتب الأحداث بحسب تسلسل زمني معين، أو نعرف تفاصيلها وأسبابها -حتى عام ٧٠٠ ق.م تقريبًا- إلا أن نتيجتها واضحة، وهي أن المتحدِّثين باللغة اليونانية قد تشتتوا في جماعات عديدة نشأت منها في زمن لاحق عشرات المدن الإغريقية حول بحر إيجة. كانت لاكونيا وسهل الأتيك تتميزان بوجود مناطق تضم مدنًا عديدة تحت حكم واحد، أما الجماعات الأخرى فكانت كلها صغيرة، بل صغيرة جدًا، ومستقلة. أي أنها ذات حكم ذاتي autonomous — وهي كلمة يونانية – وليست أجزاء في إمبراطورية آخرين. وقد نمت بعض تلك المدن خلال عصور الظلام حتى صار فيها عشرة آلاف شخص أو أكثر، وكان فيها عادة مكان مرتفع أو Acropolis كمركز للمدينة ومكان لمقامات آلهتهم -وهي فكرة نشأت في آسيا قبل ذلك بقرون عديدة- وكان يحكمها في العادة ملوك -كان أولهم على الأرجح زعماء جماعات محاربة أو عصابات من القراصنة- ثم حلَّت محلَّهم -فيما بعد- مجالس مكوَّنة من أهم أصحاب الأراضي.

الإمبراطوريات والشعوب في بر الشرق الأدنى

في تلك الأثناء بقيت قصة الشرق الأدنى لزمن طويل قصة صراعات على ثروة تزداد رويدًا رويدًا في أبرز منطقة زراعية في العالم القديم، ولم يكن في الصحارى والسهوب من حولها موارد تقارن بما فيها. وماانفك الغزاة يأتون الواحد بعد الآخر يدفعهم الحسد والجشع، فيتركون وراءهم أحيانًا جماعات جديدة، ويؤسسون أحيانًا دولاً جديدة تحل محل الدول التي أطاحوا بها. ولم يكن الناس في تلك الأزمنة المضطربة قادرين على فهم ما يجري، بل كانت المصائب تحل بهم من حيث لا يدرون، فتحرق بيوتهم أو تغتصب زوجاتهم وبناتهم أو يؤخذ أبناؤهم

أرقاء. أو قد تكون المتاعب أهون من هذا، كأن يأتي حاكم جديد فيفرض عليهم ضرائب أعلى، ولا ريب أن أحداثًا كهذه تسبب هزات كبيرة. ولكن من ناحية أخرى لا بد أن يكون الملايين من الناس قد عاشوا في تلك الأزمان من دون أن يشعروا بتغير هام في حياتهم، إلاّ أن يصل إلى قريتهم أول سيف أو منجل حديدي، ومن دون أن يساورهم أدنى شك بالأفكار والمؤسسات التي ظلت على حالها أجيالاً كثيرة. لقد كان الغزاة يواجهون مراكز راسخة من الحكم والسكان، وبنى سياسية قوية ومديدة، وتنظيمات هرمية كثيرة من المختصين بشؤون الإدارة والدين والمعرفة، لذلك لم يكن بإمكانهم أن يقضوا عليها مثلما قضى الغزاة على البنى التي كانت قائمة في منطقة بحر إيجة. لا ريب أن هذه المنطقة قد عرفت مقدارًا كبيرًا من الدينامية والعنف أثناء انتقالها من عصر البرونــز إلى عصر الحديد، ولكن لا يجوز أن نبالغ في تأثير هذه العوامل على البنى الراسخة.

الحثيون

نحو بداية الألف الثانية ق.م وصل شعب هندي أوربي آخر هو الشعب الحثي إلى آسيا الصغرى، واستقر في الأناضول بينما كانت الحضارة المينوية تبلغ أعظم انتصاراتها. ولم يكن الحثيون شعبًا بدائيًا، بل كان لهم نظام قضائي خاص بهم، وسرعان ما تعلموا الكثير من بابل، وقد نعموا باحتكار طويل للحديد في آسيا، وبفضل هذا المعدن فضلاً عن مهارتهم في التحصين والتحكم بالعربة صاروا وبالاً على مصر وبلاد الرافدين. لقد شنوا على بابل غارة قصمت ظهرها في حوالى عام ١٥٩٠ ق.م، وكانت تلك أعلى ذروة بلغتها «الإمبراطورية» الحثية الأولى، ثم مروا بمرحلة غامضة من الانحسار قبل أن تعود قوتهم لتبزغ من جديد في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وامتدت هيمنتهم لفترة من الزمن من سواحل المتوسط إلى

الخليج الفارسي، فسيطروا على الهلال الخصيب كله ما عدا مصر. إلا أن إمبراطوريتهم انهارت مثل غيرها من الإمبراطوريات القديمة، وكانت نهايتها في حوالى عام ١٢٠٠ ق.م.

ولم يعد الحثيون في ذلك الحين ينعمون باحتكار الحديد، بل إن استخدامه كان قد شاع بحلول عام ١٠٠٠ ق.م في كافة أنحاء الشرق الأدنى، ولا ريب أن انتشاره هذا قد تم بفضل قدوم موجات جديدة من الشعوب الهندية الأوربية التي راحت ترمي الاضطراب في كل مكان. وتلاحظ تقاربًا واضحًا بين زمن انهيار آخر قوة حثية -على يد شعب من تراقيا اسمه الشعب الفريجي-، وبين هجمات «شعوب البحر» المدونة في السجلات المصرية. لقد كانت «شعوب البحر» هذه علامة جديدة من علامات الاضطراب، فقد كانوا مسلحين بالحديد، وراحوا -منذ بداية القرن الثاني عشر ق.م- يغزون بر شرق المتوسط مخرِّبين المدن في سورية وساحل بلاد الشام، وربما، كان بعضهم «لاجئين» من ميقينية، إذ كان هناك أخائيون بين الذين اشتركوا في الهجمات على مصر عند نهاية القرن، ويبدو الآن، أن غزوة قاموا بها في حوالى عام ١٢٠٠ ق.م هي التي خلدت باسم حصار طروادة. ثمة جماعة من تلك الشعوب الهائمة استقرت في كنعان - أي في الأرض الواقعة بين البحر الميت والغرب - في حوالى عام ١١٧٥ ق.م، ومازالت ذكراهم محفوظة في اسم حديث مشتق من اسمهم: هو فلسطين(*). بيد أن أكبر ضحايا شعوب البحر هذه إنما كانت مصر، بل إنهم قد نجحوا في إحدى المرات في انتزاع دلتا النيل من قبضة فرعون. كانت مصر تعيش أيامًا عصيبة في بداية القرن الحادي عشر، فتمزقت لفترة من

(*) يقصد الفلسطينيين القدامى The Philistines.

الزمن وراحت تتنازعها مملكتان. ولم تكن شعوب البحر عدوها الوحيد، إذ يبدو أن أسطولاً ليبيًا قد غزا الدلتا، كما نشأت في السودان مملكة مستقلة في حوالى عام ١٠٠٠ ق.م سوف تكون مصدر متاعب في المستقبل، ولو أن المصاعب لم تكن قد ظهرت على حدود النوبة بعد. وهكذا كانت موجات الشعوب البربرية تبلي البنى الإمبراطورية القديمة مثلما أبلت اليونان الميقينية من قبلها.

العبرانيون

في خضم هذه الاضطرابات كلها وقع في الغالب حدث لا نعرف تاريخه ولا نعلم عنه إلا من خلال تقاليد دونت بعده بقرون عديدة. هذا الحدث هو هروب شعب من مصر كان المصريون يسمونهم عبرانيين وصار العالم -بعد ذلك بزمن طويل- يسميهم يهودًا. ولا نجد شعبًا استطاع بمثل هذه الأصول الزهيدة والأعداد الضئيلة أن يحدث مثل تأثيرهم الكبير في التاريخ، فالحقيقة أن ميراث اليهود سوف يغير العالم. تعود أصول هذا الشعب إلى الشعوب السامية، وهي شعوب بدوية من شبه الجزيرة العربية لا نعرف عنها الكثير، كانت أجدادها عبارة عن قبائل مختلفة تتغلغل في منطقة الهلال الخصيب منذ أزمنة ما قبل التاريخ. ويبدأ تاريخ اليهود التقليدي بعصر الآباء الأولين، الذي تجسده قصص الكتاب المقدس عن إبراهيم وإسحق ويعقوب، ويحتمل أن تكون أصول هذه الشخصيات الأسطورية العملاقة رجالاً حقيقيين. فإذا وجدوا بالفعل فإن تاريخهم يبدأ في نحو عام ١٨٠٠ ق.م، ضمن الاضطراب الذي حل بعد نهاية أور، التي يخبرنا العهد القديم أن إبراهيم قد أتى منها إلى كنعان، وهي قصة معقولة تمامًا. وقد صار أحفاد إبراهيم يعرفون في النهاية «بالعبرانيين»، وهو تحريف لكلمة تعني «الهائمين»، تظهر للمرة الأولى في الكتابات والنقوش المصرية في القرن الرابع عشر أو الثالث عشر ق.م - أي بعد

استقرارهم الأول في كنعان بزمن طويل. إن تسمية العبرانيين هي على الأرجح أفضل تسمية نطلقها على القبائل التي نتحدث عنها، الآن، أما تسمية «اليهود» فيفضل الاحتفاظ بها لمرحلة لاحقة.

يصور الكتاب المقدس شعب إبراهيم في البداية بصورة قبائل من الرعاة تتنازع مع جيرانها وأقربائها على الآبار والمراعي، ومازالت ضعيفة يدفعها القحط والجوع في أرجاء الشرق الأدنى. ولا يمكن أن يكون لديها ما يميِّزها عن سواها من قبائل البدو الرحل. ثمة مجموعة بينهم تسمى في الكتاب المقدس عائلة يعقوب يحكى أنها رحلت إلى مصر -ربما- في بداية القرن السابع عشر ق.م. ومع تقدّم القصة نتعرَّف على يوسف، الابن العظيم ليعقوب، الذي بلغ مرتبة عالية في خدمة فرعون. فإذا رجعنا إلى السجلات المصرية وجدناها تشير إلى حدوث اضطرابات واسعة أثناء سيطرة الهكسوس، ربما، تفسِّر بلوغ رجل أجنبي مثل هذه المكانة البارزة في البيرقراطية المصرية، لأن هذا الأمر لم يكن مألوفًا في الأزمنة العادية. ولكن من المؤسف أن لا دليل يؤكد هذه القصة أو ينفيها، إذ ليس بين أيدينا إلا التقاليد، كما هي الحال في كافة التاريخ العبري حتى عام ١٢٠٠ ق.م تقريبًا. ولكن كتب العهد القديم التي تروي هذه التقاليد لم تأخذ شكلها الحالي -حتى القرن السابع ق.م- أي ربما بعد ثمانمئة سنة من قصة يوسف، وإن فيها عناصر أقدم حتى من ذلك. وما كان شيء من هذا ليهمّ أحدًا من الباحثين سوى اليهود، لو لم تقع فيما بعد أحداث تكمن جذورها في الرؤية الدينية الفريدة لهذا الشعب الصغير، الذي يصعب تمييزه عن غيره من شعوب المنطقة.

كان العبرانيون على ما نعلم أول شعب توصّل إلى مفهوم مجرد لله - بل إنهم صاروا يمنعون صنع صور تمثّله. لقد كانت تجري في الشرق الأدنى القديم أحداث

معاصرة -تقريبًا- قيل إنها جعلت الرؤى الدينية التوحيدية أكثر جاذبية، وهو رأي معقول جدًا، إذ راحت الاضطرابات والكوارث الكبرى تحل بشعوب المنطقة المرة تلو المرة من بعد الإمبراطورية البابلية الأولى، ولا بد أن يكون هذا الأمر قد أوهن الثقة بحماية الآلهة المحلية. وقد اعتبرت كل من تجديدات أخناتون الدينية والتشديد المتزايد على عبادة مردوك في بلاد الرافدين محاولات استجابة لهذه التغيرات. إلا أن العبرانيين وحدهم قد توصلوا إلى توحيد متماسك لا مهادنة فيه، اكتملت عناصره الأساسية في القرن الثامن ق.م. كانت أولى الديانات العبرية تؤمن على الأرجح بوجود آلهة عديدة مثلها مثل غيرها من الشعوب السامية، ولكنها أحادية العبادة، أي أن القبائل العبرانية كانت تعبد إلهًا واحدًا فقط هو إلهها الخاص. ثم تطور هذا الأمر إلى فكرة أن شعب إسرائيل -وهو الاسم الذي صار يعرف به سبط يعقوب- يدين بالولاء الحصري لإله سبطه يهوه. كان يهوه إلهًا غيورًا، عقد عهدًا مع شعبه بأن يعيده إلى الأرض الموعودة، إلى كنعان التي كان قد أتى إليها بإبراهيم من أور. وكانت فكرة العهد هذه فكرة رئيسية جدًا طمأنت إسرائيل إلى أنها إذا حققت أمرًا معينًا فسوف تنال النتيجة التي تبغيها.

أولى الديانات التوحيدية

إن رغبة يهوه بألا يعبد إله سواه هي التي مهدت الطريق أمام التوحيد، فجاء زمان لم يعد فيه أبناء إسرائيل يشعرون بأي احترام نحو الآلهة الأخرى. ولم يقتصر الأمر على هذا، بل كانت طبيعة يهوه متميزة منذ زمن باكر، وكان المظهر البارز لعبادته هو ألا تصنع له أية صورة محفورة. كان يظهر أحيانًا -مثل آلهة أخرى- في مكان إقامة دائم مثل معبد مصنوع باليد، أو حتى في تظاهرات الطبيعة، ولكن مع تطور ديانة إسرائيل صار يهوه يعتبر إلهًا متساميًا وكلي الوجود: «أَينَ أَذهَبُ مِن

روحِكَ، وأينَ أهرُبُ مِن وَجهِكَ؟» (المزمور ٧/١٣٩)[*]. كما كانت عمال يهوه الخلاقة صفة أخرى تميز التقاليد اليهودية تمييزًا حادًا عن تقاليد بلاد الرافدين الأسبق. صحيح أن كليهما يصوِّر أصول الإنسان من هيولى مائية، إذ يقول سفر التكوين «وكانَتِ الأرضُ خاوِيةً خالِية؛ وعلى وَجهِ الغَمْرِ ظَلام»[**]، ولكن عند أهل بلاد الرافدين كانت هناك في الأصل مادة ما وكل ما فعلته الآلهة إنما هو إعادة ترتيبها، أما عند العبرانيين فكان الأمر مختلفًا لأن يهوه قد خلق الهيولى نفسها. كان يهوه عند إسرائيل هو ما وصفته المعتقدات المسيحية اللاحقة بـــ «صانع كل شيء، الذي به صُنعت الأشياء كلها». وقد صنع الإنسان على صورته وكرفيق له لا كعبد، فكان الإنسان ذروة كشف يهوه عن طاقته الخلاقة، وكائنًا قادرًا على معرفة الخير من الشر، مثل يهوه نفسه، ويعيش في عالم تحكمه أخلاق وضعتها طبيعة يهوه، لأنه وحده صانع الحق والعدل.

تتضمن هذه الأفكار أشياء سوف تحتاج قرونًا طويلة لكي تتضح وتبزغ، من بعد أن كانت في البداية مغمورة ضمن خرافات مجتمع قبلي يبحث عن تأييد إلهه في الحروب والنكبات. لقد شددت التقاليد اليهودية اللاحقة تشديدًا كبيرًا على الهجرة العجائبية من مصر، وهي قصة تسيطر عليها شخصية بطل غامض هو موسى. وكان العبرانيون عندما وصلوا إلى كنعان مجمعين على الأرجح حول عبادة يهوه، ويبدو أن قصة الكتاب المقدّس التي تروي تجوالهم في سيناء تعكس الزمن الحاسم الذي صيغ فيه وعيهم القومي الأول هذا. ولكن مرة أخرى ليس بين أيدينا إلا

(*) ترجمة دار المشرق — بيروت.

(**) نفس المصدر السابق.

تقاليد الكتاب المقدس التي دونت بعد ذلك بزمن طويل. من المعقول جدًا أن يكون العبرانيون قد هربوا أخيرًا من الظلم القاسي في بلد أجنبية — حيث كانت تفرض عليهم أعباء السخرة من أجل تنفيذ أشغال البناء الكبرى. إن اسم موسى هو اسم مصري، ومن المحتمل أن تكون هناك شخصية تاريخية وراء هذا القائد الأسطوري العظيم الذي يسيطر على قصة الهجرة في الكتاب المقدَّس ويجمع شمل العبرانيين في البرية. في الرواية التقليدية يؤسس موسى القانون عندما ينـــزل بالوصايا العشر بعد مقابلته ليهوه، وقد كانت هذه مناسبة تجديد للعهد بين يهوه وشعبه في جبل سيناء، ولعلها تمثل عودة هذا الشعب البدوي إلى تقاليده من بعد أن تآكلت عبادته بالإقامة الطويلة في دلتا النيل، إلا أن الوصايا نفسها لا يمكن أن تنسب إلا لزمن متأخِّر جدًا عن زمن حياة موسى.

بالرغم من هذا يجب علينا أن نعامل رواية الكتاب المقدس باحترام لأن فيها أشياء كثيرة يمكن ربطها بمصادر أخرى. وأخيرًا يأتي علم الآثار لنجدة المؤرخ مع وصول العبرانيين إلى كنعان. إن قصة الفتح المروية في كتاب يشوع تتناسب مع الأدلة التي نملكها على خراب المدن الكنعانية في القرن الثالث عشر ق.م، كما أن ما نعرفه عن الثقافة والديانة الكنعانيتين يتوافق مع رواية الكتاب المقدس عن صراعات العبرانيين ضد العبادات المحلية وتعدد الآلهة المتفشي في كل مكان. وقد بقي هذان التقليدان الدينيان يتنازعان فلسطين طوال القرن الثاني عشر. ويبدو أيضًا أن العبرانيين قد اجتذبوا دعم قبائل بدوية أخرى قبلت عبادة يهوه، ورغم أنها بقيت تتنازع فيما بينها بعد استقرارها فقد ظلت على عبادته، فكان هو القوة الوحيدة التي تؤلف بينها، لأن التقسيمات القبلية كانت المؤسسات السياسية الوحيدة عند شعب إسرائيل.

الملوك والأنبياء

كان العبرانيون أقل تطورًا ثقافيًا من الكنعانيين في جوانب عديدة، وقد أخذوا عنهم كتابتهم مثلما أخذوا أساليب البناء ولكن من دون أن يحرزوا أشياء هامة، فظلت أورشليم لزمن طويل مدينة صغيرة تعم فيها القذارة والفوضى، ولا تقارن بالمدن المينوية التي بنيت قبلها بقرون عديدة. إن الضرورة العسكرية هي التي حفزت المرحلة التالية من تماسك الأمة؛ إذ يبدو أن خطر الفلسطينيين -وهم الشعب الهندي الأوربي الذي أعطى فلسطين اسمها- قد حرّض على ظهور الملكية العبرية في حوالى عام ١٠٠٠ ق.م، ومعها تظهر مؤسسة أخرى، هي مجموعة متميزة من الرجال الذين يطلق عليهم اسم الأنبياء.

لم يكن الأنبياء متنبئين على طريقة عرافي الشرق الأدنى -ولو أنهم ربما نشؤوا ضمن هذا التقليد- بل كانوا مبشِّرين وشعراء ونقادًا سياسيين وأخلاقيين. وكانت مكانتهم تعتمد بصورة أساسيَّة على القناعة بأن الله يتكلم من خلالهم. وقد مسح النبي صموئيل -وبالتالي عين- كلاً من الملك الأول شاوُل وخليفته داوُد. يخبرنا الكتاب المقدّس أن إسرائيل على عهد شاول لم تكن فيها أسلحة حديدية لأن الفلسطينيين كانوا حريصين على تفوقهم فلم يسمحوا لهم بها. إلا أن اليهود تعلموا من أعدائهم بالرغم من ذلك، والحقيقة أن كلمتي «سكين» و«خوذة» في اللغة العبرية لهما جذور فلسطينية. لقد أحرز شاول انتصارات عديدة، ولكنه مات في النهاية عن يده هو. ثم جاء داود فأتم عمله في بناء الدولة. ويبقى داود هذا أكثر شخصيات العهد القديم العظيمة إقناعًا رغم غياب الأدلة على وجوده خارج الكتاب المقدّس نفسه. إن الرواية الأدبيّة التي تحكي قصته مشوَّشة، ولكنها تحدثنا عن بطل كريم القلب وله عيوبه مثل كل إنسان، نجح في القضاء على خطر

الفلسطينيين وأعاد توحيد المملكة المقسَّمة من بعد موت شاول. فصارت أورشليم عندئذ عاصمة إسرائيل، وفرض داود نفسه على الشعوب المجاورة، ومنها الفينيقيون -مع أنهم كانوا قد ساعدوه ضد الفلسطينيين- فكانت هذه نهاية صور كدولة مستقلة هامة. إلا أن أول ملك لإسرائيل أحرز مكانة عالمية كبرى إنما هو الملك سليمان، ابن داود وخليفته. لقد أطلق سليمان الحملات إلى الجنوب ضد الأدوميين كما بنى أسطولاً بحريًا، وحقق له ذلك الفتوحات والازدهار، ولكن -ربما- لم يكن نجاحه هذا إلا دليلاً آخر على انحسار الإمبراطوريات الأقدم. ولا ريب أن سليمان كان ملكًا ذا طاقة واندفاع عظيمين، ولم تقتصر إنجازاته على الناحية العسكرية، فقد قيل إن «مناجم الملك سليمان» الأسطورية تعكس ذكرى أول مركز لتنقية النحاس نملك أدلة على وجوده في الشرق الأدنى، ولو أن هذا الأمر مختلف فيه. لقد بنى سليمان المعبد -حسب نماذج فينيقية- ولم يكن هذا إلا واحدًا من الأبنية العامة الكبرى التي شيدها، ولكنه ربما كان أهمها، لأنه منح عبادة يهوه شكلاً أبهى من أي وقت مضى ومركزًا باقيًا.

إلا أن إسرائيل لم تُذكر في المحصلة بالأعمال العظيمة لملوكها، بل بالمعايير الأخلاقية التي أعلن عنها أنبياؤها. لقد رفع الأنبياء فكرة إسرائيل عن الله إلى ذرى جديدة، وقليلون هم المبشرون الذين حظوا بمثل هذا النجاح، كما أنهم صاغوا الروابط بين الدين والأخلاق التي سوف تسيطر طوال آلاف السنين على اليهودية وعلى ديانتين عالميتين أخريين، هما المسيحية والإسلام. فعن طريق الأنبياء تطورت عبادة يهوه إلى عبادة إله كوني، عادل ورحيم، صارم في عقاب الخطيئة ولكنه مستعدٌّ لتقبل الخاطئ إذا تاب. فكانت هذه ذروة التطور الديني في الشرق الأدنى القديم، وصار بإمكان الدين -منذ ذلك الحين- أن ينفصل عن الانتماء المحلي والقبلي.

لقد هاجم الأنبياء أيضًا الظلم الاجتماعي هجومًا مريرًا، فقالوا إن الناس جميعًا سواسية في نظر الله، وأنه لا يجوز للملوك أن يفعلوا ما يحلو لهم، وأعلنوا شريعة أخلاقية كحقيقة واقعة ومستقلة عن سلطة البشر. وبذلك صارت الدعوة إلى الالتزام بالقانون الأخلاقي الإلهي أساسًا لانتقاد السلطة السياسية القائمة؛ فبما أن القانون ليس من صنع الإنسان فقد كان بإمكان الأنبياء أن يحتكموا إليه وإلى وحيهم الإلهي أيضًا ضد الملوك والكهنة معًا. لقد قام الأنبياء بواحدة من القفزات الفكرية الكبرى للبشرية، لأن جوهر الليبرالية السياسية هو الإيمان بأن السلطة يجب أن تستخدم ضمن إطار أخلاقي مستقل عنها، وجذرها الأول إنما يكمن في تعاليمهم.

لقد ازدهرت إسرائيل إذن أثناء انحسار القوى الكبرى، ولكن تاريخها راح يتراجع بعد موت سليمان في عام ٩٣٥ ق.م. فانقسمت المملكة من جديد، وصارت مملكة إسرائيل في الشمال تجمع عشرة أسباط حول عاصمتها في السامرة، بينما بقي سبطا بنيامين ويهوذا في الجنوب متمسكين بأورشليم في مملكة يهوذا. وفي عام ٧٢٢ ق.م محا الأشوريون مملكة إسرائيل واختفت أسباطها العشرة من التاريخ في عمليات ترحيل جماعية كبرى، أما يهوذا التي كانت أصغر وأبعد قليلاً عن طرق الدول الكبرى فقد استمرت قرنًا آخر.

إسرائيل ويهوذا

حوالى عام ١٠١٠ ق.م	شاول يُنصَّب ملكًا على إسرائيل، ولكنه يهزم –بعد ذلك– على يد الفلسطينيين.
حوالى عام ١٠٠٦–٩٦٠	حكم داود؛ توحيد يهوذا وإسرائيل؛ هزيمة الفلسطينيين؛ أورشليم تصبح العاصمة السياسية والدينية؛ غزو أراضي الكنعانيين.

حوالى عام ٩٦٠-٦٣٥	حكم سليمان؛ الولاية الآرامية تكسب استقلالها عن إسرائيل وإعادة تأسيس المملكة الأدومية؛ إعادة تنظيم المملكة في دولة مركزية؛ إعادة بناء أورشليم.
٩٢٦	إسرائيل تنقسم إلى مملكتين، جنوبية (مملكة إسرائيل) وشمالية (يهوذا).

إسرائيل

٨٧٨-٨٧١	حكم عُمري؛ عودة النظام بعد مرحلة من الصراع الداخلي؛ السامرة تصبح عاصمة إسرائيل.
٨٧١-٨٥٢	حكم أحاب؛ زواجه من إيزابل الفينيقية؛ إدخال عبادة بَعل؛ مقاومة يقودها النبي إيليا.
٨٤٥-٨١٧	إيليا يُنصِّب ياهو ملكًا؛ قمع الثقافة والديانة الفينيقيتين؛ ضغوط من أشور.
٧٢٢	الأشوريون يدمِّرون السامرة بعد حصار استمر ثلاث سنوات ويضمون إسرائيل؛ عمليات ترحيل جماعية.

يهوذا

٨٤٥-٨٣٩	حكم أتاليا؛ القضاء على أحفاد عُمري وداود؛ إدخال عبادة بَعل.
٧٢٥-٦٩٧	حكم حزقيا؛ محاولات فاشلة للتخلص من النفوذ الأشوري.
٥٨٧	نبوخذنصر الثاني يدمر أورشليم ويتلو ذلك عمليات الترحيل الجماعية.

العصر الأخير لإمبراطورية بلاد الرافدين

لقد دخلت تقاليد حضارة بلاد ما بين النهرين آخر عصور ازدهارها في القرن الثامن؛ وكانت مدينة نينوى الواقعة على القسم العلوي من نهر دجلة قد حلت محل عاصمة أشور القديمة وصارت مركزًا سياسيًا مثلما كانت بابل من قبلها. واستطاعت الإمبراطورية الأشورية الجديدة أن تعيد النظام من بعد الاضطراب الكبير الذي حل إثر انهيار سلطة الحثيين. ويحدثنا العهد القديم عن هجوم الجيوش الأشورية على الممالك السورية واليهودية المرة تلو المرة إلى أن غزتها، وقد عانى الخاسرون الأمرين. ولم تكن الإمبراطورية الأشورية تعتمد على إخضاع الملوك والبلاد، بل كانت تطيح بالحكام المحليين وتضع مكانهم حكامًا أشوريين، وكثيرًا ما كانت تجرف الشعوب أيضًا -مثل أسباط إسرائيل العشرة- في عمليات إبعاد جماعية.

واستولت الجيوش الأشورية على بابل في عام ٧٢٩ ق.م، ثم مالبثت أن قامت بتدمير إسرائيل كما غزت مصر وضمت إليها دلتا النيل. وكانت قبرص عندئذ قد استسلمت لحكم الأشوريين، وكان هؤلاء قد غزوا سيليزيا(*) وسورية أيضًا. وأخيرًا في عام ٦٤٦ ق.م حصل آخر غزو هام، وهو غزو جزء من أرض عيلام(**)، وأُكره ملوكها على جر عربة الفاتح الأشوري عبر شوارع نينوى. وهكذا صار هناك، الآن، نظام موحد من الحكم والقانون يتخلل أكثر الشرق الأدنى، ووهنت الإقليمية بفعل تقدّم الجيوش وترحيل الشعوب ضمنه، وانتشرت

(*) منطقة في جنوب غربي بولندا.

(**) في إقليم خوزستان بغرب إيران.

الآرامية التي كانت منذ زمن طويل لغة التفاهم في سورية وبلاد الرافدين لتصبح لغة مشتركة للشرق الأدنى.

إن هناك صروحًا لا تنكر عظمتها تشهد على القوة الخلاقة للإمبراطورية الأشورية، فقد بني قصر كبير عند نهاية القرن الثامن في خُرساباد قرب نينوى تبلغ مساحته أكثر من نصف ميل مربع -نحو كيلومتر مربع- وتزيِّنه نقوش بارزة تمتد على مسافة تزيد عن الميل -١,٥ كم- وكانت غنائم الغزو تموِّل بلاطًا غنيًا وبديعًا. كما خلف أشوربانيبال -٦٦٨-٦٢٦ ق.م- صروحه الخاصة -منها مسلات نقلت من طيبة إلى نينوى- ومجموعة كبيرة من الرقم التي صنعت من أجل مكتبته، لأنه كان رجلاً يحب الثقافة والآثار القديمة. وقد جمع نسخًا من كل ما وجده من سجلات بلاد الرافدين القديمة، وإليه ندين بجزء كبير من معرفتنا بأدب تلك البلاد، وهذا ما يمكِّننا من الولوج إلى الأفكار التي حرَّكت هذه الحضارة بسهولة أكبر من سابقاتها. كان التصوير المتكرر للملوك الأشوريين بشكل صيادين جزءًا تقليديًا من صورة الملك المحارب، وربما، كان أيضًا محاولة مقصودة لإظهارهم أبطالاً مثل الأبطال الأسطوريين الذين قهروا الطبيعة في الماضي السومري السحيق. إلا أن النقوش الحجرية البارزة التي تُخلِّد المآثر العظيمة للملوك الأشوريين تكرر أيضًا بصورة رتيبة قصة أخرى، هي قصة النهب والاستعباد والإعدام على الخازوق والتعذيب، وأخيرًا الحل النهائي المتمثل بالترحيل الجماعي. لقد كانت الإمبراطورية الأشورية ترتكز على أساس من الوحشية، وكان جيشها يجند تجنيدًا إلزاميًا ومسلحًا بأسلحة حديدية، وكان قوة متماسكة مؤلفة من وحدات منسَّقة، فيما بينها، وفيه سلاح حصار قادر على اختراق الأسوار التي كانت منيعة من قبله، بل كان فيه أيضًا بعض

الخيالة المدرعين. وربما كانت فيه حمّية دينية خاصة، لأنك ترى الإله أشور يُحلّق فوق الجيوش وهي ذاهبة إلى المعركة، وإليه كان الملوك يروون انتصاراهم على الكفرة.

إلا أن هذه الإمبراطورية الأشورية الأخيرة سرعان ما انكسفت، ولعلها ألقت على كاهل أبنائها حملاً تنوء به طاقة البشر. لقد راحت تنهار منذ العام الذي تلا موت أشوربانيبال، فثار البابليون وساندهم الكلدانيون فضلاً عن جار جديد هو مملكة الميديين، التي كان دخولها مسرح التاريخ علامة على تغير هام. كان الميديون منشغلين لزمن طويل بشعب بربري آخر من الشمال هو الشعب السقيتي الذي تدَّفق إلى إيران من القوقاس -كما تدَّفق في الوقت نفسه على طول ساحل البحر الأسود نحو أوربا- كان السقيتيون خيالة خفاف الحركة يقاتلون بالقوس من على ظهور الخيل، ويعتبر ظهورهم بمثابة إعلان عن نشوء قوة جديدة في تاريخ العالم، هي الشعوب البدوية القادمة من آسيا الوسطى. لقد دفع السقيتيون شعوبًا أخرى أمامهم بينما كانت آخر الوحدات السياسية المبنيَّة على السكان القوقاسيين الأصليين في الشرق الأدنى تنهار أمامهم وأمام الميديين والأشوريين، وعندما ضم السقيتيون والميديون قواهم تمكّنوا من التغلُّب على أشور أيضًا، فزالت من التاريخ ونهب الميديون نينوى في عام ٦١٢ ق.م.

الإمبراطورية البابلية الأخيرة

بيد أن تلك العاصفة الكاسحة لم تكن نهاية تقاليد بلاد الرافدين بعد. لقد ترك انهيار أشور الهلال الخصيب عرضة لغزاة جدد، ففي الشمال اندفع الميديون عبر الأناضول إلى أن صُدوا عند حدود ليديا(*)، ودفعوا السقيتيين إلى وطنهم في روسيا.

(*) بلد قديمة في غرب آسية الصغرى (تركيا الحالية) على بحر إيجة.

واستولى أحد فراعنة مصر على الجنوب وساحل بلاد الشام ولكنه هزم على يد الملك البابلي نَبوخَذنَصَّر، الذي منح حضارة بلاد الرافدين ربيعها الأخير من المجد القصير. كانت إمبراطورية نبوخذنصر آخر إمبراطورية بابلية، وكانت تمتد من السويس والبحر الأحمر وسورية عبر بلاد الرافدين حتى مملكة عيلام القديمة -التي صارت تحكمها الآن سلالة هندية أوربية ثانوية تدعى السلالة الأخمينية- وتكفي فتوحات نبوخذنصر لكي تخلد ذكراه كفاتح عظيم، فقد خرب أورشليم في عام ٥٨٧ ق.م إثر ثورة يهودية ودمر المعبد من جديد، وأُخذ سبطا يهوذا إلى الأسر في ثلاث عمليات ترحيل كبرى، ففُرض عليهم السبي، وهو تجربة ساهمت مساهمة كبيرة في صياغة هويتهم، بحيث صار بإمكاننا أن نسميهم من بعدها «يهودًا»، لأنهم أضحوا ورثة وحملة تقاليد قومية يسهل اقتفاء أثرها منذ ذلك الحين. وقد ساهم يهود السبي في تجميل عاصمة نبوخذنصر، التي بقيت «حدائقها المعلقة» أو سطوحها في ذاكرة الأجيال واحدة من عجائب الدنيا السبع، وكان نبوخذنصر بلا ريب أعظم ملك في زمانه.

كانت آلهة الإمبراطورية البابلية تتركز كل عام في عبادة مردوك، التي بلغت الآن ذروتها. فقد كان يقام احتفال كبير برأس السنة تُحضَّر فيه جميع آلهة بلاد الرافدين - الأصنام والتماثيل الموجودة في مقامات الولايات كلها - عبر الأنهار والأقنية لكي تتشاور مع مردوك في معبده وتعترف له بسيادته. وكانت تحمل في موكب كبير بشارع يبلغ طوله ثلاثة أرباع الميل (١ كم) -قيل إنه كان أفخم الشوارع في العالم القديم- أو ترسو من الفرات قريبًا من المعبد حيث تحمل إلى حضرة تمثال الإله مردوك، الذي قال عنه المؤرخ الإغريقي هيرودوتُس بعد قرنين إنه كان مصنوعًا من طنين وربع الطن من الذهب. ولا ريب أنه يبالغ ولكنه كان

بالتأكيد تمثالاً بديعًا. كانت الآلهة تتداول مصائر العالم كله الذي كان مركزه هذا المعبد وترسمها لسنة أخرى. وعلى هذه الصورة كانت الثيولوجيا انعكاسًا لحقيقة سياسية، لأن إعادة تمثيل دراما الخلق كانت مصادقة على سلطة مردوك الأبدية وملكية بابل المطلقة، وكان الملك يحمل مسؤولية ضمان النظام في العالم فكان بالتالي يتمتَّع بالسلطة اللازمة لذلك.

كانت تلك آخر مراحل ازدهار تقاليد بلاد الرافدين المديدة. لقد ضاعت ولايات على عهد خلفاء نبوخذنصر، ثم حصل غزو في عام ٥٣٩ ق.م عن يد فاتحين جدد من الشرق يسمون الفرس، فكان الانتقال من العظمة والأبهة إلى الذل والخراب انتقالاً سريعًا، يوجزه سفر دانيال من العهد القديم في مشهد ختامي رائع هو وليمة بَلَشَصَّر(*) – وهي رواية لم تكتب إلا بعد ذلك بنحو ثلاثمئة عام كما أنها مغلوطة في حقائق هامة(**). إلا أن وراء نبرتها المشدَّدة حقيقة درامية ونفسية جوهرية. فإذا كان لقصة العصور القديمة نقطة تحول فإنما هي هذه النقطة، إذ زالت تقاليد بلاد الرافدين المستقلة التي تعود إلى أيام سومر، وأمسينا على عتبة عالم جديد(***).

(*) «وفي تلك الليلة، قُتل بَلَشَصَّر، ملك الكلدانيين. وأخذ المُلك داريوسُ الميدي» (سفر دانيال ٥/٣٠-٣١)

(**) يشرح المؤلف في كتابه الأكبر أن بلشصر لم يكن ابن نبوخذنصر ولا خليفته، وأن الملك الذي أخذ بابل كان قورش.

(***) يقتبس المؤلف أيضًا في الكتاب الأكبر: "أقعدي صامتة وادخلي في الظلام، يا بنت الكلدانيين، فإنك لا تُدعين سيدة الممالك من بعد». أشعيا ٤٧/٥

بزوغ فارس

بحلول منتصف الألف الأولى ق.م تكون قطعت أكثر من نصف قصة الحضارة -من ناحية الطول الزمني-. كان العالم القديم المؤلف من حضارات متميزة جدًا قد أفسح المجال لعالم جديد صارت فيه رقعة أكبر فأكبر من هذه المنطقة تشترك بحكومات مديدة وتقنية وديانة منظمة وحياة مدن - وراحت تتغير بصورة متسارعة مع زيادة تفاعل التقاليد المختلفة فيها. وتظهر التغيِّرات في الأشياء الصغيرة كما تظهر في الكبيرة، ففي القرن السادس حفر مرتزقة إغريق في الجيش المصري نقوشًا على أرجل التماثيل العملاقة في أبي سنبل التي تبعد أكثر من ١٠٠٠ كم على القسم العلوي من النيل -مثلما حفر جنود إنكليز شعاراتهم وأسماءهم في صخور ممر خَيبَر بعد ذلك بألفين وخمسمئة سنة- وكانت أنماط الشرق الأدنى المتميزة -فيما مضى- قد اختلطت تمامًا بسبب الاندفاع العسكري والاقتصادي لأهل بلاد الرافدين وخلفائهم، وبسبب هجرات الهنود الأوربيين، وقدوم الحديد وانتشار الكتابة. وكانت أعظم اضطرابات هجرات الشعوب القديمة قد ولّت عندما بزغ الشرق الأدنى من أواخر عصر البرونـــز، وسوف تكون البنى السياسية التي تركوها هي محركة الأحداث في المرحلة التالية من تاريخ العالم.

لقد ولى زمان بعض الشعوب، ومنها شعب مصر، التي مرت بعد عام ١٠٠٠ ق.م بانحسار يدل على عجزها عن التغير والتأقلم. كانت نجاتها من أولى هجمات الشعوب التي تستخدم الحديد وطرد شعوب البحر آخر انتصارات المملكة الحديثة، ومن بعدها صارت العلامات كلها تدل على التقهقر والتراجع، ففي الداخل راح الملوك والكهنة يتنازعون على السلطة، وفي الخارج لم تعد سيادتها إلا وهمًا. لقد مرت بمرحلة من تنافس السلالات، ثم تلتها فترة قصيرة من الوحدة سمحت بوصول جيشها إلى فلسطين من جديد، ولكن عند نهاية القرن الثامن كانت

سلالة من الغزاة الكوشيين قد رسخت قدميها فيها. ثم طرد الأشوريون تلك السلالة من مصر السفلى في عامّ ٦٧١ ق.م، ونهب أشور بانيبال مدينة طيبة، وعند انحسار قوة الأشوريين عادت لمصر مرحلة وهمية ثانية من «الاستقلال». في ذلك الحين كان قد ظهر عالم جديد اضطرت مصر أن تتنازل له تنازلات أوسع من الصعيد السياسي، ويدل على هذا تأسيس مدرسة للمترجمين الإغريق ومستوطنة إغريقية للتجارة ذات صلاحيات خاصة في الدلتا. بعد ذلك هزمت مصر من جديد في القرن السادس على يد نبوخذ نصر أولاً (٥٨٨ ق.م)، وبعدها بستين سنة (٥٢٥ ق.م) على يد الفرس، وظلت منذ القرن الرابع ق.م حتى القرن العشرين الميلادي تحت حكم أجانب أو سلالات مهاجرة، وزالت من واجهة التاريخ.

يعرف الحاكم الذي أطاح ببابل ومصر معًا باسم قورش ملك فارس. ولا تظهر كلمة «إيران» حتى عام ٦٠٠ ميلادي تقريبًا، وهي تعني بأقدم أشكالها «أرض الآريين»، ويبدأ تاريخ فارس قبل هذا بقرون قليلة عندما اندفعت إليها قبائل آرية آتية من الشمال. من بين الوافدين الجدد كانت هناك قبيلتان تتميزان بالقوة والبأس، هما الميديون والفرس، فقد تقدم الميديون نحو الغرب والشمال الغربي إلى ميديا، بينما كان الفرس قد تحركوا جنوبًا نحو الخليج وثبتوا أقدامهم على طرف وادي دجلة وفي أرض عيلام القديمة، وأُطلق على مملكتهم الحديثة اسم قديم هو فارس.

الأباطرة الأخمينيون

كان قورش متحدِّرًا من أسرة تسمى الأسرة الأخمينيَّة، وهو أول رجل فارسي بقي في ذاكرة الأجيال كشخصيَّة تاريخيَّة عالميَّة اعترف بمكانتها الفاتحون

الآخرون الذين سعوا للتشبُّه به في القرون القليلة التالية. في عام ٥٤٩ ق.م قهر قورش آخر ملوك الميديين المستقلين، فتمكَّن من صنع مملكة موحدة- ومنذ ذلك الحين- راحت حدود الغزو تمتد إلى أن شملت أكبر إمبراطورية عُرفت حتى ذلك الزمان. ولم يصعب على قورش أن يثبت حدوده إلا في الشرق -حيث عبر جبال هندوكوش وقُتل أخيرًا وهو يحارب السقيتيين- ويدين نجاحه بالكثير لغنى مملكته بالمعادن، خاصة بالحديد، كما أن المراعي العالية للوديان كانت تحوي مؤونة وافرة من الخيل والخيَّالة. وكانت حكومته مختلفة الأسلوب عن سابقاتها، فلم يعد الفن الرسمي يعبر عن الافتخار بالأعمال الوحشيَّة، بل كان قورش حريصًا على مراضاة رعاياه الجدد. ونجد بعض الأمور التي تدل على رغبته في مصالحتهم، فقد حاول التعويض عن استيلائه على مَلَكية بابل بالتضرُّع لحماية الإله مردوك، كما أنه استهل بناء المعبد في أورشليم للمرة الثالثة. ولم يطلب من حكام الولايات إلا جباية الجزية التي كانت تغذِّي خزانة فارس. وكانت ثمرة هذا كله إمبراطورية متنوِّعة ولكنها قويَّة.

ورغم أن هذه الإمبراطورية قد مرت بانتكاسات كثيرة فإنها ظلَّت -طوال قرنين تقريبًا- إطارًا للشرق الأدنى، الذي استمرَّ السلام فيه فترات طويلة لم يعهدها منذ زمن بعيد. وقد قام ابن قورش بضم مصر إلى الإمبراطورية. ولكن ظهر رجل ادعى الحق بالعرش وشجعت مساعيه الميديين والبابليين على محاولة استعادة استقلالهم، ومات ابن قورش قبل أن يتمكن من معالجة أمره. وكان الرجل الذي أحيى ميراث قورش شابًا ادعى أنه هو أيضًا من سلالة الأخمينيين، ألا وهو داريوس.

لقد حكم داريوس بين عامي ٥٢٢-٤٨٦، ولم يحقق كل ما كان يصبو إليه، إلا أنه زاد الإمبراطورية اتساعًا على اتساع. لقد عجز، مثلما عجز قورش من قبله، عن إحراز تقدم ضد السقيتيين، ولكن أعماله ضاهت أعمال قورش العظيم نفسه. وقد نقش على الصرح الذي يخلد انتصاراته على المتمردين كتابة تقول: «أنا داريوس الملك العظيم، ملك الملوك، ملك فارس»، وهو تكْرار للقب أخميني متكبِّر قديم تبناه داريوس. وازداد انتقال السلطة من المركز إلى الولايات مع تقسيم الإمبراطورية إلى عشرين ولاية، يحكم كلاً منها حاكم يسمى «مَرْزُبانًا» يكون أميرًا من العائلة المالكة أو من كبار النبلاء. وكان هناك مفتشون ملكيون يراقبون عملهم وأمانة سر ملكية تراسلهم. وصارت الآرامية لغة الإدارة. كان الحكم يعتمد على اتصالات لم يُعرف خير منها -فيما مضى- وقد بنيت طرق كان بالإمكان نقل الرسائل عبرها بسرعة ٢٥٠ كم في اليوم أحيانًا.

لقد وضع داريوس مخطط عاصمة جديدة كبيرة في برسيبوليس حيث دفن في النهاية، وكان الغرض منها تقديم التمجيد العظيم للملك، وقد عكست تنوع الإمبراطورية وعالميتها. كانت العمالقة الأشورية والثيران والأسود ذوات الرؤوس البشرية تحرس بوابات برسيبوليس مثلما حرست بوابات نينوى من قبلها. أما عواميدها التزيينية فهي اختراع مصري أخذته فارس عن طريق الحجارين والنحاتين الإيونيين، كما تجد تفاصيل إغريقية في النقوش البارزة وفي الزينة. وتجد مزيجًا مماثلاً من الملامح الأجنبية في المدافن الملكية القريبة التي تذكر بوادي الملوك في مصر. كانت الحضارة الفارسية منفتحة دومًا على التأثيرات الخارجية، وقد امتزجت

الديانتان الڤيدية والفارسية في قندهار Gandhara(*) وكلتاهما ديانة آرية. كان جوهر الديانة الفارسية هو القرابين وكان محورها النار؛ وفي عصر داريوس كانت أكثر عباداتها الرسمية تقدّماً قد تطورت إلى ما سمي بالزرادشتية، التي انتشرت بسرعة في غرب آسيا مع انتشار الحكم الفارسي. ولم تكن الزرادشتية على الأرجح إلا ديانة أقلية، ولكنها سوف تؤثر في كل من اليهودية وعبادات الأسرار التي تشكل جزءًا كبيرًا من البيئة التي نشأت فيها المسيحية، فالملائكة في التقاليد المسيحية ونار جهنم التي تنتظر الأشرار قد أتت كلها من زرادشت مؤسس هذه الديانة. إلا أننا في الحقيقة لا نعرف عنه الكثير، سوى أنه كان يعلّم أن الأرض مكان صراع أبدي بين إله خيّر هو إله النور وروح شريرة هي روح الظلام. وتوجد نصوص الزرادشتية المقدَّسة في مجموعة تسمى الأڤيستا أو الزند أڤيستا، ومازالت تستخدمها الجماعة البارسية the Parsee community في الهند -والتي يشتق اسمها من نفس الكلمة التي يشتق منها اسم فارس Persia.

لقد ضمت فارس بسرعة عددًا أكبر من الشعوب في تجربة مشتركة، وللمرة الأولى صار الهنود والميديون والبابليون والليديون والإغريق واليهود والفينيقيون والمصريون تحت حكم إمبراطورية واحدة، وكان المرتزقة الهنود يقاتلون في الجيوش الفارسية مثلما قاتل المرتزقة الإغريق في جيوش مصر من قبل. وكان الناس يعيشون في مدن في كافة أنحاء الشرق الأدنى وحول قسم كبير من البحر المتوسط، ويشتركون بمعرفة الكتابة التي صارت تدوَّن -الآن- بأبجديات كثيرة. أما التقنيات الزراعية والتعدينية فقد امتدت أبعد من هذا، فنقل الأخمينيون مهارات الري من

(*) الاسم القديم لقندهار Kandahar.

بابل إلى آسيا الوسطى، كما جلبوا الأرُز من الهند ليزرعوه في الشرق الأدنى. وعندما تبنى الإغريق الآسيويون عملة نقدية كانت مبنيَّة على الترقيم الستّيني البابلي. وضمن هذا التنوع الغني تستطيع تمييز بدايات الحضارة العالمية المقبلة، وقد آن الأوان للحديث عن الذين رسموا أسسها، ألا وهم الإغريق.

عالم البحر المتوسط

طوال ألف سنة بعد عام ٥٠٠ ق.م كانت البلاد المحيطة بشرق البحر المتوسط - بما فيها ساحله الشرقي وسورية وأوربا حتى نهري الراين والدانوب وسواحل البحر الأسود - محور قصة هامة. ولم تكن هذه البلاد معزولة قط عما يجري خارجها، بل كانت أكثر وعيًا له من أي زمن مضى. كانت الأفكار والمعرفة والعادات والشعوب التي تحمل هذه الأشياء كلها تتدفق من الشمال والشرق وتغير الحياة في المنطقة تغييرًا عظيمًا بمرور الزمن، وكانت شعوب المنطقة تعالج هذه القوى التي تضغط عليها من الخارج وترحب بها أحيانًا، إلى أن صنعت منها في النهاية شيئًا جديدًا كل الجدة، وهذا ما ينقل بؤرة تاريخ العالم من الهلال الخصيب إلى الغرب. لقد وضعت شعوب البحر المتوسط وبحر إيجة حضارة راسخة خاصة بها، وساهمت شعوب ثلاثة المساهمة الأكبر في هوية تلك الحضارة التي تطورت على مدى ألف سنة، وهذه الشعوب هي الإغريق والرومان واليهود. كانت أولى الخطوات الحاسمة في تأسيس تلك الهويَّة من صنع الإغريق بين عامي ٧٠٠ و ٣٥٠ ق.م، ففي تلك الحقبة تشكّلت أمور كثيرة مازلنا نألفها، وسوف تساهم في تشكيل تاريخ أوربا اللاحق قبل أن تبدأ تأثيرات الرومان واليهود.

كان الإغريق يستعملون كلمة «أوربا»، ولكن معناها عندهم كان مختلفًا كل الاختلاف عن معناها لدينا اليوم، لأن عالمهم كان حوض البحر المتوسط وليس البر الكبير القابع في الشمال، والحقيقة أن المتوسط كان في الأزمنة القديمة منكفئًا على ذاته إلى حد كبير. فخلف سواحله كلها -تقريبًا- ترتفع هضاب وجبال عالية، ولا تجد سهولاً واسعة تمتد نحو الداخل إلا في ليبيا ومصر، وأكثرها الآن صحارى ولو أنها لم تكن دومًا على هذه الصورة. أما في المناطق الأخرى فلا يفصل بين المرتفعات والبحر إلا سهول ساحلية ضيِّقة. ويتغذى البحر الأسود بالأنهار الكبرى الآتية من وديان روسيا والبلقان، ويصب مياهه في البحر المتوسط. والطرف الشمالي للبحر الأسود مؤلف من سهول شاسعة، أما سواحله الشرقية والجنوبية فهي جبلية. ولا تصب في المتوسط إلا ثلاثة أنهار هامة، وهي تؤمِّن الوصول إلى الأقسام الداخلية من البلاد المحيطة به. فالنيل هو أطولها، وهو يمتد ألف كيلومتر نحو الداخل قبل أن يصل إلى الشلال الأول. أما نهر الرُّون فهو يجري في وسط فرنسا ويصرّف مياه جبال الألب الغربية. وينبع نهر الإبرو على بعد ٦٠ أو ٧٠ كيلومترًا فقط من ساحل إسبانيا الشمالي على المحيط الأطلسي قبل أن يشق طريقه إلى المتوسط عبر وادي أراغون العريض. أما النهر الآخر الكبير الذي يهمنا فهو نهر البو في شمال إيطاليا والذي يصب في بحر الأدرياتيك.

وأما من ناحية المناخ فإن بلاد المتوسط في الغالب بلاد دافئة -ولكنها ليست شديدة الحر- وتحظى بقدر معقول من المطر على سلاسل هضابها وجبالها. وقد كانت سواحلها أكثر خضرة بكثير -منذ ٢٥٠٠ عام- لأن أكثر الأشجار والنباتات التي كانت تغطي الهضاب قد زالت بسبب الرعي المستمر، فأدَّى ذلك إلى انجراف سطح التربة. إن غابات لبنان ما تزال مثل الأساطير، كما أن الزراعة في شمال

أفريقيا كانت تمتد إلى مسافة أكبر نحو الداخل وتمنع تقدُّم الصحراء التي كانت أبعد عن الساحل مما هي عليه اليوم.

كان الناس حول البحر المتوسط يُحصِّلون معيشتهم بطرق متشابهة جدًا. فالذين يعيشون على السواحل كانوا يصطادون السمك من المياه الغنية به، وفي السهول الضيقة كانوا يزرعون القمح والشعير، وعلى المرتفعات الأعلى كانوا يزرعون الكرمة والزيتون، وعلى الهضاب كانوا يرعون الغنم والماعز. وكانوا يمضون وقتًا طويلاً في الهواء الطلق لأن المناخ لا يكون شديد البرودة إلا شتاء في الجبال. فكانت هذه الأشياء كلها تجمع شعوب المتوسط إذًا، كما كان البحر يزيدهم ارتباطًا بعضهم ببعض مع مرور الزمن. وقد بقي السفر عبر الماء أسهل منه على البر حتى العصور الحديثة، وكان هناك نشاط تجاري بحري واسع ولمسافات بعيدة في عام ٥٠٠ ق.م. وعندما يظهر شيء جديد في أي جزء من المتوسط فإنه كان ينتشر فيه بصورة أسهل وأسرع منه في إمبراطوريات الشرق البعيدة عن البحار. ويصح هذا الأمر بالأخص على حوض بحر إيجة، وهو البحر الواقع بين كريت واليونان وتركيا. إن طبغرافية هذه المنطقة ومناخها متوسطيان، ولكن لها مع ذلك عددًا من الملامح المميزة لها. فالسهول الساحلية وقيعان الوديان على البر الرئيسي أصغر منها في الغرب، والساحل أكثر توعُّرًا بالصخور والأجراف وأكثر تثلمًا بالموانئ والملاجئ. وتجد في بحر إيجة المئات من الجزر بعضها ليست إلا صخورًا لا تصلح لزراعة شيء وبعضها الآخر خصبة جدًا. وليست هذه المنطقة كبيرة، فهي تبلغ حوالى ٦٠٠

كيلومتر من ساحل تراقيا(*) إلى كريت، و٢٥٠ كيلومترًا فقط من طروادة(**) إلى أقرب سواحل بر اليونان. ويكون البحر هائجًا في العادة، كما أن الرياح القوية قد جعلت الإبحار عملية شاقة إلا من خلال طرق معينة، وكان الناس منذ الأزمنة المينوية يبحرون في بحر إيجة متنقلين بثقة من مكان إلى آخر بعد أن فهموا طبائعه، وهذا ما شجع التجارة.

منذ الأزمنة المينوية كانت أفكار ومهارات بلاد الحضارة القديمة - أي بلاد الرافدين وسورية ومصر - قد انتقلت إلى سكان جزر بحر إيجة وسواحله. وربما انتشرت الزراعة أيضًا في زمن أبكر من ساحل بلاد الشام إلى تلك الجزر ومنها إلى مقدونيا. وكان انتقال تأثير الشرق الأدنى من خلال مرافئ بلاد الشام ودلتا النيل إلى بحر إيجة أسهل بكثير منه إلى الهند وآسيا الوسطى والصين، التي كانت تفصلها عنه حواجز طبيعية ومسافات بعيدة. كما أن طبيعة الأرض تفسر لماذا كان اتصال شعوب بحر إيجة المباشر بأوروبا الغربية قليلاً، ولو أن أوروبا قد قدَّمت المعادن وغيرها من المواد الأولية إلى بلاد الشرق الأدنى الغنيَّة من خلال الفينيقيين.

اليونان

يتكوَّن الجدار الغربي لبحر إيجة من بر اليونان، وخلف ساحله الصخري المثلم الممتد في غير انتظام تقع أرض تنقسم إلى ثلاثة أجزاء جغرافية طبيعية. فالجنوب

(*) منطقة قديمة في جنوب شرقي أوروبا. هي اليوم قسمان: غربي يتبع اليونان، وشرقي يكون القطاع الأوروبي من تركيا بين المضايق وبحر مرمرة، أهم مدنه استانبول على البوسفور والقرن الذهبي - المنجد في الأعلام.

(**) أو إليون: مدينة قديمة في غرب تركيا.

مكوّن من شبه جزيرة كبيرة تسمى البيلوبونيز؛ وهي تكاد أن تكون جزيرة إذ لا يربطها إلا عنق ضيق جدًا -هو برزخ كورنثُس- بشبه جزيرة أخرى أكبر منها تمتد بشكل نتوء من جنوب شرق أوربا. ويسمى الطرف الجنوبي لهذه الأخيرة سهل الأتيك، الذي يمتد شمالاً حتى مرتفعات تساليا. وأخيرًا هناك المنطقة الجبلية الواقعة في أقصى الشمال، أي مقدونيا. وقد جعلت هذه الجغرافية اليونان بلدًا عصيًا على الغزو عن طريق البر إلا من خلال طرق قليلة محدَّدة، وكان الهجوم عليها أسهل عن طريق البحر.

لقد بزغ من يونان عصر الظلام نوع جديد من حياة المدن شكّلته طبغرافيتها المقسَّمة. وسوف تساهم بعض المدن الإغريقية مساهمة خاصة في المستقبل، لذلك فهي تستحق أن نتمهل عندها قليلاً ولو استبقنا أحداث قصتنا. في أيامها الباكرة كانت تلك المدن في العادة تحت حكم ملوك، وسوف يظل بعضها يطلق على حكّامه هذا اللقب في أزمنة قادمة. ولكن منذ أن تبدأ السجلات التاريخية بالتوافر فإنك تجد أنها كانت في القرن السابع تحت حكم «أرستقراطيين» - وهي كلمة يونانية تعني «خير الناس». كان الأرستقراطيون أصحاب أراض وكانوا على درجة من الغنى تسمح لهم بشراء الأسلحة والدروع والخيول الغالية الثمن التي جعلتهم قادة في الحرب. وكانوا في البداية يحكمون الإغريق الآخرين، وسوادُهم من الفلاحين، لأن الزراعة كانت دومًا وسيلة الرجال الأحرار لتحصيل معيشتهم في العالم الإغريقي.

كانت المجتمعات الإغريقية البسيطة الباكرة قد بدأت تصبح أكثر تعقيدًا بحلول عام ٦٠٠ ق.م. وكان يعيش في بعضها أجانب يعملون في الحرف اليدوية والتجارة، ولكنهم لا يتمتعون بنفس حقوق السكان الذين ولدوا هناك. ويدل

وجود هؤلاء الأجانب المقيمين metics ونشاطاتهم على حدوث نمو سريع في التجارة. ولما كان المال أوفر من السابق فقد صار بعض الناس أغنياء. ومن العلامات الدالة على ذلك زيادة استخدام العملة المعدنية في العالم الإغريقي، كما بدأ الأفراد والجماعات يختصون بأنواع مختلفة من التجارة والمصنوعات - فكانت أثينا مثلاً مختصة بصناعة الخزف.

مع ازدياد الثروة حصلت أعداد أكبر من الناس على الأرض، كما صاروا قادرين على دفع ثمن الأسلحة والدروع. وفي القرن السابع ق.م ظهر نوع جديد من المحاربين كان الإغريق يسمونهم «الهَبْليت». كان الهبليت مشاة يرتدون الخوذات والدروع البرونـــزية التي تغطي الجسد ويحملون التروس والرماح. وقد تغيَّرت طبيعة الحرب في اليونان بواسطتهم تغيُّرًا سريعًا، لأن المعارك كانت في السابق عبارة عن قتال فردي بين الأشخاص القلائل القادرين على دفع ثمن الأسلحة والدروع، وهذا ما جعلهم أعتى بكثير من المقاتلين الذين يتبعونهم إلى ساحة المعركة. أما الآن فقد صار النصر في المعارك من نصيب تكتلات الهبليت المنظمة. كان الهبليت يحافظون على تشكيل دقيق، يكون كل رجل فيه محميّاً من جانبه الأيمن بترس جاره. وكانت المعارك في اليونان تجري عادة في قيعان سهول صغيرة -لأن الهدف هو إما تدمير المحاصيل المزروعة هناك أو الدفاع عنها- وفي هذا النوع من الأرض يكاد تشكيل الهبليت أن يكون منيعًا على الهزيمة إذا عرف أن يهاجم هدفه ككتلة واحدة ويحافظ على تماسك صفوفه. وقد ازدادت أعداد الرجال ذوي الخبرة العسكرية، وصار الانضباط والتدريب هما اللذان يكسبان المعارك. وبذلك راحت السلطة تنفلت من أيدي الأرستقراطيات القديمة، ولم يعودوا وحدهم المسيطرين

على القوة المسلَّحة. إن هذا التغيُّر الهام قد نشأت عنه السياسة، وهي واحد من ابتكارات الإغريق العظيمة.

دولة المدينة

إن كلمة سياسة politics هي كلمة مألوفة نسمعها ونستعملها من دون أن نفكِّر كثيرًا بمعناها. ولكن إذا أردنا تعريفها فيمكننا أن نقول بشكل تقريبي إنها «طريقة في إدارة الشؤون العامة عن طريق اتخاذ القرارات بشأنها من بعد مناقشة عامة لمناحي العمل المختلفة الممكنة». وقد يبدو هذا الكلام مجردًا، ولكن الحقيقة أن هناك فرقًا كبيرًا بين هذا الأسلوب العام وبين ما ينتج عن الإرادة التعسفيَّة للحاكم، وكان الإغريق يعون هذا الفرق تمامًا عندما ينظرون إلى بلاد فارس أو مصر. إن كلمة سياسة politics هي بالأصل كلمة يونانية، وهي مشتقة من الكلمة التي كانوا يطلقونها على الدولة أو المدينة المستقلة polis. ولا تدل هذه الكلمة على المكان فقط، فالإغريق لم يكونوا يقولون «أثينا» فعلت كذا أو «طيبة» فعلت كذا، بل كانوا يتحدثون عن «الأثينيين» و«الطيبيين». ونسمي الـ polis هنا «دولة المدينة»، ولكنها كما قلنا ليست مجرد تجمُّع للناس الذين يعيشون في مكان واحد، كما أنها بالتأكيد أوسع بكثير من مفهوم «الدولة» الحديث. لقد كانت دولة المدينة جماعة مشتركة، ولم تكن تشمل كل من يعيش في المدينة والريف المحيط بها، بل كانت مكوَّنة من المواطنين، فقط، أي أولئك الذين يأخذون مواقعهم في صفوف الهبليت أثناء الحرب والذين لهم كلمة ولو صغيرة في شؤونهم المشتركة. أما العبيد والأجانب المقيمون والنساء فما كان بإمكانهم أن يكونوا مواطنين. وقد كانت هذه الرابطة أشبه بالانتماء إلى عشيرة منها بمفهومنا الحديث عن المواطنة، والحقيقة أن أبكر المؤسسات الاجتماعية ضمن المدن كانت مبنيَّة على علاقة القربى.

كان المواطنون الأوائل في الدول الإغريقية هم القادرون على دفع ثمن الأسلحة من أجل الالتحاق بصفوف الهبليت والقتال دفاعًا عن تراثهم. ولا بد أن تكون معارك طاحنة كثيرة قد جرت لا نعلم عنها اليوم إلا القليل القليل. في القرن السادس صار رجال جدد يحوزون على حق المواطنة في كل مكان تقريبًا، وكان حكم الأرستقراطيين يزول ليحل محله حكم رجال أقوياء ذوي شعبية - كان الإغريق يسمونهم tyrants(*)، ثم زال هؤلاء بدورهم لتحل محلهم حكومات ذات قاعدة أوسع. إن كلمتي «أوليغرشية» و«ديمقراطية» هما كلمتان أخريان من أصل يوناني مازلنا نستخدمهما؛ فبعض المدن كان يحكمها الميسورون (الأوليغرشيات) وبعضها الآخر أغلبية الرجال الأحرار (الديمقراطيات)، إلا أن انتقال الحكم بالوراثة كان ينحسر في كل مكان تقريبًا.

ولقد بقيت أكثر المدن صغيرة تعيش على مزارع الوديان الصغيرة التي توجد ضمنها عادة. وحتى في الأزمنة اللاحقة لم يكن من المألوف أن يبلغ عدد المواطنين في دولة المدينة ٢٠,٠٠٠، لهذا كان المواطنون يشعرون بقدر من المشاركة الشخصية في الحياة العامة هو أكبر بكثير مما يشعر به مواطنو الدول الحديثة. وكانوا يشاركون بصورة جماعية في أمور أنطناها نحن بمنظّمات خاصة مثل النوادي والكنائس. وكان الإغريقي يسمع في المجالس التي تدير الشؤون العامة آراء أصدقائه وأعدائه ومعارفه في المسائل التي تمسّهم جميعًا. إن هذه الأشياء كلها قد جعلت الحياة في دولة المدينة مجهدة تتطلب الكثير، ولكنها كانت في الوقت نفسه حياة مثيرة. وقد برز بعض الرجال كأول الممثلين لمهنة جديدة هي مهنة السياسة. فكان

(*) تدل هذه التسمية اليوم على المستبد أو الطاغية — المترجم.

أولئك السياسيون يسعون لإقناع مواطنيهم بما ينبغي فعله عن طريق مخاطبتهم في المجلس. وليس من الغريب إذن أن يكون الإغريق قد اعتبروا أن دولة المدينة تعطي الناس الفرصة لكي يحققوا ذواتهم - أي أن يطلقوا كل الطاقة الكامنة في طبيعتهم البشرية - بطريقة لم يوفرها أي نوع من أنواع التنظيمات البشرية الأخرى. كانوا يعتقدون أن المرء يكون متحضِّرًا في دولة المدينة بصورة غير متاحة في أماكن أخرى، وقد قال أحد فلاسفة الإغريق إن الإنسان هو كائن صنعته الطبيعة لكي يعيش في دولة المدينة. وكانت لديهم أيضًا كلمة تدل على من ينسحب إلى اهتماماته الشخصية ولا يرغب بالمشاركة في الشؤون العامة أو لا يهتم بها، هي كلمة idiot(*).

حضارة جديدة

عندما انتعشت التجارة من جديد بعد غزوات الدوريين، أي في حوالى القرن التاسع، راح الرجال يغامرون بالسفر ويعيدون ربط شبكات التجارة القديمة التي مزقها الزمن. وكانوا ينقلون أشياء كثيرة في قدور وجرار تمكننا بقاياها من تتبع هذه العملية. كان تصميم تلك الأوعية وإتقان صنعتها قد تراجعا كثيرًا عند نهاية المرحلة الميقينية، ولكن حتى في نحو عام ١٠٠٠ ق.م كان الخزف يصنع بأسلوب جديد وجذاب جدًا، ربما ابتدأ في أثينا. وكان يزين برسوم بسيطة جدًا ولكنها جميلة ومكونة من أشكال مجردة - مثل الخطوط والدوائر المتَّحدة المركز وشرائط الألوان - ولهذا سميت رسومًا هندسية. ثم تطورت هذه الرسوم الجميلة فأصبحت أكثر تعقيدًا، ولكن لم تظهر فيها الأشكال البشرية حتى القرن الثامن ق.م، أي بعد أن

(*) ومعناها الحديث هو الأحمق.

كان عمرها حوالى ٢٥٠ سنة، وحتى هذه الأشكال البشرية كانت ترسم في البداية بطريقة هندسية ومجرَّدة. وقد كان الخزف علامة على أن الحياة في بحر إيجة تزداد تحضرًا من جديد.

تخبرنا رسوم السفن على مزهريات القرن الثامن القصة نفسها، أي عن وجود عالم إغريقي جديد في بحر إيجة بعد عام ٧٧٦ ق.م بقليل - وهو العام الذي صار الإغريق يعتبرونه بداية لتاريخهم. كان ذاك تاريخ حدث هام هو الألعاب الأولمبية الأولى، التي أخذت اسمها من اسم المكان الذي كانت تعقد فيه - أي أولمبيا الواقعة في غرب اليونان. ويشك العلماء بهذا التاريخ (كما يبدو أنه كان ثمة احتفال أقدم سابق لهذه الألعاب المكونة من الملاكمة والجري والغناء والرقص)، ولكنه يبقى مع ذلك معلمًا جيدًا لبداية تاريخ اليونان. وقد ظلت هذه الألعاب تعقد بشكل منتظم تقريبًا كل أربع سنوات طوال ألف سنة كاملة؛ ومع أنها صارت في حوالى عام ٢٠٠ ق.م استعراضًا للمحترفين يجتذب السواح من الخارج، فإنها كانت في أيامها الأولى مسابقات لفرق الهواة التي تفد إليها من كافة أنحاء اليونان لتمثل مدنها. فكان هذا هو الاحتفال الوحيد الذي يجمع الأثينيين والطيبيين والإسبرطيين وممثلي مدن أخرى كثيرة بصورة منتظمة، وقد ساعدهم بذلك على أن يروا أنفسهم جميعًا كإغريق.

اللغة والهلينية

كان الإغريق يسمون أنفسهم Hellenes -أما كلمة إغريقي Greek فهي مشتقة من اللاتينية، أي لغة الرومان الذين أتوا بعدهم- عند نهاية عصور الظلام كانت جماعات مختلفة عديدة في بحر إيجة تشعر أنها تشترك بأشياء كثيرة بالرغم من

اقتتالها المتكرر فيما بينها. وأهم ما كانت تشترك به هو اللغة. وكانت اللغة اليونانية في القرن الثامن ق.م على وشك التطور بطريقة جديدة. إن أول شكل مكتوب منها قد وجد على رُقُم في كنوسوس وفي القصور الميقينية، ولكنه لم يكن يستخدم إلا في المحاسبة. ولم تكتسب اليونانية شكلها الحالي إلا عندما أخذ الإغريق -ربما من خلال التجارة- اختراع الأبجدية الذي أوجده الفينيقيون وكيفوه لحاجاتهم الخاصة. وإن أول كتابة بالأحرف اليونانية الجديدة وجدت -حتى الآن- هي على إبريق يعود لعام ٧٢٥ ق.م تقريبًا. وعندما صارت اليونانية لغة مكتوبة كان الإغريق قد ساروا خطوة جديدة نحو فكرة أنهم بالرغم من جميع الفروق فيما بينهم يشتركون بأشياء كثيرة. والحقيقة أن شعورهم هذا كان قويًا إلى حد أن الكلمة الدالة على غير الإغريقي لديهم كانت مبنية على فكرة أنه لا يتحدَّث اليونانية: فكانوا يسمونه barbaraphonoi — أي من «يبربر» أو يتكلم كلامًا غير مفهوم. ومازالت كلمة بربري مستخدمة للدلالة على الشخص غير المتحضِّر.

إن تدوين اللغة يثبت أفكارها، وطوال مئات السنين كان الشعراء والقصاصون يكررون روايات وأغاني وأساطير الشعوب التي نشأ منها الإغريق. صحيح أن استظهار الأدب على هذه الصورة يعطيه عمرًا مديدًا، ولكن تفاصيله تتغير رويدًا رويدًا لأن الذين يؤدونه قد يرغبون بإظهار ناحية ما تبدو لهم مناسبة أو إدخال تلميح جديد يجعل أداءهم أقوى أثرًا في مستمعيهم. أما عندما تدون القصص فلا يعود ثمة مجال كبير أمام الأفراد لتغييرها. لقد كانت هناك بالتأكيد مئات من القصص المعروفة عن الآلهة والأبطال في اليونان القديمة قبل أن يمكن تدوين أي منها، إلا أن ثمة مجموعة صارت أهميتها محوريَّة في الثقافة والتربية عند الإغريق، لأن أول أعمال مكتوبة في الأدب الإغريقي قد أخذت منها. تتحدث هذه القصص

والأساطير عن حملة أخائية على طروادة، وهي مدينة في آسيا الصغرى، وتشكل أحداث تلك الحملة خلفية القصيدتين الطويلتين اللتين نسميهما الإلياذة والأوذيسة، واللتين يبلغ طولهما معًا حوالى ٢٨,٠٠٠ بيت شعر، وهما اثنان من أعظم الأعمال الأدبية في العالم. ويأتي اسم الإلياذة من الاسم اليوناني لمدينة طروادة — إليون - التي تخبرنا القصيدة أنها كانت تحت الحصار بينما تسرد لنا أيامًا قليلة من حياة بطل أخائي عظيم هو أخيل. أما القصيدة الثانية فهي على اسم بطلها أوذيسيوس، الذي ذهب إلى طروادة في نفس الحملة الأخائية. وهي تتحدَّث عن ترحاله طوال عشر سنين بعد نهاية الحصار، وعن مغامراته الرائعة وسعة حيلته، ثم عودته أخيرًا إلى وطنه وانتصاره على الذين حاولوا اغتصاب مكانه في غيابه. وتنسب التقاليد هاتين القصيدتين إلى رجل واحد هو شاعر كفيف اسمه هوميرُس، ربما كان يعيش على جزيرة خيو، ولكن هذا الأمر مازال موضوع خلاف، مثل أشياء كثيرة تتعلق بالقصيدتين.

يُرجَّح أن تكون الإلياذة والأوذيسة قد دونتا للمرة الأولى في القرن السابع ق.م. وإذا كان الأمر كذلك فإنهما لم تكونا إلا أحدث نسختين من مواد قديمة جدًا، فيها أفكار ونبذ حقائق من قرون عديدة، مخلوطة فيما بينها من دون أي معرفة بما يناسب كل حقبة تاريخية. وإذا أردت أن تتخيل شيئًا مشابهًا إلى حد ما، فلك أن تتصوَّر قصيدة من القرن العشرين تتحدث عن اكتشاف كولمبُس لأمريكا -مغلوطة ببضعة قرون- يسافر فيها في سفن شراعية، ولكنه يملك مع ذلك مذياعًا، ويقابل سكانًا أصليين يلبسون ويتكلمون ويفكرون مثل الإسبان، ومحبوك فيها فوق هذا كله تفاصيل وذكريات باهتة وبعض من لغة قصيدة بيوُلف(*). وقد سبب هذا

(*) Beowulf .

الخليط اختلافًا كبيرًا بين الباحثين، وحاولوا ربطها بالآثار المكتشفة، ولكن كثيرًا ما تبين أن الواقع كان مختلفًا جدًا عما تصفه القصيدة. فحصار طروادة العظيم مثلاً الذي يستمر عشر سنوات في القصة لم يكن على الأرجح إلا غارة سريعة مثل غارات الفايكنغ قام بها بضع مئات من قطاع الطرق على مستوطنة صغيرة لا يزيد حجمها عن ثلاثة أو أربعة هكتارات. ولكنك بالرغم من هذا تجد ضمن هذا الخليط تفاصيل تلقي ضوءًا على عصور الظلام التي تحدَّرت منها بعض عناصر القصيدتين.

كانت هاتان القصيدتان عند الإغريق بمثابة كتب مقدَّسة، وكانت مكانتهما المحورية تشبه مكانة العهد القديم لدى اليهود. وقد بقي الشعراء المحترفون طوال أجيال يحصِّلون معيشتهم من التنقل وسرد الإلياذة والأوذيسة، وفي الحالات القليلة التي يتلقى فيها الإغريق تعليمًا رسميًا تكون هاتان القصيدتان أساسه. لقد لخص هوميرُس الأمور التي جعلت الإغريق يعتبرون أنفسهم مختلفين، وقصيدتاه هما أول وثيقتين عن وعي الإغريق لذاتهم. فقد كانوا يعتقدون أنهما تضمان تاريخهم القديم، ومعلومات جوهرية عن آلهتهم وعلاقتها بالبشر وكيف تتصرف، وتفسيرًا لمصير الإنسان والهدف من الحياة، ودليلاً للأخلاق ونماذج من السلوك السليم والخصال التي تجعل الإنسان يعيش حياة صالحة، وغير ذلك الكثير. لقد وجد الإغريق في الإلياذة والأوذيسة نصوصًا لحل النـــزاعات، ومعايير للحكم على السلوك، وأبهى نموذج من أسلوب استعمال لغتهم. وساهمت هاتان القصيدتان في تشكيل أفكارهم وأذواقهم طوال مئات السنين، ثم أفكار البشرية لزمان أطول. واللافت أن الإغريق لم يكونوا يسمون هوميرُس باسمه في العادة، بل كانوا يكتفون بلقب «الشاعر».

ديانة الإغريق

تجد في قصائد هوميرُس الشيء الكثير عن الآلهة والإلهات وبالتالي عن الديانة التي كانت تجمع بين الإغريق. وقد صارت تلك الآلهة التي وصلتنا أسماؤها مَجْمعًا مشتركًا في العالم الكلاسيكي بأكمله. ولكن لديانة الإغريق أبعادًا أخرى كثيرة، ومن أجل أن تحاول فهمها يجب عليك أن تبعد عن تفكيرك بعض المعاني المرتبطة بالدين اليوم. إذ لم يكن لدى الإغريق مجموعة واضحة من العقائد ولا «رجال دين» مختصون بهذه الأمور -كان لكهنتهم وعرافيهم وظائف أضيق- ولا «كنيسة» تجمع المؤمنين في منظمة مشتركة. بل كان لديهم خليط من الأساطير والأفكار والخرافات التي لم يكن أي منها مفروضًا عليهم جميعًا. إلا أن بعضها كانت تحاول فهم مشاكل الإنسان العميقة والدائمة - مثل سهولة انقلاب الحظ السعيد، والنقمة التي تترصد من يهزأ بقواعد الحياة أو يتكبَّر. لقد كانت الأساطير إذن محاولة لمعالجة أحاجي الحياة. ونحن أيضًا لدينا أساطير، ولكنَّها في العادة مرتبطة بالعلم وليس بالآلهة. فنحن نقول مثلاً إن سلوك شخص ما يمكن «تفسيره» بشقاء عاشه في طفولته أو بضغوط العمل، ويعطينا هذا شعورًا بأننا نستطيع معالجة مشاكلنا، كأن نذهب إلى الطبيب مثلاً أو نأخذ عطلة. وعندما نحصل على نتيجة حسنة يتعزز إيماننا بهذه المعتقدات. والإغريق مثلنا كانت لديهم علاجات مبنية على الإيمان، ولكنه إيمان بأشياء غير التي نثق بها اليوم. إلا أن وسائلهم كانت تبدو لهم نافعة أيضًا، وكانت ممارسة الدين لديهم تعني أداء طقوس الغرض منها الحفاظ على رضى الآلهة.

كانت هناك أشياء مختلفة كثيرة قد يمارسها الإغريقي كجزء من ديانته. فقد كانت توجد مثلاً أشكال من العبادة بشكل طقوس أو «أسرار» تؤدى لتمثيل عمليات الطبيعة الكبرى مثل إنتاش النبات ونموه أو مرور الفصول. كما كانوا يفسِّرون الفأل أيضًا ويستشيرون العرَّافين في الأمور الهامة. كانت العرّافة الأساسية هي عرّافة أبولو في دلفي، ولكن كانت هناك أماكن كثيرة غيرها يحج الناس إليها من مسافات بعيدة من أجل أن تبين لهم مصائرهم. كان لكل مدينة آلهة تعيش في المعابد التي توجد عادة على الأكروبوليس(*)، وكانوا يخدمونها بخشوع في احتفالات المدينة التي تمتزج فيها الطقوس الدينية بالألعاب والعروض المسرحية، أو يقدمون لها القرابين في البيوت وفي مذابحها المقامة على جوانب الطرقات. كانت الإلهة أثينا مثلاً هي الإلهة الحارسة للمدينة التي تحمل اسمها، وقد تعبد في أماكن أخرى أيضًا. ولا ننس التوقير الذي كانوا يؤدونه لمئات من الآلهة الصغرى والأرواح وقوى الطبيعة في آلاف المقامات. وإن القدر الكبير من الاهتمام المقدم لها والجهود المبذولة لاسترضائها -عن طريق القرابين مثلاً- لتشير إلى أن عباداتها ربما كانت أكثر نواحي ديانة الإغريق شعبية.

كان الإغريق يعتقدون أن هذه الآلهة والإلهات التي يشتركون في عبادتها قد تتدخل في حياة البشر، ولكن ربَّما، كان الاهتمام بها أكبر على المستوى الرسمي منه على مستوى الأفراد. وهي الآلهة التي تظهر في قصائد هوميرُس. وكانوا يعتقدون أن أكبرها تقيم على جبل أولمبُس، وقد دخلت أسماؤها لاحقًا - مثل زفْس وآريس وأفروديت - إلى تراث أوربا من الأساطير. وهي أوضح أمثلة على صورة الآلهة

(*) قلعة أو قمة محصنة تشرف على المدينة.

لدى الإغريق، وأبرز صفاهّا هي أنها بشرية إلى حد بعيد. فصحيح أن زڤس ملك الآلهة يكون في بعض الأحيان شخصية رهيبة يقذف صواعقه من حوله، إلا أنه في الوقت نفسه سيد إغريقي في أواسط العمر، طيب السرية وذو تصرفات خرقاء، كما أنه ميال إلى ملاحقة الفتيات. وتجد كذلك في أفروديت إلهة الحب والخصب الكثير من صفات المرأة من غرور وأهواء. ولا تعيش هذه الآلهة بعيدًا عن شؤون البشر بل تتدخّل فيها مبدية عواطف بشرية إلى حد بعيد. فترى هوميرُس يصوِّر بوسيدون إله البحر والزلازل وهو يزرع درب أوذيسيوس بالبلاء بسبب ضغينة يحملها عليه، بينما تنحاز إلى البطل وتساعده أثينا إلهة الحرب والحكمة العذراء التي تؤثره على سواه.

تشكل الديانة أساسًا عميقًا من اللاعقلانية قد يغيب عن البال عندما ننظر إلى الحضارة الإغريقية في مرحلة نضجها القادمة. وقد نتجت عن هذه اللاعقلانية نظرات للعالم تكون أحيانًا متعارضة أو متضاربة. كما أنها استعارت وضمت إليها عناصر من الخارج، مثل الأسطورة الآسيوية التي تقول بعصور الذهب والفضة والبرونــز والحديد. إلا أن النتيجة كانت تجربة دينية مختلفة عن تجارب الشعوب الأخرى. وربما كان لهوميرُس الدور الأكبر في تنظيم عالم ما فوق الطبيعة على هذه الصورة، وهو لا يفسح مجالاً كبيرًا للعبادات الشعبية. وقد تذمر ناقد إغريقي في زمن لاحق من أن هذا الشاعر «قد نسب إلى الآلهة كل ما هو شائن ومعيب بين البشر، من سرقة وزنى وخداع». وكان محقًا في ذلك، لأن عالم الآلهة كما صوره هوميرُس كان يسير بصورة مشابهة للعالم الحقيقي. فرغم أن ميثولوجيا الإغريق وفنهم قد يدينان بالكثير لمصر والشرق، فقد بقيا يصوران آلهتهم كرجال ونساء

أفضل، أو أسوأ. وكان هذا العالم بعيدًا كل البعد عن وحوش أشور وبابل أو عن شيثا(*) ذي الأذرع الكثيرة. ويشير هذا الأمر إلى تغيِّر عظيم في المواقف الفكرية، فإذا كانت الآلهة مثل البشر، فربما كان بإمكان الإنسان أن يصير مثل إله؟

العالم الإغريقي

إن اليونان بحد ذاقا صغيرة جدًا، ولكنَّها كانت جزءًا من عالم أكبر بكثير. ولم يكن هناك في اليونان أو جزرها من يعيش على بعد أكثر من سبعين كيلومترًا عن البحر، وهذا ما جعل الإغريق يألفون السفر في البحر -وهو قوام الأوذيسة- ولا يخافون منه مثل سكان البلاد البعيدة عنه. لذلك راحوا يستكشفون بيئتهم الأوسع ويستفيدون منها. ومنذ البداية كان سكان بحر إيجة من المستوطنين والمهاجرين، إذ لم يكن في بر اليونان فرص كثيرة للزراعة المجزية. والحقيقة أن زيادة عدد السكان قد سببت الضغط على الأراضي المتاحة، منذ القرن العاشر، فكان هذا هو المحرك البعيد لموجة كبيرة من الاستيطان، أدت عند نهايتها في القرن السادس إلى ظهور عالم إغريقي يمتد بعيدًا وراء بحر إيجة، من البحر الأسود في الشرق حتى جزر البَليار(*) وفرنسا وصقلية في الغرب وليبيا في الجنوب. وكانت هناك قوى أخرى تفعل فعلها أيضًا. فبينما كان المزارعون الباحثون عن الأرض يستوطنون تراقيا(**) استقر إغريق آخرون على ساحل بلاد الشام وجنوب إيطاليا من أجل المتاجرة. لقد

(*) أحد آلهة المثلث الهندي. إله الدمار والخراب — المتجسد في الأعلام.

(*) أرخبيل اسباني في غرب المتوسط شرقي خليج بلنسية.

(**) منطقة قديمة تقتسمها اليوم اليونان وتركيا.

كان الفينيقيون هم الذين فتحوا هذه الطريق، وربما شجع ذلك الإغريق على التشبُّه بهم - أو نبههم إلى مواقع مناسبة لإقامة المستوطنات، فصاروا يرسلون إليها الأعداد الزائدة من السكان. إن أول مستوطنة إغريقية في غرب المتوسط قد أسستها في خليج نابولي حملة أرسلتها مدينتا خَلقيس وإرتريا في حوالى عام ٧٥٠ ق.م. وفي القرن التالي راحت مدن أخرى كثيرة تنشئ مستوطنات صغيرة لها سوف تصبح مكتفية بذاتها ومستقلّة مثل المدن الأصلية. فضربت المستوطنات جذورها في السهول الزراعية بصقلية كما نشأت على سواحل شمال أفريقيا وفرنسا - وكانت إحداها أصل مدينة مرسيليا. كانت أنجح تلك المستوطنات هي سيراكوزا -سرقوسة- في صقلية، وقد صارت هذه بين عامي ٥٠٠ و ٣٥٠ ق.م تقريبًا، أي فيما يسمى الأزمنة «الكلاسيكية»، المدينة الإغريقية الوحيدة التي تضم أكثر من مئة ألف نسمة، فضلاً عن أثينا، وتذكرنا هذه الحقيقة بالضآلة النسبيِّة لأعداد السكان في الحضارة الإغريقية.

بعد أن استولى المستوطنون الإغريق على المواقع الطيبة في صقلية وإيطاليا تحول اهتمامهم نحو الشرق. ولكن الشرق كانت فيه عقبات سياسية، إذ لم يكن بإمكان أي مدينة إغريقية باحثة عن المستوطنات الجديدة أن تجازف وحدها بمواجهة القوى البرية الكبرى القائمة هناك. لذلك تحول اتجاه الاستيطان نحو الشمال مبتعدًا عن ساحل بلاد الشام. فاستقر بعض الإغريق في أشباه جزر شمال بحر إيجة حيث طردوا من بقي من شعوب الـ Pelasgoi أو استعبدوها، بينما أبحر آخرون عبر مضيق الدردنيل إلى البحر الأسود، الذي كان البقعة المفضلة لموجة ثانية من

الاستيطان الإغريقي، أتت بعد قرن واحد من الموجة الأولى تقريبًا. وفي عام ٥٠٠ ق.م صارت هناك سلسلة من المدن الإغريقية تحيط بالبحر الأسود كله. كانت بعضها تصلح للزراعة، إلا أنها اهتمت بالتجارة أكثر من المستوطنات الغربيَّة، وقد ساهمت كثيرًا في تنشيط الأعمال التجارية في بحر إيجة. أما إلى الشمال منها فكانت تعيش شعوب بربرية بالمعنى الحديث للكلمة؛ منها السقيتيون، وهم بالأصل شعب بدوي بدأ يمارس الزراعة في القرن السادس في السهول الواقعة بين نهري الدُّون والدانوب. وفي الغرب أيضًا واجه الإغريق في تراقيا شعوبًا جبلية أكثر بربرية وشراسة.

إيطاليا والإتروريون(*) (الإتروسك)

لم يواجه الإغريق في الغرب أي إمبراطورية كبيرة، ولكن شغلتهم مدينة قرطاجة. كانت قرطاجة دولة مدينة في شمال أفريقيا أسَّسها الفينيقيون في حوالى عام ٨٠٠ ق.م، ثم كبرت خلال بضعة قرون فصارت أعظم قوة وثروة من مدن الفينيقيين القديمة الواقعة على الساحل الشرقي للمتوسط مثل صور وصيدون(**)، وباتت تهدد الإغريق المقيمين في جنوب إيطاليا وصقلية. أما على المدى الطويل فإن الخطر الآتي من الغرب إنما كان يكمن في الشمال. عندما كانت حركة الاستيطان الإغريقية جارية على قدم وساق لم تكن هناك على الهضاب المطلة على نهر تيڤيره (التيبر) إلا بضعة أكواخ للرعاة، ولكن موقعها هذا سوف يصبح عاصمة إمبراطورية

(*) إتروريا هو الاسم القديم لتوسكانا .

(**) صيدا الحالية.

قادمة، هي إمبراطورية روما. إن تأثير روما الكبير على التاريخ وولع الرومان بحبك روايات خيالية مثيرة حول أصولهم تجعل من الصعب أن نتخيل كم كانت بدايات قصتهم ضئيلة. تقول التقاليد إن روما مدينة تقوم على سبعة تلال، ويختلف علماء الآثار حول ما إذا كان تاريخ تأسيسها أقرب إلى عام ١٠٠٠ أو ٨٠٠ ق.م، إلا أننا نعلم أن أبكر المستوطنات قد ظهرت على قمتي اثنتين من تلك التلال، وكان يسكنها رعاة أتوا إليها من المرتفعات المجاورة. ويبدو أن المراعي هناك كانت أفضل منها في القسم الداخلي البعيد عن البحر، وكان من السهل حماية هذين الموقعين، فضلاً عن وجود معبر مناسب لنهر تيفيره - وهو في الحقيقة أخفض معبر يمكن اجتيازه قبل البحر.

صحيح أن هذا الموقع كان دومًا يؤهِّب المنطقة لأن تصبح مركزًا أساسيًا للمواصلات، إلا أن تلك المستوطنات الصغيرة ما كانت لتصبح ذات شأن لولا وصول شعب نسميه الآن «الشعب الإترووري» قبل عام ٦٠٠ ق.م بقليل، وهو اسم مشتق من اسمهم اليوناني. مازال الإتروريون شعبًا غامضًا، ويرجَّح أن يكونوا قد أتوا أولاً عبر البحر من البلقان في القرن العاشر، وربما انضم إليهم -فيما بعد- مهاجرون من آسية الصغرى في حوالى عام ٧٠٠ ق.م. وعندما انتقل الإتروريون إلى موقع روما كانوا بالتأكيد شعبًا مزيجًا يعرف مهارات وثقافات غريبة عن إيطاليا في ذلك الزمان. ومنذ وصولهم إلى شبه الجزيرة الإيطالية كانوا ماهرين في شغل المعادن فاستغلوا مكامن خام الحديد الغنية في جزيرة إلبا وفي البر أيضًا.

مازلنا نجهل الكثير عن الإتروريين، ولكن يبدو أنهم كانوا يعيشون في اتحاد فضفاض من المدن التي يحكمها ملوك. وقد بلغ موطنهم إترووريا الذي كانوا يسيطرون عليه مساحة كبيرة تمتد من نهر البو في الشمال حتى السهل الساحلي إلى

الجنوب من نهر تيفيره. وكانوا يعرفون الكتابة وقد تبنوا الأبجدية الإغريقية - من المدن الإغريقية في الجنوب على الأرجح - ولكن الكثير من نقوشهم مازالت غير مفهومة. وكانوا يعيشون في مدن -إحداها مدينة كايره(*) التي كان فيها حوالى ٢٥,٠٠٠ نسمة في عام ٦٠٠ ق.م، كثيرون منهم إغريق- ولا بد أن يكون وصولهم بأعداد كبيرة إلى روما قد بدَّل من طبيعة المكان. لقد شدد الرومان -فيما بعد- على فكرة المدينة والمواطن، وبدؤوا تقويمهم ad urbe condita أي «من تأسيس المدينة»، الذي أرَّخ خطأ بعام ٧٥٣ ق.م في التقويم المسيحي. ولكن الرومان كانوا يدينون للإترورريين بأشياء كثيرة غير هذه. فمن خلالهم تعرَّفوا على الحضارة الإغريقية، وعنهم ورثوا الأسطورة الإغريقية التي تقول إن إِنياس بطل طروادة المذكور في الإلياذة قد هرب منها عند هزيمتها وأبحر غربًا ليؤسس مدينة روما. كما أن هناك عادات رومانية كثيرة مثل إقامة «ألعاب» المصارعين وارتداء ثوب التوغة وقراءة المستقبل أتت كلها من الإترورريين. ولقد تشكَّلت أهم معتقدات الرومان الدينية في الأزمة الإترورية أيضًا؛ حتى الذئبة التي تظهر في أسطورة رومولُس وريمُس عن تأسيس روما هي على الأرجح بقية من عبادة الإترورريين لهذا الحيوان. وربما كان اهتمام الرومان بتصريف المياه أيضًا شيئًا آخر تعلموه من الإترورريين.

كانت روما مدينة في بداية القرن السادس ق.م.- ومنذ ذلك الحين أو بعده بقليل- لم يعد هناك شعبان يعيشان في المكان نفسه، ولو بقيت هناك لغتان ضمن المدينة، بسبب امتزاج الإترورريين بالسكان الأسبق -الذين يسمون اللاتين أحيانًا-

---

(*) Caere وهـي السيوم تشيرفيتيري الواقعة على بعد ٥٠ كم شمال غربي روما - الموسوعة البريطانية.

وعندما اكتمل هذا الامتزاج صار بإمكاننا أن نتحدث عن «الرومان» كشعب متميز. ومازالت السنوات بين عامي ٦٠٠ و ٥٠٠ ق.م غامضة جدًا، خاصة، وأن الرومان قد نسجوا -فيما بعد- أساطير كثيرة حولها، ولكن خلالها اكتسبت روما مؤسسات عديدة سوف تستمر زمنًا طويلاً جدًا. إحدى تلك المؤسسات هي تجنيد المواطنين الإلزامي في الخدمة العسكرية، وقد كان الواجب العسكري في الأيام الأولى لروما مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحقوق المدنية. كما أن هناك مؤسَّسة أخرى، هي الحكم المقتصر على النبلاء patricians، الذين أتت تسميتهم من مرتبتهم كأرباب أسر patres.

تقول التقاليد إن آخر ملك إتروري قد طُرد في عام ٥١٠ ق.م، ولكن هذا التاريخ مغلوط بمقدار ثلاث أو أربع سنوات على الأرجح. ويمكننا أن نقول إن روما قد خرجت -عندئذ- من الشرنقة الإترورية. في هذه الأثناء كان الإتروريون يعانون الأمرين، فقد طردهم الإغريق من كَمپانيا كما أخذوا منهم جزيرة إلبا. كانت روما دولة مدينة جديدة ظلت علاقاتها بالمدن الإترورية المجاورة علاقات ودية، لأنها كانت تواجه أخطارًا شديدة من جيران أُخر، كما كانت طرق الاتصالات التي تسيطر عليها هامة لتجارة الإتروريين. إلا أن القرن الخامس ق.م قد شهد أيضًا بداية حقبة طويلة من الحرب بين روما والمدن الإترورية. وفي نفس الوقت تقريبًا تظهر آخر علامات الوجود الإتروري في روما - مثل النقوش والبضائع التجارية. لقد كانت روما في ذلك الحين مستقلة استقلالاً حقيقيًا، ولكن لم يكن فيها بعد ما يدل على ما ستبلغه في المستقبل من قوة عالمية.

كان إغريق إيطاليا معرَّضين لضغط الإترورريين في القرن السادس ق.م، كما كان القرطاجيون مصدر خطر دائم على إغريق صقلية، ولكن هذين الخطرين قد أمكن صدَّهما. وعند بداية القرن الخامس صار الإغريق الشرقيون هم الذين يعانون الأمرَّين على أيدي جيرانهم. ولم يكن هذا بالأمر الجديد، فلطالما كانت مدن إيونيا الإغريقية عرضة للابتزاز والغزو من القوى الآسيوية. وقد بدا الآن أن بر اليونان بات مهددًا هو الآخر. كان الإغريق والفرس يزدادان احتكاكًا أحدهما بالآخر في آسيا الصغرى مع غزو الفرس للممالك غير الإغريقية هناك، ثم اندفاعهم عبر مضيق الدردنيل واحتلالهم المدن الواقعة على ساحل تراقيا. وفي عام ٤٩٩ ق.م ثار إغريق إيونيا على المطالب المفروضة عليهم، وأغضبهم بالأخص أن يتدخَّل الفرس في شؤونهم الداخلية - كأن يدعموا الطغاة ضد رعاياهم مثلاً. وقد نجحوا في ثورتهم لفترة من الزمن بفضل مساعدة بعض مدن بر اليونان، ولكنهم هزموا في النهاية. ثم قرر الفرس معاقبة إغريق بر اليونان على مساعدتهم للمتمردين.

فقام الفرس بغارة بحرية فاشلة، ثم أطلقوا أسطولاً آخر في عام ٤٩٠ ق.م. وقد رسا الجيش الذي يحمله حسب الخطة المرسومة، إلا أن الأثينيين انتصروا عليهم في معركة ماراتون، حيث أثبتت قوات الهبليت المنظمة أنها قادرة على هزم جيش الفرس العظيم. ولكن الفرس عادوا بعد عشر سنوات، وقد جاءوا هذه المرة عن طريق البر. فراحوا يتقدَّمون على طول الساحل، ثم بنوا جسرًا عظيمًا من القوارب عند مضيق الدردنيل لكي يعبر عليه جيشهم إلى أوربا، وتابعوا مسيرهم ببطء نحو الغرب والجنوب تحت حماية أسطولهم الذي كان يغطي ميسرتهم. واستلم

الإسبرطيون -عندئذ- زعامة الدفاع عن الإغريق، وعند مضيق ترموبيل هُزم الملك الإسبرطي ليونيداس مع ٣٠٠ من جنوده، ولكنهم تركوا للمستقبل أسطورة خالدة من البطولة. وما برح الفرس يتابعون تقدّمهم. واضطر الإغريق للتخلي عن سهل الأتيك، فاحتُلت أثينا وخُرِّبت، وانسحب الإغريق إلى كورنثُس وجمعوا أسطولهم في خليج سلامينا. كان الخريف قد حل -عندئذ- وربما خاف ملك الفرس من بداية الشتاء - لأن شتاء اليونان قد يكون قاسيًا - فقرر أن يحسم الأمر ويهاجم سفن الإغريق. لقد كانت أعداده أكبر، ولكن هذه الميزة ضاعت في المياه الضيقة حول جزيرة سلامينا. فحطم الإغريق أسطوله واضطر جيشه للانسحاب عندما خسر دعم الأسطول وتموينه. وفي العام التالي (٤٧٩ ق.م) هُزم الفرس في معركة پَلاتيا، وفي اليوم نفسه أحرز الإغريق انتصارًا عظيمًا آخر في ميكالي على الساحل الآسيوي، حيث أحرقوا أسطولاً فارسيًا ثانيًا. ورغم أن الحرب بقيت تجرجر أذيالها سنوات بعد ذلك، فقد كانت هذه في الحقيقة نهاية خطر الفرس، وهي التي استهلت أعظم عصور تاريخ الإغريق.

وتم تحرير المدن الإيونية تحت زعامة الأثينيين. وقد اتسمت العقود التالية بنمو قوة أثينا، خاصة في البحر، وأدى هذا الأمر إلى خوف بقية الدول منها، وبالأخص إسبرطة. ويبيِّن الفرق بين أثينا وإسبرطة مدى التباين الذي قد تبلغه إحدى دول المدن عن الأخرى. فقد كانت تحكم إسبرطة أرستقراطية واسعة (حوالى ٥٠٠٠ رجل حسب كتّاب القرن الخامس) بطريقة متقشفة جدًا بل متزمتة، وكانت الرفاهية فيها ممنوعة، ولم يكن يحق للإسبرطيين أن يمتلكوا ذهبًا ولا فضة. وكان دورهم ضئيلاً في حركة الاستيطان، فظلوا شعبًا زراعيًا يحتل أراضي جيرانه كلما

احتاج إلى ذلك. ولم يكونوا أغنياء، ولكنهم كانوا يحتفظون بجماعة كبيرة من عبيد الأرض - يسمون «الهلُوت»، وكانوا يخشون ثوراتهم - وكانوا يفتخرون بانتصاراتهم العسكرية وكانت تقاليد الهبليت عندهم قوية بشكل خاص.

سيادة أثينا

أما أثينا القرن الخامس، التي بنيت من جديد وعاد لها ازدهارها من بعد كارثة عام ٤٨٠ ق.م، فقد كانت مدينة تجارية. كانت حكومتها أكثر حكومات الدول الإغريقية ديمقراطية، إذ إن جميع القرارات كانت تتخذ عن طريق المجلس العام للمواطنين -ولو أنّهم لم يكونوا جميعًا قادرين على حضور الاجتماعات، ولا كانوا يشكّلون أغلبيَّة السكان- كما أن إدارييها كانوا يُختارون عن طريق القرعة. وفي أعقاب الحروب مع الفرس أغرى الأثينيين أن يحاولوا تزعم بلاد اليونان، فشُكلت عصبة من أجل دعم أسطول مشترك لمحاربة الفرس -لم ينضم إليها الإسبرطيون- كان أعضاؤها في البدء يساهمون بالسفن، ثم صاروا يدفعون المال للأثينيين بدلاً من ذلك من أجل بناء السفن وتزويدها بالرجال. وعندما بدأ أعضاء العصبة يشعرون أن خطر الفرس قد بات بعيدًا رفضوا دفع ما يترتب عليهم، إلا أن الأثينيين أكرهوهم على ذلك. وحتى بعد عقد السلم (في عام ٤٤٩ ق.م) استمرت هذه العصبة الديلية -سميت بهذا الاسم لأن قيادتها كانت أولاً في جزيرة ديلوس- وفي ذروتها كانت هناك ١٥٠ دولة تدفع كلها الجزية لأثينا.

نادرًا ما يحظى الغالبون بالشعبية، ولكن الأثينيين قد حظوا بالدعم والإعجاب فضلاً عن العداوة. وكانوا ميالين إلى التدخُّل في الشؤون الداخلية للمدن الأخرى

ودعم النظم الديمقراطية حيثما وجدت. إلا أن هذا الأمر لم يرق للمواطنين الأغنى في المدن الأخرى، وكانوا هم الذين يدفعون الضرائب التي أضحت الآن جزية لأثينا. من ناحية أخرى كانت الأغلبية الفقيرة تحوز على دعم الأثينيين -وكثيرًا ما كان ذلك بالقوة- ولم يضرها أن يدفع الضرائب مواطنوها الأغنياء، ولا همّها على ما يبدو أن المال المجبي لم يعد يصرف على أسطول أثينا بل على تجميلها بالأبنية والصروح الفخمة. وقد كان إغريق القرن الخامس في العادة يعترفون لأثينا بالصدارة الثقافية وبأنها مثال لبقية اليونان. إلا أن العالم الإغريقي ما فتئ يزداد انقسامًا. في أحد الجانبين وقفت دول ديمقراطية كثيرة تتطلع إلى زعامة أثينا. وقد ربط هذا الأمر الديمقراطية بالصراع ضد الفرس وبتفوق أسطول الأثينيين -مثلما كان الإنكليز في القرن التاسع عشر يعتقدون أن انتشار الحضارة والحكم الدستوري عملية لا تنفصل عن البحرية الملكية التي تصون إمبراطوريتهم- بينما وقفت في الجانب الآخر الدول الأكثر أوليغرشية وأرستقراطية، والتي كانت حريصة على تجنّب الصراع مع الفرس وتخشى زيادة امتداد قوة أثينا.

الحياة في اليونان

صحيح أن إغريق القرن الخامس كانوا يعيشون تحت دساتير مختلفة، وأنهم كانوا يفكرون بالعالم بطرق مختلفة جدًا عن الرجال والنساء في الحضارات الأولى، إلا أن بعض الأشياء لم تتغير كثيرًا -منذ نهاية عصور الظلام- إننا قد ننسى أحيانًا حتى اليوم أن الكثيرين من الناس هم فلاحون، وفي العالم الإغريقي كان أكثر الناس يحصلون معيشتهم من الأرض، حيث ظلت الزراعة شاقة وبدائية حتى مع ظهور الأدوات الحديدية. أما في مجال التصنيع، فلم يكن هناك إلا بضع مئات من

الفخارين هم الذين يصنعون الأعمال التي اشتهرت أثينا بتصديرها. وكان أكبر معمل للتروس في المدينة يعتبر هائلاً لأن فيه ١٢٠ عاملاً. وكان هناك عدد قليل نسبيًا من الحدادين والحجارين وصناع الدروع والمجوهرات وغيرها من الاختصاصات. لقد بقيت الزراعة عماد الاقتصاد، مثلما هي الحال اليوم في كثير من دول العالم. ولكنها لم تنتج ثروة كبيرة، ولو أن الزيتون والكرمة قد وسعا من إمكانياتها، لأن تربة اليونان ليست غنيَّة في العادة، فظلت المحاصيل قليلة وضعيفة النوعية طوال الأزمنة الكلاسيكية. وكانت بقع الأرض صغيرة جدًا – فحتى الرجل الغني لم يكن يملك إلا ٢٠–٣٠ هكتارًا من أراضي الحبوب والكرمة معًا كما يبين تصنيف لمواطني أثينا بحسب الثروة وضع في القرن السادس. وقد ظل الاتجاه العام هو تقسيم الأملاك مرة بعد الأخرى عند الميراث، وكان أكثر الرجال الأحرار من صغار الملاك بمقاييسنا. وقد اقتضى الاعتماد على الزراعة في أراض صغيرة أن تكون الحياة شاقة وبسيطة. إنك عندما تنظر إلى آثار اليونان العظيمة مثل بناء البارثينون في أثينا أو المعابد الإغريقية الكثيرة الباقية فقد تشكل انطباعًا خاطئًا عن الحياة في اليونان القديمة، لأن هذه كانت أبنية عامة تُموَّل بموارد جماعية. ولكن الحقيقة أن أكثر الإغريق كانوا يعيشون في بيوت صغيرة متواضعة ويأكلون طعامًا بسيطًا، ولم يكن لديهم عبيد ولا حتى خدم.

لم يكن الفرق الأساسي بين الناس في دولة المدينة هو الفرق بين الأغنياء والفقراء ولا بين الأحرار والعبيد، بل كان بين المواطنين وغير المواطنين. لقد كان هناك الكثير من الفقراء بين مواطني دولة ديمقراطية مثل أثينا، وكان تزايد فقر الفلاحين في أماكن كثيرة مشكلة تتكرر باستمرار. كما يبدو أن عدد الرجال

الأحرار الذين لا يملكون أرضًا كان يزداد بمرور الزمن. وكانت أعداد الأجانب المقيمين تزداد حيث تزدهر التجارة، ويقول أحد التقديرات إن حوالى أربعين بالمئة من سكان أثينا الذكور في القرن الخامس كانوا من غير المواطنين على اختلاف أنواعهم. إلا أن هذه المدينة تبقى حالة خاصة، فقد كانت أكثر اعتمادًا على التجارة والصناعة من أكثر المدن، لذلك كانت فيها نسبة أعلى من الرجال الأثرياء. وكان بعضهم ينتمون للعائلات الأرستقراطية القديمة - ويعيش هؤلاء على الدخل الذي تؤمنه لهم أملاكهم - وهذا ما يفسر استهجان الإغريق لكسب المال عن طريق ممارسة المهن أو التجارة. إلا أن طبقة الأثرياء هذه كانت تتسع عن طريق انضمام التجار الأغنياء إليها أيضًا. ولم يكن الغنى يعني الكثير قياسًا إلى أنماط الاستهلاك الحديثة، ولكنّه كان على كل حال يجعل الحياة مختلفة اختلافًا كبيرًا عن حياة الفلاحين.

الرق

هناك جماعة أخرى هامة من سكان دولة المدينة كان لها وضع قانوني خاص، هي جماعة العبيد. في الأزمنة البعيدة القدم كان المهزومون في الحرب يُستعبدون أحيانًا، ولكن الرجال كانوا يقتلون في العادة بينما يبقى على النساء للاستفادة منهن في أشغال البيت واستغلالهن جنسيًا. وعدا عن حالة الحرب هذه، كان الإنسان يصير عبدًا إما بحكم ولادته أو بحكم محكمة أو بأن يشترى من إحدى أسواق الرق الكبيرة في آسيا الصغرى. لقد نما في القرنين الخامس والرابع ق.م شعور بأن استرقاق الإغريق للإغريق أمر ظالم وشاذ، ولكن بقي هناك عبيد إغريق بالرغم من ذلك. كان عدد العبيد في اليونان أقل منه في إمبراطوريات الشرق الكبيرة أو في

الأزمنة الرومانية اللاحقة، وإن لهذا الأمر علاقة أساسية بصغر حجم الأراضي الزراعية في اليونان. فقد كان بإمكان المزارعين أن يدبِّروا معيشتهم بالاعتماد على أنفسهم وعلى عائلاتهم، ولم يكونوا قادرين على شراء عبد ولا على إطعامه، لأنه لا ينتج ما يقوم بأود نفسه. ولم تكن هناك أملاك كبيرة تعتمد على عمل العبيد. كان أكثرهم يعيشون في المدن، حيث يؤدون أنواعًا مختلفة من الأعمال كخدم وحرفيين. وقد صار أحدهم رجلاً مشهورًا هو القاصّ إيزوبُس. يبدو أن ربع عدد سكان أثينا في القرن الخامس كانوا من العبيد، ولكن لم يكن هناك أي قطاع في الاقتصاد يعتمد عليهم اعتمادًا مطلقًا، ما عدا مناجم الفضة التي كانت تملكها الدولة. وكان بعض العبيد لا يعملون في خدمة شخص واحد بصورة دائمة، بل يُستأجرون ضمن جماعات ويدفع لهم أجر مثل العمال الأحرار، وكانوا يعملون إلى جانبهم في الأشغال نفسها. وكان على العبد أن يعطي سيده جزءًا من أجره، ولكن وضعه لم يكن يختلف كثيرًا من الناحية العملية عن وضع عامل حر فقير.

كان من الممكن تحرير العبيد -كما كان بإمكانهم شراء حريَّتهم- ولكن يبدو أن هذا الأمر لم يكن شائعًا. وعلى كل حال ما كان وضعهم ليتحسَّن كثيرًا إذا تحرروا ما داموا يعملون مقابل أجر. إننا لا نسمع عن ثورات العبيد -ما عدا ثورات عبيد الأرض «الهلّوت» في إسبرطة، وهي حالة خاصة- ولكن هذا الصمت لا يعني الكثير. يبدو أن أكثر العبيد المنـــزليين لم يكونوا يعاملون معاملة سيِّئة، ولكننا نعلم -أيضًا- أنَّهم كانوا معرَّضين لظروف قاسية جدًا في مناجم الفضة بسهل الأتيك. إلا أن هذا الأمر لم يكن يصدم الإغريق القدامى كما يصدمنا اليوم، والحقيقة أن كل الناس كانوا يعيشون حياة قاسية بالنسبة إلى معاييرنا الحديثة، ويبقى الشيء الذي يميز العبد هو أن هناك إنسانًا آخر يملك عليه سلطة مطلقة.

كانت النساء الحرَّات أيضًا مستثنيات من المواطنة. وتشير بعض الأدلَّة إلى أن حياتهن كانت مقيَّدة ومحجوبة من نواح أخرى أيضًا، وإن اختلفت العادات من مكان لآخر. يبدو أن أكثر الإغريق كانوا يرون أن الفتيات الإسبرطيات يتمتعن بحرية زائدة -وكانوا يستهجنون ارتدائهن السراويل الصغيرة أثناء ممارستهن التمارين الرياضية مع الفتيان- أما في منـــزل غني بأثينا مثلاً فكانت النساء يعشن في قسم منفصل من البيت تقفل أبوابه أثناء الليل. وقد يذكرنا هذا بعزلة النساء في الحريم الشرقي، ولكن الهدف منه كان على الأرجح منع الرجال من الوصول إلى الخادمات، لأنهن إذا حملن أو ولدن فسوف تضعف فائدتهن في العمل، وسوف تصير في البيت أفواه جديدة لا بد من إطعامها. ونحن نعلم أيضًا أن النساء المتزوجات المحترمات كن يرتدين الحجاب عند الخروج من المنـــزل عادة، ولا يغادرنه وحدهن ولا يجوز لهن أن يتكلمن مع أحد في الطريق. كان الإغريق يحبون الحفلات - كما تدل أعمالهم الخزفية - ولكن يبدو أن جو حفلاتهم كان مختلفًا كل الاختلاف عن جو الاسترخاء الذي يجمع النساء والرجال من النبلاء في رسوم المدافن المصرية. وقد لا يقابل رجال الإغريق نساء أصدقائهم أبدًا. وإذا قابلوا امرأة في حفلة ما فهي حتمًا امرأة تحترف مهنة الترفيه وتسمى hetaira، وقد بلغت بعضهن من الشهرة ما سمح لأسمائهن بالوصول إلينا، ولم يكن مجرد مومسات بل كن يجدن الغناء والمحادثة والرقص، ولكنهن لم يكنَّ محترمات أبدًا لأن مفاتنهن هذه كانت معروضة للبيع.

لم يكن هناك خارج البيت نشاط متاح لسيدة إغريقية من عائلة كريمة. كان بإمكان النساء الفقيرات أن يعملن عند الناس، ولكن السيدة لا تستطيع ذلك. ولم

يكن أمام المرأة أن تصبح ممرضة أو ممثلة أو كاتبة أو أي شيء من ذلك لأن هذه المهن لم تكن متاحة للإناث. ويبدو أن الإغريق كانوا في العادة يعتبرون الفتيات غير جديرات بالتعليم. أما في البيت فكانت هناك أشغال كثيرة، إذ كن يغسلن ملابس العائلة ويصنعنها أيضًا ابتداء من غزل الخيوط ثم حياكتها لصنع النسيج؛ وقد كان تدبير أمور البيت شاقًا ومضنيًا.

من أسباب قلة الحقوق القانونية للمرأة بالنسبة إلى الرجل في أثينا -كمثال خاص- أن المجتمع الإغريقي -مثل كل مجتمع قبل مجتمعنا ومثل القسم الأكبر من العالم اليوم- كان يهتم بالعائلة وليس بالفرد. لقد كان المجتمع أبويًا، ولم يكن بإمكان النساء أن يحزن أملاكًا أو يدرن أعمالاً، وكن دومًا تحت الوصاية القانونية لأزواجهن أو لأقرب أقاربهن الذكور. وإذا صارت المرأة هي الوريثة الوحيدة لأملاك أبيها فيحق لأقرب أقاربها الذكور بل يفرض عليه أن يطلب يدها من أجل ضمان أن تبقى الأملاك في العائلة. أما عدا عن هذه التفاصيل فمن الصعب أن نقول أشياء عامة حول النظرة إلى المرأة في اليونان، ومن أسباب ذلك أن الأدب لا يكاد يذكر شيئًا عن الحياة في المنـــزل. ولكننا نعلم أيضًا أن النساء كن يذهبن إلى المسرح في أثينا، ولا بد أنهن كن يشاهدن ويستمعن إلى الشخصيات الأنثوية الكبرى في التراجيديا الإغريقية، مثل أنتيغون وإلكترا وجوكاستا وميديا، وغيرها من الأدوار الأنثوية المتنوعة جدًا، ولا يمكن أن يفهمنها إذا كنَّ مجرد شغالات تافهات. كما أنك تجد على شواهد القبور والمزهريات صور زوجات وأمهات راحلات يودعن عائلاتهن ويوحي هذا الأمر بحنان عميق. ولا تجد ما يشير إلى الازدراء الذي تعامل به زوجة شيخ من شيوخ النفط في أيامنا مثلاً، إذ تحجّب وتعيش حياة معزولة. لقد كانت زوجة سقراط تناكده باستمرار وهي حتمًا لم تتصرَّف بصورة

خانعة، ولابد أن تكون هناك زوجات كثيرات مثلها في اليونان القديمة. ففي المحصلة يستحسن أن نكون حذرين عند الحكم على مواقف الإغريق من المرأة. لقد قال هوميرُس «لا شيء أجمل من أن يعيش الرجل وزوجته معًا في وحدة حقيقية، وأن يشتركا بالأفكار نفسها»، وكان جميع الإغريق المتعلمين يقرأون هذا الكلام.

عندما يكون أطفال الإغريق صغارًا كانت تربيهم أمهاتهم، أما إذا أريد للصبية أن يذهبوا إلى المدرسة -ولم تكن البنات يرسلن إليها قط- فإنهم يخرجون من نطاق رعاية الأم في عمر مبكر. كان التعليم متاحًا للصبية الإغريق إذا كانت عائلتهم قادرة على دفع تكاليفه، وكان يشدّد تشديدًا كبيرًا على حفظ الأشياء عن ظهر قلب - فتسمع عن صبية حفظوا أعمال هوميرُس كلها بهذه الطريقة - وكان الأدب والكتابة والموسيقى والجمباز تشكل الجزء الأكبر من منهاج الدراسة. كان الهدف هو صنع «الرجل الكلي» وإعطاؤه تعليمًا شاملاً ومتوازنًا يؤهله لأن يأخذ مكانه في دولة المدينة ويشارك في قيمها وأذواقها، ولم يكن الغرض من التعليم التدرُّب على مهارات خاصة - بل كان الإغريق يعتبرون هذا الأمر أجدر بالعبيد- ولم تكن هناك جامعات إلى أن ظهر ما يشبه الجامعة في أثينا في أواخر القرن الخامس، ولكن يبدو أن المستوى العام لمعرفة القراءة والكتابة كان عاليًا جدًا - إذا حكمنا على ذلك من استخدام لوحات الإعلان والنقوش العامة في أثينا.

الفكر الإغريقي

لقد كانت قبضة العادات والتقاليد في اليونان محكمة وكان الإغريق متشبثين بها بقوة، إلا أنهم استطاعوا في هذه الأثناء أن يأتوا على حين غرة بدفق متتال من الإنجازات التي كانت مدهشة بجدتها- ومنذ ذلك الحين- يتعجّب الناس كيف حدث هذا، وقد سماها بعضهم «المعجزة الإغريقية» لشدة ما أذهلتهم. لقد تم ذلك

على امتداد فترة أطول من العصر الكلاسيكي العظيم نفسه- فخلال أربعمئة سنة تقريبًا- اخترع الإغريق السياسة والفلسفة وقسطًا كبيرًا من الحساب والهندسة - وأسماء هذه العلوم كلها في اللغة الإنكليزية أسماء يونانية الأصل(*)- ومفاهيم حول الفن مازال الأوربيون يقبلون بها حتى يومنا هذا تقريبًا. وتدل هذه الخطوة العملاقة على مدى اختلاف الحضارة الإغريقية عن سابقاتها. لقد كانت أكثر إبداعًا منها بقدر كبير، وفي قلب هذا الإنجاز كانت الأهميَّة الجديدة التي أعطاها الإغريق للتحرّي العقلاني الواعي للعالم الذي يعيشون فيه. صحيح أن الكثيرين منهم ظلوا يؤمنون بالخرافات والسحر، ولكن لا يجوز لهذا الأمر أن ينسينا إنجازاتهم. إن طريقة الإغريق في استخدام المنطق والحجة قد أعطت البشر سيطرة على العالم الذي يعيشون فيه أكبر من أي شعب قبلهم، ورغم أن أفكارهم لم تكن صحيحة دومًا، فإنهم كانوا يستنبطونها ويفحصونها بطرق أفضل من أي طرق سابقة. لقد ساهمت المعجزة الإغريقية مساهمة عظيمة في تطور طاقات العقل البشري، ولم يقم أحد قبلهم بمثل هذا المجهود المركّز لمعالجة أعمق مشاكل الفكر والحياة، ولن يظهر مثله إلا بعد زمن طويل.

من الأمثلة البارزة على ذلك العلم، فقد كان العلم الإغريقي مختلفًا كل الاختلاف عن المحاولات السابقة لمقاربة العالم الطبيعي. في القرن السادس وضع عدد من المفكرين في إيونيا للمرة الأولى تفاسير لطريقة عمل الكون بصورة قوانين وقواعد متناسقة بدلاً من صورة الآلهة والشياطين. بل إن الفيلسوف الإغريقي ديمقريطس قد توصَّل إلى فكرة أن المادة كلها مؤلفة من «ذرات» atoms -

---

(*) politics, philosophy, arithmetic, geometry

وكانت تلك نظرية سابقة لزمانها بألفي سنة- ولكنَّها لم تنتشر. إن النظرية التي استمرت هي أيضًا نظرية إغريقية تقول إن المادة مؤلفة من أربعة «عناصر» - هي التراب والماء والهواء والنار - التي ترتبط فيما بينها بطرق تختلف من مادة لأخرى. لقد كانت هذه النظرية أبعد عن الحقيقة من نظرية الذرات، ولكنها مع ذلك مكَّنت من استمرار التفكير في هذا الموضوع وسيرت العلم حتى القرن السابع عشر الميلادي تقريبًا. وبالصورة نفسها بقيت تعاليم أبقراط أساس الطب حتى أزمنة حديثة جدًا -وهو إغريقي من جزيرة كوس كان تلميذًا لديمقريطس- إن من الصعوبة بمكان أن تميِّز الحقيقة من الأسطورة في ما يُروى عن أبقراط، ولكن الواضح أن تعاليمه كانت البداية الحقيقية للدراسة العلمية لصحة الإنسان، عن طريق ملاحظة الأعراض وتأثيرات العلاجات، وإعطاء توصيات معقولة حول الغذاء وفصل المعرفة عن الخرافة. ومازال «قسم أبقراط» الذي سمي على اسمه أساس الأخلاق الطبِّية حتى يومنا هذا.

بل إن الإغريق قد قدَّموا مساهمات أعظم حتى من تلك في مجال الرياضيات. وتبدأ هذه القصة أيضًا بعيدًا عن بر اليونان. كان يعيش في كروتون بجنوب إيطاليا في القسم الثاني من القرن السادس ق.م فيلسوف اسمه فيثاغوراس، هو من أول الذين استخدموا عملية الاستدلال أو الاستنتاج - أي تطبيق حجج منطقيَّة محضة على المبادئ الأولى أو البديهيات. وكان هذا التطور هامًا لا لأنه أدى إلى تطور علمي الحساب والهندسة فحسب، بل أيضًا لأنه ساهم في جعل الناس يفكرون بصورة واضحة ودقيقة في مسائل غير المسائل الرياضية. ويعرف فيثاغوراس أكثر ما يعرف بنظرية المثلث القائم الزاوية التي سميت على اسمه، مع أنها في الحقيقة تعود لتاريخ لاحق.

الفلسفة

من أشهر الإغريق الذين أصروا على أهمية الفكر الدقيق الصارم رجل أثيني هو سقراط الذي عاش في أواخر القرن الخامس. لم يؤلف سقراط كتبًا ولا نعلم عنه إلا من خلال ما يخبرنا به أشخاص آخرون، ولكن أكثر الأشياء التي يُعتقد أنه قالها وعلّمها -ومن الجلي أنه كان واحدًا من خير المعلّمين قاطبة- مسجلة في سلسلة من "المحاورات" أو المحادثات، التي دوّنها أعظم تلاميذه، الفيلسوف أفلاطون. مازال الناس مختلفين حول ما إذا كانت تلك التعاليم هي حقًا تعاليم سقراط أم أن أفلاطون هو الذي كتبها بلسانه، إلا أن رسالتها واضحة: يقول سقراط إن أهم شيء ينبغي على الإنسان فعله هو أن يحاول معرفة كيف يمكنه أن يعيش حياة صالحة. وما هي الحياة الصالحة التي يجب على الإنسان أن يسعى إليها؟ يجيب سقراط بأن السبيل الوحيد لمعرفة ذلك بصورة أكيدة هو الفحص الدقيق لمفاهيم مثل الخير والعدالة والحقيقة - أي باختصار أن نمحّص القيم التي يعيش الناس بحسبها.

لقد قال سقراط أشياء كثيرة غير هذه، ولكنَّ الناحية الأهمَّ في تعاليمه هي اتجاهها العام وطريقته فيها وليس النتائج التي توصل إليها. ويبدو أنه كان يشكك في جميع الأشياء التي تعتبر بديهية. لقد مثّل سقراط أخيرًا للمحاكمة في أثينا في عام ٣٩٩ ق.م بتهمة نكران الآلهة التي تعترف بها الدولة، وإفساد الشباب عن طريق الدعوة لازدراء مؤسسات أثينا والسخرية من الديمقراطية والأخلاق العامة -خصوصًا بأنه ذكر فقرات من هوميرُس بصورة مسيئة-، وبأنه علّم الشباب التمرُّد على والديهم. وربما كان وراء هذه التهم عداوة سياسية، ولكن لا ريب أن محاكمته

والحكم عليه قد تمًا بطريقة شرعيَّة. وليست الديمقراطية بأكثر تسامحًا مع الآراء غير التقليدية من أشكال الحكم الأخرى. ثم أُمر سقراط بالانتحار وقد انتحر فعلاً. ويبدو أنه كان يعتقد أن للدولة كل الحق في إدانته، وربما كان هذا دليلاً على الولاء الذي يمكن لدولة المدينة أن تستدعيه من خيرة مواطنيها- ومنذ ذلك الحين- يظهر دومًا أشخاص يزعزعون شعورنا بالرضا عن طريق الشك بمعتقداتنا اليومية، وإظهار ضعفنا من خلال النظر إلى الأفكار المألوفة في ضوء جديد. لقد اتُّهِم سقراط بالمبالغة في قوة المنطق وباستخدامه استخدامًا سلبيًّا فحسب، إلا أن كشف الأخطاء وإزالة الأفكار الفاسدة خطوة ضرورية نحو اكتشاف الحقيقة. كانت تعاليمه مناهضة لتماسك البنى التقليدية، وكانت دولة المدينة في المحصِّلة ترتكز على افتراضات مطلقة لا تخضع للشك، مثل جميع مؤسَّسات البشر.

وحاول أفلاطون بوحي من أفكار سقراط أن يذهب إلى أبعد من هذا. فكان يعتقد أن العقل هو الذي يستطيع أن يعطينا اليقين بأن مفاهيم مثل العدالة والجمال والخير توجد وجودًا حقيقيًا في عالم مؤلف من مُثُل. وهو لا يقصد بهذا أنها توجد كما توجد الأفكار العادية في أذهاننا، بل أن هناك في مكان ما عالمًا من الحقيقة الثابتة التي لا تتبدل وراء العالم المادي المتبدل. هذه الحقيقة يمكن للنفس الإنسانية بلوغها -وكان أفلاطون يميِّز النفس عن الجسد مثل سقراط- من خلال استخدام العقل، الذي يتألف هو نفسه من هذه الأفكار. ولم يكن أفلاطون يحترم طريقة سلوك أكثر الناس، وكان يزدري ديمقراطيي أثينا الذين حكموا على معلّمه، إذ كان يعتقد أن أكثر الناس لن يستطيعوا أبدًا عيش الحياة الصالحة التي يكشفها عالم «المُثُل» الحقيقي هذا. لقد كانت تعاليمه على درجة كبيرة من الأهمية، لأنها جعلت

الناس يفكرون بالمشاكل على اختلاف أنواعها حتى يومنا هذا، وبالأخص لأنها أسَّست تقليدًا هامًا في الفكر هو المذهب المثالي - أي الإيمان بوجود عالم أكثر حقيقة من عالم تجربتنا المادية - يمكن فهمه من خلال العقل وليس بعالم سحري مبهم لا يُسْبَرْ غوره.

كان أعظم تلامذة أفلاطون هو أرسطو. كان أرسطو من تراقيا، وقد كتب في مواضيع كثيرة جدًا - في البيولوجيا والفيزياء والرياضيات والمنطق والأدب وعلم النفس والأخلاق والسياسة، فوضع للمثقفين أساسًا ظلوا يبنون عليه طوال ألفي سنة، كما أنه حدّد الأساليب الأساسيّة التي بقي الناس يفكرون بواسطتها في هذه المواضيع حتى أزمنة حديثة جدًا. كان أرسطو مفكرًا أقل تجريدًا من أفلاطون، وكان يحب جمع الحقائق والأفكار وتصنيفها من أجل أن يوضح القوانين العامة الكامنة وراءها، وكان على درجة عظيمة من الملاحظة. وربما كان تأثيره الإجمالي أوسع حتى من تأثير أفلاطون -ولو كان من شبه المستحيل أن يحكم الإنسان في أمر كهذا- إلا أن الشيء الأكيد هو أن هذين الفيلسوفين الإغريقيين قد سيطرا على تاريخ الفكر العقلاني سيطرة مديدة لم تكتب لسواهما.

المؤرخون الأوائل

لقد قام الإغريق بخطوة عظيمة أخرى في ميدان الفكر في القرن الخامس ق.م هي اختراعهم لعلم التاريخ. كانت كلمة Istorie كلمة يونانية تعني «التحري»، وإن أول رجل تحرى الأحداث عبر الزمن هو إغريقي من آسيا الصغرى يدعى هيرودوتُس ويلقب عادة «أبا التاريخ». لقد سجل هيرودوتُس نتائج تحرياته في أول عمل فني نثري مكتوب بلغة أوربية -ويمكننا أن نترجم عنوان كتابه بكلمة

«أبحاث»، وهو سرد هائل للتفاعل بين اليونان وفارس يصل حتى نهاية الحرب مع الفرس. وهو في الحقيقة تاريخ للعالم – أي عالم هيرودوتُس(*). ورغم أن فيه قصصًا مختلَقة، إلا أنه مبني على دراسة جديَّة لشهادات وروايات أشخاص آخرين حول الأحداث. وكان خليفته هو الأثيني ثوقيديدِس، الذي فاقه دقة في تحرياته، وقد جمعها في كتاب وضعه قرب نهاية القرن لكي يفسر الصراع الكبير الذي اندلع داخل العالم الإغريقي والمسمى حرب البيلوبونيز(**). ولقد حاز ثوقيديدِس على إعجاب أكبر حتى من هيرودوتُس لأنه حاول أن يفسر «لماذا» حدثت الأشياء مثلما حاول أن يفسر «كيف» حدثت.

لقد دفع الإغريق قوة العقل والفكر في مجالات الفلسفة والعلم والرياضيات والتاريخ بأسرع من أي زمن مضى. كما أنهم ساهموا مساهمات عظيمة في الفنون، ومنها تأسيسهم للمسرح الأوربي – أو الغربي إذا شئنا. تعود جذور الدراما الإغريقية إلى الاحتفالات الدينية، خاصة احتفالات ديونيزوس إله الخمر. في تلك الاحتفالات كانت الأغاني تتلى من قبل الخُورُس، وفي القرن السادس أضيفت إليها خطابات يؤديها شخص منفرد، فظهر بذلك أول الممثلين. ومن هذه البدايات البسيطة حصلت تغيّرات أخرى -فيما بعد- إلى أن كتبت في القرن الخامس ق.م سلسلة عظيمة من المسرحيات التراجيدية التي تشكل (مع أعمال هوميرُس) ذروة فن الأدب الإغريقي. ولم تكن هذه المسرحيات تؤدى إلا في مناسبات شبه دينية هي احتفالات المدينة التي تهم المواطنين جميعًا، وكانت تسرد في العادة قصصًا

(*) نشره المجمع الثقافي بأبو ظبي ٢٠٠١، ترجمة عبد الإله الملاح.

(**) نشره المجمع الثقافي بأبو ظبي ٢٠٠٣ ترجمة عمرو ولينا الملاح.

وأساطير مألوفة محبوك ضمنها مواضيع دينية وفوق الطبيعة. لقد قُدمت في أثينا في القرن الخامس حوالى ثلاثمئة مسرحية تراجيدية لم يبق لنا منها إلا ثلاث وثلاثون للمؤلفين التراجيديين العظام إسخيلُس وسوفوكليس وأوريبيدِس. وكانت هذه المسرحيات تعطي المتفرجين نظرة جديدة إلى قصص قديمة ومألوفة، ربما لإظهار ناحية جديدة لم تكن في بالهم، ولو أن جوهر التراجيديا الأثينية قد ظل دومًا التشديد على الأعمال الغامضة للقوانين التي تحكم حياة البشر والمصائر الحزينة التي تنتظر حتى ذوي الحظ السعيد منهم. وعدا عن التراجيديا كانت هناك مسرحيات كوميدية. فكان أرستوفانس وهو أيضًا أثيني أول كاتب كوميدي عظيم للمسرح، وكانت الكوميديا تتحول على أيامه من التهريج الفظ إلى وسيلة للتعليق على الحياة العامة – فقد سخر من سقراط مثلاً– كما أنه كتب أول مسرحية عن تحرر المرأة -هازئًا به، مثل أكثر الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع خلال الألفي سنة القادمتين-

أما من الميراث المادي للثقافة الإغريقية فقد بقيت أعمال عظيمة كثيرة في العمارة والنحت، وظلت زمنًا طويلاً نماذج لأجيال المستقبل. ولكنها لم تكن في أيامها كما تبدو لنا اليوم، لأن الحجر والرخام يعمران طويلاً بعكس الدهان والخشب والقماش. فالآثار الجميلة في أكروبوليس أثينا مثلاً كانت مكتظّة بالمقامات الصغيرة وكانت تماثيلها وأفاريزها مطليّة بالألوان الصارخة. لقد استعار الإغريق في هندستهم الكثير من آسيا – كما يبدو أنهم أخذوا العمود عن مصر – ولو أنهم قد طوروا فيما بعد أسلوبًا خاصًا بهم. ويبدو أن أفكار تماثيلهم الأولى قد أتت هي أيضًا من مصر أو من الشرق ثم طوروها إلى أسلوب ذي أصالة حقيقية. وكان

أعظم إنجازاتهم هو تصوير جسم الإنسان، فرويدًا رويدًا صارت الوضعيات المتيبِّسة والمتكررة التي تراها في التماثيل القديمة تتحول إلى وضعيات طبيعية وعفوية. ويبدو أن الإغريق كانوا مغرمين بإظهار كم يمكن للإنسان أن يكون بديعًا في الفكر والجسد معًا.

حرب البيلوبونيز

طوال أكثر من ربع قرن، أي من عام ٤٣١ إلى عام ٤٠٤ ق.م، احتدم صراع كبير -تخلَّلته هدآت قصيرة- في كافة أنحاء العالم الإغريقي. وسمي هذا الصراع حرب البيلوبونيز لأن أحد طرفيه كان مكونًا من رابطة دول شبه جزيرة البيلوبونيز، التي تتزعمها إسبرطة ضد أثينا. لقد تورطت جميع الدول الإغريقية تقريبًا في مرحلة أو أخرى في هذا الصراع، ولم تعرف اليونان قبله حربًا على هذا المدى الواسع. وإن حرب البيلوبونيز هذه قد دفعت ثوقيديدِس إلى كتابة دراسته التاريخية من أجل تفسير سبب نشوبها. ويتفق المؤرخون -منذ ذلك الحين- على أنها ربما كانت نقطة تحوّل في تاريخ الحضارة.

وليس اندلاع هذه الحرب غريبًا بالنظر إلى ريبة الإغريق وحساسيتهم. فقد كان السخط يتزايد على سيادة أثينا، وكانت إسبرطة تقود المعارضة ضدها فيما يمكن أن نسميه «حربًا باردة» استمرت أربعين سنة. وكان قد اندلع في عام ٤٦٠ اقتتال استمر سنوات عديدة، ثم بقيت كل من أثينا وإسبرطة مضطرتين لقتال الحلفاء والأتباع المنشقّين، ويبدو أن الكثير من الأثينيين كانوا يعتقدون أن نشوب حرب أخرى قد بات أمرًا محتمًا. كانت أثينا تريد حيازة قصب السبْق بين الدول الإغريقية، وكان هذا أمرًا لا بد من حسمه. وكان الإسبرطيون يخشون نوايا

الأثينيين ويحظون بتعاطف الإغريق المعارضين للنظم الديمقراطية التي ما فتئت أثينا تزداد تأييدًا لها. ثم كانت هناك أيضًا غيرة من ثروة أثينا وسلطتها التجارية، خاصة بين أهل كورنثُس، وهي مثلها مدينة تجارية كبرى. والحقيقة أن الحرب قد ابتدأت عندما ثارت كركيرا -كُورفو الحالية- التابعة لكورنثُس واستغاثت بمساعدة الأثينيين. فبدت هذه لبعض الأثينيين فرصة لا تفوَّت، لأن كركيرا واقعة على طريق هامَّة جدًا نحو الغرب، وكانت السفن في تلك الأزمنة تحاول أن تبقى على مرأى من اليابسة، فكانت لها بالتالي ميزة استراتيجية هامة. وعندما لبى الأثينيون نداء الكركيريين اشتكى الكورنتسيون إلى الإسبرطيين. كما اشتكت مدن أخرى من طغيان أثينا، إلا أن الزعيم الوطني والمهيج للدهماء بركليس الذي كان يسيطر على أثينا قد ألح على أهل مدينته ألا يقدِّموا أي تنازلات، بل قال لهم إن أثينا نموذج يحتذى لليونان كلها. وهكذا ابتدأ الإسبرطيون في عام ٤٣١ ق.م ما سموه حرب التحرير.

كان حلفاء الأثينيين والإسبرطيين موزَّعين في كافة أنحاء العالم الإغريقي تقريبًا، ولكن يمكنك أن تقول بصورة عامة إن إيونيا والجزر كانت إلى جانب الأثينيين، بينما كانت شبه جزيرة البيلوبونيز إلى جانب الإسبرطيين وكانت المستوطنات تتبع أحيانًا مدنها الأصلية وأحيانًا أخرى لا تتبعها. أي أن الحرب كانت في الحقيقة حربًا بين البحر والبر. كان الإسبرطيون يغزون أرض أثينا في كل فصل من فصول الحملات الحربية، فينسحب الأثينيون إلى ما وراء أسوار مدينتهم، ويتركون أراضيهم عرضة للتخريب والاحتلال. ولكنهم كانوا يؤمِّنون الغذاء عن طريق البحر، ويقومون فيه بعمليات عسكرية تمتد لمسافات بعيدة. وهكذا ظلَّت الحرب تسير في طريق مسدود لزمن طويل. لقد عانى الأثينيون في إحدى المرَّات من الطاعون معاناة رهيبة، ولكن لم يستطع أن يهزمهم ذلك الجيش الإغريقي الذي

تعوزه أساليب الحصار ومهارات الهندسة المعروفة في جيوش فارس. ومات پركليس في عام ٤٢٩ ق.م فعُقد السلم لبضع سنوات في عام ٤٢١. إلا أن الأثينيين عادوا وحرّكوا الحرب من جديد. فخطّطوا لحملة كبيرة ضد سيراكوزا (سرقوسة)(*) وهي أغنى المدن المؤيدة لعصبة البيلوبونيز. ولكن حملتهم انتهت بكارثة - فقدوا فيها نصف جيشهم وأسطولهم بأكمله - وفوق هذا فإنها قد جعلت الإسبرطيين يطلبون مساعدة الفرس. فموّل هؤلاء -عندئذ- أسطولاً لمساعدة المدن التي أرادت رفع نير أثينا، مقابل وعد بعودة سيطرتهم السابقة على المدن الإغريقية في آسيا. وفي هذه المرة تدّمر أسطول الأثينيين بعد سنوات طويلة من الاقتتال وعانوا من الحصار والمجاعة، فأُكرهوا على الاستسلام.

لقد جرى هذا الصراع إذن على نطاق واسع لم تعرف اليونان مثله من قبل لأن صد غزوات الفرس السابقة كان عبارة عن معركتين في البحر ومعركتين على البر، كما أن الحروب بين الدول الإغريقية لم تكن أكثر من حملات صيفية قصيرة تنتهي بمعركة بين جيشين من الهبليت. إلا أن لحرب البيلوبونيز هذه أهمية كبرى في نتائجها عدا عن ضخامتها. يقول ثوقيديدس إنها امتدت فترة هائلة من الزمن، وسببت للإغريق مآسي لم يعهدوها من قبل قط. ولم يكسب أحد من هذه الحرب إلا الفرس. لقد حاول الإسبرطيون المنتصرون في البداية إرهاب الدول الإغريقية الأخرى عن طريق قوتهم العسكرية، مثلما كان الأثينيون قد سيطروا عليها من خلال قوتهم البحرية، ولكنهم اضطروا لمحاربة تحالفات أخرى بدورهم. وعندما هُزم

(*) في جزيرة صقلية.

جيش إسبرطة الشهير في لوكترا في عام ٣٧١ ق.م بات من الواضح أن إسبرطة ليست بأقدر من أثينا على السيطرة على المدن الإغريقية وفرض نوع من الوحدة عليها. والحقيقة أن الحرب قد بينت أن أقوى الدول الإغريقية عاجزة عن التمتع بالسيادة المطلقة على الباقيات، فلا كان الإغريق بقادرين على أن يبتعد بعضهم عن شؤون بعض، ولا على قبول سيادة إحدى دولهم على الأخريات. فربما كانت وحدة الإغريق مستحيلة ما لم تفرض فرضًا عن طريق الغزو، ولكن لم تكن أي دولة بينهم تملك القوة الكافية لذلك. وكانت الكثير منها قد فقدت اكتفاءها الذاتي منذ زمن طويل، وصارت لها مصالح تجارية كثيرة اضطرها لدخول السياسة في كافة أنحاء العالم الإغريقي من أجل رعايتها. فأثينا مثلاً لم تكن تستطيع العيش من دون استيراد الحبوب وتصدير الخمر والزيت والمصنوعات.

لقد وضعت الحرب أيضًا عبئًا ثقيلاً على الشؤون الداخلية للجماعات الإغريقية. ولكن ينبغي علينا أن نكون حذرين في تقدير هذا الأمر، لأن ما نعرفه عن تاريخ بعضها أكثر بكثير مما نعرفه عن بعضها الآخر. في أثينا أدت الحرب الطويلة إلى التخصص بين الجنود والبحارة فازداد بالتالي استخدام المرتزقة، وظهرت فروق اجتماعية جديدة بسبب التجارة -لأن التجار صاروا أغنياء- وفاقم الشعورَ بالظلم أن الفلاحين كانوا يرون أراضيهم تُخرَّب المرَّة تلو المرَّة أثناء المعارك. كما سبَّب الهجوم على السياسيين الذين تسبَّبوا بهذه الكوارث مرارة كبيرة، وقد ساهمت هذه الأشياء كلها في إحداث ثورة وضعت الأوليغرشية محل الديمقراطية لفترة من الزمن. إلا أن الأمر كان أعمق من حلول نظام سياسي محل نظام آخر، لأن المفهوم

القديم لدولة المدينة كوحدة مكوّنة من مواطنين يشتركون بصورة متساوية في جميع نشاطاتها لم يعد مناسبًا للمستوى الذي بلغته الحياة في الدولة.

لقد زالت دولة المدينة في النهاية، وما برح الناس -منذ ذلك الحين- يتساءلون عن السبب. إلا أن هناك حقيقة أخرى -ربما- كانت أهم من هذا السؤال. لقد نظرت العصور اللاحقة إلى اليونان القديمة ورأت فيها نجاحًا هائلاً مهما كانت إخفاقاتها السياسية. وكان الناس يرونها كيانًا واحدًا لأنهم لم يعرفوا عنها الأشياء الكثيرة التي نعرفها نحن اليوم، كما أنهم لم يعرفوا التقسيمات التي يضعها العلماء الآن بين الأزمنة والأمكنة المختلفة. وقد كانت تلك غلطة مثمرة، لأن الفكرة التي شكلها الناس عن اليونان لا تقل أهمية عن حقيقتها. سوف يعاد شرح معنى التجربة الإغريقية وتفسيرها كثيرًا، وسوف تُكْتَشَفْ اليونان القديمة ويُفكّر فيها مرارًا، فَتُبْعَثْ لتحيا بأشكال مختلفة طوال أكثر من ألفي سنة. وسوف يعود الأوربيون إليها المرّة تلو المرّة لتأمل معانيها. وليس هذا إلا اعترافًا واجبًا لها، لأن الحضارة الإغريقية كانت رغم كل سحاباتها أعظم امتداداً لسيطرة الإنسان على مصيره حتى ذلك الزمان. ولم تتوقف أوربا قط عن جني فوائد رأس المال الذي وضعته اليونان، ومن خلال أوربا بلغت ثمار تلك الوديعة العالم بأسره.



الفصل الرابع

العالم الروماني

مقدونيا والهلينية

لقد أقام الإغريق عالمًا جديدًا في المتوسط والشرق الأدنى، والمفارقة أن هذا العالم قد نشأ أثناء تفسُّخ دول المدن، إذ أمست هذه الدول أضعف وأقل قدرة على مقاومة التدخُّل الخارجي من بعد كارثة حرب البيلوبونيز، فبدأت تبزغ قوة جديدة على الطرف الشمالي لليونان هي مملكة مقدونيا. كان بعض الناس، خاصة المقدونيين، يقولون إن مقدونيا دولة إغريقية وجزء من العالم الإغريقي، وكان أهلها يتحدَّثون اللغة اليونانية ويحضرون احتفالات اليونان، كما كان ملوكها يدَّعون أنهم متحدرون من سلالات إغريقية، بل من أخيل نفسه بطل الإلياذة الأخائي العظيم. إلا أن الكثيرين من الإغريق لم يقبلوا بهذا، وكانوا يعتبرون المقدونيين شعبًا بربريًّا غير متحضرٍ لا يقارن بالشعوب ذات الثقافة الغنيَّة في مدن بحر إيجة وصقلية.

لا ريب أن مقدونيا كانت بلدًا متخلّفاً بالقياس إلى أثينا أو كورنتس مثلاً، وكان على ملوكها أن يتعاملوا مع أرستقراطية من الزعماء الجبليين البعيدين كل البعد عن الجو الثقافي المتطوِّر في أثينا. إلا أن مقدونيا هذه قد غيَّرت مجرى تاريخ الإغريق بفضل اجتماع عدد من العوامل الملائمة. من تلك العوامل ظهور أمير

كفء وطموح فيها في عام ٣٥٩ ق.م، كان من بين طموحاته أن يُعترف بمقدونيا كبلد إغريقي، وهو فيليبُّس الثاني ولي عهد المملكة. لقد كانت الظروف كلها في صالح فيليبس، لأن الدول الإغريقية كانت منهكة من بعد صراعاتها الطويلة، وفارس كانت قد مرَّت بسلسلة من الثورات تركتها في حالة من الضعف. كما أن مقدونيا كانت غنية بالذهب فكان بمقدورها أن تموِّل جيشًا قويًا وفعَّالاً تدين فعاليته بالكثير لجهود فيليبّس الشخصية. وكان قد فكَّر مليًّا في الأساليب العسكرية الإغريقية عندما كان في طيبة أثناء شبابه، وتوصَّل إلى أن تطوير تكتيك الهبليت يكمن في ابتكار تكوين جديد، هو الكتيبة المؤلفة من عشرة صفوف من المشاة المسلحين برماح طويلة. كانت رماح هذه الكتيبة أطول بمرتين من الرماح العادية، وكانت المسافة بين الرمّاحين أكبر منها في تشكيل الهبليت، بحيث تبرز رماح الذين في المؤخرة من المقدِّمة بين الصفوف الأماميَّة. وقد شكَّل هذا الترتيب سلاحًا رهيبًا مكونًا من الرماح المتراصة التي تشبه أشواك القنفذ. وفوق هذا كان يدعمها أيضًا خيَّالة مدرَّعون وسلاح حصار مكوَّن من أسلحة ثقيلة مثل المنجنيق.

الإسكندر الكبير

لقد بلغ من نجاح الجيش المقدوني أنه مكَّن فيليبُّس وابنه من بعده من القضاء على استقلال مدن بر اليونان وإنهاء حقبة من تاريخ البشرية هي حقبة دولة المدينة. في عام ٣٣٥ ق.م محيت طيبة عن بكرة أبيها واستعبد سكانها عقابًا لهم على ثورتهم، ويمكننا اعتبار هذا التاريخ نقطة تحوُّل هامة. صحيح أن ثورات أخرى قد حصلت، فيما بعد، إلا أن عصر اليونان الكلاسيكية العظيم كان قد ولى، ويكفي هذا الأمر وحده لكي يضمن لملوك مقدونيا مكانًا في التاريخ. إلا أن هناك تغيُّرات

باهرة أكثر سوف تحدث على عهد الإسكندر ابن فيليبس، وهو واحد من الرجال القلائل في التاريخ الذين درجت العادة على إطلاق لقب «الكبير» عليهم. لقد سحرت شخصيته خلفاءه وأحاطت الأساطير باسمه حتى صار معبود الناس طوال آلاف السنين. كان الإسكندر قبل كل شيء محاربًا وفاتحًا، ولكنه كان أكثر من هذا بكثير. ومن المؤسف أنه لم تبق لنا سيرة معاصرة عنه، ومازالت حقائق كثيرة حول حياته وشخصيته غامضة. ولكنه كان بلا شك قوة حاسمة لا في تاريخ اليونان وحدها بل في تاريخ العالم أيضًا، منذ عام ٣٣٤ ق.م -عندما عبر إلى آسيا لمهاجمة الفرس على رأس جيش مجنَّد من دول إغريقية كثيرة، حتى عام ٣٢٣ ق.م، عندما مات في بابل -ربما بالتيفوئيد- وله من العمر ثلاثة وثلاثون عامًا فقط.

كان الإسكندر مغرمًا بإغريقيته، وكان يجل ذكرى أخيل الذي يعتبره جدًا له ويحمل معه في حملاته نسخة يعتز بها من قصائد هوميرُس، كما كان قد تتلمذ على يد أرسطو. وكان مقاتلاً شجاعًا، بل متهورًا في بعض الأحيان، كما كان قائدًا داهية وبارعًا في قيادة الرجال، وكان يعرف عندما يفتح البلاد أن يتصرَّف بتعاطف مع شعبها بعد الإطاحة بحكَّامها. وكان أيضًا رجلاً عنيفًا، إذ يبدو أنه قتل صديقًا له في شجار وهو ثمل، بل ربما وافق على مقتل أبيه.

فيليبُس المقدوني والإسكندر الكبير

٣٥٨-٣٣٦ ق.م	حكم فيليبس الثاني المقدوني.
٣٣٨	معركة خيرونيا تضمن لفيليبس المقدوني السيطرة على بر اليونان.
٣٣٦-٣٢٣	حكم الإسكندر

٣٣٤	الإسكندر يغزو إمبراطورية الفرس، ويكسب معركة غرانيكوس قرب مضيق الدردنيل.
٣٣٣	الإسكندر يهزم داريوس الثالث ملك فارس في معركة إيسوس.
٣٣٢	الإسكندر يحاصر صور ويستولي على مصر.
٣٣١	هزيمة داريوس الثالث النهائية في معركة كوكميلة ثم موته في العام التالي.
٣٣٠-٣٢٤	حملات الاسكندر في المرزبانات الفارسية الشرقية وغزوه للهند.
٣٢٣	موت الاسكندر.

مهما كانت نقائص الإسكندر فإنها لم تمنعه من إحراز مسيرة باهرة من النجاح. لقد هزم الفرس في آسيا الصغرى في معركة إيسوس، ثم قطع إمبراطوريته كلها جنوبًا أولاً عبر سورية إلى مصر، وعاد نحو الشمال والشرق إلى بلاد الرافدين مطاردًا ملك الفرس داريوس الثالث الذي مات أثناء فراره، فكانت تلك نهاية الإمبراطورية الأخمينية. ثم تابع مسيره عبر إيران وأفغانستان ونهر جَيحون (آمودَريا) وما وراءه حتى سمرقند، وأسس مدينة على نهر سَيحون (سيردَريا)، ثم عاد نحو الجنوب ثانية لكي يغزو الهند. ولكنه بعد أن قطع حوالى مئتي كيلومتر وراء نهر الهندوس وصار ضمن إقليم البنجاب بلغ الإنهاك بقواده مبلغًا شديدًا فجعلوه يعود أدراجه. فعاد –عندئذ– في مسير فظيع على نهر الهندوس وعلى طول الساحل الشمالي للخليج الفارسي إلى أن وصل إلى بابل، وهناك مات الإسكندر.

إلا أن حياته القصيرة لم تقتصر على الفتوحات. وسرعان ما تفككت «إمبراطوريته» من ناحية أنه لم يعد لها مركز حكم واحد، ولكنه نشر التأثير الهليني إلى أصقاع لم يكن قد بلغها قط. لقد أسَّس الإسكندر مدنًا كثيرة -كانت تسمى على اسمه في العادة، وما زالت هناك مدن عديدة تحمل اسم الإسكندرية، عدا عن أماكن أخرى تحمل اسمه بصورة مقنّعة- كما أنه مزج الإغريق والآسيويين في جيشه بحيث راح كل منهم يتعلم من الآخر، وصار هذا الجيش قوة أكثر عالمية. لقد جنَّد الشباب من نبلاء الفرس، كما ترأس ذات مرة زواجًا جماعيًا لتسعة آلاف من جنوده على نساء شرقيات. وترك الإسكندر الإداريين السابقين في البلاط الفارسي في مناصبهم من أجل إدارة الأراضي المفتوحة، بل إنه اتَّخذ اللباس الفارسي أيضًا مثيرًا بذلك استياء رفاقه الإغريق الذين كانوا يستنكرون ما فرضه على زوار بلاطه من سجود أمامه سيرًا على عادة ملوك الفرس.

لقد كانت الإطاحة بأعتى إمبراطورية في عصره وإنهاء عصر المدن الإغريقية -في أوروبا وآسيا معًا- أعمالاً غيَّرت شكل العالم، ولو أن تأثيرها الكامل لم يتضح على الفور. وكانت هناك أيضًا نتائج إيجابية كثيرة لم تظهر إلا بعد موته، عندما برزت آثار الأفكار والمعايير الإغريقية التي نشرها في أصقاع الأرض في البلاد الإغريقية وغير الإغريقية على السواء. ولهذا السبب صيغت كلمة "هلنستي" لوصف العصر الذي تلا موته والمنطقة التي غطَّتها إمبراطوريته في السابق -أي بالتقريب المنطقة الواقعة بين بحر الأدرياتيك ومصر في الغرب وجبال أفغانستان في الشرق- أما إمبراطوريته نفسها فلم تبق متماسكة لزمن طويل، ولم يخلف الإسكندر وريثًا له بل سرعان ما راح قوَّاده يتنازعون على الغنائم.

خلفاء الإسكندر: العالم الهلنستي

لقد احتاج الأمر حوالى أربعين عامًا لكي تستقر أراضي الإمبراطورية السابقة في ترتيب جديد كمجموعة من الممالك التي يحكم كلاً منها أحد رجال الإسكندر أو رجل متحدِّر منه، ويسمى هؤلاء عادة "الخلفاء" diadochi. وكانت أغنى تلك الممالك في مصر، حيث استولى على زمام الأمور قائد مقدوني اسمه بطليمُس. وقد تمكّن بطليمُس من الفوز بجثمان الاسكندر ودفنه في مدفن فخم مهيب في الإسكندرية، فمنحه هذا مكانة خاصة كحارس لرفات الفاتح العظيم. كما أنه أسَّس آخر سلالة مصرية في العصور القديمة، وهي السلالة التي سوف تحكم مصر -حتى عام ٣٠ ق.م عندما ماتت آخر البطالسة، أي كليوباترة الشهيرة -عدا عن فلسطين وقبرص وجزء كبير من ليبيا. إلا أن مصر لم تكن أكبر دول الخلافة. فرغم أن فتوحات الإسكندر في الهند قد آلت إلى ملك هندي، فإن أسرة سلوقس -وهو قائد عسكري آخر من مقدونيا- قد حكمت لفترة من الزمن مساحة تمتد من أفغانستان حتى البحر المتوسط. ولكن هذه المملكة السلوقية لم تبق كبيرة إلى هذا الحد، إذ تأسَّست في بداية القرن الثالث ق.م مملكة جديدة اسمها مملكة برغاما في آسيا الصغرى، كما أسَّس جنود إغريق مملكة أخرى في بَلخ -في أفغانستان الحالية- أما مقدونيًّا نفسها فقد غزاها البرابرة ثم صارت بيد سلالة جديدة، بينما استمرت الدول الإغريقية القديمة في تفسُّخها وكانت تنظِّم نفسها أحيانًا في اتحادات فضفاضة -مع أن بعضها كانت قد أملت باستعادة استقلالها عند موت الاسكندر- ولكن لا حاجة بنا هنا لكل هذه التقلُّبات؛ إن أهميَّتها التاريخية تكمن في أنها كانت التربة التي مهدتها فتوحات الاسكندر لنمو الأفكار والحضارة الإغريقية نموًا لا سابق له، إذ

غدت اليونانية هي اللغة الرسميَّة في الشرق الأدنى كله، وكانت أكثر شيوعًا كلغة يوميَّة أيضًا، خاصة في المدن الجديدة.

لقد أُسس عدد كبير من هذه المدن -خصوصًا في أراضي السلوقيين- وشجَّع المهاجرون الإغريق على الاستقرار فيها، ولكنَّها كانت مختلفة جدًا عن المدن الإغريقية القديمة في بحر إيجة، إذ إنها كانت أكبر منها بكثير، وسرعان ما صار في كل من الإسكندرية بمصر وأنطاكية بسورية والعاصمة السلوقية قرب بابل حوالى ٢٠٠,٠٠٠ نسمة. كما أن هذه المدن لم تكن ذات حكم ذاتي قط، فالسلوقيون مثلاً كانوا يحكمون من خلال حكام الولايات وأجهزة الإدارة التي استلموها من الإمبراطورية الفارسية القديمة، والتي كان إغريق القرن الخامس يعتبرونها دولاً استبدادية بربرية. وراحت تظهر إدارات مستمدة من التقاليد القديمة لمصر وبلاد الرافدين وليس من تقاليد دولة المدينة. وقد مُنح الحكام ألقابًا شبه إلهية مثل ملوك الفرس القدامى، وفي مصر أحيى البطالسة عبادة فرعون القديمة كما أن أول البطالسة قد اتخذ لقب «سوتير» أي «المخلص».

إلا أن المدن كانت ذات طابع إغريقي إلى حد ما، فقد كانت أبنيتها تُشيَّد حسب الأنماط الإغريقية، كما كانت فيها مسارح وصالات رياضة ومراكز للألعاب والاحتفالات تشبه كثيرًا مثيلاتها في الماضي. وظهرت التقاليد الإغريقية أيضًا في الأسلوب الفني، وربما كان أشهر التماثيل الإغريقية هو تمثال أفروديت الذي وجد في جزيرة ميلوس والموجود في متحف اللوفر بباريس اليوم -ويسمى "ڤينوس ميلوس"- وهو عمل من الحقبة الهلنستية. ومثلما انتشر الأسلوب والموضة الإغريقيان كذلك انتشرت الثقافة الإغريقية، ولكن الريف لم يتأثَّر بها تقريبًا -إذ لم تكن اليونانية اللغة الأصليَّة لأكثر الناس في دول الخلافة ولو أن الكثيرين منهم قد

تعلّموا الحديث بأشكال منها- وسرعان ما راح الكتّاب في المدن الجديدة يكتبون أعمالهم باليونانية، وقد وجد هذا الأدب جمهورًا ورعاة له في بيئة مابرحت تزداد ازدهارًا لزمن طويل، لأن حروب الإسكندر كانت قد أطلقت غنائم هائلة من الذهب والفضة والأغراض الثمينة حرّكت التطوُّر الاقتصادي، كما أمَّنت الضرائب اللازمة لتمويل الجيوش الدائمة والإدارات. وكان العالم الهلنستي أوسع بكثير من العالم الإغريقي السابق، ومسرحًا أوسع منه للثقافة الإغريقية.

إن أوضح إشارة إلى استمرارية تقاليد الماضي هي دراسة العلم، وكانت الإسكندرية في مصر بارزة بروزًا خاصًا في هذا المجال. ففيها عاش إقليدس، وهو الرجل الذي نظّم علم الهندسة وأعطاه شكله الذي احتفظ به حتى القرن التاسع عشر. ومن أبناء الإسكندرية أيضًا رجل كان أول من قاس حجم الكرة الأرضية وأول من استخدم البخار لنقل الطاقة. يشتهر أرخميدس ببناء آلات الحرب في صقلية كما يشتهر باكتشافاته النظرية في الفيزياء، وكان على الأرجح تلميذًا لإقليدس. وثمة إغريقي هلنستي آخر هو أريستارخوس -وهو من ساموس وليس من الإسكندرية- توصَّل إلى فكرة أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، ولو أن معاصريه لم يقبلوا بهذه النظرية لأنها لا تتفق مع فيزياء أرسطو. إن هذه الكمية من العلوم والفرضيَّات -وما هذا إلا غيض من فيض- هي إضافات كبرى إلى معارف البشرية. ولكن بالرغم من هذا كانت هناك عقبة هامة أمام العلم الهلنستي، هي غياب الرغبة باختبار تلك النظريات بصورة عملية وعدم توفُّر الأدوات اللازمة لذلك أيضًا، وكان العلماء متحيزين للعلوم الرياضية وليس التطبيقية، وربما لم يكن وضع التقنيَّة في ذلك الزمان يسمح بالاستخدام العملي لتلك الأفكار، ولو أن البعض قد عارضوا هذا الرأي قائلين إن المخترعين الهلنستيين كانوا قادرين على بناء

محرك بخاري مثلاً لو أنهم تخيلوه. ومع هذا قد يجوز لنا اعتبار انتصارات العلم الهلنستي تعويضًا عن ضياع تقاليد الحكم الذاتي في السياسة، والأسئلة الفلسفية المتعلّقة بأهداف الحياة وكيف يجب على الناس أن يعيشوا ويسلكوا. إلا أن العالم الهلنستي قد نجح في إنتاج فلسفة أخلاقيَّة جديدة هامَّة هي الفلسفة الرواقيَّة. وتقول الرواقيَّة بصورة تقريبية إن واجب الإنسان هو أن يكون فاضلاً مهما كانت العواقب المترتبة عليه من ذلك. والفضيلة هي قبل كل شيء إطاعة القوانين الطبيعية التي تحكم الكون والناس جميعًا وليس الإغريق وحدهم. وكانت تلك أول محاولة لتقديم فلسفة تصلح للبشرية جمعاء، كما نتجت عنها أول إدانة للعبودية، وهي خطوة فكريَّة عملاقة لم يحرزها فلاسفة اليونان الكلاسيكية قط، وسوف يكون لهذه الأفكار تأثير عميق طوال قرون عديدة بين نخب قوة جديدة هي روما.

صعود قوة روما

في هذه المنطقة التي تأثّرت تأثُّرًا عميقًا بل تبدَّلت بفعل الثقافة المنبعثة أصلاً من اليونان، سوف تنتشر في النهاية قوة إمبراطورية جديدة، وسوف تضم أيضًا جزءًا كبيرًا من بر أوربا وشمال أفريقيا - وهما منطقتان لم تدخلا نطاق الحضارة قبل ذلك قط - فضلاً عن العالم الهلنستي. هذه القوة هي إمبراطورية روما. ويمكن اعتبار روما واحدة من الدول الهلنستية الخليفة، ولكن تاريخها يبدأ بحسب التقاليد وبحسب الدراسات الحديثة أيضًا قبل الإسكندر بوقت طويل، وإثر طرد الملوك الإتروريين في حوالى عام ٥١٠ ق.م.

كانت روما في ذلك الزمان جمهورية، وسوف يظل مواطنوها يصرون على تقاليدهم الجمهورية -حتى عندما باتوا يعيشون في دولة هي أشبه بالملكية- ومن

الناحية الواقعية لا يمكنك أن تعتبر أن الجمهورية استمرت أكثر من ٤٥٠ عامًا، أي -حتى منتصف القرن الأول ق.م- ولكنها على كل حال فترة طويلة. لقد تغيَّرت الجمهورية كثيرًا على مدى السنين، إلا أن هناك تغيرًا كان أهم من سواه لأنه يفسِّر تأثير روما على التاريخ اللاحق. هذا التغيُّر هو توسُّع سلطتها وانتشارها، فعلى عهد الجمهورية باتت سلطة روما تضم عالم البحر المتوسط بأكمله، وقد صنعت إمبراطورية رومانية كانت إطارًا ومهدًا لأشياء كثيرة مازالت تشكل حياتنا اليوم.

الجمهورية الباكرة

لقد تغيرت روما كثيرًا خلال تلك القرون التي بنيت فيها الإمبراطورية. وكان أول قرنين من عمر الجمهورية مليئين بالصراعات السياسية العنيفة، وكان سببها أحيانًا مطالبة المواطنين الفقراء بالمشاركة في السلطة إلى جانب الأغنياء والنبلاء. كان هؤلاء يسيطرون على مجلس الشيوخ، وهو جهاز الحكم الأساسي، كما تبيِّن الأحرف المنقوشة على الصروح وعلى رايات الجيش: SPQR وهي الأحرف الأولى من عبارة لاتينية معناها "مجلس شيوخ روما وشعبها". والغريب أن هذه الصراعات استمرت زمنًا طويلاً من دون أن تلحق بالجمهورية ضررًا قاتلاً، ويدل هذا دلالة كبيرة على أن مؤسَّساتها كانت تتغير رويدًا رويدًا مع تقديمها التنازلات للقوى الشعبية. ولكن رغم أن المواطنين الفقراء أحرزوا انتصارات كثيرة ونالوا حصة أكبر من غنائم السلطة فإن روما لم تصبح -قط- ديمقراطية بمعنى أن يسيطر فيها الفقراء على الحكم زمنًا طويلاً.

وبقي المواطن الروماني العادي فلاَّحًا يزرع أرضه الصغيرة مستفيدًا من المناخ والخصب الرائعين اللذين جعلا إيطاليا دومًا بلدًا غنيَّة عندما تحكم بصورة جيدة، بل

حتى عندما لا تحكم بصورة جيدة أحيانًا. وكان الفلاح يتصف بالكدّ والمهارة اللذين ميزا الإيطاليين في زمن لاحق. وكانت زراعته هي أساس الجمهورية الباكرة، ولم تكن روما في الأيام الأولى للجمهورية قد أصبحت بعد مدينة كبيرة تعيش على الحبوب المستوردة ومليئة بأعداد هائلة من المهاجرين كما أصبحت في القرون القادمة. كان الروماني العادي يملك أرضًا صغيرة إذن كما أنه كان مستقلاً. ولم تنتشر ظاهرة الأملاك الكبيرة التي يملكها سكان المدن وتعتمد على عمل العبيد لزراعة الحبوب والزيتون -لصنع الزيت- من أجل بيعها إلا في القرن الثاني ق.م. وحتى نهاية القصة سوف ينظر الرومان بحنين إلى الأيام البسيطة للجمهورية الباكرة على أنها الأزمنة التي كان فيها المواطن متمسّكاً بالقيم والفضائل الرومانية ويعيش مستقلاً بالاعتماد على قطعة الأرض التي يملكها.

إن هذا الأساس الزراعي الضيق يجعل من الصعب تفسير المرحلة الأولى من توسُّع روما. وليس من العدل أن نقول إن الرومان كانوا دومًا عدوانيين ومتلهفين للغزو، إذ كثيرًا ما كان حكم روما -مثل الإمبراطوريات اللاحقة- يمتد بسبب الخوف من الجيران والمنافسين وليس بسبب الجشع. كما أن هذا التوسُّع كان بطيئًا. صحيح أن مساحة أرض روما قد تضاعفت بمقدار مثلين على حساب جيرانها في القرن الخامس، وأن سيطرة الرومان قد حلّت محل سلطة الإترورين في وسط إيطاليا، إلا أن هذه لم تكن بعد بداية نموها المتواصل. في عام ٣٩٠ ق.م نهب غاليون من الشمال روما نفسها -وهذه هي المناسبة المشهورة التي تقول الأسطورة إن الرومان التجأوا فيها إلى مبنى الكابيتول حيث أنقذهم من الهجوم المباغت صياح الإوز التي لاحظت ما كان يجري- وعلى كل حال كان الرومان في حوالى عام ٢٥٠ ق.م يسيطرون على إيطاليا إلى الجنوب من نهر الأرنو، وكانت هذه المنطقة

بأكملها تابعة إما للجمهورية أو لحلفائها، الذين سمح لهم بإدارة شؤونهم الداخلية على أن يزوِّدوا جيش روما بالرجال. وبالمقابل كان مواطنوهم يتمتعون بحقوق المواطنين الرومان عندما يأتون إلى روما. ويشبه هذا الأمر إلى حد ما سيطرة أثينا على عصبة ديلوس.

كان نجاح روما قائمًا على عدد من الميزات، فقد ساعدها موقعها الاستراتيجي كمدينة وكذلك التهاء الإترورويين الطويل بصراعاتهم مع الإغريق والمدن اللاتينية الأخرى بينما كانت القبائل السلتية تضغط عليهم من الشمال. وهناك عامل آخر هو النظام العسكري الذي استفاد الفائدة القصوى من طاقة روما البشرية. فقد كان من واجب كل مواطن ذكر بحوزته أملاك أن يخدم في الجيش إذا احتاج الأمر، وكان هذا مطلبًا شاقًا، لأن جندي المشاة كان يخدم ست عشرة سنة على عهد الجمهورية ،ولو أن الخدمة لم تكن تشمل العام كله لأن الحملات كانت تبدأ في الربيع وتنتهي خلال الخريف. وقد تم بذلك صنع آلة عسكرية أضحت خلال القرون القليلة التالية أفضل آلة عرفها العالم. وكان عدد السكان الذين يجند منهم أفراد الجيش يزداد بصورة مطّردة بسبب التزام الحلفاء بإمداده بفرقهم العسكرية.

ومنذ أن كانت روما تسيطر على إيطاليا كانت قد تورطت في بلاد أبعد. كانت بعض المدن الإغريقية قد استغاثت بملك إبيرُس(*) لمساعدتها ضد الرومان في بداية القرن الثالث ق.م، فقام هذا بحملات في الجنوب وفي صقلية، وربما كان يفكّر ببناء إمبراطورية في الغرب مثل إمبراطورية الإسكندر، وقد ربح معارك بالفعل

(*) مملكة قديمة في البلقان جنوبي مقدونيا.

ولكن الثمن كان باهظًا. وقد بدا في وقت من الأوقات أن مصر البطالسة قد ترغب بالتحالف مع روما، والحقيقة أن أول هم كبير للجمهورية خارج إيطاليا كان بالفعل في أفريقيا، ولكن إلى الغرب من مصر.

الحروب الفونية

كانت قرطاجة بالأصل مدينة فينيقية، وكانت أغنى بكثير من صور وصيدون، كما أنها كانت قوة بحرية كبرى لها قواعدها في صقلية وسردينية. وكانت أحيانًا تتحالف مع إغريق صقلية وأحيانًا أخرى تحاربهم، ولكنَّها ظلت خطرًا دائمًا يهدِّد السهول الساحلية الغربية الغنية في إيطاليا وتجارة موانئها. ولقد حدثت في النهاية ثلاث حروب "فونية" -والتسمية مشتقة من التسمية اللاتينية للفينيقيين- بين روما وقرطاجة. وانتهت الحرب الأولى في عام ٢٤١ ق.م بتخلي القرطاجيين عن صقلية بعد أكثر من عشرين عامًا من القتال -ولو أنه لم يكن قتالاً مستمرًا- كما استولى الرومان على كورسيكا وسردينية نتيجة لذلك، وأسسوا أول «مقاطعة» لهم في غرب صقلية -أما بر إيطاليا فكان إما تحت حكمهم المباشر كجزء من الجمهورية أو متحالفًا معها عمليًا. وكانت تلك أولى أراضي روما فيما وراء البحار. وليست الحروب دومًا أهم الأحداث عند رواية التاريخ، ولكن من المفيد في هذه الحالة أن نتمهَّل قليلاً عند الحروب الفونية، لأن أشياء كثيرة قد نجمت عنها. قبل الحرب الثانية -التي بدأت في عام ٢١٨ق.م- كان القرطاجيون قد ثبَّتوا أقدامهم في إسبانيا واستقروا في «قرطاجة الجديدة» -أي قرطاجنة الحالية- وشعر الرومان بالخطر عندما امتدت سلطتهم حتى نهر الإبرو. وهاجم القرطاجيون واحدة من المدن القليلة التي بقيت مستقلّة على ساحل إسبانيا، ثم سار جيش كامل لهم مع فيلته إلى إيطاليا بقيادة هَنيبَعل أعظم قادتهم. وهُزم الرومان سلسلة من الهزائم

المنكرة، فتخلّى عنهم كثيرون من حلفائهم وانقلبوا إلى طرف أعدائهم. إلا أن الرومان صمدوا حتى استعادوا سيطرتهم في النهاية. وبعد أن قضى القرطاجيون اثنتي عشرة سنة في إيطاليا عانوا من المجاعة وطردوا. وأعطى مجلس الشيوخ الروماني قائده الكفء سيبيو الإذن بالعبور إلى أفريقيا، حيث وقعت معركة زاما في عام ٢٠٢ ق.م التي قصمت ظهر المنافس الجدي الوحيد لروما في الغرب، في واحدة من المعارك الحاسمة في التاريخ. واضطر القرطاجيون عندئذ لعقد سلام كان مقيدًا لهم، إلا أن الكثيرين من الرومان بقوا يخشونهم بصورة عظيمة. ولم تنشأ الحرب الفونية الثالثة إلا بعد زمن طويل في عام ١٤٩ ق.م، وقد انتهت بهزيمة القرطاجيين الكاملة، فدمّرت مدينتهم وحرثت الأرض فوق موقعها.

في ذلك الحين كانت الإمبراطورية الرومانية قد ولدت بالفعل ولو لم تولد بعد بالاسم. كانت الإطاحة بقرطاجة بمثابة نهاية سيراكوزا، وهي آخر دولة إغريقية مستقلة في صقلية، لأنها تحالفت مرة أخرى مع القرطاجيين. فصارت صقلية كلها رومانية الآن كما غزي جنوب إسبانيا. وسرعان ما تدفّق العبيد والذهب من صقلية وسردينية وإسبانيا ففتح عيون الرومان على غنائم الغزوات. أما في الشرق فكانت مقدونيا قد تحالفت مع قرطاجة لفترة من الزمن، وبذلك بدأت روما تتدخل في سياسة الإغريق. وفي عام ٢٠٠ ق.م استنجدت أثينا ومملكة برغاما بصورة مباشرة بروما ضد مقدونيا والسلوقيين، وكان الرومان عندئذ مهيأين نفسيًا لزيادة تدخُّلهم في الشرق. وكان القرن الثاني ق.م حاسمًا، إذ أطيح بمقدونيا وتحوَّلت المدن الإغريقية إلى مدن تابعة لروما وورّث آخر ملوك برغاما أرضه لروما في عام ١٣٣ ق.م. وأنشئت في نفس السنة مقاطعة جديدة اسمها مقاطعة آسيا -هي الطرف الغربي من الأناضول-. وكان شمال إسبانيا قد فتح أيضًا، وبعده بقليل أخذ جنوب فرنسا -أي

غاليا-. وفي القرن التالي تبعها شمال فرنسا ثم المزيد من الفتوحات في الشرق. وقد كانت هذه سلسلة مذهلة من النجاحات، ولم تقتصر فائدتها على روما ولا اقتصرت أضرارها على الشعوب المغزوة، بل إن الجمهورية نفسها قد تضررَّت منها أيضًا.

انحلال الجمهورية

كان الرومان يحبون أن يهنئوا أنفسهم على اتباعهم ما يسمونه mos maiorum وهي عبارة لاتينية يمكن ترجمتها "بأساليب أجدادنا". وكانوا يبدون ولعًا دائمًا بالتقاليد ويحبون الحفاظ على الأساليب القديمة في أداء الأمور، وكانت الديانة الرومانية بالدرجة الأولى عبارة عن المحافظة على الاحتفالات التقليدية وأدائها بالصورة اللائقة. وحتى عندما يفعل الرومان شيئًا جديدًا كانوا يحبون أن يكسوه بثوب قديم. ومن نتائج ذلك أن أسماء مؤسسات الجمهورية - وفكرة أن الدولة جمهورية وليست ملكية — قد ظلت تستخدم بعد أن فرغت من محتواها بزمن طويل.

والمواطنة الرومانية مثال على ذلك. فقد كان المواطنون الأوائل كلهم رجالاً، وكانوا فلاَّحين في جميع الحالات تقريبًا. وكان لهم حق التصويت والحصول على العدالة أمام المحاكم وواجب الخدمة في الجيش. ثم حصلت ثلاثة تغيُّرات هامة مع مرور القرون. أولها أن حقوق المواطنة صارت تمنح بالتدريج لأناس كثيرين خارج أراضي روما الأصلية. وثانيها أن الحروب الفونية أفقرت الفلاح الإيطالي، فقد صارت الجنديَّة تبعد الجنود الرومان عن بيوتهم وعائلاتهم فترات أطول فتقع هذه فريسة للفقر، كما أن الحروب خرَّبت الريف الإيطالي تخريبًا فظيعًا. وعندما عاد

السلام أخيرًا كان أصحاب الأراضي الصغيرة عاجزين عن تأمين معيشتهم هناك. ومن ناحية أخرى كان رجال آخرون قد جمعوا ثروات طائلة من خلال تلك الحروب، فراحوا يشترون الأراضي لزراعتها ضمن أملاك كبيرة، وكانوا أحيانًا يستخدمون العبيد -وهم جزء من غنائم الفتوحات- للعمل فيها. فبات المواطن الفلاّح يميل للانتقال إلى المدينة بحثًا عن معيشته، ويتحوَّل إلى ما يسميه الرومان «بروليتاريًا»، أي رجلاً تنحصر مساهمته في الدولة بإنجاب الأطفال. وقد أثر هذان التغيران كلاهما في السياسة، لأن تلك الأعداد المتزايدة من المواطنين الفقراء هي أصوات انتخابية يمكن شراؤها أو تملُّقها أو ترهيبها عن يد السياسيين المتلهفين للوصول إلى مناصب تتيح لهم الحصول على الغنائم الثمينة التي تؤمِّنها الفتوحات في الخارج.

وهناك تغيُّر ثالث في وضع المواطن نشأ من الحرب أيضًا، هو أن الجندية باتت مهنة احترافية دائمة بدلاً من أن تعتمد على مواطنين يسلحون ويجندون عند الأزمات الطارئة. ومن معالم هذا التطور أن ملكية الأرض لم تعد شرطًا للخدمة العسكرية. وكانت القوة البشرية التي يستمد منها الجيش أفراده تتقلص بالتدريج، لهذا أتيح لمن لا أملاك لهم أن يخدموا فيه، فتوفرت عندئذ أعداد كافية من المتطوعين من بين الفقراء المستعدين للخدمة مقابل أجر، وعندئذ لم يعد التجنيد الإلزامي ضروريًا. صحيح أن المواطنة كانت شرطًا للخدمة العسكرية في البدء، ولكن في النهاية سمح لغير المواطنين بالانخراط في الجيش أيضًا، وأخيرًا صاروا ينالون حقوق المواطنة مكافأة لهم على خدمتهم.

وبالتدريج انفصل الجيش الروماني بهذه الطريقة عن الجمهورية، فصارت الفيالق المشهورة التي يتألف منها تنظيمات دائمة، وازداد شعور جنودها بالولاء لرفاقهم وقادتهم. ومنذ القرن الأول ق.م كان كل فيلق يحمل رمز العُقاب على راية ترمز إلى شرف الفيلق واتحاده، وهو مزيج من الوثن الديني والشارة العسكرية.

كان المواطنون يزدادون فقرًا إذن وصارت أصواتهم تشترى، كما أتيح للسياسيين أن يفوزوا بثروات هائلة في الأراضي الجديدة إذا عُينوا فيها حكامًا أو قادة عسكريين، وأضحى الجيش قوة لا تقهر -تقريبًا- في ميدان القتال وبات ولاؤه لذاته وقواده أكبر منه لمجلس الشيوخ. وكانت هذه كلها تطورات سياسية بطيئة ولكن حاسمة، وقد استمرت حوالى القرنين مبدِّلة من طبيعة الجمهورية ولو بقيت المظاهر الخارجية على حالها. في تلك الأثناء كانت روما تزداد غنى بصورة واضحة، ولم يقتصر هذا على الغنائم والعبيد المتوفِّرة نتيجة الفتوحات للأفراد القلائل الذين كانوا في المكان المناسب في الوقت المناسب، بل إن المواطنين الفقراء استفادوا هم أيضًا بصورة غير مباشرة، لأن فرض الضرائب على المقاطعات الجديدة قد أعفاهم من دفع ضرائبهم. وكانت تقام "ألعاب" مكلفة لتسليتهم، كما بذل بعض الثروة الجديدة في تجميل روما وغيرها من المدن الإيطالية. وكانت تظهر تغيُّرات أخرى في تلك المدن مع زيادة الاتصال بالشرق، خاصة في المدن الإغريقية التي كان المثقفون الرومان يربون أصلاً على احترامها كجذور لثقافتهم. ومع اتساع عملية التَهَلُّن وصلت إلى الغرب عادات ومعايير جديدة تظهر في الأشياء اليومية مثلما تظهر في الفن والحياة الفكرية؛ فقد يبدو شغف الرومان بالاستحمام مثلاً واحدًا من أكثر الأشياء المميزة لهم، ولكن الحقيقة أنهم تعلموا هذه العادة من الشرق الهلنستي.

السلام الروماني

رغم تفاقم الفساد والعنف السياسيين في روما، ورغم سوء بعض حكام المقاطعات الرومانية، فقد حقّقت سلطة روما السلام لمنطقة واسعة من المتوسط والشرق الأدنى، ولفترات طويلة لم تعرفها من قبل، وفرضت الإدارة الجمهورية النظام على شعوب كثيرة وأمَّنت لها قانونًا مشتركًا. وكان الكثيرون من غير الرومان الذين يعيشون تحت حكم روما معجبين بمن يديرون هذا النظام بالنظر لما يتمتعون به من حس بالعدالة والنـــزاهة، وبسبب أعمالهم التي رسَّخت جذور الحضارة. وكانت النتيجة العملية لهذا كله هامة جدًا لتاريخ العالم أيضًا، لأن الجمهورية قبل أن تنتهي كانت قد وضعت إطارًا سياسيًّا وعسكريًا على مستوى لا مثيل له إلى الغرب من الصين، كما أنها حمت الحضارة الهلنستية. وكانت ثقافات كثيرة تعيش ضمن هذا الإطار الواحدة إلى جانب الأخرى، وتساهم كل منها بدورها في هذا الكيان العالمي.

وبقيت هذه البنية تنمو لزمن طويل، ففي عام ٥٨ ق.م ضم الرومان قبرص، وفي السنوات القليلة التالية استلم سياسي شاب اسمه يوليوس قيصر قيادة الجيش الروماني في غاليا وراء جبال الألب -فرنسا- وقضى على استقلال الشعوب السلتية فيها -كما أنه قاد حملتي استطلاع عبر القنال الإنكليزي (المانش) إلى الجزيرة التي كان الرومان يسمونها بريطانيا، ولكنه لم يبق فيها- ويمكن اعتبار هذه الأراضي أخر ما ضُم إلى الإمبراطورية الجمهورية. وفي عام ٥٠ ق.م باتت جميع السواحل الشمالية للمتوسط وكل فرنسا والبلاد الواطئة وإسبانيا والبرتغال وقسم كبير من الساحل الجنوبي للبحر الأسود ومن تونس وليبيا الحاليتين تحت حكم روما. إلا أن الجمهورية كانت -عندئذ- على حافة الزوال.

لقد ذكرنا أسباب انهيارها، إلا أن الطريقة التي حدث بها تدين بالكثير للأفراد وللصدفة، مثلما هي الحال دائمًا. كان حلفاء روما في إيطاليا صعاب المراس، فحاربتهم أولاً ثم منحت المواطنة الرومانية لكامل شبه الجزيرة تقريبًا، وبهذا لم تعد الكلمة الأخيرة للجمهورية في الحقيقة بيد المجالس الشعبية الرومانية -التي لا تجتمع إلا في روما- ثم إن استمرار الحروب في الشرق قد أتى إلى روما بمزيد من القادة العسكريين الذين تملؤهم الطموحات السياسية، وفي حوالى عام ١٠٠ ق.م نشبت حالات طارئة في أفريقيا وجنوب غاليا أدت إلى منح سلطات استثنائية لقادة عسكريين كانوا ساسة في روما، فاستخدموها ضد خصومهم السياسيين فضلاً عن أعداء الجمهورية. وصارت روما مكانًا خطيرًا تتفشى فيه الجرائم والعنف الشعبي عدا عن الدسائس والفساد السياسي، وبات الناس يخشون أن يظهر دكتاتور، ولكنهم لم يعلموا من أين سيأتي.

و لم يخطر ببال أحد أن يكون الدكتاتور هو يوليوس قيصر فاتح غاليا. لقد منحته السنوات السبع التي قضاها هناك ثلاث ميزات عظيمة، فقد أبعدته عن روما بينما ألقي اللوم على غيره في تفاقم الفوضى والعنف والفساد، كما أنه بلغ درجة هائلة من الغنى، وكسب أيضًا ولاء أفضل الجيوش الرومانية وأحسنها تدريبًا وخبرة. وكان جنوده يشعرون أنه رجل يهتم لحالهم ويضمن لهم الأجر والترقية والنصر.

لقد ظل قيصر دومًا شخصية خلاَّبة، واعتبره الناس بطلاً مثلما اعتبروه شريرًا، ومازالت سمعته تتأرجح بين هذا وذاك. صحيح أنه لم يبق طويلاً في القمة، وأنه مات عن يد أعدائه، إلا أن كفاءاته لا يمكن أن يرقى إليها الشك. لقد كتب روايته عن حملاته الناجحة بلغة لاتينية هي من أفضل ما كتب في أيامه، وساهم هذا في تدعيم الإيمان بها. وكانت صفاته القيادية عظيمة كما كان رابط الجأش وذا صبر

عنيد. ولم يكن متوحّشًا، إلا أنه لم يعرف الرحمة. ومهما كانت أهدافه والناحية الأخلاقية لأعماله فيمكننا أن نجمع على الأقل على أنه لم يكن أسوأ من أكثر السياسيين في أيامه، وكثيرًا ما كان يظهر نفسه بصورة أفضل منهم.

نهاية الجمهورية

في كانون الثاني (يناير) من عام ٤٩ ق.م ضرب قيصر ضربته. لقد ادعى أنه يدافع عن الجمهورية ضد أعدائها، فعبر نهر الروبيكون وهو حدود مقاطعته وسار بجيشه إلى روما، وكان هذا عملاً غير شرعي. ثم راح يخوض الحملات طوال أربع سنوات في أفريقيا وإسبانيا ومصر مطاردًا خصومه الذين كانت لهم جيوش في المقاطعات قد يستخدمونها ضده. لقد سحق المعارضة بالقوة ولكنه كسب أيضًا أعداء سابقين إلى جانبه عن طريق اتخاذ سبيل الحلم معهم بعد انتصاره عليهم. ونظّم دعمه السياسي في مجلس الشيوخ بعناية فجعلوه دكتاتورًا مدى الحياة. إلا أن بعض الرومان كانوا يخشون أن يعيد تأسيس الملكية، فاجتمع عليه أعداؤه في النهاية واغتالوه في عام ٤٤ ق.م.

وظلت الجمهورية موجودة من ناحية المظهر، ولكن التغيرات التي أجراها قيصر نحو مركزية السلطة بقيت على حالها، ولم يكن بالإمكان حل المشاكل عن طريق العودة إلى الوراء. وفي النهاية جاء ابنُ ابنِ أخيه ووريثه بالتبني أوكتاڤيانُس، الذي بين أن التغيرات الحاصلة غير قابلة للعكس، فكانت هذه بداية ما يعرف بالإمبراطورية الرومانية. لقد قام أوكتاڤيانُس أولاً بمطاردة السياسيين الذين اغتالوا قيصر، ثم خاض حربًا أهلية وصلت به إلى مصر -التي ضُمَّتْ كمقاطعة رومانية بعد انتحار أنطونيوس وكليوپاترة- وعندما عاد إلى روما مدعومًا بولاء جنوده السابقين

-وجنود يوليوس قيصر أيضًا- راح يستخدم سلطته بحذر، فجعل مجلس الشيوخ يؤمن الواجهة الجمهورية اللائقة لكل ما يفعل. وكان من الناحية الرسميَّة يحمل لقب imperator ومعناه أنه قائد الجيش في ساحة القتال - ولكنه كان أيضًا يُنتخب العام تلو العام إلى منصب القنصل، وهو أهم المناصب التنفيذية في الجمهورية. وأخيرًا مُنح لقبًا فخريًا هو "أوغسطس"، وقد عرف في التاريخ باسم أوغسطس قيصر. وظلت سلطته تزداد بازدياد المناصب والألقاب الشرفية التي تمنح له، ولكنه بقي يصرُّ دومًا على أن هذا كله إنما يتم ضمن الإطار الجمهوري القديم، وكان يسمى princeps أي مواطنًا أول وليس ملكًا. وكان في الواقع يزداد اعتمادًا على السلطة التي أتته بفضل سيطرته على الجيش، وقد نظَّم أول فيلق للخدمة في العاصمة نفسها وهو الحرس الإمبراطوري الخاص، وعلى الإدارة المكوَّنة من موظفين مدنيين يعملون مقابل أجر. كان أوغسطس ينوي أن يخلفه قريب له، وكان هذا ابنًا لزوجته بالتبني -إذ لم يكن له إلا ابنة- وقد حمل خمسة قياصرة متتالين من بعده لقبي imperator و princeps. وبعد أن مات أوغسطس في عام ١٤ للميلاد أُلِّه مثلما أُلِّه يوليوس قيصر من قبله.

لقد كان هذا تغيرًا كبيرًا وضع الدولة الرومانية على طريق جديدة، إذ سوف يحكمها في المستقبل ملوك ولكنهم معتمدون على الجيش ومحتاجون لاسترضائه. وعندما مات أوغسطس كانت قد زالت السيطرة القديمة والطويلة لطبقة صغيرة من السياسيين في روما بانتصار واحدة من الأسر القائدة بينها، ولو أن سيادة القياصرة لم تخل من الاضطراب. وعندما دفن أوغسطس كان يُذكر بإنجازاته العظيمة في إحلال السلام وإحياء التقاليد الرومانية القديمة. إلا أن أيًا من القياصرة الثلاثة الذين

أتوا بعد خليفته تيباريوس لم يمت ميتة طبيعية، ويعتقد البعض أن تيباريوس نفسه لم يمت بصورة طبيعية أيضًا. لقد بات بإمكاننا –الآن– أن نسمّي هذه الدولة إمبراطورية، وسوف تحقق هذه الإمبراطورية إنجازات عظيمة وتنشر حكم روما فوق أراض أوسع بعد، ولكنها سوف تنهار هي الأخرى في النهاية.

المسيحية

إذا كانت الأهمية التاريخية للأحداث تقاس بأعداد الناس الذين أثّرت فيهم، فيمكننا أن نقول بثقة إنه لا يوجد في الأزمنة القديمة، وربما في كل تاريخ البشر، حدث واحد يساوي في أهميته ولادة الرجل الذي عرف في التاريخ باسم يسوع. ونحن نعلم بثقة أنه ولد في الناصرة بفلسطين ولو لم يكن تاريخ ولادته مؤكدًا، ولكن يرجح أن تكون قد حدثت في عام ٦ ق.م.

ويبين تاريخ البشرية –منذ ذلك الحين– مدى أهمية هذا الحدث. إن الذين سموا أنفسهم مسيحيين، أي أتباع يسوع، سوف يغيرون التاريخ على سطح الأرض كلها، وإذا أردنا البحث عن شيء كان له تأثير يقارن بهذا الحدث فعلينا ألا نبحث عن أحداث منفردة، بل عن عمليات كبرى مثل الثورة الصناعية، أو القوى الكبرى التي جرت في مرحلة ما قبل التاريخ كتأثير المناخ الذي هيأ خشبة المسرح للتاريخ مثلاً. إلا أن أهمّية هذا الحدث لم تمنع الناس من الاختلاف الحاد حول يسوع وحول ما كان يحاول أن يفعله. ومن الواضح أن الذي أعطى تعاليمه تأثيرًا أكبر بكثير من غيره من الرجال القديسين في عصره هو أن أتباعه قد رأوه مصلوبًا وآمنوا بالرغم من هذا بأنه قد قام بعد ذلك من بين الأموات.

كان أتباع يسوع يهودًا فلسطينيين، ومن أجل أن نفهم قصته يجب أن نراه ضمن تاريخ شعبه أي الشعب اليهودي. بعد أن سبى البابليون أعدادًا كبيرة منهم في عام ٥٨٧ ق.م ودمروا الهيكل في أورشليم، ازداد شعور اليهود بأنهم شعب متميِّز ومختلف عن سواهم من شعوب الشرق الأدنى. إن حرمانهم من الهيكل كمركز لعبادتهم قد جعلهم يتحوَّلون إلى قراءة كتبهم المقدَّسة بصورة أسبوعية، وهي عادة أدَّت بمرور الزمن إلى ظهور الكنيس كمكان للوعظ والتلاوة وليس لتقديم القرابين. كما أن الأنبياء الذين قادوا بعض اليهود أثناء عودتهم من السبي في عام ٥٣٨ ق.م -بعد إطاحة الفرس ببابل- كانوا يدعون إلى تقيُّد أشد بالشريعة اليهودية من أجل تمييز اليهود عن غيرهم من الشعوب، وحرصوا أيضًا على إعادة بناء الهيكل. وعندما كانت فلسطين تحت حكم السلوقيين تعلَّم بعض اليهود عادات هلنستيَّة، ولكنهم كانوا ينتمون إلى أقليَّة من الطبقة العليا يرتاب بها ويكرهها الشعب الذي بقي متشبثًا بتقاليده، بل إن تشبثه بها قد ازداد عنادًا. وقد حدثت ثورة يهودية كبيرة في القرن الثاني ق.م ضد ما يمكن أن نسمِّيه تهلينًا، وصار الملوك السلوقيون من بعدها يعاملون اليهود بحذر شديد.

اليهود في الإمبراطورية الرومانية

عندما انتهى حكم السلوقيين في عام ١٤٣ ق.م مرت مرحلة من الاستقلال استمرت حوالى ثمانين سنة، ثم استولت روما على منطقة اليهودية. وسوف يمر ألفا عام قبل أن تظهر دولة يهودية مستقلة في الشرق الأوسط من جديد. في عصر أوغسطس كان عدد اليهود المقيمين في المنطقة اليهودية أقل منه في بقية أنحاء الإمبراطورية الرومانية، لأن حرية التنقل والتجارة التي توفَّرت بعد السبي في الدول الهلنستية أولاً ثم تحت حكم روما قد سمحت بانتشارهم على كافة سواحل المتوسط

وفي مرافئ البحر الأسود وفي بلاد الرافدين. وربما كان هناك في روما نفسها حوالى ٥٠,٠٠٠ يهودي، كما كان هناك مركز كبير ثان لهم في الإسكندرية، وهذا هو ما يسمى «الشتات». بل إن بعض اليهود كانوا قد استقروا في مرافئ غرب الهند منذ عام ١٧٥ ق.م.

وازدادت أعداد اليهود قليلاً من خلال اعتناق غيرهم لهذه الديانة التي اجتذبتهم بشريعتها الأخلاقية، وباحتفالاتها الدينية المتمحورة حول قراءة النصوص المقدَّسة، ولأنها لا تحتاج مقامات ولا كهنة، وبالأخص لأنها تقدِّم للإنسان وعدًا بالخلاص. لقد كانت نظرة اليهود للتاريخ واضحة تلهب النفوس حماسة، إذ إنها تعتبر الشعب اليهودي شعبًا ميزه الله عن سواه واختاره لكي يُطهِّره في النار تحضيرًا ليوم الدينونة، ولكنه سوف يجمعه بعد ذلك من أجل خلاصه. ومن الصعب أن نعرف لماذا حرضت هذه العقيدة الواثقة الكراهية، إلا أن العلاقات بين اليهود وجيرانهم كثيرًا ما كانت متوتِّرة، وكانت حوادث الشغب أمرًا شائعًا وكانت تؤرق السلطات الرومانية، وقد ساهم تميُّز اليهود ونجاحهم في إثارة تحامل الشعب عليهم.

يسوع الناصري

في عام ٢٦ للميلاد عُين حاكم روماني جديد هو بيلاطُس البُنْطي على المقاطعة التي كانت اليهودية جزءًا منها في لحظة من لحظات التاريخ العصيبة. وكانت هذه المنطقة تعيش اضطرابًا كبيرًا، فقد كان يهود سورية وفلسطين يبغض كل منهم الآخر، كما كانوا يبغضون جيرانهم الإغريق والسوريين، ولكنهم كانوا يبغضون أشد ما يبغضون المحتلين الرومان وجباة ضرائبهم. وكان بعض اليهود ينتمون إلى طائفة تسمى الزِّيلوت، هي من إحدى نواحيها حركة قومية، بينما كان

الكثيرون منهم ينتظرون قائدًا أو «مسيحًا» مسحه الله ومتحدِّرًا من سلالة داود لكي يسير بهم نحو النصر، ولكنهم كانوا مختلفين كثيرًا حول طبيعة هذا النصر هل هو عسكري أم رمزي. كان يسوع الناصري عندئذ في حوالى الثلاثين من العمر، وكان قد شبَّ ضمن هذه التوقعات والآمال. كان يعلم أنه رجل قديس، وقد أثارت تعاليمه والمعجزات التي رويت عنه حماسة كبيرة. إن السجلات التي بين أيدينا عن حياته هي الأناجيل، وهي روايات دوَّنها أتباعه بعد موته بناء على ذكريات أشخاص كانوا يعرفونه، وقد كتبت لكي تبيِّن أنَّهم محقون في اعتباره شخصًا متميزًا فريدًا، هو المسيح.

وأكَّدت الأحداث التي جرت في نهاية حياة يسوع لأتباعه أنه شخص فريد. فقد اتهمه الزعماء الدينيون اليهود بالتجديف وأخذوه أمام الحاكم الروماني بيلاطُس. وكان بيلاطُس حريصًا على تجنُّب المزيد من النـــزاع الطائفي في تلك المدينة المضطربة، فتغاضى قليلاً عن حرفية القانون وسمح بإدانة يسوع. وبناء على ذلك صلب يسوع، وكان هذا على الأرجح في عام ٣٣ للميلاد. وبعد فترة قصيرة آمن تلاميذه أنه قام من بين الأموات، وأنهم قابلوه وتحدثوا معه بعد ذلك، وأنهم رأوه يصعد إلى السماء، وأنه إنما تركهم ليعود عما قريب جالسًا عن يمين الله لكي يدين الناس جميعًا عند نهاية الدهور.

ومهما اختلفت الآراء في تفاصيل الأناجيل فإن الذين كتبوها كانوا مؤمنين بها، أو أنهم دونوا ما أخبرهم به رجال يؤمنون أنهم رأوها بأمهات أعينهم. ومن الواضح أيضًا أن حياة يسوع لم تكن ناجحة بالمعنى الدنيوي إلى درجة تسمح باستمرار تعاليمه بقوة رسالتها الأخلاقية وحدها. صحيح أنه اجتذب بصورة خاصة

الكثيرين من الفقراء والمنبوذين، فضلاً عن اليهود الذين كانوا يشعرون أن تقاليدهم لم تعد مرضيَّة بالأشكال التي تبلورت فيها، إلا أن هذه النجاحات كانت ستموت معه لو لم يؤمن أتباعه أنه قهر الموت نفسه، وأن الذين عُمِّدوا باسمه سوف ينتصرون على الموت بدورهم ويعيشون إلى الأبد من بعد دينونة الله. وقبل أن ينقضي قرن واحد كان التبشير بهذه الرسالة منتشرًا في كافة أنحاء العالم المتحضِّر تحت مظلة الإمبراطورية الرومانية.

القديس بولس

كانت تلك الطائفة اليهودية الجديدة قد ضربت جذورها أولاً بين الجماعات اليهودية، التي كان توزعها على أهمية كبيرة في تحديد نمط المسيحية الباكرة -لقد أطلق على يسوع اسم «المسيح» Christ وهو اسم مشتق من اليونانية ومعناه الممسوح بالزيت- ولكن سرعان ما بدأ التبشير بتعاليمه بين غير اليهود أيضًا، وقد تمَّ هذا بناء على قرار من مجلس «المسيحيين»- وكان قد بدأ استعمال هذه التسمية للدلالة على أتباعه- الذي عقد في أورشليم في عام ٤٩ للميلاد. وفضلاً عن الذين كانوا قد عرفوه معرفة شخصيَّة -ومنهم أخوه يعقوب وتلميذه بطرس- ربما كان هناك أيضًا يهودي متهلِّن من طرسوس هو شاول الذي سوف يعرف -فيما بعد- بالقديس بولس، وهو أهم شخصيَّة في تاريخ المسيحية بعد يسوع. كان الكثيرون من غير اليهود مهتمين بالتعاليم الجديدة، إلا أن أعمال بولس التبشيرية وقرار مجلس أورشليم بإعفاء غير اليهود من الالتزام بحذافير الشريعة اليهودية، أي الختان ومحرمات الطعام، هما اللذان أطلقا أنجح الديانات العالميَّة من قوقعتها اليهودية التي حمتها في أيامها الأولى.

وهكذا بدأت المسيحية تبزغ -الآن- من المجتمع اليهودي، كما أنها من خلال القديس بولس صارت تتميز عن عالم الأفكار اليهودية، مع أن يسوع، على ما نعلم، لم يخرج قط في تعاليمه عن نطاق العالم الفكري للشريعة والأنبياء، بل كان دقيقًا جدًا في تقيُّده بشعائره الدينية. كان بولس يتحدَّث اليونانية وكان رجلاً مثقّفاً، فوضع نظرته لرسالة يسوع باللغة اليونانية، ومن خلالها بلغة الفلسفة الإغريقية وأفكارها، واستخدم في تبشيره برسالته مفاهيم إغريقية مثل التمييز بين الروح والجسد، والروابط بين العالم المادي المنظور والعالم الروحي غير المنظور. وقد أثار حنق اليهود التقليديين لأنه بشَّر بيسوع على أنه الله نفسه، وما كان لفكرة كهذه أن تجد مكانًا لها ضمن اليهودية. ويمكننا أن نقول إن بولس هو صانع المسيحية الحقيقي، إذ لا ريب أن أكثر لاهوت الكنيسة المسيحية تعود جذوره إلى تفسيره هو لتعاليم يسوع. ونضيف هنا أن بولس انتهز الفرصة المتاحة في عالم يسوده السلام، ويحميه إطار من الحكم والقانون يسمح للناس بالسفر في يسر وأمان، عالم انتشرت فيه اللغة اليونانية انتشارًا واسعًا فسهّلت نقل الأفكار، لكي يطلق المسيحية في مسيرتها الكبرى من النمو والانتشار. وليس من الغريب أن المسيحيين سرعان ما صاروا يعتقدون أن الإمبراطورية الرومانية نفسها إنما خلقها الله لكي يمكّن من انتشار كلمة الحق، وأنها خطة إلهية لتوطيد المسيحية وترسيخها وراودت بعضهم أيضاً فكرة شرِّيرة مع مرور الزمن، هي أن يسوع لم يقتله الرومان في الحقيقة، بل إن الذين قتلوه هم اليهود.

إن آخر ما نسمعه عن بولس هو أنه عندما اتهمه زعماء اليهود في أورشليم بالتحريض على الفتنة والعصيان وبتدنيس الهيكل، استخدم حقوقه كمواطن روماني لكي يستأنف حكم حاكم قيصرية إلى الإمبراطور في روما، وقد رحل إلى العاصمة بالفعل لينتظر محاكمته هناك. ولا نعلم ماذا حل به بعد ذلك، إلا أن التقاليد

المسيحية الباكرة تقول إنه استشهد في روما في عام ٦٧ للميلاد، وسواء كان هذا صحيحًا أم لا فإن بولس كان قد غيَّر مجرى التاريخ.

الإمبراطورية الرومانية

لقد احتاج لقب Imperator الذي حمله أوغسطس وخلفاؤه إلى زمن طويل لكي يصبح معناه الرجل الذي يتربَّع على قمة الإمبراطورية، أي ما نسميه «إمبراطورًا». وكان أكثر تاريخ الإمبراطورية على هذه الصورة، مثلما حدث على عهد الجمهورية، أي أن المؤسسات والأفكار كانت تتغيَّر رويدًا رويدًا وبطريقة غير ملحوظة على المدى القصير. في القرن الذي تلا موت أوغسطس جاء إلى العرش اثنا عشر إمبراطورًا، كان أول أربعة منهم أقرباء له أو لعائلته، وآخرهم نيرون الذي مات في عام ٦٨للميلاد. ثم تفكَّكت الإمبراطورية للتو في حرب أهلية، فنودي بأربعة أباطرة في عام واحد. وبيّن هذا الأمر أنه عندما يعجز الإمبراطور عن تأمين انتقال السلطة إلى خليفته بصورة سلميَّة فإن السلطة الحقيقية تكون بيد الجيش، كما حدث في العام الذي يسمى «عام الأباطرة الأربعة». وربما كان هناك أكثر من جيش واحد في المعادلة، لأن حاميات المقاطعات قد تؤيد عدّة مرشحين مختلفين، وقد تكون الكلمة الأخيرة -أحيانًا- للحرس الإمبراطوري الشخصي في روما نفسها لأنه في مسرح الأحداث. وقد بقي مجلس الشيوخ يعين القاضي الأول في «الجمهورية»، ولكن لم يكن بمقدوره إلا أن يعمل عن طريق المناورة وحبك المكائد، ولم يكن بقادر على هزم الجيش في المحصلة. أما الأباطرة فكانت صفاتهم وكفاءاتهم الشخصية تحدد ما يقدرون على فعله، بشرط أن يحافظوا على ولاء الجيش.

وظهر في النهاية إمبراطور صالح من عام الأباطرة الأربعة، هو فسپسيانُس، الذي كان أسوأ عيوبه البخل. لم يكن فسپسيانُس أرستقراطيًا رومانيًا -بل كان جده قائد مئة ثم أصبح جابي ضرائب- ولكنه كان عسكريًا بارزًا. وبات من الواضح -الآن- أن العائلات الرومانية القديمة قد فقدت قبضتها على السلطة. إلا أن عائلة فسپسيانُس -أي العائلة الفلاڤية- قد عجزت عن الحفاظ على الخلافة الوراثية لفترة طويلة، فعاد أباطرة القرن الثاني إلى الحل الذي ابتدأه أوغسطس، أي تبني ورثة العرش. وجاء أربعة من هؤلاء، هم «الأباطرة الأنطونيون»، الذين أمَّنوا للإمبراطورية قرنًا كاملاً تقريبًا من الحكم الصالح والهادئ، بدا للعصور اللاحقة عصرًا ذهبيًا. وكان ثلاثة منهم إسبانيين وواحد إغريقيًا، أي أن الإمبراطورية لم تعد بيد الإيطاليين.

كانت الإمبراطورية عالمية في قمتها إذن كما تدل أصول هؤلاء الأباطرة، وفي قاعدتها أيضًا ما برحت تُحطِّم الحواجز بين الشعوب. واستمرت عملية تَرَوْمُن العائلات القائدة في المقاطعات باطّراد، فتعلَّم شباب الغاليين والسوريين والأفارقة والإليريين اللغتين اللاتينية واليونانية، وكانوا يرتدون ألبسة مثل ألبسة الرومان ويربون على الافتخار بالتراث الروماني. وكان الموظفون المدنيون والجيش يحافظون على سير الأمور ويحترمون مشاعر الناس في المناطق المختلفة من الإمبراطورية طالما أن الضرائب تدفع بانتظام. وعندما صدر في عام ٢١٢ م مرسوم يقضي بمنح حقوق المواطنة لجميع الرعايا الأحرار في الإمبراطورية، كانت هذه هي النتيجة المنطقيّة لعملية الاندماج الطويلة. وحتى مجلس الشيوخ كان بعض أعضائه في ذلك الحين غير مولودين في إيطاليا، ولم تعد صفة «روماني» تدل على الولادة في مكان معين، بل على الانتماء إلى حضارة معينة.

لقد ازدادت مكانة الأباطرة، أو مكانة منصبهم على الأقل. وصاروا يبتعدون عن صورة «القاضي الأول» ويزدادون تشبّهًا بالملوك الشرقيين، الذين يعتبرون من طينة مختلفة عن طينة رعاياهم. وساهمت في هذا عادة تأليه الإمبراطور بعد موته. فقد أُله كل من يوليوس قيصر وأوغسطس بعد موتهما، ولكن منذ دوميتيانُس، وهو ابن فسبسيانُس، صار الأباطرة يؤلّهون أثناء حياتهم، كما أن المذابح التي كانت تقدّم عليها القرابين للجمهورية أو لمجلس الشيوخ باتت تكرّس للإمبراطور نفسه، خاصة في الشرق.

الميراث الروماني

حتى الذين أسفوا على تلك التغيُّرات لم يكن بإمكانهم أن ينكروا أن الإمبراطورية كانت إنجازًا مدهشًا يحقُّ للرومان أن يفتخروا به. فقد أمَّن الرومان حكمًا منظّماً وقانونيًا لأوسع رقعة عرفها العالم -حتى ذلك الزمان- وكانت تضم شعوبًا سوداء وبيضاء وسمراء وكلها «رومانية» على قدم المساواة، كما ضمنوا لها نعم السلام والازدهار أيضًا، وهذه كُلّها إنجازات لا سابق لها، وهي أفضل حجة تسمح لنا أن نقول إن الرومان قد أتوا بأشياء عظيمة حقًا. من الناحية الملموسة خلّفوا صروحًا وأبنية وأعمالاً هندسيَّة كبيرة، وبعد قرون عديدة سوف يظن الناس أن آثارهم قد بناها عمالقة وسحرة في الماضي البعيد من شدة انبهارهم بها، كما أن أحد علماء الآثار الإنكليز في القرن السابع عشر قال إن آثار ستونهنج(*) هي معبد روماني، لأنهم وحدهم قادرون على الإتيان بشيء بهذه العظمة. وقد كان مخطئًا هو الآخر، ولكن هذه الأخطاء طبيعية ولها دلالات هامة. إن ما خلفه الرومان في

(*) آثار حجرية ضخمة من حقبة ما قبل التاريخ في إنكلترا.

القرميد والصخر والإسمنت كان باهرًا ولا مثيل له في أوربا الغربية، والكثير منه بني لأغراض عملية جدًا. و لم يكن يجوز لفيلق ما أن يعسكر ولو لليلة واحدة إلا بعد أن يضع مخططًا جيدًا لمعسكره ويحفر له الخنادق ويبني المتاريس للدفاع عنه، ولهذا اكتسب الجيش قدرًا كبيرًا من الخبرة في أمور المساحة والهندسة والبناء. إلا أن أكثر الأبنية الرومانية كانت في المدن، لأن الرومان كانوا يعيشون في حضارة مدنية، وفي كافة أنحاء الإمبراطورية كانت الأبنية والصروح العامة شواهد على ما يعتبرونه لائقًا بالحياة المتحضِّرة. ومن أجل تخدم تلك المدن بنوا طرقًا تربطها، فيما بينها، وزودوها بمسارح الألعاب والحمامات ومصارف المياه والماء العذب لجعلها مريحة. وكانوا يحبون الفخامة والأبهة، ورغم أنهم صنعوا بعض الأشياء الفظة الغليظة، فقد كانوا أشخاصًا عمليين لذلك لم يبنوا أشياء بلا فائدة مثل الأهرام. ومع هذا كانت بعض مدافنهم فاخرة جدًا، وبعد قرون عديدة سوف يصبح مدفن الإمبراطور هادريانُس قلعة سان آنجلو.

لقد استخدم الرومان تقنية فعالة جدًا ولكنها لم تكن بجديدة. وكانت بكراتهم أفضل من بكرات المصريين، وكانوا يستخدمون رافعات وأدوات حديدية لم يعرفها بناة الأهرام، ولكنهم لم يخترعوا أشياء هامة قياسًا للإغريق. كانوا يستخدمون أنواعًا كثيرة من المواد، ولكن أكثرها كانت موجودة قبلهم، ما عدا الإسمنت الذي اخترعوه هم. وقد مكّن الإسمنت من تشييد الأبنية بأشكال جديدة، وكان الرومان أول معماريين تخلّصوا من الحاجة لرفع الأسقف العريضة على صفوف من الأعمدة، لأنهم اخترعوا القبة المحمولة على قناطر.

من أكثر أعمالهم ظهورًا لنا -الآن- هي الطرق، التي مازالت في بعض الأحيان صالحة للنقل، وحتى عندما زالت كانت الطرق الجديدة تبنى فوق مواقعها.

وكان هناك فيلق خاص من المسّاحين يرعى تلك المهارات التي مكّنت من بلوغ هذه الدقة المدهَشة في عبور الهضاب والوديان على خط مستقيم، وكانت تبنيها الفيالق في العادة، وهي التي أمَّنت للإمبراطورية وسائل الاتصال التي مكّنت من حكم هذه الرقعة الكبيرة من العالم. وإن سرعة نقل الرسائل والبضائع عن طريق البر لم تتحسَّن -منذ عصر القياصرة حتى عصر القطار- بل إن الاتصالات كانت تتراجع في بعض الأماكن خلال الألف سنة التالية عندما لا تصان الطرق الرومانية.

لقد أخذ البناؤون الأوربيون في عصور لاحقة كميات هائلة من الأحجار المقصوصة الجاهزة من الآثار الرومانية، لذلك صار من الصعب علينا أن نتخيَّل مدى روعة الإمبراطورية في أيامها. ومازالت هناك بعض الصروح العظيمة التي تقف منفردة، مثل جسر بون دوغار في جنوب فرنسا ومسرح الألعاب في مدينة نيم القريبة منه، والبوابة السوداء في ترير بألمانيا، وقناة جر المياه التي مازالت تروي مدينة سيغوڤيا الإسبانية، ومجمع الحمامات في باث بإنكلترا. أما في مدينة بومبيي بإيطاليا فتجد مدينة محفوظة بأكملها. كما تجد بقايا أخرى في أماكن كثيرة في كافة أرجاء أوربا والشرق الأدنى وشمال أفريقيا، وأهم ما بقي هو الآثار المدهشة في روما نفسها عاصمة الإمبراطورية.

كان الرومان يفتخرون بأنهم أقوياء أشداء، ولكنَّهم كانوا يحبون الراحة أيضًا، وكانوا أحيانًا يُغالون في الانغماس بالملذّات -كما تدل لوائح الأطعمة والأشربة التي كانت تُقدَّم في ولائم الأغنياء عندما كانت هذه موضة دارجة- ولكن يحقُّ لنا أن نعجب باهتمامهم بالاستحمام والتدفئة المركزية، فقد كانوا ذوي مهارة كبيرة في كافة أمور السباكة والتمديدات الصحية، وكانت هناك قنوات محكمة تجلب ماء الشرب إلى المدن التي تجد فيها الحمامات والمراحيض العامة. أما في

البيوت الخاصة فكنت تجد غرف البخار وغرف المعيشة المدفّأة تدفئة مركزيّة من تحت الأرض، و لم يعتد سكان بريطانيا على ضرورة تدفئة المنازل بصورة كافية بعدها حتى القرن العشرين.

أما عدا عن مجالي الهندسة والهِدروليك -علم حركة السوائل- فكانت ابتكارات الرومان قليلة، وهم لم يساهموا مساهمة كبيرة في العلوم البحتة. في مجال الزراعة بدؤوا يدخلون استخدام الطواحين المائية في نهاية الأزمنة الإمبراطورية، أما الطواحين الهوائية فلم تكن قد ظهرت بعد، وبقيت عضلات الحيوان والإنسان هي المصدر الأساسي للطاقة. كثيرًا ما قيل إن توفُّر أعداد كبيرة من العبيد لم يخلق عند الرومان الحاجة لاختراع آلات تقوم بعمل البشر. وقد يكون في هذا شيء من الصحة، ولكن هناك تفاسير أخرى محتملة، فقد استمرت مشكلة تحويل الفكرة الجيدة إلى اختراع عملي بسبب وضع التقنيَّة، كما أن تاريخ الإمبراطورية صار يجبر العزب الريفية على أن تكون مكتفية بذاتها، فباتت تعيش على ما تنتجه بنفسها و لم تجرّب أشياء جديدة. وأخيرًا لم يكن هناك أي حافز من الخارج، لأن الصين الغنيَّة بالمهارات التقنيّة كانت بعيدة للغاية، وجيران روما القريبين لم يكن لديهم شيء هام يشكّل تحدِّياً وحافزًا لها.

يبدو أن أكثر نشاط فكري حاز إعجاب الرومان هو مجال عملي أيضًا، ألا وهو القانون وفن الخطابة الملازم له. و لم ينشأ في بيئة روما فلاسفة مثل فلاسفة اليونان الكلاسيكية -ولا في أي حضارة أخرى كالصين أو الهند مثلاً، وحتى الفلاسفة الهلنستيون كانوا أقل أصالة من المفكرين الإغريق الذين سبقوهم- ولكنك بالرغم من هذا تجد في الثقافة الرومانية بعض الممثلين الجيدين للفلسفة الرواقية،

وبعض المؤرخين الهامين، وكوكبة من كتَّاب النثر والشعر اللاتيني، منهم ڤرجيل شاعر الملاحم، وهو بلا شك شخصية عملاقة حتى في الأدب العالمي.

من السهل أن نستخفَّ بإنجازات الرومان الفكرية قياسًا إلى إنجازات اليونان، ولا ننس أن إنتاج هذا السيل المتصل من الرجال ذوي الكفاءات الشاملة طوال قرون يدل على اعتماد ثقافة الرومان على الأفكار المحافظة، وقد كان للتقاليد الإغريقية دور كبير في ذلك. كان السياسيون الرومان الذين يصلون إلى أعلى المراتب يمرون عادة بمناصب عديدة كإداريين وقادة عسكريين ومشرفين على البناء والأشغال الهندسيَّة ومحامين وقضاة، وقد استطاعت روما أن تقدِّم فيضًا لا ينقطع من الرجال القادرين على هذه الأشياء كلها. كما أن الإمبراطورية نفسها كانت متسامحة وعالمية، فحتى عقيدة ثورية مثل المسيحية بكل ما تحمل من بذور الانقلاب للمستقبل أمكنها أن تضرب جذورها وتزدهر. وكانت الإمبراطورية على درجة هامة من التطور الفكري أيضًا، وإن الإمبراطورية المسيحية اللاحقة هي التي لجأت إلى محاكمة الناس بتهم التجديف.

المسيحية والإمبراطورية

وسرعان ما ظهرت الجماعات المسيحية في كافة أرجاء العالم الروماني. وكان الجميع يعترفون بأن مسيحيي أورشليم، حيث عاش أول جيل عرف المسيح وسمعه من قادة الكنيسة، يستحقون توقيرًا خاصًا. وكانت الروابط الوحيدة التي تجمع بين جميع المسيحيين هي طقس التعميد، وهو علامة القبول في الدين الجديد، وإيمانهم بأن المسيح قد قام من بين الأموات، وطقس «الإفْخارِسْتيًا» وهي الخدمة الخاصة التي تمثِّل وتحيي ذكرى آخر وجبة تناولها المسيح مع تلاميذه عشية اعتقاله ومحاكمته وصلبه. كان أكثر المسيحيين يؤمنون أيضًا أن نهاية العالم أمست على الأبواب، وأن

يسوع سوف يعود -قريبًا- لكي يجمع المؤمنين به، ويضمن لهم الخلاص في الدينونة الأخيرة. وبناء على ذلك لم يكن ثمة ما يفعله المرء على هذه الأرض سوى أن يترقَّب ويصلِّي، ولهذا لم تكن إدارة الكنائس عملاً معقَّداً. ولكن كانت هناك قرارات إداريَّة لا بد من اتخاذها بسبب زيادة أعداد المؤمنين وأموالهم، فظهر رجال إداريون يسمون أساقفة وشمامسة، وبمرور الزمن سوف يتخذون أدوارًا كهنوتية أكثر ويزداد اهتمامهم بقيادة العبادة ومسائل اللاهوت فضلاً عن شؤون الإدارة.

كان أول تغيُّر كبير هو انفصال المسيحية عن اليهودية. صحيح أن المسيحية لم تتخل -قط- عن ميراث التوحيد اليهودي، ولا عن كتب العهد القديم من الكتاب المقدس، ولا عن النظرة إلى مصير الإنسان كامتداد لرحلة الحج الطويلة لشعب مختار عبر التاريخ، وصحيح أن الثقافة المسيحية مازالت مشبعة -حتى اليوم- بالأفكار والصور المأخوذة من الماضي اليهودي، إلا أنها بالرغم من ذلك قد انفصلت عن المجتمع اليهودي والأمة اليهودية. كان الرومان في البداية يعتبرون المسيحيين طائفة من الطوائف اليهودية، ولكن نمو الكنائس غير اليهودية جعلهم متميزين. وعجز المسيحيون اليهود عن إقناع اليهود الآخرين باعتناق نظرتهم بأن المسيح الذي ينتظره شعبه -منذ زمن طويل- قد جاء في يسوع. ولا يمكن أن يكونوا استمروا في حضور اجتماعات الكنيس إذ كان من المعروف أنهم يتناولون الطعام في وجبات عامة مع أشخاص غير يهود وغير مختونين ويأكلون لحم الخنــزير ولا يراعون النواحي الأخرى للشريعة اليهودية.

وقد حصلت نقطة تحوُّل أخرى هامة عندما ثار اليهود ثورتهم الكبرى ضد الرومان في فلسطين في عام ٦٦م -وكان قائد الجيش في المنطقة في ذلك الحين هو

إمبراطور المستقبل فسبسيانُس- وكانت هذه أسوأ ثورات اليهود التي اضطر الرومان للسيطرة عليها، فبعد سبع سنوات من الاقتتال وصلت المجاعة بأهل أورشليم إلى حد أكل لحوم البشر لكي يبقوا على قيد الحياة، ودُمِّر الهيكل الذي أعيد بناؤه بعد العودة من السبي، وفضَّلت القوات اليهودية الأخيرة أن تنتحر انتحارًا جماعيًا على أن تُسلِّم معقلها في مسادة في عام ٧٣ م. أما المسيحيون فلم يشاركوا في هذه الثورة، وربما خففَ هذا من ارتياب السلطات الرومانية بهم. ولكن اليهود الآخرين خارج فلسطين لم يشاركوا بها أيضًا، لهذا تُركوا وشأنهم تحت حكم سلطاتهم الدينية الخاصة، أما أورشليم فقد أخذت من اليهود بعد الثورة -وجعل منها هادريانُس مستوطنة إيطالية في عام ١٣٥ وأقصى جميع اليهود عن منطقة اليهودية- إلا أن هذه الثورة وعواقبها قد زادت الشعب اليهودي وعيًا لذاته واعتمادًا على التقيُّد الصارم بالشريعة، لأن الهيكل قد زال من الوجود. وزاد هذا الأمر من صعوبة وضع المسيحيين اليهود.

كان اليهود أول من اضطهد المسيحيين، فهم الذين طالبوا بصلب المسيح، كما أنهم قتلوا أول شهداء المسيحيين (القديس إسطفانُس) وسبَّبوا للقديس بولس أشد المحن العصيبة في حياته. ويقول بعض العلماء إن يهود روما جعلوا من المسيحيين أكباش فداء بأن اتهموهم بتسبيب الحريق الكبير الذي اندلع في المدينة في عام ٦٤م فجلبوا عليهم أول اضطهاد روماني، وهو الذي تقول الأسطورة إن القديسين بطرس وبولس قد هلكا فيه. ولا ريب أن عددًا كبيرًا من المسيحيين ماتوا ميتة فظيعة في ميدان الألعاب أو أحرقوا أحياء، ولكن هذه الأحداث الرهيبة كانت محليَّة وغير شائعة، بل يبدو أن المسيحيين ظلوا يتمتعون عادة بالتسامح الرسمي -حتى وقت متقدم من القرن الثاني الميلادي- أما الناس فكانوا يرتابون بهم ويلفقون عليهم

القصص، فيقولون إنهم يمارسون السحر الأسود وأكل لحوم البشر وسفاح القربى، وكان بعض الرومان يكرهون أفكارهم التي تشجّعهم على اعتبار أنفسهم مساوين لسادتهم في نظر الله، وبالتالي على مقاومة السلطة التقليديَّة للزوج على زوجته والوالدين على أبنائهما والسيد على عبيده. ومن الطبيعي أن يعتبر المؤمنون بالخرافات أن المسيحيين هم سبب الكوارث الطبيعية، فكانوا يقولون إن الآلهة القديمة أغضبها التسامح مع المسيحيين فصارت ترسل المجاعات والفيضانات والأوبئة. إلا أن هذا لم يؤثّر كثيرًا في الإدارة، ولم تدخل السلطة صراعًا رسميًا ضد المسيحية إلا في القرن الثاني.

اضطهاد المسيحية وتطورها

لقد تبين في ذلك الحين أن بعض المسيحيين يرفضون تقديم القرابين للإمبراطور والآلهة الرومانية. وكان اليهود أيضًا يرفضون القيام بهذا، ولكن الرومان كانوا يقبلونه منهم لأنهم يعتبرونهم شعباً متميّزاً له عاداته التي يجب احترامها. أما المسيحيون فإن أكثرهم لم يعودوا الآن يهودًا، فلماذا لا يقومون إذن بأعمال التوقير الرسمي هذه مثل غيرهم؟ وبالتالي فقد أدينوا لا لأنهم مسيحيون بل لأنهم رفضوا القيام بشيء يأمر به القانون. ولا ريب أن هذا الأمر قد حرض الاضطهاد على المستوى غير الرسمي، فظهرت المذابح والمضايقات بحق المسيحيين في القرن الثاني في أنحاء كثيرة من الإمبراطورية، خاصة في غاليا.

إلا أن هذا القرن كان أيضًا قرن تقدُّم بالنسبة للكنيسة. وفي هذا العصر ظهر أول «آباء الكنيسة»، وهم شخصيات كبيرة من علماء اللاهوت والإداريين، وضعوا الخطوط الأساسية للعقيدة المسيحية من أجل أن يميزوها بوضوح عن العقائد

الأخرى ويحددوا واجبات المسيحيين ووظائفهم. ومن هؤلاء الآباء اثنان كانا على أهمية خاصة بسبب الطريقة التي حاولا بها ربط المسيحية بالأفكار الإغريقية -فساهما بالتالي في فصل المسيحية عن غيرها من العبادات الشرقية الكثيرة- وهما القديس إكليمَنضُس الإسكندري وتلميذه أوريجنس. لقد كانت منجزات الآباء الفكرية والمعنوية عظيمة، وقد ساعدتهم بعض تيارات ذلك العصر، إذ كان البحث جاريًا عن أساليب جديدة في الدين في كافة أرجاء العالم الروماني في القرن الثاني، فاستفادت المسيحية من هذا. كما أن الأفكار الجديدة كانت تنتشر بسرعة في عالم يضمه القانون والنظام الرومانيان، ويستطيع الناس فيه أنْ يسافروا بحرية ويجدوا أشخاصًا يتحدثون اللغة اليونانية في كل بقعة منه.

عند نهاية القرن الثالث -ربما- كان حوالى عشر عدد السكان في الإمبراطورية مسيحيين، وكان قد جاء إمبراطور مسيحي أيضًا -بالاسم على الأقل- كما يبدو أن هناك إمبراطورًا آخر قد ضم يسوع المسيح إلى الآلهة التي يعبدها في مسكنه. وفي أماكن كثيرة صارت السلطات المحليّة تألف التعامل الرسمي مع الزعماء المسيحيين المحليين، الذين كثيرًا ما كانوا رجالاً بارزين في جماعاتهم، ويلعبون كأساقفة دورًا كبيرًا في إدارة شؤونها وفي تمثيلها. ولقد كانت لدى الإمبراطورية هموم أخرى أولى من هذه الديانة التي لا يسعى أفرادها لتسبيب المتاعب.

الحدود

فَرثية وفارس

منذ عام ٩٢ ق.م كان جيش روماني قد وصل إلى نهر الفرات، وللمرة الأولى صارت الجمهورية على اتصال مباشر بالفرثيين، وهم شعب سوف يلعب دورًا هامًا في شؤون الرومان طوال القرون الثلاثة التالية. وهذا ما حدث بعد حوالى

أربعين سنة، عندما غزا جيش روماني بلاد الرافدين، فمحي خلال أسابيع قليلة عن بكرة أبيه في واحدة من أبشع الكوارث العسكرية في التاريخ الروماني، وبات من الواضح أن الفرثيين شعب لا يسهل التدخل في شؤونه. كان الفرثيون شعبًا آخر من تلك الشعوب الهندية الأوربية البدوية الأصل الآتية من آسيا الوسطى، وكانوا مشهورين بطريقتهم في القتال، فكانوا يتظاهرون بالفرار ثم يستديرون في سروجهم لإطلاق السهام نحو الخلف من على ظهور الخيل وهي تجري، ومن هنا أتت تسمية «الرمية الفرثية». وكانوا قد اختاروا الاستقرار في جنوب شرقي بحر قزوين، في منطقة صارت تعبرها بعد ذلك طريق هامة للقوافل من الصين إلى بلاد الشام هي طريق الحرير، وسوف تجلب هذه الطريق الثروة للملوك الفرثيين في المستقبل. وكانوا يعيشون هناك تحت حكم الفرس أولاً ثم تحت حكم السلوقيين، إلى أن ضاق الحاكم الفرثي المحلي في منتصف القرن الثالث ق.م بحكم الأخيرين وقرَّر أن يخلع نيرهم، فكانت تلك بداية المملكة الفرثية المستقلة التي سوف تستمر حوالى خمسمئة عام.

في إحدى مراحلها في القرن التالي كانت الإمبراطورية الفرثية تمتد من بَلخ(*) في الشرق حتى بابل والفرات الذي يفصلها عن سورية في الغرب -أي كل ما بقي في ذلك الحين من المملكة السلوقية- وحتى أباطرة الصين ارتأوا أن يفتتحوا معها علاقات دبلوماسية -وربما كان من أسباب ذلك شهرة الخيول الفرثيَّة البديعة التي كان الصينيون يقدرونها أيّما تقدير- وكان الملوك الفرثيون يسمون أنفسهم على قطع نقودهم «الملك العظيم» و«ملك الملوك»، وهي ألقاب تقليدية لحكام فارس،

(*) مدينة قديمة في أفغانستان غربي مزار شريف وجنوبي مجرى آمودريا.

وكانوا يدَّعون أنهم ورثة سلطة الأخمينيين. ولكن فرثية لم تكن في أيامها الأولى دولة مركزية منظمة على الأرجح، بل كانت أشبه بتحالف من النبلاء الكبار الذين يأتون بالفرق العسكرية المكونة من أتباعهم ليضموها إلى جيش سيدهم. وعندما واجه الرومان جيشهم كان هذا قوة حربية مخيفة، فعدا عن خيالته رماة السهام المشهورين كان فيه سلاح غير موجود عند الرومان هو سلاح الخيالة المدرَّعين بدروع ثقيلة، والذين يمتطون خيولاً مغطاة هي أيضًا بدروع ذات زرد.

لقد ظلت روما وفرثية تتنازعان على أرمينيا زمنًا طويلاً، وهي مملكة حدودية إلى الشرق من الأناضول كان كل منهما يعتبرها ضمن مجاله. واستمرت الصراعات سجالاً بينهما، مرة ينتصر هذا ومرة ذاك، وفي إحدى المرات احتل جيش روماني العاصمة الفرثية، إلا أن الحدود لم تتغير كثيرًا. كانت منطقة النـــزاع هذه بعيدة جدًا عن روما، لذلك لم يكن بإمكانها أن تتمسك بفتوحاتها هناك إلا بمجهود كبير ومصاريف باهظة، كما أن مشاكل الملوك الفرثيين في بلادهم كانت تشغلهم وتمنعهم من طرد خطر الرومان من آسيا بشكل كامل. وفي حوالى عام ٢٢٥م قُتل آخر ملك فرثي عن يد حاكم فارس الذي كان تابعًا له. هذا الرجل الذي أطاح به اسمه أردشير، وسوف يحيي أحفاده عظمة الأخمينيين وأبهتهم من جديد، ويعيدون السيادة الفارسية إلى قسم كبير من الشرق الأدنى.

كانت تلك هي الإمبراطورية الفارسية الساسانية -التي سُمِّيَتْ على اسم ساسان أحد أجداد أردشير- والتي سوف تصبح ألد أعداء روما. لقد سعى حكَّامها للتشديد على استمرارية الماضي، فاتخذوا الألقاب الملكية الفارسية التقليدية والديانة الزرادشتية، كما أن أردشير ادَّعى الحق بكل الأراضي التي كان يحكمها داريوس أعظم الأخمينيين. وكانت تقاليد الإدارة الساسانية تعود لزمان أبعد من هذا أي إلى

أشور وبابل، وكذلك ادعاء الملك بالسلطة الإلهيَّة. إلا أن هذه الادعاءات لم تسلم من النــزاع، فقد حصلت صراعات بين الملكية وكبرى أسر النبلاء التي ادعت التحدُّر من الزعماء الفرثيين القدامى الذين كانوا يريدون الاحتفاظ بالسلطة في أيديهم. ولكن في النهاية، وبعد قرون من الصراع، سوف تعيش الإمبراطورية الساسانية فعليًا حياة أطول من حياة الإمبراطورية الرومانية. وقد زاد من خطرها أنها ظهرت في وقت كانت روما فيه مكبَّلة بالأخطار في أماكن أخرى وبالاضطراب في شؤونها الداخلية، وبقي الوضع دومًا على هذه الصورة. فقد جاء مثلاً بين عامي ٢٢٦ و ٣٧٩ م خمسة وثلاثون إمبراطورًا رومانيًا، بينما لم يحكم في فارس إلا تسعة ملوك ساسانيين، وكانت فترات الحكم الطويلة هذه والاستقرار الملازم لها ميزات كبيرة. ربما كان شابور الأول (٢٤١-٢٧٢) أبرز ملوك الساسانيين، على الأقل حتى نهاية سلالته، وقد أسر ذات مرة امبراطورًا رومانيًا -هو ڤاليريانُس المسكين الذي يقال إن الفرس سلخوا جلده حيّاً وحشوه، ولكن قد لا تكون هذه الرواية صحيحة- كما أن شابور فتح أرمينيًا وغزا مقاطعتي سورية وكبدوقية الرومانيتين في مناسبات عديدة. وقد مرَّت بعد ذلك فترات طويلة من السلام بين روما وفارس، إلا أن هاتين القوتين الكبريين لم تتمكَّنا من التعايش الهادئ قط.

كانت الإمبراطورية الرومانية قد بلغت أقصى مداها قبل هذا بزمن طويل، عندما مات الإمبراطور ترايانُس -تراجان- في عام ١١٧. وكانت تغطي في ذلك الحين مساحة تبلغ حوالى نصف مساحة الولايات المتحدة الحالية، وكانت أراضيها تمتد من شمال غربي إسبانيا حتى الخليج الفارسي. وكانت أرمينيا قد ضُمت في عام ١١٤ م، فوصل هذا بحدود روما إلى بحر قزوين في الشمال الشرقي، وكانت مقاطعة داسيا الكبيرة إلى الشمال من الدانوب قد فتحت قبل ذلك ببضع سنوات.

صحيح أنهم اضطروا للتخلي عن بعض تلك الأراضي فور احتلالها -خاصة الواقعة منها وراء الفرات- ولكن هذه الرقعة الواسعة كانت مصدر مشاكل أمنية هائلة حتى من دونها. ورغم أنه لم تكن هناك قوة كبرى تهدد روما إلا في الشرق - وهي دولة مثل روما قادرة على حشد الجيوش الكبرى في ميادين القتال وتنفيذ الخطط الدبلوماسية والاستراتيجية الطويلة الأمد - فإن المشاكل في المناطق الأخرى باتت أعصى على المعالجة بمرور الزمن. وربما كانت أفريقيا هي المكان الوحيد الذي بقيت فيه الأمور هادئة بعد ضم موريتانيا في عام ٤٢ م، إذ لم يكن لروما هناك جيران ذوو شأن، ولم تكن فيها مجموعات سكانية هامة خلف حدود الحكم الروماني مباشرة، حيث لا شيء إلا الصحراء الممتدة بلا نهاية.

أوربا: الحدود المحصَّنة(*)

أما في أوربا فكانت الأمور مختلفة، إذ كانت توجد على طول الحدود الممتدة من البحر الأسود إلى مصبات نهر الراين شعوب «جرمانية» كثيرًا ما كان الرومان في حالة حرب معها، وكانوا قد طردوا بعضها من مواطنها الأصلية، ولكن الجرمان كانوا خصومًا أشداء. كان أوغسطس قد أمل بتوسيع حدود الإمبراطورية حتى نهر الإلب -لابه- ولكن بات من الواضح أن هذا غير ممكن، خاصة بعد الكارثة الكبرى التي حلت بالجيش الروماني في عام ٩ م حين محيت ثلاثة فيالق عن بكرة أبيها في هزيمة نالت من معنويات الرومان بصورة كبيرة، حتى إنهم لم يسمحوا من بعدها بظهور أرقام تلك الفيالق في لائحة الجيش؛ وبسبب المشاكل الناجمة عن وجود هذه الشعوب تم صنع الحدود المحكمة للإمبراطورية.

(*) the limes.

و لم يكن الهدف من هذه الحدود تبيان أين تنتهي مسؤوليات حكومة، وتبدأ مسؤوليات حكومة أخرى فقط كما هي الحال في الحدود بين أكثر الدول اليوم- بل كان الغرض منها حماية ما يكمن داخلها وفصله عما يقبع خارجها. كانت الحدود تفصل بين درجتين متباينتين من الثقافة، فضمنها تقع أوربا "اللاتينية" المتميّزة عن المجتمعات الجرمانية في الشمال وخلف نهر الدانوب، ولم يكن السلاف قد وصلوا إلى خشبة المسرح بعد. فعلى الجانب الروماني من الحدود كان يسود النظام والقانون والأسواق المزدهرة والمدن الراقية، أي باختصار الحضارة، بينما كانت تنتشر على الطرف الآخر المجتمعات القبلية والتخلف والأمية والبربرية. وكان من المستحيل بالطبع أن تنعزل هاتان المنطقتان انعزالاً كاملاً والحقيقة أن الحركة بالاتجاهين لم تنقطع قط، إلا أن الرومان كانوا ينظرون إلى ما وراء الحدود نظرة حذر ويقظة. وكانوا يقيمون هذه الحدود على عوائق طبيعية كلما أمكنهم ذلك، وكان أكثرها على طول نهري الراين والدانوب، أما في الفجوات الواقعة بين تلك العوائق الطبيعية فكانوا يبنون التحصينات من التراب أو الخشب أو الحجر أحيانًا، ويضعون على طولها معسكرات دائمة للفيالق تربط فيما بينها أبراج إشارة ونقاط دفاع أصغر. وكانت الطرق تمتد على طول الحدود بحيث يستطيع الجنود أن يسيروا بسرعة من نقطة إلى أخرى، وكانت هناك أشغال طويلة تمتد بين أعلى الراين والدانوب، وأشغال أخرى في دوبروجا(*) تمتد حتى البحر. ولكن أبرز تلك الأشغال هو ما يعرف -حتى اليوم- بسور هادريانُس على اسم الإمبراطور الذي بناه؛ وقد ابتدأ العمل في سور هادريانُس في حوالى عام ١٢٢م في شمال بريطانيا بين نهر التاين

(*) منطقة في رومانيا بين البحر الأسود والدانوب.

ولسان سولواي البحري، وهو مبني من الحجر ويمتد على طول ثمانية أميال رومانية -حوالى ١٢٠كم- وتحميه من الجانبين خنادق يبلغ عرضها حوالى عشرة أمتار وعمقها ثلاثة، فضلاً عن ستة عشر حصنًا، ونقاط دفاع أصغر تبعد الواحدة عن الأخرى حوالى ١,٥ كم، وبرجين بين كل نقطتي دفاع؛ وقد قال مدون سيرة هادريانُس إن الغرض من هذا السور كان "فصل الرومان عن البرابرة". ولكن هذه الحواجز لم تكن فعَّالة إلا إذا زودت تزويدًا كافيًا بالرجال، وقد ضعفت الحامية التي تحرس سور هادريانُس مرتين، مرة عند نهاية القرن الثاني ومرة خلال القرن الرابع، فاجتاحته عندئذ شعوب الاسكتلنديين والبيكت البربرية التي غزت الإمبراطورية حتى مسافة بعيدة في الجنوب وأعملت فيها النهب والتدمير.

أما في القارة الأوربية فرغم أن الحدود على نهر الراين كانت قصيرة نسبيًا فقد كانت تحرسها ثمانية فيالق. في عهد أوغسطس كان أفراد الجيش جنودًا متطوعين يخدمون خدمة طويلة وصاروا يأتون من المقاطعات بصورة متزايدة. وكثيرًا ما كانوا من البرابرة، ولم تقتصر خدمتهم على الوحدات الخاصة ذات الخلفيَّة المحليّة -مثل الرماة المهرة في جزر البَليار بإسبانيا والخيالة المدرَّعة الثقيلة في مقاطعات الدانوب- بل كانوا يخدمون أيضًا في فيالق المشاة التي كانت قلب قوة روما العسكرية. وكان هناك في العادة ثمانية وعشرون فيلقًا تبلغ حوالى ١٦٠,٠٠٠ رجل بالإجمال، تخدم كلها على طول الحدود أو في المقاطعات البعيدة مثل إسبانيا ومصر، وكان هناك نفس هذا العدد من الرجال تقريبًا في الوحدات الاحتياطية والمختصة كالخيَّالة. إن الخدمة الطويلة في المناطق نفسها قد جعلت الفيالق أقل حركة مع مرور الزمن، فكانت مدن الحاميات تضم مجموعات كبيرة من الأتباع وعائلاتهم والذين يصعب عليهم أن ينتقلوا من مكان إلى آخر. إلا أن الشبكة

الداخلية من الطرق ظلّت تؤمّن لقواد الإمبراطورية ميزات كبيرة في تحريك قواهم بسرعة، وقد تغيّر توزيع وحدات الجيش رويدًا رويدًا بصورة تعكس الاحتياجات الاستراتيجية، ففي بداية القرن الثالث كانت نصف فيالق الراين قد نقلت، بينما تضاعف حجم الجيش على الدانوب بمقدار مثلين.

ضغوط البرابرة

بعد عام ٢٠٠ م بقليل كان ضغط الشعوب الجرمانية على الحدود في تصاعد مستمر وباتت تطالب بعبور تلك الحدود والاستقرار ضمن أراضي الإمبراطورية. ولا ريب أن بعضهم قد اجتذبتهم الحضارة والثروة، ولكن كانت هناك أيضًا قوة أخرى هامة تؤثّر عليهم، هي ضغط شعوب أخرى تقع إلى الشرق كانت تدفعها هي أيضًا بدورها نحو الغرب تغيُّرات في آسيا الوسطى إما طبيعية -كالمناخ- أو سياسية -مثل مضايقة أباطرة الهان في الصين لشعب الهسيونغ نو الذي سوف يعرفه الأوربيون لاحقًا باسم الهون- فكانت تجري إذن عملية دفع للشعوب نحو الغرب، وفي نهاية السلسلة كانت القبائل الجرمانية التي صار محتمًا عليها أن تصطدم بحدود الإمبراطورية الرومانية.

يبدو أن البرابرة لم يكونوا قادرين على حشد أكثر من عشرين أو ثلاثين ألف رجل في ميدان المعركة مرة واحدة، ولكن هذه الأعداد كانت أقوى من قدرة الإمبراطورية في القرن الثالث، وكان من المستحيل عليها أن تصدهم إلى الأبد بسبب الضغوط والمشاغل التي كانت تؤرقها في أماكن أخرى. وقد سمح أولاً لبعض قبائل الراين بالإقامة في الأراضي الرومانية، حيث جُندوا عندئذ للمساعدة في حماية الحدود من القادمين الجدد.

وبعد ذلك عبر القوط، وهي عائلة جرمانية أخرى من الشعوب، نهر الدانوب في عام ٢٥١ -وقتلوا إمبراطورًا في معركة- وبعد خمس سنوات عبرت شعوب الإفرنج نهر الراين وسرعان ما راحت مجموعة أخرى هي الألمان تُغير حتى ميلانو جنوبًا. وفي تلك الأثناء تابع القوط مسيرهم إلى اليونان ثم راحوا يضايقون إيطاليا وآسية الصغرى من البحر.

وكان هذا زمنًا عصيبًا بالنسبة لروما، فبينما كانت هجمات البرابرة مستمرة بدأت مرحلة جديدة من الحرب الأهلية والنـــزاعات على الخلافة. وقد قتل عدد من أباطرة القرن الثالث عن يد جنودهم، ومات أحدهم على يد القائد العام لقواته، ثم ذبح الغاليون هذا الأخير بعد أن وشى به أحد ضباطه. وحتى الناس البعيدون عن هذه الأحداث العنيفة أصابتهم الضرائب الباهظة والانحسار الاقتصادي والتضخُّم الفظيع، و لم يعد الوجهاء المحليون يرغبون بالخدمة في مجالس المدن أو في الإدارة لأن هذه المناصب صارت تعني أنهم سيجلبون على أنفسهم كراهية الشعب بسبب جبي تلك الضرائب، وكثيرًا ما كانت ضرائب عينية جراء تفاقم الأزمة المالية. كما أن هناك علامة أخرى على التدهور هي إعادة بناء الأسوار الدفاعية حول المدن. و لم تكن هناك حاجة لتلك الأسوار على عهد الأباطرة الأنطونيين، أما الآن، فحتى أسوار روما قد تم ترميمها، كما بنيت في القرن الثاني تحصينات حول مدن لم تحصن من قبل قط.

ديوقليتيانُس وقسطنطين

لقد تغيَّر طالع روما في نهاية القرن الثاني عندما جاءتها سلسلة جديدة من الأباطرة الأكفاء؛ وكان أول من قلب التيار رجلاً من مقاطعة إليريا هو أورليانُس

الذي سمّاه مجلس الشعب تسمية تليق به هي "محيي الإمبراطورية الرومانية"، ولكنه اغتيل عندما كان على وشك غزو فارس. إلا أن خلفاءه كانوا هم أيضًا عسكريين أكفاء مثله، فبعد حوالى عشر سنوات من موت أورليانُس ارتقى العرش رجل آخر من إليريا هو ديوقليتيانُس، الذي أعاد صنع قوة الإمبراطورية القديمة ومجدها - ظاهريًّا على الأقل- كما أنه بدَّل طريقة عملها. وكان ديوقليتيانُس ذا أصول متواضعة وتفكير تقليدي جدًا، وكان ينظر لدوره نظرة عالية للغاية، فقد اتخذ اسم جوبيتر وهو رب الأرباب عند الرومان أي زفس عند الإغريق، ويبدو أنه كان يرى نفسه مثل إله يحمل العالم المتحضِّر بمفرده.

وحاول ديوقليتيانُس أن يُقدِّم علاجات أكثر عملية لمشاكل الإمبراطورية، فجرَّبَ أن يضبط الأسعار والأجور من أجل إيقاف التضخُّم ولكن محاولته هذه انتهت بكارثة. إلا أن أهم خطوة اتخذها كانت خطوة -ربما- لم ير هو نفسه نتائجها البعيدة، إذ إنه قد مهد الطريق أكثر من أي رجل آخر لتقسيم الإمبراطورية إلى كيانين شرقي وغربي سوف يسير كل منهما في سبيله. وقد تجادل الناس كثيرًا حول ما إذا كانت هذه النتيجة حتمية أم لا. كانت روما قد صهرت جزءًا كبيرًا من إمبراطورية الإسكندر في الشرق المتهلِّن بالعالم الإغريقي الغربي الذي لم يزره ذلك الفاتح الكبير قط، ولكن بقيت هناك دومًا فروق واضحة بين الاثنين، إلا أن الضغوط لم تظهر إلى أن تبدَّت مصاعب القرن الثالث. وبات من المستحيل معالجة مشاكل الغرب مع وجود الحاجة لموارد الشرق الغني ضد البرابرة والفرس. في عام ٢٨٥م جرب ديوقليتيانُس أن يحلَّ المشاكل عن طريق تقسيم الإمبراطورية على

طول خط يمتد من الدانوب إلى دَلْماتيا(*)، وعين إمبراطورًا شريكًا له على النصف الغربي يحمل مثله لقب أوغسطس، وكان لكل منهما مساعد يعين كخليفة له ويسمى قيصرًا. ثم تبعت ذلك تغيُّرات أخرى، فزالت سلطات مجلس الشيوخ القليلة الباقية، ولم تعد عضويته إلا لقبًا فخريًا، كما قُسِّمت المقاطعات السابقة إلى وحدات أصغر يحكمها رجال معيَّنون من قبل الإمبراطور، وأعيد ترتيب الجيش ووسِّع كثيرًا وأعيد التجنيد الإلزامي وسرعان ما صار هناك حوالى نصف مليون رجل جاهز للقتال.

ولا ريب أن هذه الترتيبات قد حسَّنتْ الأوضاع لفترة من الزمن، ولكن كانت لها أيضًا نقاط ضعفها. إن تلك الآليّة التي أريد منها تأمين الخلافة السلسة لمنصبي أوغسطس لم تعمل إلا مرة واحدة عندما تنازل ديوقليتيانس وزميله عن العرش في عام ٣٠٥ م –وانسحب ديوقليتيانُس إلى قصره الكبير في سپليت على ساحل كرواتيا الذي مازالت آثاره تحيط بجزء كبير من المدينة الحالية هناك– لقد اقتضى كبر حجم الجيش فرض المزيد من الضرائب على سكان الإمبراطورية الذين تناقصت أعدادهم. ولكننا نرى على المدى البعيد أن خطوة عظيمة الأهمية قد اتخذت؛ فرغم أن خلفاء ديوقليتيانُس لم يلتزموا بتقسيم الإمبراطورية حسب المخطط الذي وضعه، ورغم حصول محاولات أخرى لحكمها كوحدة واحدة، فإن كل إمبراطور في المستقبل كان مضطرًا عمليًا لتقبل مقدار كبير من الانقسام بين الشطرين.

(*) منطقة ساحلية في كرواتيا على بحر الأدرياتيك.

وثمة جانب آخر من جوانب جهود الإصلاح هذا، هو زيادة التشديد على سلطة الحاكم الفريدة والإلهيَّة تقريبًا، وهي في الحقيقة ناحية شرقية، وتدل على أن الناس لم يعودوا يثقون بالإمبراطورية ثقة كاملة ولا يشعرون بالولاء لها كما في السابق، وسوف يكون هذا التطور على أهمية كبيرة لمستقبل المسيحية وفأل شر لتقاليد التسامح الديني الإغريقية الرومانية القديمة. لقد أعيد إحياء مسألة تقديم المسيحيين القرابين للإمبراطور، وفي عام ٣٠٣ م بدأ ديوقليتيانُس آخر اضطهاد عام للمسيحية، ولكنه لم يدم طويلاً بعد تنازله عن العرش الذي حدث بعد ذلك بسنتين، ولو أنه استمر في مصر وآسيا فترة أطول بقليل منه في الغرب.

والمفارقة هي أن المسيحية كانت في ذلك الحين على عتبة أولى انتصاراتها العالمية الكبرى بفضل عمل الإمبراطور الذي يمكننا اعتباره أهمهم جميعًا، ألا وهو قسطنطين الذي نادى به جيشه إمبراطورًا في مدينة يورك بإنكلترا في عام ٣٠٦ والذي أعاد توحيد الإمبراطورية في عام ٣٢٤ بعد عقدين من الحرب الأهلية. كان قسطنطين قد قرَّر أن يرى ما إذا كان إله المسيحيين سيساعده، وليس ثمة ما يدعو للشك بصدقه وإخلاصه الديني، إذ يبدو أنه كان دومًا يتوق لعبادة توحيدية وظل لزمن طويل يعبد الإله الشمس الذي كانت عبادته مرتبطة بعبادة الإمبراطور. وفي عام ٣١٢ تراءت له رؤيا في عشيَّة معركة هامة جعلته يأمر جنوده بأن يضعوا على تروسهم حروفًا ترمز للمسيحية كطريقة لإظهار تبجيله لإله هذه الديانة. وقد ربح قسطنطين المعركة بالفعل، وسرعان ما شمل تسامح الإمبراطور وعطفه المسيحية، فراح يمنح الهبات للكنائس –ولو أن نقوده بقيت سنوات طويلة تحمل رمز الشمس– وبدأ يشارك في شؤونها الداخلية عن طريق التحكيم في الخلافات الكنسية

الهامة عندما تطلب منه ذلك الأطراف المتنازعة، وإننا نشعر في أعماله بأنه يتحول رويدًا رويدًا نحو اعتناق المسيحية.

ومنذ عام ٣٢٠ لم تعد الشمس تظهر على نقوده وصار على جنوده أن يحضّروا المواكب الكنسية، وفي عام ٣٢١ جعل يوم الأحد Sunday عطلة عامة – ولكنه قال إن هذا كان توقيرًا للإله الشمس the sun-god– كما بنى الكنائس وشجع معتنقي المسيحية عن طريق منحهم الجوائز والوظائف. وأخيرًا أعلن أنه مسيحي، ولو أنه لم يتنكر رسميًا للديانات والعبادات القديمة قط. و لم يتلق قسطنطين المعمودية إلا عندما كان على سرير الموت، مثل كثيرين من المسيحيين الأوائل، ولكنه في عام ٣٢٥ ترأس أول مجمع مسكوني للكنيسة في نيقيا –والمجمع المسكوني هو الذي يحضّره الأساقفة من كافة أرجاء العالم المسيحي– فكانت هذه بداية التقليد الذي يمنح الأباطرة سلطة دينية خاصة والذي سوف يستمر حتى –القرن السادس عشر– لقد ساهم قسطنطين أيضًا مساهمة أخرى كبيرة في المستقبل عندما قرّر أن يجعل عاصمته في بيزنطية، وهي مستوطنة إغريقية قديمة عند مدخل البحر الأسود سوف تعرف بالقسطنطينية. وكان يرغب في أن يبني هناك مدينة تضاهي روما نفسها، ولكنها غير ملوثة بالديانة الوثنية، وسوف تظل القسطنطينية عاصمة إمبراطورية طوال ألف سنة ومركزًا للدبلوماسية الأوربيّة لخمسمائة عام أخرى. إلا أن أعمق الآثار التي تركها قسطنطين في تشكيل المستقبل إنما هو جعل الإمبراطورية مسيحية، إذ إنه كان يؤسّس أوربا المسيحية من دون أن يعلم، وقد قيل بحق إنه يستحق لقبه أي قسطنطين «الكبير» بسبب أهميّة أعماله لا بسبب دوافعه أو شخصيته.

كانت الأخطار الخارجية على الإمبراطورية الشرقية تبدو في أيام قسطنطين أقل منها على الإمبراطورية الغربية؛ وقد ساهمت أعماله في زيادة الانقسام الثقافي بين الشطرين. كان الشرق أغنى بالسكان وقادرًا على إطعام نفسه وجمع كميات أكبر من الضرائب ومن المجنّدين، أما الغرب فقد صار أفقر وتراجعت مدنه وصار يعتمد على استيراد الحبوب من أفريقيا وجزر المتوسط، وأضحى في النهاية معتمدًا على تجنيد البرابرة للدفاع عن نفسه؛ كما ازداد تألق القسطنطينية رويدًا رويدًا حتى صارت تضاهي روما بل تفوقها بهاء. والأهم من كل هذا أن المسيحية ساهمت في تشديد الانفصال بين منطقتين اثنتين، فأصبح هناك غرب يتحدث اللاتينية فيه جماعتان مسيحيتان كبيرتان إحداهما رومانية -يرأسها أسقف هو بابا روما- والأخرى أفريقية، وازداد ابتعادهما عن الكنائس الناطقة باليونانية في آسيا الصغرى وسورية ومصر، التي كانت كلها أكثر تقبلاً للتأثيرات الشرقية وأشد تأثرًا بالتقاليد الهلنستية.

نهاية الإمبراطورية في الغرب

لقد حكم أبناء قسطنطين الإمبراطورية حتى عام ٣٦١، ولكنها سرعان ما تقسّمت من جديد فصار يحكمها إمبراطوران شريكان، و لم ينضم الشرق والغرب بعدها تحت حكم رجل واحد إلا مرة واحدة. كان هذا الرجل هو الإمبراطور ثيودوسيوس، الذي منع أخيرًا في عام ٣٨٠ عبادة الآلهة الوثنية القديمة، فوضع بذلك وزن الإمبراطورية بأكمله في كفة المسيحية وانقطع عن الماضي الروماني القديم. إلا أن الأمور في أيامه ما برحت تتدهور في الغرب بصورة متسارعة، إلى أن اختفت الإمبراطورية الغربية في عام ٥٠٠.

ولم يحدث زلزال ويبتلع المجتمع فجأة، أي أن الدولة الرومانية لم تزل من الوجود بل إن الذي اختفى هو جهازها في الشطر الغربي، أو بالأحرى ما بقي منه. في القرن الرابع كانت علامات التراجع واضحة في الإدارة الإمبراطورية الغربية وازدادت المطالب على مواردها المتناقصة، ولم تحدث فتوحات جديدة يمكن أن تساعد في دفع تكاليف الدفاع عنها. ومع ارتفاع الضرائب صار الناس يغادرون المدن ويحاولون العيش في الأرياف حيث يمكنهم أن يكتفوا بذاتهم ويهربوا من الضرائب. وإن نقص المال هذا قد أفقر الجيش فجعله أكثر اعتمادًا على المرتزقة البرابرة، وكلّف هذا الأمر الدولة المزيد من المال، كما أنها كانت مضطرة لتقديم التنازلات للبرابرة بينما كانت حدودها خاضعة لضغوط موجات جديدة منهم.

وفي الربع الأخير من القرن الرابع هجم شعب بدوي شديد الشراسة من آسيا هو شعب الهون على الشعوب القوطية التي كانت تعيش على ساحل البحر الأسود والقسم الأسفل من الدانوب وراء الحدود الرومانية، ورتبت الإمبراطورية الشرقية بصورة سلمية استقرار اللاجئين منهم ضمن حدودها، ولكن أحد تلك الشعوب وهم شعب الڤيزيغوط -القوط الغربيُّون- انقلبوا على الرومان وقتلوا في عام ٣٧٨ إمبراطورًا في معركة أدريانوپل، وسرعان ما تدفّق المزيد والمزيد منهم ضمن أراضي الإمبراطورية حتى صاروا مثل إسفين يفصل القسطنطينية عن الغرب. وبعد سنوات قليلة عادوا يتحركون من جديد ولكن نحو إيطاليا هذه المرة، وكان الذي أوقفهم قائدًا عسكريًا ڤانداليًا يعمل في خدمة الإمبراطورية. ومنذ عام ٤٠٦ صارت الإمبراطورية تستخدم قبائل البرابرة «كحلفاء» foederati وهي كلمة تدلّ على البرابرة الذين لا يمكن مقاومتهم ولكن يمكن إقناعهم بالمساعدة. وكان هذا

أقصى ما بوسع الإمبراطورية الغربية أن تفعله الآن لحماية نفسها، وسرعان ما تبيَّن أنه لم يعد كافيًا.

التواريخ الرئيسية في القرون الأخيرة من الإمبراطورية الغربية

٢١٢م	كركلا يمنح المواطنة لجميع سكان الإمبراطورية الأحرار تقريبًا.
٢٤٩م	بداية أول اضطهاد عام للمسيحيين.
٢٨٥م	ديوقليتيانس ينظِّم الإمبراطورية في نظام جديد هو «النظام الرباعي».
٣١٣م	مرسوم ميلانو يعيد للمسيحيين أملاكهم وحرية العبادة.
٣٣٠م	تكريس القسطنطينية كعاصمة.
٣٧٦م	القوط يعبرون الدانوب.
٤٠٦م	الفاندال والسويف يعبرون الراين.
٤٠٩م	الفاندال والألان والسويف يغزون إسبانيا.
٤١٠م	انسحاب الفيالق من بريطانيا، الفيزيغوط ينهبون روما.
٤١٢-٤١٤م	الفيزيغوط يغزون غاليا وإسبانيا.
٤٢٠م	الجوت والأنكلوسكسون يرسون في بريطانيا.
٤٢٩-٤٣٩م	الفاندال يغزون شمال إفريقيا ويفتحون قرطاجة.
٤٥٥م	الفاندال ينهبون روما.
٤٧٦م	خلع آخر إمبراطور في الغرب رومولُس أوغسطولُس.

وراحت الشعوب البربرية تتجول في طول الغرب اللاتيني وعرضه؛ ففي عام ٤١٠ نهب القوط روما نفسها، وكان هذا حدثًا فظيعًا جعل القديس أوغسطينس

وهو أسقف أفريقي وأعظم آباء الكنيسة يكتب كتابًا سوف يصبح واحدًا من تحف الأدب المسيحي هو «مدينة الله»(*)، لكي يشرح كيف يمكن لله أن يسمح بحدوث شيء كهذا. وأخيرًا بلغ الڤيزيغوط في تقدُّمهم أكيتانيا في جنوب غربي فرنسا، ثم توصلوا إلى تفاهم مع الإمبراطور الذي أقنعهم بمساعدته في معالجة أمر شعب بربري آخر هو شعب الڤاندال الذي كان قد اكتسح إسبانيا في ذلك الحين. ودفع الڤيزيغوط بالڤاندال في النهاية عبر مضيق جبل طارق، فاستقرَّ الڤاندال في شمال أفريقيا حيث جعلوا عاصمتهم في قرطاجة التي أقاموا فيها، ومنها عبروا المتوسط في عام ٤٥٥ لينهبوا روما مرة ثانية.

ولكن رغم فظاعة هذه الغارة فإن ضياع أفريقيا كان هو المصيبة الكبرى لأن القاعدة الاقتصادية للإمبراطورية الغربيّة قد تقلصت وصارت محصورة بجزء من إيطاليا. ومن الصعب أن نقول متى انتهت الإمبراطورية الغربية بالتحديد، لأن ملامحها كانت تتلاشى رويدًا رويدًا وقد استمرت الأسماء والرموز فيها حتى النهاية. وعندما صُد الهون أخيرًا عن الغرب في معركة كبيرة قرب تروا -مدينة على نهر السين بفرنسا الحاليَّة- في عام ٤٥١ كان الجيش «الروماني» مؤلفًا من ڤيزيغوط وإفرنج وسلتيين وبرغنديين، وكلهم برابرة تحت قيادة ملك ڤيزيغوطي، وفي عام ٤٧٦ قتل رجل بربري آخر الإمبراطور الأخير في الغرب فمنحته الإمبراطورية الشرقية لقب «نبيل»، وكانت الإمبراطورية الغربية قد حل محلها عدد من الممالك الجرمانية ولو بقيت بعض الأشياء رومانية في الظاهر، ويعتبر عام ٤٧٦ عادة تاريخًا

(*) نشرته دار المشرق ببيروت ٢٠٠٢، ترجمة الخورأسقف يوحنا الحلو .

مناسبًا لنهاية قصة الإمبراطورية التي بدأت على عهد أوغسطس. إلا أن التاريخ لا يعرف النهايات الواضحة البسيطة، وإن الكثيرين من البرابرة -الذين كان بعضهم قد تعلموا عن يد الرومان- قد اعتبروا أنفسهم الأمناء الجدد على ما بقي من سلطة روما، وظلّوا يعتبرون إمبراطور القسطنطينية سيدهم الأعلى.

أشياء تبدلت وأشياء استمرت

في نهاية القرن الخامس كان الكثير من البرابرة قد استقروا إلى جانب النبلاء القدامى في مقاطعات غاليا وإسبانيا وإيطاليا وتبنَّوا الأساليب الرومانية، بل إن بعضهم كان قد تنصَّر، ولم يقض البرابرة على الماضي الروماني إلا في الجزر البريطانية، لهذا لم تنته قصة الحضارة القديمة في عام ٥٠٠ م بصرف النظر عما حلَّ بالإمبراطورية. قبل قرون عديدة كان شاعر روماني قد قال عن إحدى فتوحات روما "إن اليونان الأسيرة قد أسرت فاتحها الهمجي"، ويقصد بهذا، وهو على حق، أن الحضارة الإغريقية قد أسرت قلوب الرومان الذين استولوا عليها، وقد تكرَّرت هذه الصورة في الغرب عندما انهارت الإمبراطورية الرومانية عن يد البرابرة. لذلك استمر تأثير الرومان في التاريخ، ومن خلالهم استمر أيضًا تأثير الإغريق واليهود. وسوف تكون هناك إمبراطورية «رومانية» مركزها مدينة بيزنطية طوال -ألف عام تقريبًا- وحتى في عام ١٨٠٠ كان في أوربا ثمة شيء اسمه «الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة». بل مازال رجال الدين المسيحيون اليوم يرتدون لباسًا مأخوذًا عن لباس نبلاء الرومان في القرن الثاني م، ومازالت باريس ولندن وإكستر وكولونيا -كولن- وميلانو وعشرات غيرها من المدن مراكز هامة للسكان مثلما كانت في الأزمنة

الرومانية، ولو أنها مرَّت بقرون ذوى فيها ازدهارها عما كان عليه على عهد الأباطرة الأنطونيين. ومازال قسم كبير من خارطة أوربا على الشكل الذي رسمه الرومان عندما وضعوا حامياقم وبنوا طرقهم، وكثيرًا ما كانت مستوطناقم تزيد من تأثير التقسيمات الطبيعية.

ولكن -ربما- كانت الاستمرارية أوضح اليوم في الأمور غير المادية، وأهم هذه الأمور وأولها هي اللغة، لأن اللغات الأوربية غنية جدًا بالكلمات المأخوذة عن اليونانية واللاتينية، وهما اللغتان اللتان أتى بهما الكتاب المقدَّس إلى أوربا للمرة الأولى؛ كما أن الطرائق التي نستخدمها في حساب الوقت وتقسيمه إنما أتتنا من العالم الإغريقي الروماني، لأن يوليوس قيصر هو الذي تبنَّى اقتراح رجل إغريقي من الإسكندرية بأن السنة المصرية المؤلفة من ٣٦٥ يومًا مع إضافة يوم واحد كل رابع سنة هي أفضل من التقويم الروماني التقليدي المعقَّد، وعلى عهد قسطنطين صارت الفكرة اليهودية عن يوم راحة Sabbath كل سبعة أيام فكرة مقبولة، كما أننا ندين بالطبع للمسيحيين الأوائل بتقسيم التاريخ إلى ما قبل الميلاد وما بعده، وهو تقسيم مازال كل العالم المسيحي وأكثر العالم غير المسيحي يستخدمه اليوم -فبعد عام ٥٠٠ بقليل قام راهب بحساب تاريخ ميلاد المسيح وأخطأ فيه بمقدار بضع سنوات، ولكن حكمه مازال إلى اليوم أساس التقويم الذي نستخدمه- ويمكنك أن تجد أمثلة أخرى لا حصر لها في الرياضيات الإغريقية والقانون الروماني واللاهوت المسيحي وغيرها من المجالات عن أفكار ورثناها عن العصور القديمة ومازال لها تأثير تاريخي كبير حتى يومنا هذا.

عندما صار الناس في عصور لاحقة ينظرون إلى الماضي أدهشتهم كثرة الأشياء التي يدينون بها للحضارة التي أنتجتهم، فوجدوا فيها الإلهام والوحي كما وجدوا فيها المحك لتقييم أعمالهم، ولو أن الأوربيين قد بالغوا -أحيانًا- في إنجازات الإغريق والرومان، وإن لدى أكثر الحضارات عصورًا كلاسيكية تأخذ عنها المعايير التي تقيم بها إنجازاتها اللاحقة. ولقد صارت العصور الكلاسيكية أسطورة عما تستطيع الحضارة الإتيان به وعما ينبغي على الناس أن يفعلوه، ولهذا السبب ما برح الناس اليوم يسيرون بين آثار هذا الماضي العظيم مثل أجدادهم في العصور الوسطى، وما برح يفتنهم.

الفصل الخامس

نـزاعات الحضارات

بدايات بيزنطية

لقد استمرت الإمبراطورية الرومانية التي أسَّسها قسطنطين ألفًا ومئة عام من بعده في القسطنطينية، وظل حكامها دومًا يسمون أنفسهم «رومانًا»، وهذا هو أيضًا الاسم الذي كان أعداؤهم يطلقونه عليهم، وقد حكموا نصف العالم المسيحي أي قسمه الذي يقع في منطقة المتوسط والشرق الأدنى. وإنك عندما تنظر اليوم إلى تاريخ هذه الإمبراطورية تجد أسبابًا كثيرة دفعت الشطرين الغربي والشرقي إلى التباعد واتخاذ طريقين منفصلين، ولكن لم يكن بإمكان أحد أن يرى هذا الاحتمال في البداية، وهو لم يصبح أمرًا عاديًا إلا بعد أن حدثت خطوات تدريجية كثيرة. لقد تحوَّلت في البداية اهتمامات الحكومة في القرن الثالث نحو الشرق رويدًا رويدًا، وزاد هذا من أهمية المقاطعات الشرقية والناطقة باليونانية التي كانت فيها أكبر الجماعات المسيحية، كما اتخذ قسطنطين قرارات هامة بأن تكون الإمبراطورية مسيحية وبأن تبنى عاصمة جديدة على مضيق البوسفور في بيزنطية -ولو أنه لم يسكن هناك قط- وكان هذا قرارًا حاسمًا. ثم انهارت الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس فكانت تلك خطوة حاسمة أخرى باعدت بين شطري الإمبراطورية، ومن بعدها لم يعد هناك من رجعة. وصارت الإمبراطورية الشرقية -الآن- مضطرة للتفاهم مع البرابرة

المنتصرين في الغرب بأفضل شروط ممكنة، وربما، كان هذا هو الأمر الوحيد الذي حافظ على وهم أن الإمبراطورية ما زالت موحَّدة.

يوستينيانُس

بالرغم من ذلك جاء إلى العرش في عام ٥٢٧ إمبراطور هو يوستينيانس الذي ظل يأخذ وحدة الإمبراطورية مأخذ الجد وحاول مرة أخرى أن يحكمها ككيان واحد؛ ولكنه في النهاية ساهم هو أيضًا في زيادة الانفصال، ويعتقد أكثر الناس أن قصة الإمبراطورية البيزنطية المتميِّزة إنما تبدأ به. كان يوستينيانس رجلاً بغيضًا للغاية، فقد كان خداعًا وجحودًا وشكاكًا وبخيلاً، ولكنه كان -في الوقت نفسه- طموحًا ومغامرًا وشجاعًا، وكان يؤمن إيمانًا حارًا بأسلوب الحياة الرومانية وبالإمبراطورية كحامية للحضارة والديانة الحق. لقد سحق بلا رحمة الأخطار التي كانت تهدّد سلطته في الداخل، كما استعاد بعض الأراضي الرومانية في الغرب لفترة قصيرة، فطرد الأوستروغوط -أي القوط الشرقيين- من روما نفسها وحرَّر إيطاليا لفترة من الزمن، كما هزم الڤيزيغوط في إسبانيا وأعاد حكم الإمبراطورية إلى قرطبة واستعاد جزر كورسيكا وسردينية وصقلية. ولكن ثمن هذا التحرير كان باهظًا، وعندما صار الناس في أزمنة لاحقة ينظرون إلى الماضي ويلومون البرابرة على تخريب إيطاليا كانوا في الحقيقة يتفجَّعون على ما فعلته بها جيوش يوستينيانس. وكان نجاحه نجاحًا مؤقتًا على كل حال، لأن الإمبراطورية كانت تحارب دومًا على جبهتين، وقد استنــزفت منها حملاتها المكلفة ضد الفرس الرجال والمال، وعند نهاية حكم يوستينيانس كان البرابرة في تراقيا يفصلون من جديد شرق الإمبراطورية عن غربها، والحقيقة أن افتراق مصيري الشرق والغرب كان مستمرًا لا تقطعه إلا هدآت قصيرة.

كانت مساهمة يوستينيانس في الانفصال النهائي مساهمة هامة، ورغم أنه كان يفتخر بأنه يتحدَّث اللاتينية ومعجبًا بالماضي الروماني فقد ساهم أكثر من أي إمبراطور آخر في جعل بيزنطية مركز ثقافة سياسيَّة متميزة. ومن مظاهر ذلك عملية الإصلاح الكبرى التي أجراها على قانونها المعقد والمشوش، والذي كان يعود في بعض أصوله إلى أيام الجمهورية الباكرة، فأمَّنَ لها بذلك مجموعة جديدة من الاجتهادات القضائية المتماسكة، وهي عملية لم تستغرق أكثر من خمس سنوات ولكنها سوف تشكل تاريخ بيزنطية ثم تاريخ أوربا لقرون طويلة. وقد تبدو هذه خطوة محافظة، إلا أنها كانت في الحقيقة بداية طريق جديدة، وقد صار القانون الروماني الذي وضعه يوستينيانس نافذًا في الشرق من فوره، كما أنه بدأ يصبح مقبولاً في القرن الحادي عشر كأساس للاجتهادات القضائية السليمة في أوربا الغربية أيضًا. وكانت تسيطر عليه بصورة قوية النظرة إلى القانون كشيء يصنعه الحكام لا كشيء تتناقله الأجيال بحكم العادة كما في التقاليد الجرمانية، وقد راق هذا الأمر لأمراء كثيرين من بعده، ولو أنه لم يرق دومًا لشعوبهم.

واتخذ يوستينيانس قرارات أخرى أضعفت التقاليد القديمة، فعندما فتحت إيطاليا اختار أن يجعل رافينا عاصمة للإمبراطورية بدلاً من روما، كما أنه ألغى أكاديمية أثينا التي كانت مستمرة منذ عصر مؤسسها أفلاطون، إذ إنه كان مصممًا على أن يكون إمبراطورًا مسيحيًا، أو على الأقل أن يحكم إمبراطورية مسيحية الطابع، وقد صادر الكثير من الحريات الخاصة التي كان اليهود يتمتعون بها كما تدخَّل في تقويمهم وعبادتهم وشجَّع ملوك البرابرة على اضطهادهم، وكان هذا ابتعادًا عن تقليد التسامح الهلنستي الروماني القديم في أمور الدين. وتنطبق هذه المعاملة على بعض المسيحيين أيضًا، لأن يوستينيانس منح دعمه وتأييده الكاملين

لرجال الدين الأرثوذكس الذين عقدوا عددًا من المجامع الهامة حكموا فيها على بعض العقائد بأنها هرطقة وأدانوها بناء على ذلك، وأدى هذا إلى مضايقة الجماعات التي تسير على تلك العقائد، مثل أقباط مصر ونساطرة شرق سورية الذين اضطروا للجوء إلى فارس. أما الذين لم يهربوا فقد بقوا يغذون شعورهم بالظلم والمرارة، وسوف يكلِّف هذا الإمبراطورية ثمنًا باهظًا على المدى البعيد.

ولم يستطع يوستينيانس ضم الكنيستين اللاتينية الغربية -التي صارت تتطلع لقيادة بابا روما- والأرثوذكسية الشرقية كما كان يرجو، وكانت هذه عقبة أيديولوجية أمام أية محاولة لإعادة توحيد الإمبراطورية القديمة. وما كانت الكنيسة الغربية لتقبل بالسيادة الدينية التي ادعاها الإمبراطور حتى في أمور العقيدة، وهي ناحية أهم بكثير مما يبدو للوهلة الأولى، وقد دخل يوستينيانس باندفاع كبير في مناقشات لاهوتية لا تهمنا كثيرًا في هذه الأيام ولكنها لم تكن مجرد هواية. أما الكنيسة الغربيَّة فكانت تؤكد دومًا أنه مهما كان واجب الناس نحو حكامهم الدنيويين فإن الكنيسة وحدها هي التي تقول لهم ما هو واجبهم النهائي، لأنهم إنما يدينون به لله. ولهذا سوف تضطر الكنيسة والدولة في الغرب أن تعيشا جنبًا إلى جنب، أحيانًا بصورة وديِّة وأحيانًا في صراع، أحيانًا تسيطر هذه على تلك- وأحيانًا أخرى- تسيطر تلك على هذه، ومن هذا التوتر سوف تنشأ الحرية. أما الكنائس الشرقية فكانت تقول إن السلطتين الروحية والدنيوية ملك للإمبراطور نفسه، الذي له الكلمة الفصل في كل شيء لأنه نائب الله على الأرض. وسوف تنتقل هذه النظرة للحكم في النهاية إلى الحكم الأوتوقراطي لقياصرة روسيا -وكلمة أوتوقراط هي لقب يوناني من ألقاب الإمبراطور- وتشكِّل مصير روسيا التاريخي في المستقبل.

ولم ينعكس الاتجاه نحو الحكم الأوتوقراطي منذ أيام يوستينيانس قط، رغم حصول بعض التنازلات وظهور بعض نقاط الضعف أحيانًا، فطغت الصفات الشرقية على هذا المنصب الذي كان ذات يوم منصب القاضي الأول في الجمهورية الرومانية، وصار الأباطرة البيزنطيون يعاملون باحترام مهيب مثل ملوك الفرس من قبلهم، وكان ظهورهم للناس يحاط بالاحتفالات المعقّدة وعلامات التبجيل المفرطة، بل كان الناس يسجدون أمامهم توقيرًا لهم. ويركّز الفن البيزنطي على هذه الناحية، فقد كان فنًا دينيًا تمامًا في أشكاله ومواضيعه، وهو يصور الأباطرة على أنهم وكلاء الله على الأرض وتجسيد لقوته الإلهية، كما يصور المسيح بصورة الملك المظفّر وليس بصورة المخلص المعذب المهان الذي تراه في الفن الكاثوليكي، وقد كان هذا الأسلوب متأثّرًا بالفن الآسيوي فضلاً عن فن روما القديمة. ويظهر الأباطرة في صورهم ورؤوسهم محاطة بهالة مثل التي تراها حول رؤوس آخر الأباطرة قبل العصر المسيحي والتي أخذوها عن الإله الشمس، وهي تظهر في صور بعض الحكام الساسانيين أيضًا.

وكان من الطبيعي أن تتأثر بيزنطية بالثقافة الشرقية، لأن الكثير من مقاطعات الإمبراطورية تقع في آسيا، وقد صارت أكثر اعتمادًا عليها بعد عام ٦٠٠ عندما لم تبق لها أراض كثيرة في أوربا. وكان على الإداريين أن يتحدّثوا اليونانية، ولكن الإمبراطورية كانت متعدّدة الأعراق وكان الترقي فيها متاحًا للجميع بصرف النظر عن أصولهم الإثنية مثلما كان الأمر في أيامها الماضية، فكان الأباطرة يأتون من سورية والأناضول والبلقان، وكان يوستينيانس نفسه من مقاطعة إليريا(*) ومتحدّرًا

(*) منطقة قديمة في شمال غربي شبه جزيرة البلقان على ساحل الأدرياتيك.

من أصول قوطيَّة. صحيح أن مدن آسيا الصغرى قد تتحدَّث اللغة اليونانية إلا أن هذا الأمر لا ينطبق على الريف. ومع مرور الزمن سيطرت أسماء العائلات الآتية من الأناضول على السياسة والإدارة البيزنطيتين، فكان هذا مصدرًا آخر من مصادر التأثير الآسيوي، وإذا تذكَّرنا أيضًا الحركة الدائمة عبر الحدود بين بيزنطية وجيرانها الآسيويين وجدنا من الطبيعي أن تبتعد بمرور القرون عن المسيحية الغربية وعن ميراثها الهليني كذلك.

الدين والدولة

كان قلب بيزنطية هو دورها المسيحي وأسلوبها الخاص في التعبير عنه، وكان هذا الدور جزءًا أساسيًا من عملية الخلاص المتاحة للبشر، وقد انعكس في كل ما كانت تفعله؛ ولكن لأفعالها في الوقت نفسه أبعادًا أخرى في مجال الدعاية والعلاقات العامة، ومن المستحيل في العادة أن نعرف ما إذا كانت الأولوية للاعتبارات الدنيوية أو غير الدنيوية. لقد استخدم يوستينيانس المسيحية ورجال الكنيسة كفرع من فروع الدبلوماسية، فكان يقف عرَّاباً في عمادة أطفال الأمراء البرابرة، ويرسل المبشِّرين لتنصير سواهم. كما ساهمت ثروات القسطنطينية وغناها - وكذلك ثروات أجزاء أخرى من الإمبراطورية أثناء حكمه - في إبهار جيرانها، ومازال أعظم صرح فيها هو الباسيليقا التي بناها، أي كنيسة الحكمة المقدَّسة أو القديسة صوفيا. لقد بقيت هذه طوال قرون أعظم بناء في العالم المسيحي -ولو أن قبَّتها الضخمة انهارت ذات مرة أثناء حكم يوستينيانس- وكانت أبهة الوسط الإمبراطوري تستعرض فيها أثناء العبادة بين الذهب والحرير المدلَّى وإشعاع فسيفسائها ورخامها البديعين.

لقد عاشت الإمبراطورية الشرقيَّة عمرًا طويلاً ومرَّت أثناءه بتغيُّرات كثيرة، ولكن سكانها ظلّوا يدّعون أن لا شيء تغيّر فيها على الإطلاق، وبقي أباطرتها يحملون لقب أوغسطس حتى النهاية. والحقيقة أن جوهرها الديني لم يتغير بل بقيت مسيحية، ومسيحية ضمن تقاليد خاصة هي التقاليد التي تسمى أرثوذكسية؛ ومن هذه التقاليد نشأت الكنائس الحالية في اليونان وقبرص، وكذلك في روسيا وبلغاريا وغيرها من البلاد السلافية. وكانت الأرثوذكسية مختلفة من نواح كثيرة عن المسيحية الكاثوليكية التي صارت لها السيادة في أوربا الغربيّة، فلم يكن هناك في الكنيسة الأرثوذكسية مثلاً رجل له سلطة مثل سلطة بابا روما، بل كان الإمبراطور في الحقيقة يعين بطريرك القسطنطينية، وهو الزعيم المعترف به للكنيسة الشرقية بعد القرن السابع، وبالمقابل كان البطريرك يقدِّم مباركة الكنيسة عند تتويج الإمبراطور. وكثيرًا ما كان رجال الدين العاديون يتزوجون، بينما صار رجال الدين في الكنيسة الغربية عزابًا، لهذا لم يشكل الكهنة في البلاد الأرثوذكسية مجتمعًا منفصلاً كما حصل في أوربا الغربية. إلا أن الرهبان في الكنيسة اليونانية كانوا عزابًا، وهنا يكمن فرق آخر، لأن الرهبنة المسيحية -التي بدأت في مصر في القرن الثالث عندما انسحب الرجال القديسون للمرة الأولى إلى الصحراء من أجل الصلاة والتأمل وضبط النفس ضد المغريات الدنيوية- قد بقيت أقرب إلى أنماطها الأصلية في الأرثوذكسية منها في أشكالها الغربيّة، التي صارت تبتكر أساليب جديدة في إعطاء الرهبان أدوارًا عملية واجتماعية عدا عن أدوارهم الروحية والفردية.

ثم إن التقاليد الأرثوذكسية اليونانية كانت مضطرة لمعالجة منازعات ومناقشات لاهوتية بصورة أكبر من كنيسة روما في القرون الأولى، ويعكس هذا وجود تقاليد دينية مختلفة ضمن العالم الهلنستي القديم. كانت «البطريركيات» -أي

كبرى الأسقفيات- الأربع الأساسية هي بطريركيات القسطنطينية وأورشليم وأنطاكية والإسكندرية، وكانت كل منها تمثّل شيئًا مختلفًا قليلاً عن الأخريات، فكان لا بد لمصالحها المحليّة وتقاليدها الثقافية من أن تعبّر عن نفسها في النــزاعات اللاهوتية، وكانت هذه واحدة من القوى الفاعلة طوال قرنين أو ثلاثة كثر فيها الانشقاق والانفصال. وفي الوقت نفسه خرجت أنطاكية والإسكندرية والقدس من نطاق سيطرة الإمبراطورية -إذ أخذتها الجيوش العربية- فأعطى هذا أهمية لا سابق لها للتقاليد الأرثوذكسية اليونانية التي تسير عليها بطريركية القسطنطينية بين الكنائس الشرقية.

لقد خضعت بعض هذه النــزاعات لقرارات وتوضيحات المجامع العامة -المسكونية- للكنيسة كلها، إلا أن الانقسام بين روما والقسطنطينية استمر طوال الوقت بل توسع. وقد عقد آخر مجمع عام اعترفت به كل من الكنيستين الكاثوليكية اللاتينية والأرثوذكسية اليونانية في عام ٧٨٧، وكان الفرق بين المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية عندئذ واضحًا جدًا، حتى في أكثر معانيه تحديدًا وحرفية. ومازالت الكنائس الأرثوذكسية حتى اليوم تبدو بصورة مختلفة جدًا عن الكنائس الغربية سواء كانت رومانية أو أنغليكانية، ومن أوضح تلك الفروق المكان الذي يخصص لصور القديسين ومريم العذراء ويسوع المسيح في الكنائس الأرثوذكسية، إذ إن هذه الإيقونات تعرض على حجاب خاص وفي المقامات من أجل أن يقوم الناس بتبجيلها، وهي ليست مجرد زينة بل إن الغرض منها هو المساعدة في تركيز التعبد والتعاليم الدينية، أي أنها كما يقال «نقطة التقاء بين السماء والأرض». فليس من الغريب إذًا أن يؤدي هذا إلى التشديد على رسم الإيقونات وصنعها من الفسيفساء في الفن البيزنطي ثم في الفن السلافي من بعده،

وبالتالي إلى إبداع أعظم التحف في هذين التقليدين. لقد كانت شعبية الإيقونات راسخة منذ القرن السادس، ولكنها ظلت سببًا للخلاف المرير أحيانًا، فقد ظهرت حركة "تحطيم الإيقونات" وكانت عاملاً آخر في ابتعاد المسيحية الأرثوذكسية اليونانية عن المسيحية اللاتينية إلى أن قررت السلطة الإمبراطورية أن تؤيد الإيقونات بحزم في القرن التاسع. صحيح أن الانقطاع الرسمي بين الكنيستين لم يحدث حتى عام ١٠٥٤، إلا أن المسيحية كانت عمليًا في حالة انشقاق قبل ذلك بقرون عديدة، وكان من المحتَّم أن يسرّع هذا الانشقاقُ التباعدَ الثقافي والسياسي بين الشرق والغرب بمرور الزمن.

إعادة صنع الشرق الأدنى

في عام ٥٠٠ م وبعده بقرون عديدة كانت الحضارات والثقافات على حواف الإمبراطوريتين الغربية والشرقية في حالة من الصراع والتفاعل -في الوقت نفسه- ويصح هذا الوصف بالأخص على الشرق الأدنى أكثر منه على أي مكان آخر في العالم. إن الصراعات التي ابتدأت في ذلك الحين سوف تستمر قرونًا طويلة، وقد لخص مؤرخ إنكليزي كبير إحدى مراحل هذا الصراع «بالنـــزاع العالمي»، وهو اعتراف واجب بعظمة المواضيع التي كان النـــزاع يدور حولها. ولكن رغم التغيُّرات العميقة التي حلّت بالمنطقة كان سكانها يشتركون بأشياء كثيرة فيما بينهم. كانت الإمبراطوريات الكبرى في إيران تهاجم الغرب منذ ألف سنة قبل عام ٥٠٠ ولم تتخلل ذلك إلا هدآت قصيرة؛ إلا أن الحروب قد تقرِّب بين الحضارات أحيانًا، وكان هناك في الشرق الأدنى تقليدان ثقافيان متميزان ولكن تأثيريهما متداخلان إلى درجة أنه لا يمكن فصل تاريخيهما. فمن خلال الإسكندر وخلفائه كان الأخمينيون قد نقلوا إلى روما أفكار وأساليب ملكية إلهية تعود جذورها إلى بلاد الرافدين

القديمة، ومن روما استمرت هذه الأفكار لتزدهر في بيزنطية. وقد سحرت فارس وروما كل منهما الأخرى كما ساهمت كل منهما في تدمير الأخرى في النهاية. ولكن "روما" نفسها كانت قد تغيّرت، فصارت إمبراطورية مركزها القسطنطينية ومحصورة فعليًا بمصر وفلسطين وسورية والأناضول واليونان وقسم كبير من البلقان حتى نهر الدانوب، وكانت هي القوة العظمى الممثلة للمسيحية في الشرق الأدنى.

فارس وبيزنطية

كانت فارس هي القوة الكبرى الثانية في الشرق الأدنى في عام ٥٠٠، وكانت مثل بيزنطية وريثة تقاليد تعود للأخمينيين وقبلهم أيضًا إلى بلاد الرافدين القديمة. وكانت إمبراطوريتها على وشك استعادة أراضيها للمرة الأخيرة عن طريق فتوحاتها التي امتدت من أرمينيا إلى اليمن. وربما ازدادت عداوة حكامها نحو الإمبراطورية الرومانية عندما أصبحت هذه مسيحية؛ وكان الفرس المسيحيون يتمتّعون بالتسامح من الناحية النظرية، إلا أن خطر خيانتهم لبلادهم أثناء الحروب المستمرة مع روما قد جعل من معاهدة السلام التي عقدت في القرن الخامس والتي نصت على هذا التسامح حبرًا على ورق. وكان ثمة جماعة من المسيحيين تسمى النساطرة لا ينطبق عليها هذا الوصف، إذ كان الفرس متسامحين تجاههم بالفعل لأنهم مضطهدون من قبل البيزنطيين، وبالتالي فقد اعتبرهم الساسانيون مخلصين لهم من الناحية السياسية. وعلى هذه الصورة كان الدين يقسّم المنطقة ويضعف عالميتها السابقة.

وحول هذين المركزين الكبيرين للحضارة كانت تتجمع دول ودويلات أصغر تابعة لهما ولكنها أقل منهما تطورًا، ووراءها كانت تمتد أراضي البرابرة. كان

بين جيران بيزنطية في الشرق بعض القواعد المسيحية مثل مملكة أرمينيا، ووراءها تقع الهند، وهي مركز آخر للحضارة ولكنها بعيدة جدًا ولا يمكن اختراقها وراء جبال أفغانستان وسهول نهر الهندوس. وفي شبه الجزيرة العربية كنت تجد ممالك صغيرة على درجة من الحضارة وقبائل من البدو الرحَّل، أما خلف نهر جيحون -آموديا- فكانت تعيش الشعوب البدوية في آسيا الوسطى، وإلى الشمال من بيزنطية ظهرت مجموعة جديدة من القبائل هي القبائل السلافية التي استقرت على طول القسم السفلي من الدانوب، وإلى الغرب منها كانت الشعوب الجرمانية.

كانت الحروب المتكررة بين بيزنطية وفارس في القرن السادس في أكثرها قصة رتيبة بلا نتيجة حاسمة، ولكن يمكننا اعتبارها الشوط الأخير في صراع الشرق والغرب الذي ابتدأه الإغريق والفرس قبل ذلك بألف عام، والذي بلغ ذروته عند بداية القرن السابع في آخر حرب عالمية في العالم القديم، وربما كان الدمار الذي سببته هو الضربة التي قضت على الحضارة المدنية الهلنستية في الشرق الأدنى. كان يحكم فارس في ذلك الحين كسرى الثاني، وهو آخر الملوك الساسانيين العظام، وكانت الإمبراطورية البيزنطية ضعيفة لأنها كانت قد خسرت إيطاليا كما كانت شعوب السلاف والأفار القادمة من منطقة الفولغا قد بدأت بالتدفق إلى البلقان. ويبدو أن الفرصة قد سنحت لكسرى عندما قتل المتمردون إمبراطورًا بيزنطيًا كفأً، فغزت جيوش الفرس أرمينيا وكبدوقية وسورية وخرّبت مدنها ونهبت أورشليم في عام ٦١٥ آخذة معها عود صليب المسيح الذي كان أشهر كنوزها. وفي العام التالي غزت مصر، وبعد عام آخر كانت طلائعها الأمامية على بعد ميل واحد من القسطنطينية، بل إنهم ركبوا البحر فغاروا على قبرص وانتزعوا رودس من الإمبراطورية، وبدا أنهم قد استعادوا إمبراطورية داريوس بينما كانت بيزنطية تخسر

آخر ممتلكاتها في إسبانيا على الطرف الآخر من المتوسط. كانت تلك أحلك لحظة في صراع الرومان الطويل مع فارس، ولكن جاء لإنقاذها إمبراطور عسكري جديد هو هِرَقل -هيراكليوس- المتحدِّر من أصل أرمني والذي كان قد ارتقى العرش قبل بضع سنوات. لقد كشف هرقل الآن عن كفاءته، فاستخدم القوة البحرية لإنقاذ القسطنطينية في عام ٦٢٦ عندما عجز الأفار عن نقل جيش حلفائهم الفرس لمساعدتهم في الهجوم على المدينة. وفي العام التالي اقتحم أشور وبلاد الرافدين وهي قلب النـــزاع في استراتيجية الشرق الأدنى منذ القدم، وتمرد جيش الفرس فاغتيل كسرى، وعقد خليفته الصلح مع البيزنطيين. وانتهت بذلك الأيام العظيمة لقوة الساسانيين، واسترجع عود الصليب - أو ما قيل إنه عود الصليب - إلى أورشليم، وانتهى أخيرًا الصراع الطويل بين فارس وروما؛ وكان مركز تاريخ العالم على وشك التحول إلى صراع آخر.

ديانة عالمية جديدة: الإسلام

لقد انهار الساسانيون في النهاية لأن أعداءهم كانوا كثرًا، وكان عام ٦١٠ قد أتى بنذير شؤم لهم لأنه العام الذي هزمت فيه قوة عربية جيشًا فارسيًا للمرة الأولى. وبقي ملوك الفرس قرونًا عديدة غير مهتمين بالأعداء الواقعين إلى جنوبهم، إلا أن الضربات القاضية إنما أتتهم من الجنوب، من قيظ شبه الجزيرة العربية وصخورها. ولم تكن شبه الجزيرة دومًا على هذه الصورة، ففي بداية الحقبة المسيحية كانت فيها أراض مروية نشأت فيها ممالك صغيرة تتاجر عبر موانئها مع الهند والخليج الفارسي وشرق أفريقيا حاملة الصموغ والتوابل إلى مصر، ومنها كانت هذه البضائع تنتقل إلى أنحاء المتوسط. وقد ازدهرت تلك الممالك وكانت مستقلة عن الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية الكبريين اللتين لم تخترقا شبه الجزيرة

بصورة عميقة قط. إلا أن نظام الري قد انهار - ولا نعلم السبب - فصارت الأرض صحراء مجدبة وارتحلت القبائل من مدن جنوب شبه الجزيرة نحو الشمال وعادت شعوبها إلى حياة البداوة والرعي، ومنها نشأت جيوش ديانة عالمية جديدة.

إن ديانة الإسلام التي أسسها النبي محمد هي المنافس الوحيد للمسيحية كديانة عالمية في حيويتها وسعة مداها الجغرافي، وقد نشأت بالأصل من نفس جذور المسيحية أي من الثقافات القبلية للشعوب الساميّة في الشرق الأدنى؛ كما أنها قريبة من المسيحية ومن مصدرها أي اليهودية في التشديد على أنه لا يوجد إلا إله واحد هو الله؛ وليس التوحيد هو الشيء الوحيد الذي تشترك به هذه الديانات الثلاث، إذ يقول المسلمون إنهم يعبدون نفس الإله الذي يعبده اليهود والمسيحيون ولكن بطريقة مختلفة.

النبي محمد

تبدأ قصة الإسلام في مكان لم نذكره بعد في تاريخنا هذا، فقد ولد محمد في مكة بشبه الجزيرة العربية لوالدين فقيرين ينتميان إلى عشيرة صغيرة من قبيلة بدوية هامة في حوالي عام ٥٧٠، وسرعان ما تيتم. ولا نعلم كيف كبر وتربى، ولكننا نعلم أن ذلك قد حدث في مكان على درجة من الأهمية، لأن مكة كانت واحة ومركزًا للحج، وكان العرب يأتون إليها من أماكن بعيدة من أجل تبجيل حجر نيزكي أسود هو الكعبة التي كانت مركزًا للديانة الوثنية. كان بعض العرب في تلك الأيام يهودًا وبعضهم مسيحيين، ولكن أكثرهم كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة ويعبدون آلهة الطبيعة والأرواح المختلفة. إلا أن الواحات مثل مكة التي كانت القوافل تأتي إليها، والموانئ الصغيرة التي بقيت على اتصال بالعالم الخارجي، كانت تجتذب بعض

الغرباء والأجانب، وكان بعضهم قد جلب معه معرفة ديانات أرقى إلى شبه الجزيرة في أيام محمد، وكان العرب يعبدون الإله الذي يسمونه الله والذي يعبده المسيحيون واليهود.

يبدو أن محمدًا قد أرّقته علامات تدل على اضطرابات كبيرة حلت بشعبه، لأن التجارة ونمو السكان والتأثيرات الأجنبية كانت قد بدأت تخرب ترتيباهم التقليدية والقبلية. كانت المجتمعات العربية القديمة مجتمعات رعوية منظمة حول روابط القربى، وكان النسب والسن هما اللذان يضفيان الاحترام على الإنسان وليس المال. أما الآن فلم تعد الثروة ملازمة دومًا لشرف النسب والتقدم بالسن، وكانت هذه مشكلة اجتماعية وأخلاقية كبيرة. .وبدأ محمد يتفكّر في سبل الله المتاحة للإنسان، وذات يوم بينما كان يتأمل في غار خارج مكة سمع صوتًا يطلب منه أن يضع رؤية جديدة لكلمة الله؛ وظل محمد يتحدث كنبي طوال اثنتي عشرة سنة، ثم دوّن أتباعه تلك الأقوال التي جمعت بعد وفاته فأصبحت واحدًا من أعظم الكتب في تاريخ العالم، ألا وهو القرآن. وهكذا سوف يصبح المسلمون أمة لها كتابها مثل اليهود والمسيحيين الذين يعتزون بكتبهم المقدَّسة.

ديانة جديدة

لقد وضع القرآن بالدرجة الأولى أساس الديانة التي تسمى الإسلام، وهي مجموعة من المبادئ التي تجمع أخوة المؤمنين اليوم في كافة أنحاء العالم. وتعني كلمة «إسلام» التسليم أو الرضوخ لأمر الله، وكان محمد يرى في نفسه الأداة التي أوصل الله من خلالها وصيته إلى الناس، وقد علّم المسلمين أن هذه الوصية ابتدأت في الماضي بأنبياء إسرائيل الكبار وبيسوع أيضًا والذين كانوا جميعهم أنبياء حقيقيين،

ولكنه صار على ثقة بأنه هو آخر الأنبياء وبأن الله أوصل من خلاله رسالته الأخيرة إلى البشرية. لقد وضعت تلك الرسالة معتقدًا وشريعة في السلوك لمواجهة حاجات شعب محمد نفسه، ولكنها سوف تثبت تقبُّلها الواسع لدى شعوب أخرى أيضًا. وكان جوهرها هو التشديد على ألا يعبد إله إلا الله، أي أن الإسلام دين توحيدي بلا مهادنة -ومن اعتراضات المسلمين على المسيحية اعتقادهم أنها تؤمن بتعدُّد الآلهة لأنها أعطت ليسوع والروح القدس نفس الأهمِّيَّة التي تعطيها لله الآب- وفرض الإسلام أيضًا سلسلة من الشعائر الدينية الضرورية أهمها الصلاة بصورة منتظمة وتجنُّب الدنس، وهذا كل ما يحتاجه المرء لتأمين خلاصه.

كان الإسلام عقيدة بسيطة ولكنها ثورية في الوقت نفسه، وقد بشَّر بأن الذين ظلوا متعلقين بالآلهة القديمة للمجتمع العربي سوف يكون مآلهم الجحيم، وما كان لهذا المعتقد أن يكسبه شعبية بين العرب غير المسلمين. كما أدى تشديده الكبير على أهمية الأخوّة بين المؤمنين إلى انقلاب حقيقي لأنه كان تجاوزًا للولاءات القبلية، والحقيقة أن بعض أقرباء محمد أنفسهم قد انقلبوا عليه فغادر مكة في عام ٦٢٢ ومعه حوالى مئتين من أتباعه واتجه شمالاً إلى واحة أخرى تبعد حوالى ٤٠٠ كم وسوف تسمى «المدينة» أي «مدينة الرسول». فنظَّم هناك جماعة جديدة، وصارت الآيات تركز على الأمور اليومية والعملية مثل الطعام والشراب والزواج والحرب، وعلى هذه المبادئ سوف يبنى الإسلام كحضارة متميزة. لقد كانت هذه الهجرة إذن نقطة التحوّل في قصة الإسلام الأولى، واعتبرت -منذ ذلك الحين- بداية التقويم الإسلامي الذي مازال مستخدمًا في كافة أنحاء العالم، وكان هذا انفصالاً عن

المجتمع البدوي التقليدي ولو لم يظهر تأثيره الكامل في البداية؛ لأن محمدًا كان في الحقيقة يؤسِّس مجتمعًا من نوع جديد.

ومات محمد في عام ٦٣٢، وورث سلطة تفسير تعاليمه رجل يلقب «بالخليفة». كان جميع الخلفاء الأوائل أقرباء لمحمد بالدم أو بالمصاهرة، وعلى عهدهم هُزمت قبائل جنوب شبه الجزيرة، وسرعان ما انتشر القتال إلى الشمال، إلى عرب سورية وجنوب بلاد الرافدين، وسرعان ما ظهرت أيضًا المعارضة للخلفاء الأوائل من أسرة محمد الذين اتهموا بأنهم مستغلون، وبدا وكأن الخلافة المبنيّة على السلطة في أمور الدين والعقيدة قد تراجعت خلال سنوات قليلة إلى منصب دنيوي. وفي عام ٦٦١ خُلع الخليفة الأخير وقُتل، وانتقل منصبه إلى أسرة أخرى هي أسرة الأمويين التي احتفظت به قرنًا واحدًا تقريبًا؛ وعندما تنازلوا عنه لأسرة أخرى اغتصبته لنفسها كان الإسلام قد أعاد صنع خريطة العالم.

ديانة فتوحات

كان الإسلام في سنواته الأولى يبدو ضعيفًا للغاية من الناحية الدنيوية – مثل المسيحية من قبله. وكانت فرص نجاح هاتين الديانتين عند موت كل من يسوع ومحمد فرصًا زهيدة، وما كان ليخطر ببال أحد –ما عدا أتباعهما– أنهما سوف تقدران على الاستمرار، فما بالك أن تصبحا قوتين كبيرين في تاريخ العالم، ولكنَّهما أصبحتا كذلك بالفعل، ولو بطرق مختلفة جدًا. كان الإسلام منذ البداية ديانة فتوحات، ومنذ أيام محمد كان جهاده العسكري قد ابتدأ. لقد استخدم محمد المدينة كقاعدة عسكرية لكي يخضع الذين عارضوه في مكة والقبائل المجاورة، فالذين استسلموا رحَّب بهم ضمن الأمة، أي أخوية المؤمنين التي تسمو على

التقسيمات القبليّة، إلا أن الإسلام احترم القبيلة والبنية الأبوية القديمة بشرط ألا تتدخَّل في شريعته، كما ثبت مكانة مكة القديمة كمركز للحج، ولم يطرد من المدينة إلا الذين عارضوا الديانة الجديدة، ومنهم العرب اليهود.

ومن هذه البداية تتالت التوسُّعات العسكرية بعد موت الرسول بوقت قصير عندما هاجمت الجيوش العربية الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية، والمذهل أنها هاجمتهما معًا في الوقت نفسه، فخلال خمس سنوات طرد العرب "الروم" من سورية وأخذوا القدس، التي مازالت حتى اليوم أحد الأماكن المقدَّسة في الإسلام، وسرعان ما أخذوا بلاد الرافدين من الفرس ومصر من البيزنطيين، كما شُكل أسطول عربي فبدأت الغارات على قبرص -التي اقتسموها فيما بعد مع البيزنطيين- وفي عام ٧٠٠ كانوا قد احتلوا قرطاجة وأسلموا البربر وجعلوهم حلفاء لهم فصار كامل ساحل شمال أفريقيا بيد المسلمين. أما الإمبراطورية الساسانية فكانت قد انهارت منذ زمن طويل، وطرد آخر ملوكها من عاصمته في عام ٦٣٧ بعد سَلسلة من الهزائم عن يد الجيوش العربية، ومات قرب مروه في عام ٦٥١ بعد أن ناشد بلا جدوى مساعدة إمبراطور الصين. واستمرت حملات العرب فوصلت شرقًا حتى كابُل عاصمة أفغانستان، وعند بداية القرن الثامن عبروا جبال هندوكوش لغزو الهند، واستقروا في السند لبعض الوقت بينما كانوا ينهبون إقليم غُجرات. وفي الوقت نفسه تقريبًا عبر عرب آخرون مضيق جبل طارق واكتسحوا إسبانيا حيث قضوا على مملكة الڤيزيغوط القديمة. وفي عام ٧١٧ حاصروا القسطنطينية للمرة الثانية ولكن من دون أن يحرزوا نجاحًا، وكانوا -عندئذ- قد توغلوا في القوقاس أيضًا.

لقد كانت هذه تقريبًا أعلى نقطة بلغتها الفتوحات العربية؛ ويقال إن أحد جيوشهم قد بلغ الصين في بداية القرن الثامن، وسواء كان هذا صحيحًا أم لا فإنهم

قد أحرزوا على الصينيين نصرًا عظيمًا، وأخيرًا في آسيا في أعالي جبال البامير في عام ٧٥١ قبل أن يهزمهم شعب الخزر، فاستقروا -عندئذ- وجعلوا حدودهم عبر القوقاس وعلى طول نهر جيحون. وقبل ذلك بسنوات قليلة (في عام ٧٣٢، أي بعد قرن تمامًا من موت محمد) كان جيش عربي آخر قد صُد قرب بواتييه، فكانت هذه أبعد نقطة بلغوها في غرب أوربا ولو أنهم ظلوا يغيرون غارات عميقة خلال السنوات القليلة التالية؛ إلا أن المد كان قد انحسر أخيرًا.

من أسباب هذا النجاح المذهل أن عدوي العرب الأولين أي بيزنطية وفارس الساسانية ظلا يتحاربان -فيما بينهما- لزمن طويل كما كانت لديهما مشاكل هائلة على جبهات أخرى. فقد كان على البيزنطيين أن يعالجوا أمر الأفار والبربر، وكان على الساسانيين أن يعالجوا أمر الغزاة القادمين من آسيا الوسطى والذين كان أفظعهم الهون. وكان هناك ضمن الإمبراطورية البيزنطية أيضًا شعوب مستاءة مثل شعب مصر أغضبها سوء حكم القسطنطينية ومضايقتها الدينية فكانت مستعدة لاستقبال سادة جدد. وكانت انتصارات العرب الأولى حاسمة، لأنه بعد الإطاحة بفارس لم يعد هناك في منتصف القرن السابع أية قوة كبرى تصدهم إلى الغرب من الصين ما عدا بيزنطية. ولم يكن لدى العرب ما يخسرونه، فقواهم يدفعها الفقر الذي أتت منه والإيمان بأن الموت في ساحة المعركة ضد الكفار سوف يدخلها الجنة. كانوا يؤمنون أنهم يقاتلون من أجل الله، فكان يحركهم مثال عظيم مثل بعض المسيحيين ومثل الثوار في أزمنة لاحقة، وقد جعلهم هذا الإيمان شجعانًا فدائيين وقساة؛ وكانت النتيجة سجلاً باهرًا من الفتوحات التي بدا معها أن الإسلام قد يحكم العالم كله.

العالم العربي الإسلامي

لم يشكل الإسلام وحدة سياسية قط، وكان أهم مركزين سياسيين أولين له هما الخلافتان الأموية والعباسية. وقد انتهت الخلافة الأموية في عام ٧٥٠ عندما أطاح بآخر خليفة أموي رجل اغتصب منصبه واتخذه لنفسه ثم أكمل انتصاره بعملية احترازية قتل فيها جميع ذكور العائلة المهزومة، وبهذا ابتدأت الخلافة العباسية، التي سرعان ما صارت أشبه بملكية سلالية عادية. لقد استمرت الخلافة العباسية كقوة سياسيَّة حقيقيَّة –حتى منتصف القرن العاشر– وبقي ثمَّة خليفة عباسي بالاسم –حتى القرن الثالث عشر– وعلى عهدها بلغت الحضارة العربية أعظم أمجادها. وعندما زالت سيادة العرب عليها في النهاية كان الذين حلّوا محلّهم قد أصبحوا هم أيضًا مسلمين، وعلى عهدهم سوف تبلغ الحضارة الإسلاميّة ذرى جديدة في فارس والهند وغيرها.

في بداية عصر العباسيين كان الإسلام متأثّراً جدًا بأصوله العربية، وإن أوضح العلامات على ذلك هي استخدام اللغة العربية، ولما كان القرآن مكتوبًا بها فقد انتشرت في كافة أرجاء العالم الإسلامي. ورغم أن الخلافة العباسيَّة بقيت تتحدث باللغة العربية فإنها قد ابتعدت كثيرًا عن ثقافة القرن السابع الفجّة التي انتشرت من الصحراء عن طريق الفتوحات. كان العرب في تلك الأيام الأولى يحاولون الانفصال عن الشعوب التي غزوها، ولم يتدخّلوا في التقاليد المحليّة – إذ بقيت اللغتان اليونانية والفارسية مستخدمتين حتى القرن الثامن كلغتين للحكم في دمشق وقَطيسفون – طيسفون– عاصمة الساسانيّين السابقة – وكانوا يعيشون كطبقة عسكرية في مدن منعزلة تعتمد على الضرائب المفروضة على المناطق المجاورة، فلا يتدخّلون في التجارة ولا يملكون الأرض. إلا أن هذا الانفصال قد تلاشى رويدًا رويدًا، فصار اعتناق

الإسلام أكثر شيوعًا وصارت مدن الحاميات مثل البصرة والكوفة بالتدريج مدنًا حقيقيّة تعمل بالتجارة، وعرف الشرق الأدنى من جديد إمبراطورية عالمية وجدت فيها تقاليد مختلفة كثيرة مكانًا لها ضمن ثقافة يدعمها نظام إمبراطوري؛ ويرى بعض العلماء أن الثقافة العباسيّة كانت آخر ازدهار للهلنستية.

الخلافة العباسية

كان المسلمون من غير العرب يكرهون سادتهم العرب خاصة في المقاطعات الشرقية -أي التي كانت فارسيًّة في الماضي- وكان استياؤهم من أسباب وصول العباسيين إلى السلطة، وقد انتقلت الخلافة من دمشق عاصمة الأمويين إلى بغداد على نهر دجلة. وكانت بغداد في ذلك الحين قرية مسيحية صغيرة، ثم صارت مدينة هائلة تضاهي القسطنطينية، وربما بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة، وكانت تعج بالحرفيين ووسائل الترف البعيدة كل البعد عن الحياة البسيطة التي عاشها الجنود العرب الأوائل في الإسلام، وامتزجت فيها الأفكار الإسلامية والمسيحية والهلنستية واليهودية والزرادشتية، وحتى الهندوسية بين تجار آتين من بلاد كثيرة. وقد بلغ ازدهار بغداد ذروته على عهد الخليفة الشهير هارون الرشيد الذي يقال إنه الحاكم الذي روت له شهرزاد حكاياها عن ألف ليلة وليلة.

ولكن بالرغم من كل هذا، ومن أن الخلافة صارت أشبه بملكية شرقية من النوع المألوف وبعيدة عن المنصب الروحي المحض فإنها لم تنحرف عن الإسلام قط، بل كانت هذه الديانة الجديدة تتخلل الإمبراطوريات العربيّة وجميع الدول التي نشأت منها وحلّت محلّها. لقد شُيدت في كافة أنحاء العالم الإسلامي مساجد يجتمع فيها المؤمنون كل يوم للصلاة متجهين نحو مكة، وكانت تتلى فيها كلها الصلوات

نفسها والشريعة نفسها. إن شبه العقيدة الإسلامية بالمسيحية قد جعل بعض رجال الدين البيزنطيين يعاملون الإسلام على أنّه هرطقة مسيحية، وليس ديانة جديدة، ولكن الحقيقة أنه كان في مبادئه الأساسية وفي شعائره اليومية أيضًا مختلفًا جدًا عن المسيحية. لقد حرَّم الإسلام لحم الخنـــزير -مثل اليهودية- وحرَّم الخمر أيضًا وأمر بالحج إلى مكة -ويوصى جميع المسلمين حتى اليوم بأداء هذا الحج مرة في حياهم- كما أنه فرض واجب الزكاة للفقراء وسمح بالاحتفاظ بالعبيد، ولكنه أوصى بحسن معاملتهم، وأمر قبل كل شيء بأداء الصلاة بصورة منتظمة؛ ولكن ربما كان أكثر ما لفت أنظار غير المسلمين فيه هو تساهله في موضوع تعدّد الزوجات.

العلوم والفنون الإسلامية

لقد ساهم القرآن في قولبة الثقافة الإسلامية من نواح أخرى كثيرة أيضًا؛ وربما كانت عناية الإسلام الكبيرة بالكلام، وفنونه بأشكالها المحكيّة والمكتوبة تعود في جذورها إلى أهمّية رواة القصص في المجتمعات القبلية، إلا أن القرآن قد رفع مكانة التلاوة والقراءة إلى مرتبة أعلى أيضًا، بل إنّه في الحقيقة قد جعل من اللغة العربية لغة أدبيَّة. وكثيرًا ما كان المثقفون المسلمون يكتبون الشعر، وقد بلغت الخلافة العبَّاسيّة مستوى عاليًا من العلم، وكان أساسه الأكبر في علوم الدين -لأهم كانوا ينظرون إلى كل شيء من تلك النظرة- إلا أنه أعطى على كل حال رجالاً على درجة عالية من الثقافة. ويبدو أن الكتابة على عهد الخلافة العباسية كانت أوسع انتشارًا منها في أي حضارة معاصرة، وقد تُرجمت في تلك الحقبة كتب كثيرة إلى العربية، وساهم هذا مساهمة كبيرة في نشر نصوص اليونان الهلنستية والكلاسيكية في أوربا.

وَتفسِّر حركة الترجمة هذه بزوغ عصر مجيد من إنجازات الإسلام العظيمة في العلوم والرياضيات. لقد بنى العرب معارفهم على أعمال الإغريق واستلهموا أعمال الفرس والهنود وإن الأرقام التي نستعملها اليوم ونسميها «عربية» هي بالأصل هندية ولكنها من وضع عالم رياضيات عربي، فتفوقت الثقافة العربية في علوم الفلك والطب والرياضيات، وظلّت كتب تدريس الطب العربية، وأكثرها من وضع الأطباء الفرس، تدرّس طوال قرون في أوربا ككتب مدرسية معتمدة. ومازالت اللغات الأوربية تحمل آثار الحضارة العربية، مثل كلمتي zero و cipher (وكلاهما من الصفر) و algebra (الجبر) وفي مجال الموسيقى zither و guitar (وكلاهما من القيثارة) و lute (من العود)، وهناك مصطلحات كثيرة في التجارة أيضًا مثل tariff (التعريفة أو التعرفة) وكلمة douane الفرنسية (من الديوان) التي تعني مخفر الجمارك، و magazine بمعنى المخزن.

كان المسافر الأوربي -أو حتى الصيني- يجد مدن الخلفاء وثقافتهم مختلفة جدًا عما يعرفه في بلده -وليس بسبب اختلاف اللباس وحده- لقد بقي الفن الإسلامي زمانًا طويلاً يهتم بالتخطيط والزخرفة الدقيقة بدلاً من رسم الأشياء لأن تعاليم الإسلام منعت تصوير جسم الإنسان ووجهه، أما المنمنمات التي تروق للذوق الغربي اليوم فلم تظهر إلا لاحقًا في الإمبراطوريات الإسلامية في فارس والهند. وفي مجال البناء أخذ المسلمون اختراع القبَّة عن الرومان ولكنَّهم سرعان ما توصّلوا إلى أسلوبهم المميَّز والجذاب، وربما كان الدافع إليه رغبة العرب المنتصرين في البناء بأسلوب يميِّزهم عن شعب الأراضي التي فتحوها. إن أول قبة في الإسلام هي قبة الصخرة التي بنيت في القدس في عام ٦٩١، وهي مزار مقدَّس عند اليهود والمسلمين على السواء، لأن اليهود يؤمنون أن إبراهيم كان على وشك التضحية بابنه اسحق

عليها، بينما يؤمن المسلمون أن النبي قد عرج منها إلى السماء. وسرعان ما بنيت قباب إسلامية أخرى، واليوم صار المسجد ومئذنته التي ينادى منها المؤمنون إلى الصلاة مشهدًا مألوفًا في كافة أرجاء العالم وليس في بلاد الإسلام وحدها.

حدود الإسلام الأبعد

كان قلب الإسلام دومًا هو شبه الجزيرة العربية والشرق الأدنى القديم الذي حكمه الخلفاء، أي البلاد الواقعة بين مصر في الغرب وجبال هندوكوش وما وراء بحر قزوين في الشرق والشمال. ولكن الإسلام انتشر بعيدًا خارج هذه المنطقة، لأنه كسب بعد الفتوحات أتباعًا جددًا فانتقل بسرعة على طول ساحل أفريقيا وإلى إسبانيا، بينما احتل عرب آخرون أجزاء من صقلية وبعض الجزر الأخرى في البحر المتوسط، ولو أن الفتوحات خارج أفريقيا لن تبقى بلادًا إسلامية إلى الأبد.

ثمة فرع من العائلة الأموية في إسبانيا لم يقبل قط بالإطاحة بخلافتهم، بل أسس فيها «إمارة» أي مملكة مستقلة في عام ٧٥٦ في قرطبة، وسوف يحكم هؤلاء طوال قرون جزءًا كبيرًا من جنوب إسبانيا، حيث سيبلغ المجتمع الإسلامي من بعض النواحي ذرى جديدة في الثقافة والحضارة أعلى حتى مما بلغه الشرق من قبله، كما أن إسبانيا العربيَّة أصبحت في القرن العاشر مركزًا لخلافة جديدة منافسة للخلافة القديمة. ولكنَّها سرعان ما وجدت نفسها في موقع الدفاع عندما راحت الممالك المسيحية تضغط عليها إلى أن سقطت قرطبة بأيديهم في عام ١٢٣٦، ثم استغرقت عملية استعادة المسيحيين لشبه الجزيرة بأكمله قرنين آخرين، وانهارت الحضارة الإسلامية البديعة في الأندلس أخيرًا في القرن الخامس عشر.

وتأسَّست -أيضًا- خلافة جديدة أخرى في القرن العاشر في مصر، فكانت هذه علامة على التمزُّق السياسي في بلاد الإسلام المركزية -التي لن تتحد بعد ذلك أبدًا ولو أنها بقيت مسلمة- وفي هذه الأثناء تغلغل الإسلام في آسيا الوسطى والهند والسودان وحوض النيجر بين القرنين الثامن والثاني عشر، وحمله التجار العرب إلى شرق أفريقيا عن طريق الساحل، وإلى غربها بواسطة القوافل عبر الصحراء الكبرى، كما حملته قوارب الدَّهْو التجارية العربية عبر خليج البنغال إلى ماليزيا وإندونيسيا. لقد فرض الفاتحون الإسلام على جزء كبير من الهند، وعندما استطاع مبشروهم أسلمة المغول ضمنوا أن تصل ديانتهم في النهاية إلى الصين. إن قصة انتشار الإسلام هذه هي قصة مذهلة في نجاحها، ولكن نموه السريع قد جعل من المستحيل عليه الحفاظ على وحدة سياسية ولو مثل التي كانت له على عهد الخلفاء. كما أنه تطور من نواح كثيرة خارج تعاليم الرسول، وأصبح باختصار قلب حضارة معقَّدة ومتنوِّعة تشكل تحدِّياً دائمًا للتقاليد الأخرى، وقادرة في -الوقت نفسه- على التفاعل الغني معها.

عصر بيزنطية الكبير: صنع أوربا السلافية

سوف تكون بيزنطية درعًا تاريخيًا للمسيحية الغربية لأنها حمتها من الفرس أولاً ثم حمتها لزمن طويل من خطر أكبر بكثير هو الإسلام، عدا عن الموجات المستمرَّة من الشعوب البربريَّة في الشمال. وقد ظلَّت الإمبراطورية الشرقية متراسًا للعالم الإغريقي الروماني القديم في المتوسط- حتى بعد أن طوَّقها المسلمون بفتحهم شمال أفريقيا وإسبانيا- ولم تزُل في النهاية إلا بعد أن عاشت ألف سنة. إلا أن الرياح كانت مؤاتية للإسلام -منذ القرن السابع- عندما فقدت الإمبراطورية الشرقية كل

الأراضي التي كانت قد استردَّتها من الفرس، بل إن الجيوش العربيَّة حاصرت القسطنطينية نفسها طوال خمس سنوات (٦٧٣-٦٧٨). وفي تلك الأثناء اجتاحت القبائل المسمَّاة قبائل السلاف كلاً من تراقيا ومقدونيا، بينما عبرت قبائل البلغار نهر الدانوب.

وفي عام ٧١٧ ارتقى العرش إمبراطور من الأناضول هو ليون الثالث، وكانت هذه علامة على وصول التأثير الشرقي إلى قمة الإمبراطورية. كان ليون على درجة عالية من الكفاءة، إذ تمكَّن من استعادة جزء كبير من أراضي الإمبراطورية السابقة كما ثبَّت هو وابنه الحدود بين الإمبراطورية والخلافة، فاستعادت الإمبراطورية إقليم الأناضول وأحكمت قبضتها عليه رغم حصول المناوشات والغارات. وكانت قد عقدت حلفًا هامًا مع شعب بدوي ثبَّت قدميه في جنوب روسيا هو شعب الخزر، وكان هؤلاء بمثابة حاجز لها أمام تقدُّم الإسلام من تلك الناحية. أما في الغرب فكان نفوذ الإمبراطوريَّة ضعيفًا لأنَّها ضيّعت راڤينا و لم يبق لها إلا مواطئ أقدام صغيرة في إيطاليا وصقلية، ولو أن ليون أعاد نفوذ بيزنطية إلى أطراف البلقان حيث ستتمكَّن الإمبراطورية من احتواء خطر البلغار -فيما بعد- وكانت الفترة الممتدة -حتى القرن الحادي عشر- بالإجمال فترة نجاح وتعاف، فقد استعادت كلاً من قبرص واليونان وأنطاكية واستمر الصراع لاسترجاع شمال سورية، ورغم حدوث مشاكل داخلية في السلالة وخلافات دينية استطاعت بيزنطية أن تلعب دورها كقوة كبرى، وقبل أن تحل الأزمة العالمية القادمة كانت قد أنجزت دورًا تاريخيًا عالميًا آخر هو صنع السلاڤية المسيحية. لقد نصّرت بيزنطية الشعوب السلاڤية ومن خلال هذه العملية منحتهم الحضارة أيضًا، وربما كان إنجازها المضاعف

هذا هو أطول الأشياء التي خلفتها عمرًا، إذ لولا تنصُّر الشعوب السلافية لتغير تاريخ العالم كثيرًا.

الشعوب السُّلافية (الصَّقالِبَة)

مازال الخلاف قائمًا حول المكان الذي نشأ منه السلاف في الأساس. وتُشكِّل كثير من الأراضي السلافية خاصة في روسيا جزءًا من الامتداد الواسع الذي تلتقي فيه أوربا بآسيا، وكانت الشعوب البدوية تتنقل عبرها طوال ألوف السنين، ومنها اندفعت هجرات الشعوب الكبرى المرَّة تلو المرَّة. لقد تمكَّن السلاف من التمسُّك بأراضيهم التي تقابل بولندا وروسيا الحاليتين رغم تعرُّضَهم لمضايقة السقيتيين والأفار والقوط والهون، وبين القرنين الخامس والسابع كانوا قد ثَبَّتوا أقدامهم على الطرفين الشرقي والغربي لجبال الكَربات، وبدؤوا بالتحرُّك جنوبًا بتأثير ضغوط تشبه الضغوط التي دفعت هجرات الشعوب الأخرى، وفي القرن السابع كانت تحميهم من الطرف الشرقي إلى حد ما شعوب أخرى استقرت هناك.

وانتشرت قبائل السلاف في البلقان رويدًا رويدًا، إلا أن أول مملكة «سلافية» نشأت هي مملكة البلغار، وهم ليسوا بسلافيين في الأصل بل كانوا -على الأرجح- من الهون ثم صاروا سلافًا عن طريق اتصالهم بالسلافيين وتزاوجهم معهم. ولكن يمكننا أن نعتبر أن مملكتهم هذه كانت سلافية عندما اعترفت بيزنطية بوجودها في عام ٧١٦، وكان شعبها -عندئذ- قد تبنى أساليب سلافية كثيرة. وسوف يصبح البلغار مصدر متاعب كثيرة للإمبراطورية، فقد احتلوا أراضي كانت بالأصل لها، كما أنهم وصلوا بغاراتهم حتى القسطنطينية نفسها جنوبًا، وكان المجهود اللازم لصدّهم يعيق دومًا جهود بيزنطية في استعادة مكانتها في الغرب. ويُعرف أحد

الأباطرة بلقب «قاتل البلغار»، ولكن البلغار تمكّنوا في -بداية القرن التاسع- من قتل إمبراطور آخر في ساحة المعركة، فكان هذا أول إمبراطور يقتل بأسلحة البرابرة -منذ خمسمئة سنة- وقد صنعوا من جمجمته كأسًا لملكهم.

وأرسلت بيزنطية للبلغار مبشّرين كانوا يمزجون الدبلوماسية بالتنصير، وأهمّهم رجلا كنيسة عظيمان في القرن التاسع هما الراهبان القديسان كيرلُس وميثوديوس. ومازال اسم كيرلس حيًّا في الأبجدية التي ابتكرها من أجل اللغات السلافية، وهي الأبجدية الكيرلسية -المشتقّة من الأبجدية اليونانية- والتي ما زالت نسخ مبسَّطة منها تستخدم في صربيا وبلغاريا وروسيا. ثم جاء ملك بلغاري، أو قيصر كما كان يسميه البيزنطيون، وقبل المعمودية المسيحية، ولم تكن هذه نهاية الصراع بعد ولكنها كانت خطوة هامة. وقد سمى أحد ملوك البلغار في القرن العاشر نفسه "إمبراطور الرومان" وهاجم القسطنطينية -ولكن بلا جدوى- وأخيرًا في عام ١٠١٤ تمكّن البيزنطيون من ضرب البلغار ضربة قاضية أركعتهم، وسمل الإمبراطور الذي هزمهم عيون ١٥,٠٠٠ من سجنائه البلغار وأرسلهم إلى وطنهم ليكونوا عبرة لأهل بلدهم، فمات حاكم البلغار آنذاك -ربما من هول الصدمة- وسرعان ما أضحت بلغاريا مقاطعة بيزنطية.

كييف روس

في تلك الأثناء كانت المسيحية قد ازدادت انتشارًا نحو الشمال والشرق. على الامتدادات العليا لأنهار روسيا كانت تعيش جماعات سلافية تحكمها أرستقراطية تشتغل بالحرب والتجارة، هذه الأرستقراطية هي شعوب اسكندنافية شمالية من الأصول التي تسمى في أوربا الغربية «الفايكنغ» أو «النورمان»، ولكنها

كانت تسمى «الڤاريغ» في روسيا. كان الڤاريغ قد هزموا السلاف بعد أن نـــزلوا عبر الأنهار من الشمال وكانوا أشداء وواسعي الحيلة ومتوحشين. وقد غاروا على القسطنطينية وحاربوا الشعوب المقيمة في السهوب وبلغوا بتجارتهم مدينة بغداد. واستقر أحد أمرائهم واسمه روريك فيما يسمى اليوم مدينة نوڤغورود على بحيرة إيلمن في حوالى عام ٨٦٠ حسب التقاليد الروسية، وطالما كانت هناك طبقة نبلاء في روسيا كان جميع أمرائها يدَّعون أنهم متحدّرون من روريك هذا.

وتحوّل المركز الرئيسي لسلطة الڤاريغ وتجارتهم خلال العقود القليلة التالية إلى كييڤ على نهر الدنيبر. وكانت تسمى «كييڤ روس»، وكانت على درجة كبيرة من الأهمية في الدبلوماسية البيزنطية، فأحيانًا كان على الإمبراطورية أن تصد أمراءها المحاربين وأحيانًا قد تجعل منهم حلفاء مفيدين لها. ولكن الدبلوماسية كانت تجري ببطء، وقد أغار الڤاريغ أيضًا على القسطنطينية. وفي النهاية قبل أمير روسي في عام ٩٨٦ المسيحية دينًا له ولشعبه، فكان هذا قرارًا عظيم الأهمية يكاد يساوي أهمية قرار قسطنطين في رسم مصير البشرية لأنّه هو الذي شكَّل تاريخ روسيا –منذ ذلك الحين– وقد اعترف مواطنوه الروس بهذا بعد مئتي سنة وطوبوه باسم القديس ڤلاديمير. وكما هي الحال في قصة قسطنطين، لا نعلم بالضبط مدى الدور الذي لعبته كل من القناعة الشخصية والحسابات السياسية في تنصُّر ڤلاديمير، ولكننا نعلم أنه عندما تزوج من أميرة بيزنطية كانت قصة أعظم الأمم السلاڤية قد ابتدأت.

ربما كانت كييڤ أغنى بكثير من أغلب مدن أوربا الغربية في القرن العاشر، وقد صارت –الآن– مركزًا مسيحيًا إذ راح ڤلاديمير وخلفاؤه يفرضون العقيدة الجديدة بالقوة وبمساعدة الكهنة البلغار وإشراف بطريرك القسطنطينية الذي كان يعين مطران كييڤ، كما تبنّت روسيا الأبجدية الكيرلسية وطقوس الكنيسة

الأرثوذكسية. وفي بداية القرن الحادي عشر كانت كييف في ذروة بهائها ونفوذها، وكان حاكمها العظيم ياروسلاف الحكيم يفاوض الحكام البعيدين في غرب أوربا فضلاً عن بيزنطية، وقد رأى أحد زوار كييف الغربيين أنها تضاهي القسطنطينية. وقام ياروسلاف برعاية المؤسسات التعليمية ونشر أول مجموعة قوانين روسيّة، وفي عهده أيضًا وُضع كتاب «التاريخ الأول» وهو واحد من أول الأعمال الأدبيّة الروسية ودفاع عن عمل أمراء كييف في توحيد روسيا تحت راية المسيحية.

بزوغ أوربا الشرقية

بعد زمن قصير من هذا العصر العظيم ازدادت المشاكل الداخلية والخارجية في كييف، كما كانت قد ظهرت بولندا المسيحية، إلا أن بولندا ارتبطت بالمسيحية الغربية وليس بالأرثوذكسية لأن حاكمها اختار أن يقبل سلطة بابا روما. وكانت تعاني من ضغط الأمراء الألمان في الغرب ومن منافسة الأرثوذكسية في الشرق، وقد كتب لشعبها مصير تاريخي شاق، ومليء بالبطولات والمآسي لأنه أمة سلافية من ناحية الأصل واللغة ولكنها أوربية غربية ورومانية كاثوليكية من ناحية الثقافة والدين، فكانت دومًا ساحة للصراع بين أعداء رهيبين من الطرفين.

لقد نشأت ممالك سلافية أخرى في بوهيميا ومورافيا، وعند بداية القرن الثاني عشر صارت هناك أوربا سلافية مسيحية. إلا أنها لم تشكّل وحدة إلا من ناحية الأصل العرقي، وهي رابطة لم يكن لها وزن كبير في ذلك الزمان، بل كانت مقسَّمة بين فرعي الكنيسة أي كنيسة روما والكنيسة الأرثوذكسية، فضلاً عن أن طبيعة أراضي البلقان قد قسَّمت الناس المقيمين فيها إلى شعوب صغيرة. وكان هناك أيضًا شعب غير سلافي هو الشعب المجري الذي أتى إلى جنوب جبال الكَربات ليستقر

في وادي الدانوب بين الشعوب السلافية. والأسوأ من هذا أن السلافيين رغم استقرار علاقتهم ببيزنطية كانوا محاطين بالأعداء من الغرب والشرق معًا، فمن الغرب كانوا تحت ضغط الألمان الذين اندفعوا شرقًا بزعامة تنظيم عسكري ديني يسمى فرسان التوتون، وكان هؤلاء يعتبرون حربهم ضد السلاف بمثابة حرب مقدَّسة. وفي الشرق كانت الأمور أسوأ حتى من هذا، إذ حل بكييف في عام ١٢٤٠ حدث رهيب عندما احتلها ونهبها شعب آسيوي متوحِّش هو شعب المغول.

شعوب آسيا الوسطى

لقد أتى أولئك المغول من آسيا الوسطى، وهي منطقة يمكننا أن نعرّفها بأنَّها المنطقة القابلة للسكن من آسيا وغير الخاضعة بصورة فعلية لأي دولة كبيرة مثل الصين أو فارس، وغير المتأثِّرة كثيرًا بأي من المراكز الكبرى للحضارة. والحقيقة أن امتداد آسيا الوسطى كان دائم التغيُّر، ويمكننا أن نعرّفها أيضًا بأنها القسم من آسيا المناسب لحياة البدو. وهي من الناحية الجغرافية بشكل ممر ضخم ومرتفع تحدّه من الشمال غابات سيبيريا، بينما يتكون جداره الجنوبي من الصحارى وسلاسل الجبال والهضاب الممتدة من بحر قزوين عبر شمال إيران، وأفغانستان حتى جبال هندوكوش والتبت. إن أكثر أراضي هذه المنطقة عبارة عن سهوب قاحلة، وشديدة البرد في الشتاء، ويفسِّر هذا الأمر انعزال شعوبها الطويل عن التأثيرات الخارجية إلى أن جاءت الحملات التبشيرية المسيحية ونصّرتها -ومنذ ذلك الحين- تمكّن كل من البوذيين والمسلمين والمسيحيين من هداية بعضها إلى دياناتهم. وكانت الثروات التي تتراكم في هذه المنطقة تتجمَّع عادة في واحات يلتجئ الناس إليها، وكثيرًا ما أثارت

غيرة البدو وحسدهم، وكانت بعض أشهر تلك الواحات مثل سمرقند ومرو وبخارى محطات على طرق القوافل الممتدة من الصين إلى الغرب والتي تسمى «طريق الحرير».

لقد تعلمت الشعوب البدوية المقيمة في تلك السهوب طريقة معيّنة في الحياة تناسب بيئتها هذه، ومع أنّهم ظلّوا أميين لزمن طويل فقد كانوا يتمتعون بمهارات كثيرة جعلت منهم أعداء مخيفين كثيرًا ما لعبوا دورًا حاسمًا في تاريخ العالم. وكان أي اختلال صغير في المناخ أو السياسة في الشرق يعني الحياة أو الموت بالنسبة لتلك الشعوب التي تعيش على المرعى، فيدفعها إلى التنقل والترحال ويجعلها تصطدم بالشعوب الواقعة إلى الجنوب والغرب منها، وعندما تحصل تحركات كهذه على مجال واسع فإنها تصنع التاريخ. من بين تلك الشعوب الشعب السقيتي الذي فتن الإغريق وضايق الفرس، وكان السقيتيون في بداية الحقبة المسيحية الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة من الشعوب، إذ كانت تدفعهم من الخلف شعوب أخرى ووراءها كان شعب الهسيونغ نو وهم أجداد الهون، وهؤلاء أيضًا دفعهم إلى الغرب تدخّل أباطرة الصين. كانت تحدث إذن عملية هائلة من هجرات الشعوب، وفي القرن الرابع الميلادي كان الهون قد وصلوا غربًا حتى ما وراء بحر قزوين، وفي القرن التالي بلغوا أقصى بعد عن وطنهم وبدا أن أوربا الغربيَّة قد تسقط بأيديهم إلى أن صدَّهم معركة في مدينة تروا –على نهر السين في فرنسا الحالية– في عام ٤٥١. وكانت هناك شعوب أخرى كثيرة لعبت دورها في هذه الهجرات الكبيرة، منها الأفار والخزر والبشنيق والكومان، وكان لكل منها تأثيرها في تاريخ العالم في مرحلة ما من مراحله، ولكن الفروق بينها معقّدة للغاية وقصّتها طويلة ومشوَّشة لا يمكن تلخيصها هنا. إلا أن بينها شعبًا واحدًا يستحقّ اهتمامًا خاصًا هو عشيرة كانت

تعرف شغل الحديد، وكانوا عبيدًا لشعب مغولي يسمى الجوان جوان، أو "الأفار" في أوربا؛ وهذه العشيرة هي الأتراك.

الأتراك

تسمع عن الأتراك للمرة الأولى في حوالى عام ٥٠٠. لقد قبلوا في القرن السابع السيادة الاسمية لأباطرة الصين، وكانوا عبارة عن قبائل ترتبط -فيما بينها- بروابط سلالية فضفاضة وتنتشر من منغوليا حتى نهر جيحون وكان لها زعيم يسمى "الخان". وقد سميت هذه الشبكة من النفوذ الممتدة من الصين حتى فارس "إمبراطورية" تركية، ومن الصعب أن نعرف إلى أي مدى كانت إمبراطورية حقًا، ولكن كان هناك على كل حال نوع من العلاقة السياسية التي تربط بين شعوبها البدوية الممتدة عبر آسيا استمر لمدة -قرن تقريبًا- وهو في الحقيقة إنجاز كبير بالنسبة لبرابرة. وقد رأى حكام كل من الصين وفارس وبيزنطية والهند في أوقات مختلفة أن عليهم الانتباه لأمر الخانات الأتراك والتعامل معهم، فالبيزنطيون شجعوهم على مضايقة الحدود الشمالية الشرقية لفارس، كما يبدو أن الإمبراطورية الساسانية قد سمحت في سنواتها الأخيرة لبعضهم بالاستقرار ضمن حدودها مقابل مساعدتهم لها ضد بيزنطية والعرب، وقد استفاد الأتراك من هذه الاتصالات وتعلّموا فن الكتابة.

وشكّلت الإمبراطوريات العربية بعد ذلك حاجزًا قويًا أمام تقدُّم الأتراك، إلى أن تداعت الخلافة العباسية وتقسَّمت أراضيها إلى دويلات عديدة مختلفة في القرن العاشر، فاستطاعت الشعوب التركية -عندئذ- أن تتقدم من جديد. في ذلك الحين كانت إحدى عشائرهم، وهي عشيرة السلاجقة، قد اعتنقت الإسلام، واندفع هؤلاء أولاً إلى مرتفعات فارس ومنها إلى الأناضول، ولما كانوا مسلمين كما أن

بعضهم كانوا قد خدموا كمرتزقة في الجيوش العربية فقد صاروا تحت سيطرة الحضارة العربية. وكان سلوكهم شبيهًا بسلوك الكثير من الشعوب البربرية التي تعيش على أطراف مراكز الحضارة، فهم لم يحاولوا تخريب الحياة المتطوِّرة التي أعجبوا بها بل سعوا للمشاركة في ثمارها، وبدأت الأعمال الكبرى في مجال الآداب والعلوم العربية والفارسية تترجم إلى اللغة التركية.

وعلى عهد السلاجقة بدأت تظهر أخيرًا دولة تركية حقيقية في إيران والأناضول -حيث سمى الأتراك مقاطعتهم الجديدة «سلطنة الروم»، لأنهم اعتبروها جزءًا من تراث روما- وهكذا بدأت شيئًا فشيئًا عمليّة تحوُّل أهل الأناضول المسيحيين إلى الإسلام، فكان هذا من أسباب سلسلة من الحملات جاءت من غرب أوربا تسمى الحملات الصليبية كانت تريد صد تقدُّم الإسلام. إلا أن إمبراطورية السلاجقة الأتراك لم تستمر طويلاً بعد عام ١٢٠٠ حتى في الأناضول.

في تلك الأثناء كانت سلالة تركية أخرى قد احتلت مصر، والحقيقة أن الإمبراطوريات العربية الكبيرة كانت تتآكل -منذ زمن طويل- بينما كانت المسيحية تستعيد قواها، فقد أسَّس الصليبيون الغربيون ممالك مسيحية جديدة في بلاد الشام، أما العرب فقد خسروا صقلية كما كان المسيحيون في الغرب قد بدؤوا باستعادة إسبانيا منهم. وإن هذا العالم الإسلامي الممزَّق والمضعف قد اكتسحته في القرن الثالث عشر عاصفة عاتية جديدة آتية من الشرق.

جنكيز خان

لقد سبَّب المغول للإسلام أكبر كارثة عرفها في تاريخه، وهم نشؤوا بالأصل من الأراضي الواقعة إلى الشمال من الصين والتي تسمى اليوم منغوليا على اسمهم. في

تسعينيات القرن الثاني عشر كان أحد شباب المغول قد أصبح خانًا على شعبه، ثم راح يسعى للانتقام من إهانات حلّت بهم عن يد التتار -وهم شعب بدوي آخر- وخلال سنوات قليلة قبلت به كافة قبائل المغول «خانًا عامًا» عليها أو كما تسميه بلغتها «تشنكيز خان»، ثم حرّف العرب اسمه هذا فصار جنكيز خان. كان جنكيز أكبر فاتح عرفه التاريخ، قط، وقد أرهب أوربا وآسيا معًا، وكانت الدولة التي بناها أقرب إلى الإمبراطورية الحقيقية من أية دولة بناها زعيم بدوي آخر، ولو أن عاصمتها الوحيدة كانت خيام اللباد في معسكره.

لقد بدأ جنكيز بالسيطرة على قوة عظمى عندما استولى على شمال الصين في عام ١٢١٥، ثم مالبث أن وجّه اهتمامه نحو الغرب. كان المغول وثنيين ولم يكونوا لا مسلمين ولا مسيحيين، لذلك لم يميز جنكيز في اختيار ضحاياه. وكانت أولى تلك الضحايا هي الأراضي الإسلامية الشمالية في إيران ومدن الواحات الغنية فيما وراء النهر -جيحون- وكان الناس إذا قاوموهم يُقتلون في مذابح جماعية، لذلك صارت الشعوب التي تعرف ما ينتظرها تستسلم من دون قتال، وكان المغول -عندئذ- يبقون على حياتهم في العادة. وبعد زمن قصير غزا جنكيز جنوب روسيا، وفرض الجزية على الأمراء المسيحيين هناك. وعندما مات خلفه ابنه، الذي سرعان ما تحوّل اهتمامه إلى الغرب أيضًا، فنهب المغول مدينة كييف في عام ١٢٣٦، وقاموا من هناك بغارات بعيدة في عمق أوربا، فخرّبوا بولندا ومورافيا وطاردوا ملك هنغاريا المسكين عبر كرواتيا حتى ألبانيا قبل أن يتوقّفوا عن ملاحقته. ولم يعودوا إلى وطنهم إلا عندما مات الخان وصار لا بد من اختيار خان جديد، وقد كان بين الحاضرين في انتخابه رسول بابوي وسلطان سلجوقي وأمير روسي ومبعوث من قبل الخليفة العباسي.

وما إن استقرت الشؤون الداخلية للمغول حتى هجمت جيوشهم على الإسلام من جديد، فهزموا أولاً سلاجقة الروم، ثم تحولوا إلى ما بقي من الخلافة العباسية فاكتسحوا بغداد ونهبوها، ولما كانوا يؤمنون بخرافة تُحرِّم سفك دم الخليفة فقد لفوا الرجل المسكين -وهو آخر الخلفاء العباسيين- في سجادة وداسوا عليه بالخيل حتى مات. ثم اندفعوا بعدها إلى سورية، وبدا مصير الإسلام -الآن- على كف عفريت. إلا أنهم هزموا أخيرًا عن يد مماليك مصر قرب الناصرة في عام ١٢٦٠، وبهذا أنقذ الإسلام، ولكن سوف تكون للمغول سيطرة طويلة على جزء كبير من آسيا وروسيا من بعد.

وتفككت إمبراطورية جنكيز خان الموحَّدة وحلَّت محلَّها مجموعة من الخانيات التي ترتبط فيما بينها بروابط فضفاضة والتي يحكم كلاً منها أمير مغولي مستقل، ولكنَّها كانت تشترك أيضًا بأشياء كثيرة -فيما بينها- وكان هذا التحالف المغولي يشمل في أوسع امتداد له سدس مساحة العالم القديم تقريبًا. كانت وسائل الاتصال فيه حسنة وكذلك شرطته، وقد عرف المغول أن يستفيدوا من رعاياهم المهزومين بطريقة ذكيَّة، فجنَّدوهم في جيوشهم كما استخدم جنكيز الموظفين المدنيين الصينيين لإدارة نظام الضرائب واستعار الكتابة التركية لتدوين اللغة المغولية، وكان هذا الأمر على أهمية كبرى في تشكيل أفكار المغول. سوف نتحدَّث عن الصين المغولية في موضع آخر، ولكن نذكر هنا أن الخانات الكبار صاروا يعتبرون أنفسهم مثل أباطرة الصين، فكانوا يتوقَّعون من الشعوب الأخرى أن تدفع لهم الجزية لا أن تفاوضهم كأنداد لهم، وكانوا يؤمنون أنَّهم يمارسون سلطة ملكية عالمية بالنيابة عن إلههم إله السماء. إلا أنهم كانوا -في الوقت نفسه- متسامحين في أمور

الدين، وقد أعجب المسيحيون بتنوُّع المعتقدات في بلاط المغول، وقيل إن أحد الخانات كان على وشك أن يتعمَّد إلا أن هذا الأمر لم يتم.

عند نهاية القرن الثالث عشر حدث تغيُّر هام عندما أسلم الخان الذي يحكم فارس، فزال عندها الخطر عن الإسلام، وصار جميع الحكّام الفرس -منذ ذلك الحين- مسلمين. وقد عاد السلام وبعض الازدهار أيضًا إلى أراضي الإسلام القديمة رويدًا رويدًا، و لم يُبعث رعب المغول من جديد إلا مرة واحدة على عهد فاتح لا يقل رعبًا عن جنكيز هو تيمورلنك، الذي امتزج فيه الدم التركي بالدم المغولي. لقد اكتسح تيمور فارس في عام ١٣٧٩ بعد أن أرَّقتها سلسلة من النـــزاعات والصراعات الأهلية -إذ كان قُبلاي خان أي "الخان الكبير" قد مات عند نهاية القرن السابق، و لم يعين عندها سيد على جميع المغول- كما خرَّب تيمور الهند ونهب دلهي في هجوم خاطف -وقيل إن سبب تلك السرعة العجيبة كانت رغبة جيشه بالهرب من رائحة النتن المنبعثة من أكوام الجثث التي خلفها وراءه- وحارب الخانات الآخرين ودمَّر بلاد المماليك والأتراك وفتح بلاد الرافدين. إلا أنه لم يبن إمبراطورية و لم تستمر فتوحاته من بعده، وإذا كان له تأثير هام في التاريخ فهو تأثير غير مقصود إذ إن هجماته قد عطلت لعقود من الزمن شعبًا تركيًا في الأناضول هو الشعب العثماني ومنعته من الانقضاض على الإمبراطورية البيزنطية والإجهاز عليها.

نهاية بيزنطية

كانت نقطة الضعف الأساسية في بيزنطية هي حاجتها الدائمة لمحاربة أعداء أشداء على أكثر من جبهة واحدة في الوقت نفسه، فبعد أن صارعت العرب ونجت منهم حلَّ محلَّهم غزاة مسلمون جدد أهمهم الأتراك، كما اضطرت من

بعدهم لمعالجة أمر الأفار والبلغار والفارنغ في الشمال والشمال الشرقي. صحيح أن الغرب المسيحي كان وراءها، إلا أنه كان في الحقيقة يزداد انفصالاً عن الأرثوذكسية الشرقية، بل كان يبدو في بعض الأحيان وكأنه عدو آخر لها. وفي عام ٨٠٠ توَّج البابا في الغرب الملك شارلمان إمبراطورًا، ولم يرق هذا التتويج لبيزنطية لأن اتخاذ لقب الإمبراطور بدا تحدِّياً لها كوريثة حقيقية لروما -ومنذ ذلك الحين- صار الإداريون البيزنطيون يسمون الغربيين جميعًا «إفرنجًا» -لأن شارلمان كان ملكًا على الإفرنج- بل إن هذا الاسم ظلَّ يطلق على الأوربيين في الشرق الأدنى وقسم كبير من آسيا حتى القرن العشرين، حيث لم يعد الناس يميزون بين الإيطاليين أو الإسبان أو الألمان، مثلما كان الأوربيون يخلطون بين الفروع المختلفة من الأتراك. وقد حاول الإفرنج واليونانيون أن يتعاونوا بعضهم مع بعض ضد العرب، ولكن هذه المحاولة إنما زادت الخلافات فيما بينهم. ثم إن البيزنطيين كانت لهم ادعاءات قديمة في إيطاليا، كما أن وصول النورمان إلى صقلية ومحاولتهم الاستيلاء على أجزاء من اليونان تنتمي للإمبراطورية قد سبَّب صراعًا صريحًا بين الشرق والغرب. وكانت بيزنطية تزداد ضعفًا ومواردها تتقلَّص -منذ القرن الحادي عشر- وكانت النخب الحاكمة البيزنطية تزول لتحل محلها عائلات أرستقراطية من الأناضول وأرمينيا، وقد زاد هذا من عمق الهوة الثقافية بين الحضارتين الشرقية والغربية.

لقد حلَّت بالإمبراطورية البيزنطية ضربة مدمِّرة في عام ١٠٧٢ عندما مزق الأتراك جيشها في معركة مانتزيكرت -ملازكرت- فضاعت منها آسيا الصغرى التي كانت أهم مورد لجنودها وأغنى مقاطعاتها؛ ورغم أنها استعادت شيئًا يسيرًا من أراضيها بعد هجمات المغول على الأتراك فقد صارت -منذ ذلك الحين- محصورة بشريط ضيق من الأرض. وفوق هذا كان عليها أن تواجه خطرين جديدين قادمين

من الغرب. أحد هذين الخطرين هو جمهورية البندقية الإيطالية -ڤينيسيا- التي كانت تابعة لها في السابق. كان البنادقة قد ساعدوا البيزنطيين في صد النورمان عن اليونان، فسُمح لهم بالمقابل بأن يتاجروا بحرية في كافة أنحاء الإمبراطورية كرعايا لها لا كأجانب، ولكن البيزنطيين بهذا العمل قد جلبوا الدب إلى كرمهم، لأن البنادقة احتكروا بمرور الزمن تجارة أوربا مع بيزنطية، وسرعان ما فاقت قوتهم البحرية قوة بيزنطية نفسها، خاصة بعد أن هزموا أسطولاً مصريًا فأزاحوا بذلك القوة الوحيدة التي كانت توازن قوتهم. وبعد تلك التنازلات التجارية كسب البنادقة أراضي جديدة أيضًا -بل إنهم خاضوا حربًا ضد بيزنطية- وفي القرن الثالث عشر صارت البندقية إمبراطورية وسوف تزداد اتساعًا بعد وتضم إليها عشرات الجزر والموانئ خلال القرون الثلاثة التالية.

الحملات الصليبية

والخطر الثاني جاء أيضًا من الغرب في الحركة التي تسمى الحملات الصليبية، التي قام بها الأوربيون الغربيُّون باسم الدفاع عن المسيحية، مع أن مصالحهم ومصالح الأرثوذكس كانتا على طرفي نقيض. في القرن الثاني عشر أسَّس الصليبيون في بلاد الشام أربع دول لاتينية لم تعمِّر طويلاً ولكنَّها أقيمت على أرض كانت في السابق لبيزنطية، كما أن تدخّل الإفرنج في المنطقة قد كشف عن عداوته لها بصورة صريحة عندما نهب جيش صليبـــي مسيحي مدينة القسطنطينية في عام ١٢٠٤، وهي ضربة كادت تودي بالإمبراطورية، وقد نجت منها إلا أن رجال الكنيسة الأرثوذكس لم يغفروا للمسيحيين اللاتين هذا العمل قط. ولم يستعد البيزنطيون عاصمتهم حتى عام ١٢٦١، ولم تعد إمبراطوريتهم في ذلك الزمان إلا جزءًا صغيرًا من كيانها السابق، وباتت مجرد دولة بلقانية لها طرف صغير في آسيا وعاصمة ذات ماض عظيم. ولم

يتمكن البيزنطيون من السيطرة على البلغار مرة ثانية بعد ذلك، بينما استولى البنادقة -والجنويون أيضًا- على كافة جزر بحر إيجة.

واضطر أباطرة القرن الرابع عشر لطلب مساعدة المسلمين أي الأتراك العثمانيين من أجل معالجة خطر أمير صربي، وكان العثمانيون قد ساعدوا الأباطرة في استعادة عاصمتهم من «إمبراطورية لاتينية» أسَّسها الصليبيون هناك، إلا أن العثمانيين هم الذين قضوا على بيزنطية في النهاية. لقد حاول البيزنطيون إصلاح خلافاتهم مع الغرب، ولكنهم في النهاية اضطروا لمواجهة الإسلام وحدهم من جديد، وقد قاوموه بأساليب مختلفة منها الأساليب الدبلوماسية -إذ إن أحد حكام العثمانيين قد تزوج من ابنة أحد الأباطرة- إلا أنهم وجدوا أنفسهم مرغمين على خوض الحرب في النهاية.

في عام ١٤٠٠ كان الأتراك قد احتلوا جزءًا كبيرًا من البلقان -وفتحوا صربيا وبلغاريا، فرسَّخوا بذلك جذور الإسلام في عمق أوربا من جديد. كما كانوا قد هزموا حملة صليبية أخرى- واكتسحوا اليونان من بعدها وحاصروا القسطنطينية نفسها، و لم يمنعهم من القضاء عليها إلا هزيمتهم عن يد تيمورلنك المغولي. وقد بدا أن موجة ثانية من الفتوحات الإسلامية كانت تمتد في الشرق بينما كانت المسيحية تخرج المسلمين من عالمها في الغرب. وعندما استأنف الأتراك تقدّمهم خربوا إمبراطورية البندقية، إلا أن هدفهم الأساسي إنما كان الاستيلاء على القسطنطينية. لقد ابتدؤوا آخر هجماتهم في أوائل شهر نيسان (أبريل) من عام ١٤٥٣، وبعد حوالى شهرين من الحصار، أي في يوم ٢٩ أيار (مايو) توجّه الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر - وهو الإمبراطور الثمانون بعد سميّه قسطنطين الكبير - إلى كنيسة القدّيسة صوفيّا حيث تناول القربان وخرج ليموت مدافعًا عن عاصمته في آخر

أيامها كمدينة مسيحية. وسرعان ما انتهى كل شيء، فدخل السلطان العثماني محمد الثاني إلى المدينة واتّجه من توِّه إلى الكاتدرائية ونصب فيها عرش انتصاره.

يقول أحد الكتبة الإغريق بهلع كبير «لم يحدث قط ولن يحدث أبدًا شيء أفظع من هذا»، والحقيقة أن أحدًا لم يكن مهيئًا لهذا الحدث، وقد روع النبأ المسيحية الغربية. ولم يكن ذاك انتصارًا للهلال على الصليب فحسب، بل كان خاتمة لقصة ترجع إلى اليونان القديمة قبل ذلك بألفي سنة، لأن زوال الدولة البيزنطية كان -في الوقت نفسه- نهاية للتقاليد الرومانية وخاتمة ألف عام من الإمبراطورية المسيحية. وكانت تلك أيضًا أشد اللحظات درامية في تغير تاريخي كبير، هو القضاء على الدول المسيحية في الشرق الأدنى والبلقان وشرق المتوسط، وحلول قوة عالمية جديدة محلها هي الإمبراطورية العثمانية.

جار المسيحية الجديد

لقد صار الأتراك العثمانيون -الآن- هم قادة العالم الإسلامي، ويجدر بنا أن نتابع قصتهم قليلاً. كان العثمانيون -منذ زمن طويل- شعبًا يعيش على الحدود بين العالم المسيحي والمغول الوثنيين، وربما كان هذا ما ألهب في نفوسهم حماسهم الشديد، وكانوا من أعتى محاربي الإسلام -مع أنهم كانوا مستعدين لتجنيد المرتدين والمرتزقة من المسيحيين في جيوشهم- والحقيقة أن الشرق الأدنى الإسلامي بالاجمال قد ازداد عداوة نحو المسيحية منذ الحملات الصليبية. كان الرسول قد أوصى بالتسامح مع المسيحيين لأنهم يعبدون الله، ولكن بعد سلوك الإفرنج مع المسلمين والترحيب الذي استقبل به الرعايا المسيحيون الغزاة المغول بات الإسلام أكثر ضراوة نحو المسيحية.

وخلال قرون قليلة شكّل العثمانيون سدًا كبيرًا من الإسلام لا سابق له بين المسيحية الغربية وآسيا، وفي وجه روسيا الأرثوذكسية في الشمال أيضًا، كما اندفعوا

إلى عمق وادي الدانوب. كانت سفنهم تضايق تجارة المتوسط وقد ابتلعت إمبراطورية البندقية بصورة مطّردة، ولم تكن جيوشهم دون جيوش الأوربيين بل -ربما- كانت أفضل منها، وكان لديهم سلاح مدفعيّة أيضًا. وقد استخدموا في حصار القسطنطينية الأخير مدفعًا عملاقًا -بناه لهم مهندس هنغاري- يحتاج مئة ثور لتحريكه ولا يمكن إطلاق النار منه إلا سبع مرات في اليوم.

لقد سبَّب العثمانيون تغيرات عميقة في أوربا التي حكموها، فقد ضربوا جذور الإسلام راسخة في بعض المناطق -مثل البوسنة- عندما أسلمت جماعات فيها، أما السكان المسيحيون فصاروا يتطلعون -الآن- إلى رجال دينهم الأرثوذكس لقيادتهم، وباتت المسيحية علامة الوطنية في البلقان إذ حفظت لكثير من شعوب المنطقة قسطاً كبيرًا من تراث بيزنطية؛ كما أن الأرثوذكسية اليونانية التي بقيت تتطلّع إلى زعامة بطريرك القسطنطينية قد انفصلت عن روسيا حيث استقر أكبر أساقفة الكنيسة أخيرًا في موسكو. وكانت تركيا العثمانية مجتمعًا متعدّد العروق والأديان، ولو أن المسلمين كانوا دومًا في القمة، وكان للرعايا غير المسلمين حكم ذاتي داخلي ضمن جماعتهم بزعامة رؤسائهم الدينيين، والحقيقة أن مسلك العثمانيين نحو اليهود والمسيحيين كان بالإجمال أفضل من مسلك الإسبان مثلاً نحو اليهود والمسلمين.

لا يمكن لأي إمبراطورية أن تستمر إلى الأبد، ولكن الحقيقة أن تراجع الإمبراطورية العثمانية قد استغرق زمنًا طويلاً جدًا، ولم تزُل أخيرًا -حتى عام ١٩٢٢- أما في القرنين السادس عشر والسابع عشر فلم يكن يخطر ببال أحد أن قوة العثمانيين قد تتراجع، إذ إنهم كانوا يتابعون اندفاعهم في عمق أوربا، ففي عام ١٥٢٦ محوا الجيش المجري عن بكرة أبيه في هزيمة ما زالت ذكراها حيَّة كيوم أسود في تاريخ هنغاريا، وبعد ثلاث سنوات حاصروا ڤيينا، كما أنهم استولوا على قبرص وكريت وبقية جزر شرق المتوسط، وانتزعوا سورية ومصر من المماليك، وكردستان

وبلاد الرافدين من فارس، وأرسلوا جيشًا حتى عدن في الجنوب، وفي عام ١٦٧٣ عادوا لحصار فيينا مرة ثانية. إلا أن المد كان قد بدأ ينحسر -عندئذ- وكان التراجع الطويل لقوة الأتراك قد ابتدأ، ولو أنهم ظلوا يستولون على أراض جديدة في المتوسط حتى عام ١٧١٥.

كانت تلك مغامرة رائعة ومريعة في الوقت نفسه، وقد تركت في تاريخ أوربا أثرًا عميقًا لا يقتصر على المناطق التي احتلها العثمانيون. فلطالما ارتعدت أوربا أمام قوة العثمانيين، بل إن افتتانها بهم قد استمر زمنًا أطول. وهي لم تنجح قط في تنظيم مقاومة مشتركة ضدهم، فكان ذلك العبء يقع دومًا على كاهل أمير أو اثنين، بل إن بعض الأمراء الأوربيين قد تطلعوا إلى العثمانيين ليساعدوهم ضد أبناء دينهم من المسيحيين. أما بالنسبة للأوربيين الشرقيين الواقعين تحت حكم العثمانيين فقد كانت الإمبراطورية واحدة من تلك التجارب التي مروا بها، والتي عمّقت الهوة بينهم، وبين الأوربيين في الغرب منذ أن رُسمت حدود الإمبراطورية الرومانية. وقد شعرت بعض الشعوب في أوربا بهجمات العثمانيين بصورة أشد من بعضها الآخر، إلا أن تاريخ القارة بأكمله قد تأثّر بها بصورة أو بأخرى، وربما كان أعمق تأثيراتها كلها هو أنها أبعدت تفكير الأوربيين عن الاتصال بآسيا برًا عن طريق الشرق الأدنى وجعلتهم يمعنون التفكير في البحث عن طريق للالتفاف حول الإسلام، وهي فكرة كانت موجودة في أذهان بعضهم -منذ نهاية القرن الثاني عشر- والحقيقة أن الوسائل اللازمة لهذا الالتفاف كانت متوفّرة عند سقوط القسطنطينية، إذ كانت السفن البرتغالية تتنقل جنوبًا على ساحل المغرب بهمّة ونشاط، قبل ذلك، باحثة عن طريق جديدة نحو الشرق، وربما أيضًا عن حليف في أفريقيا يطوق خاصرة الأتراك، وبعد أن سقطت القسطنطينية في عام ١٤٥٣ سوف يزداد بحثهم هذا حماسة واندفاعًا.

الفصل السادس

عالم آخر

التقاليد الكبرى في آسيا

هند الموريا

صحيح أن النمط الديني لتاريخ الهند كان قد وضع بحلول نهاية الحقبة الفيدية، إلا أنه ظل مرنًا وقد حدثت فيه تطورات جديدة. فحركة الرهبنة مثلاً، وهي اختراع يعود للأزمة الفيدية، قد أدت إلى تجارب الزهد والتنسُّك فضلاً عن التأمُّل الفلسفي. كما أن ثمة ديانة جديدة على درجة كبيرة من النجاح نشأت كرد فعل ضد شكليَّة الديانة البرهَمنية هي الديانة اليانيّة، التي ابتكرها معلم من -القرن السادس- أوصى بأشياء عديدة منها احترام حياة الحيوان، وهذا ما جعل الزراعة وتربية الحيوان أمرًا مستحيلاً، لذلك مال اليانيّون إلى ممارسة التجارة فصارت جماعتهم اليوم من أغنى الجماعات في الهند.

البوذية

إلا أن أكثر الأنظمة تجديدًا على الإطلاق إنما كانت تعاليم البوذا، ويعني هذا الاسم الذي أطلق عليه «المستنير» أو «الواعي»، أما اسمه الأصلي فهو سِدهارتا غوتاما، وهو لم يكن برهمنًا بل أميرًا من الطبقة المحاربة عاش في بداية القرن السادس

ق.م. لقد تربّى سِدهارتا تربية نبيلة في سعة من العيش في دولة على الطرف الشمالي من سهل الغانج، ولكنَّه وجد حياته غير مرضية فترك مسكنه، وقضى سبع سنوات في التنسُّك وإماتة الجسد قبل أن يبدأ بالوعظ والتعليم. وقد وضع عقيدة متقشفة وأخلاقية الهدف منها التحرّر من العذاب عن طريق الوصول إلى حالات أعلى من الوعي. فقد علَّمَ بوذا تلاميذه أن يكبحوا متطلّبات الجسد أو ينبذوها بحيث لا يمنع شيء روحهم من بلوغ حالة النِرڤانا المباركة، أي التوحُّد بالحقيقة النهائية أو الألوهة التي كان يؤمن أنها كامنة وراء الحياة. فمن خلال إماتة الذات على هذه الصورة كان بإمكان الإنسان أن يتحرَّر من دورة البعث والتقمُّص التي لا تنتهي، وهي نمط الوجود الذي كان يقول به الدين على أيامه، وكذلك الهندوسية من بعده.

يبدو أن بوذا كان يتمتَّع بقدرات عملية وتنظيميّة كبيرة، ونـــزاهة أخلاقية لا غبار عليها، وشخصية سرعان ما جعلت منه معلمًا محبوبًا وناجحًا. وقد تجنَّب الديانة البرهَمنية ولم يعارضها، وإن ظهور جماعات من الرهبان البوذيين قد أمن لعمله بيئة من المؤسّسات التي سوف تستمر من بعده. كما أنه منح دورًا للذين لم ترضهم الممارسات التقليدية، خاصة النساء وأتباع الطبقات الدنيا، إذ لم تكن الطبقات تعني شيئًا في نظره. إلا أن ما صار يعرف بالبوذية، أي الديانة التي طوَّرها أتباعه بناء على تعاليمه، قد لا تعكس نظرته الشخصية، لأن أفكاره كانت بسيطة لا تؤمن بالطقوس ولا بإله. وسرعان ما مرَّت عقيدته بتطوُّر قد يعتبره بعضهم تشويهًا لها، وضمت الكثير من المعتقدات والممارسات التي كانت موجودة قبلها مثل جميع الديانات الكبرى. إلا أن هذا التطوُّر قد ساعدها في الاحتفاظ بشعبية كبيرة، وسوف تمتد بعد موت غوتاما بقرون -وقد مات في حوالى عام ٤٨٣

ق.م- لتصبح أكثر الديانات انتشارًا في آسيا -وقوة عظيمة في تاريخ العالم؛ وهي أول ديانة عالمية امتدت خارج المجتمع الذي ولدت فيه.

منذ كان بوذا على قيد الحياة كانت قد اكتملت الخطوط الأساسية لنمط الحضارة الهندية التي مازالت حيَّة اليوم -ومتمتعة بقدرة عظيمة على تمثُّل الثقافات الأخرى واستيعابها، وهذه حقيقة هامة جدًا تميِّز الهند عن بقية العالم. إن أولى التقارير التي أتتنا من شاهد عيان عن حضارة الهند الباكرة تعود للعصر الهلنستي- بعد حوالى قرنين من موت بوذا- وهذا الشاهد هو رجل إغريقي اسمه ميغاستينيس أرسله الملك السلوقي سفيرًا إلى الهند في حوالى عام ٣٠٠ ق.م. وهو يخبرنا عن الهند الواقعة وراء نهر الهندوس، والتي لم يبلغها جيش الإسكندر قط، لأن ميغاستينيس هذا قد سافر حتى البنغال وأوريسا وقابل الكثيرين من الهنود واستجوبهم. صحيح أنه يروى قصصًا مختلَقة عن أناس يعيشون على الروائح بدلاً من الطعام والشراب، وعن عمالقة ذوي عين واحدة في وسط الجبين، وآخرين ذوي أقدام ضخمة يستخدمونها للاحتماء من الشمس، وعن أقزام وأناس بلا فم، ولكنه يصف أيضًا الهند على عهد حاكم عظيم هو جندرة كُبتا مؤسِّس السلالة التي تسمى سلالة الموريا، ونحن نعرف أشياء أخرى عن جندرة كُبتا هذا من خلال مصادر أخرى. ويقول بعضهم إنه استلهم الفتح عندما رأى في شبابه الإسكندر الكبير أثناء غزوه للهند، وقد بنى على كل حال دولة شملت واديي الهندوس والغانج الكبيرين فضلاً عن القسم الأكبر من أفغانستان -التي أخذها من السلوقيين- وبَلوشِستان، وكانت عاصمتها في باتنا. ويبدو من رواية ميغاستينيس أن شعوبها كانت منقسمة -منذ ذلك الحين- إلى تقليدين دينيين - أحدهما الديانة البرهمنية القديمة التي كانت أصل الهندوسية، والآخر

على ما يبدو هو البوذية. أما جندرة كُبتا فيقال إنه قضى الأيام الأخيرة من حياته معتزلاً مع أتباع الديانة اليانيّة قرب ميسور حيث مارس طقوس تجويع النفس حتى الموت.

آشوكا

لقد خلف جندرة كُبتا ابنُه الذي زاد الإمبراطورية اتساعًا باتجاه الجنوب. إلا أن الرجل الذي أكمل هذه العملية إنما هو آشوكا، ثالث أباطرة الموريا، الذي حكم رقعة واسعة لن تعرف الهند أكبر منها تحت حكم واحد حتى تبلغ فيها السلطة البريطانية ذروتها في القرن التاسع عشر. وعلى عهد آشوكا -أيضًا- تبدأ بالظهور وثائق غنية عن الهند، لأنه ترك الكثير من النقوش والسجلاّت والقرارات والرسائل لرعاياه. وتشير هذه الوثائق إلى التأثيرين الفارسي والهلنستي -إذ إن الهند كانت في ذلك الحين أكثر اتصالاً بالعالم الخارجي من الصين- كما أنه خلّف في قندهار بأفغانستان كتابات محفورة باللغتين اليونانية والآرامية -وقندهار واحدة من المدن الكثيرة التي سميت على اسم الإسكندر الكبير.

كانت هذه أكثر الحكومات تنظيمًا -حتى ذلك الزمان- والأهم من هذا هو أن الهند على عهد آشوكا كان قد ترسَّخَ فيها نظام الطبقات المغلقة ترسُّخاً متينًا. كان آشوكا يحكم البلاد من خلال الإدارة، وكان يساعدها على ما يبدو جهاز كبير من الشرطة السرية أو المخابرات الداخلية. وكان هذا الجهاز يقوم بالواجبات التي نتوقعها منه مثل جبي الضرائب، والحفاظ على الأمن والنظام والإشراف على الري، كما كانت عليه أيضًا مهمة الترويج لمجموعة من المعتقدات، أي ما يمكن أن نسميه إيديولوجية. كان آشوكا بوذيًا، ويقال إنه اعتنق البوذية بعد أن شهد معركة دامية رهيبة أثارت الاشمئزاز في نفسه، وقد نصب الكثير من الأعمدة التي ترمز للوصل

بين السماء والأرض وعليها نقش رسالته. ولم تكن تلك الرسالة بوذية -فقط- بل يمكن تلخيصها بكلمة «داما» Dhamma، وهي مشتقة من كلمة سنسكريتية تعني «القانون الكوني»، وتوصي بالتسامح الديني واللاعنف واحترام الألوهية في جميع البشر. والحقيقة أنها أفكار مذهلة بتطورها بالنسبة إلى ذلك الزمان، وكثيرًا ما يعتز بها الهنود اليوم رغم أنها تعود لعصر بعيد. ولم توضع تلك المبادئ كقوانين أو مراسيم يجب إطاعتها وتنفيذها، بل يبدو أنها كانت جزءًا من محاولة آشوكا لتسهيل حكم هذه المجموعة الهائلة، والمتقلقلة من الشعوب والعقائد واللغات. تقول إحدى نقوشه «إن الناس جميعًا أولادي»، ولا ريب أن الحكم يسهل كثيرًا إذا ما اتفق الناس على هذا، ويلاحظ أن آشوكا لم يبدأ بنصب تلك العواميد إلا قرب نهاية حكمه -بعد عام ٢٦٠ ق.م تقريبًا- أي عندما كانت فتوحاته قد اكتملت.

لقد قام آشوكا أيضًا بمجموعة من الأشغال العامة التي كان الغرض منها منفعة جميع رعاياه، فبنى خزانات المياه، وحفر الآبار، وجعل محطات للاستراحة على مسافات منتظمة على طول طرق الإمبراطورية، كما زرع أشجار تين البنغال لتؤمن الفيء للمسافرين. إلا أن هذه الأشياء كلها لم تساعد كثيرًا في التغلُّب على انقسامات الهند، بل يبدو على العكس أن ملامحها الدينية قد تعمَّقت وترسَّخت في أزمنة الموريا. لقد سارت أفكار الدين وآدابه خطوة أخرى نحو تبلور الديانة الهندوسيّة عندما بدأت قصيدتا المَهابَهاراتا والرامايانا تأخذان شكلهما النهائي، وهما ملحمتان كبريان ترويان قصص الآلهة والشياطين والمغامرات التاريخية الجريئة؛ وقد أضيفت إلى ملحمة المَهابَهاراتا «أغنية الرب» (باغاڤاد غيتا)، التي سوف تصبح النص الجوهري في الديانة الهندوسية وسوف تحظى بمكانة تساوي مكانة العهد

الجديد في الديانة المسيحية. كما ازدهرت في أزمنة الموريا عبادات أخرى أكثر شعبية وأقرب إلى الخرافة، منها عبادة كرِشنا، أكثر آلهة الهند شعبية، وهي عبادة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالباغافاد غيتا لأن هذه القصيدة تدور حول شخصية كرِشنا. وازدهرت البوذية أيضًا على عهد آشوكا، ربما بفضل تأييده ودعمه لها، فقد بلغ به حماسه أنه أرسل البعثات التبشيرية إلى أصقاع الأرض، ومنها بعثات إلى مصر ومقدونيا لم تحرز نجاحًا كبيرًا، بينما أفلحت غيرها في بورما وسيلان (سريلانكا)، والحقيقة أن البوذية مازالت هي الديانة السائدة في سريلانكا منذ ذلك الحين.

وسرعان ما راحت إمبراطورية الموريا تتفكك بعد موت آشوكا، وليس سبب هذا التفكك واضحًا ولكن ربما كان أبسط تفسير له هو أنها اتسعت كثيرًا حتى باتت أكبر من مواردها. كانت إمبراطورية الموريا بالأساس دولة تعيش بصورة طفيلية على زراعة محدودة، وغير قادرة على التوسُّع الكبير، مثل كافة الإمبراطوريات القديمة، ولا ريب أن إدارتها كانت بدائية ينخرها الفساد والمحسوبيَّة لأنها لم تكن تملك نظامًا عقلانيًا لتوظيف الناس والرقابة عليهم. أما مجتمع الهند فقد كان على كل حال مستقلاً إلى حد كبير عن الأنظمة السياسية، ويسير بحسب ترتيبات العائلة والطبقة، ولم يكن الهندي العادي يهتم كثيرًا بما يحدث فوق هذين المستويين. ولم تكن إمبراطوريات الهند تحظى بولاء رعاياها إلا عندما تؤمِّن لهم النظام والعيش الكريم، مثلها مثل إمبراطوريات الصين.

تعتمد الاستمرارية الطويلة في تاريخ الهند إذًا على الدين والطبقة الاجتماعية والعائلة. كما أن الاقتصاد لم يتغير كثيرًا، والحقيقة أن حياة الفلاح الهندي لم تعرف تبدّلاً هامًا بين أزمنة الموريا ووصول الأوربيين في القرن السادس عشر، وربما كان هذا أمرًا طبيعيًا بالنظر إلى مناخ الهند والروتين الذي فرضه عليها. وبالرغم من هذا

فقد حدثت بعض التطورات الهامة، منها نمو التجارة التي أمَّنت للحكومة دخلاً من رسومها، وربما كان هذا سبب العناية ببناء الطرق، كما ترافق نمو التجارة بنمو الجمعيات التجارية والحرفية، التي بلغ من شأنها أن بعضها اعتبرت خطرًا على سلطة الملك. وكانت التجارة الخارجية مع أفريقيا، والإمبراطورية الرومانية تنمو باستمرار أيضًا.

الهند الهندوسية

اغتيل آخر أباطرة الموريا في حوالى عام ١٨٤ ق.م، ثم تفكك تاريخ الهند فصارت قصته مشوَّشة جدًا طوال -خمس مئة سنة تقريبًا- ولكن تبرز من خلال هذا الشواش بعض الخطوط القليلة، أهمها سلسلة من الغزوات أتت من الشمال الغربي. كان البلخيون أحفادًا للإغريق خلّفهم الإسكندر الكبير على أعالي نهر جَيْحون، حيث بنوا لأنفسهم مملكة مستقلة بين الهند والدولة السلوقية في القرن الثالث ق.م. وسرعان ما اجتذبتهم الهند، فاندفعوا إلى وادي الهندوس في القرن الأول ق.م، ثم تبعتهم شعوب أخرى استقرت في البنجاب في أزمنة مختلفة، منها الفرثيون والسقيتيون. ومن أكثر تلك الشعوب الغازية غموضًا وإثارة للاهتمام شعب الكوشانا، الذين أتوا من حدود الصين البعيدة. يبدو أن اهتمام الكوشانا كان دومًا مركّزًا على آسيا الوسطى، إلا أنهم حكموا إمبراطورية امتدت في يوم من الأيام من السهوب حتى بيناريس على نهر الغانج. وكانوا بوذيين متحمِّسين لديانتهم، وفي أيامهم ابتدأ نحت تماثيل بوذا -بأسلوب يظهر فيه التأثير الإغريقي عادة- وكان هذا من علامات انتقال البوذية إلى أرض الواقع لتصبح ديانة مثل كل الديانات. إلا أن

تغيُّرات كثيرة كانت تجري في الوقت نفسه، والحقيقة أن جميع ديانات الهند وطوائفها كانت تتفاعل فيما بينها.

وفي النهاية دال الكوشانا هم أيضًا بدورهم، وعادت الهند لتتمزَّق من جديد وتتحوَّل إلى عدد من الممالك المشتَّتة. و لم تستعد وحدتها السياسية إلا حين أُسِّست إمبراطورية جديدة هي إمبراطورية الكُبتا في عام ٣٢٠م. ولكننا نستطيع أن نميِّز ضمن فوضى القرون السابقة لها، أي عندما كانت الإمبراطورية الرومانية في ذروتها، سلسلة متَّصلة من الغزوات الآتية من ناحية الشمال الغربي. لقد أتى أولئك الوافدون الجدد بتأثيرات جديدة، ويحتمل أن تكون المسيحية ظهرت في القرن الأول الميلادي- إلا أنهم لم يزعزعوا قط تقاليد الهند الدائمة التي ما برحت تزداد قوة ومتانة. كما أنهم لم يتغلغلوا في الجنوب، والحقيقة أن الجنوب لن يتحدَّ سياسيًا بالشمال بعد عهد الموريا حتى قدوم الحكم البريطاني. وسوف يبقى سهل الدكّن أكثر منطقة حافظت فيها الهندوسية على طبيعتها وثباتها، وعلى حكّامها من العرق الدراويدي غير الآري، وسوف تظلُّ عالمًا آخر بعيدًا عن شمال الهند الهندوسي، رغم اشتراكهما بالدين والمعتقدات شكليًا. أما أنماط الحياة في الهند فلم تتأثَّر بقدوم الحكّام ورحيلهم الدائمين لا في الشمال ولا في الجنوب، بل كان أكثر الهنود يعيشون في ذلك الزمان -كما هي الحال اليوم- في قرى مكتفية بذاتها وغير متأثِّرة بما يجري خارجها. وكانت موجات الغزاة القادمة من وراء الجبال تتوالى، فيبرز منهم بين -الحين والحين- فاتح كبير يجمع شمل البلاد، ولكنَّها لا تلبث أن تعود فتتفكّك بعد زمان يقصر أو يطول إلى ممالك مبنيَّة حول المراكز والجماعات المحليَّة القديمة. وكانت هذه تستمر على مدى القرون مهما عصفت بها الرياح من وقت لآخر.

الكُبتا

كانت عاصمة أول إمبراطور من أباطرة الكُبتا في مدينة پاتنا التي كانت عاصمة الموريا من قبل، وقد حكمت سلالته شمال الهند موحِّدًا من وادي الغانج، وحقَّقت السلام والحصانة في وجه الغزوات حتى صار الهنود في عصور لاحقة يعتبرون عصر الكُبتا عصرًا ذهبيًا من السلام والحكم الصالح، ومرحلة كلاسيكية أعطت فيها الفنون ثمارها للمرة الأولى. والحقيقة أن أولى المعابد الحجرية الكثيرة والغنيَّة بالتماثيل إنما تعود إلى عصر الكُبتا، وأهميَّتها في تاريخ الفن والعمارة في الهند تقابلها في أوربا أهمية الكاتدرائيات القوطية التي بنيت في العصور الوسطى. كما ازدهر في عهدهم الأدب، وبدأت تقاليد الدراما الهنديَّة الشعبية المبنيّة على قصص مأخوذة من الملاحم السنسكريتية الكبرى، والتي ما زالت لها شعبيتها الكبيرة بين رواد السينما في الهند حتى اليوم. وكان ذاك أيضًا عصر المعرفة والتَّطوُّر الفلسفي، ففي القرن الخامس اخترع علماء الحساب الهنود النظام العشري، وهو اختراع ذو أهمية عظيمة جدًا للبشرية، وسوف ينقله العرب بعد ذلك إلى الغرب على أيام الخلافات.

لقد حدثت على عهد الكُبتا تطورات دينية هامة هي استمرار لعملية طويلة ابتدأت منذ زمن بعيد، حتى بزغت منها في النهاية الديانة الهندوسية الكلاسيكية. نحن نعلم أن الترتيبات الإجتماعية المعقَّدة للهندوسية، والتي مازالت هامة للغاية في تشكيل الحياة في الهند اليوم، والمعتقدات المرتبطة بها أيضًا كانت راسخة تمامًا بعد عهد الكُبتا، ولو أننا لا نعلم على وجه الدقة متى اتخذت تلك الترتيبات شكلها الثابت. وتعود جذور الهندوسية إلى ماض سحيق، ربما كان سابقًا للغزوات الآرية، لأن ثمة آلهة كانت تعبد منذ حضارات وادي الهندوس القديمة ربما كانت أشكالاً

سابقة أو «أجدادًا» للإله الهندوسي شيفا، إلا أن الهندوسية قد خرجت -الآن- من القالب البرهمَي والفيدي القديم الذي كان يطوّقها.

انتشار البوذية

حوالى عام ٥٦٣-٤٨٣ق.م	حياة غوتاما
حوالى عام ٣٧٠	المجلس يشير إلى أول انشقاقات كبرى ضمن البوذية
٢٥٥	الإمبراطور آشوكا يعتنق البوذية
حوالى عام ٢٤٠	اتخاذ البوذية ديانة في سيلان
٦١م	التاريخ التقليدي لوصول المبشرين البوذيين إلى الصين
ح ١٢٠	المجلس البوذي في كشمير يضع النصوص الأساسية لبوذية مَهَيانا
ح ١٢٠-١٦٢	كانيشكا ملك الكوشانا يروج للبوذية في قندهار والبنجاب والسند
ح ٢٠٠	البوذية تتغلغل في إندونيسيا
ح ٤٠٠-٥٠٠	البوذية تتغلغل في بورما
ح ٥٥٠	البوذية تصل إلى اليابان
٨٤٤	البوذية تصل إلى الصين
ح ١٣٠٠	البوذية تقبل في تايلَند

العقيدة والمجتمع

كان المجتمع في أزمنة الكبتا يشبه المجتمع الهندوسي اللاحق إلى حد كبير، وكان أساسه نظام الطبقات المغلقة، الذي -تطوَّر الآن- وتجاوز تقسيم الطبقات الأربع السابق الذي كان سائدًا في المجتمع الفيدي. كما أن العقيدة الدينية تغيَّرت هي الأخرى، والحقيقة أن من الصعب وصف الديانة الهندوسية، لأنها ليست عبارة عن عقائد أو نصوص يجب على المرء الإيمان بها، ولا هي ناحية منفصلة أو متميزة من الحياة، بل هي طريقة في النظر إلى العالم -المرئي واللامرئي معًا- ككيان واحد والعيش فيه. وإذا كان ثمة مبدأ عملي محوري في الهندوسيَّة فهو أن يعيش المرء حياته بحسب موقعه في النظام الذي يضم الأشياء كلها. إن أكثر الهنود اليوم فلاحون مثلما كانوا دائمًا، وقد لا يعني الدين عندهم إلا السعي لنيل رضى الآلهة بوسائل خرافية يؤدونها لها في المعبد القريب، بالإضافة إلى احترام طبقتهم الاجتماعية وما تفرضه عليهم من قيود في الحياة العملية، والاشتراك بالاحتفالات الشعبية الكبرى التي ما زلنا نرى ما يشبهها في قرى الهند -حتى اليوم- حيث تصنع عربات عملاقة ذات عجلات وتحفر عليها صور ملونة للشياطين والآلهة والإلهات والوحوش وتجر عبر الشوارع، وكانت أيضًا ثمة عبادات تختص بالآلهة والإلهات الكبرى مثل شيفا وكرِشنا. ولكن كان يوجد في الوقت نفسه شكل من الهندوسية الفلسفية الصرف والبعيدة كل البعد عن فجاجات القرابين الحيوانية وعبادة الصور التي استمرت على المستوى الشعبي -مثلما بقي الناس في ديانات أخرى قرونًا طويلة يصلون بصورة يشوبها الكثير من السحر والخرافة- كان أكثر أشكال الهندوسية تطوَّراً يسمى الفيدانتا، وهي عقيدة مجرَّدة تشدّد على لاحقيقية العالم المادي الملموس -مثل بعض أشكال البوذية- وتعلّم أن على الإنسان السعي للتحرر منه عن طريق معرفة

الحقيقة، أي البرَهما. وهكذا كان في الهندوسية عقائد ترضي جميع حاجات الناس على اختلافها.

إلا أن تطبيق الهندوسية على مستوى الحياة اليومية كان ينـــزع إلى الشدّة والقسوة. فقد كانت هناك عادة تزويج الأطفال، كما ابتدأت عادة جديدة تسمى «السُّوتيّة»، التي تُكرَه فيها النساء الأرامل على الاستسلام لكي يحرقن حتى الموت على محرقة أزواجهن المتوفين، وتدل هاتان العادتان وعلامات كثيرة غيرها في القرنين الخامس والسادس على أن مرتبة المرأة في المجتمع كانت تتدنى باستمرار. كان البراهمة في الأزمنة الباكرة يسمحون للنساء بتعلّم الكتابات الفيدية، أما الآن فقد صارت هذه محظورة عليهن.

والبوذية أيضًا كانت تمر بتطورات هامة استمرت قرونًا طويلة قبل أزمنة الكبتا وبعدها، فلم يعد بوذا معلمًا كبيرًا، بل صار نموذجًا ومثالاً للمخلّصين الذين يسمون «البوذيساتفا»، وهم رجال تنازلوا عن هدف إفناء الذات من أجل أن يبقوا في العالم ويعلّموا الناس طريق الخلاص. وكان أهم التغيُّرات هو ظهور ما يسمى ببوذية مَهايانا (أو «الوسيلة الكبرى»)، التي كان لها شكل بسيط يتمثّل بعبادة بوذا نفسه كمخلّص إلهي وتظاهر من تظاهرات بوذا السماوي الواحد العظيم. وقد اكتسبت هذه العبادة شعبية أوسع بكثير من طقوس إماتة الجسد والتقشف الشديدة التي علمها غوتاما (بوذا). كان بوذا قد منع عبادة الأوثان، ولكن –منذ القرن الأول فما بعد– صارت تصنع له أعداد متزايدة من الصور وراح المؤمنون يعبدونها في المعابد. وفي النهاية أضحت بوذية مَهايانا هي الشكل المسيطر من هذه الديانة، فازدهرت في نيبال والتبت والصين واليابان، بينما تمكّن التقليد الأقدم من الحفاظ على نفسه في إندونيسيا وماليزيا.

لقد تقاربت ديانتا الهند الكبريان قليلاً في تطورهما، لأن بوذا صار يعتبر إلهًا تقريبًا ولو أنه إله غامض، وكان هذا شبيهًا بفكرة الهندوس عن الروح الكامنة في جوهر الأشياء كلها. كما صارت هاتان الديانتان كلتاهما تدعوان إلى التأمّل والسلبيَّة وأداء الواجبات المعروفة والتوافق مع مخطط الأشياء، وليس إلى محاولة تغيير العالم عن طريق هداية الناس أو العمل الحثيث. وكانت الهندوسيّة والبوذية ملائمتين للنظرة إلى الزمن على أنه دورات متكرِّرة بلا نهاية لا يملك الأفراد سبيلاً إلى كسر طوقها، وكانتا كلتاهما تذكّيان نظرة للحياة مختلفة جدًا عن نظرة المسيحية والإسلام. ولا ريب أن هذا الفرق قد وضع حضارة الهند على مسار مختلف حتى على المستوى الدنيوي. وقد فرضت المؤسسات الاجتماعية في الهند – وبالأخص نظام الطبقات المنغلقة – أعباء اقتصادية كبيرة، لأن هامش الموهبة الفردية والمبادرة يضيق كثيرًا عندما يتحدد دوره الإقتصادي بحسب ولادته. والحقيقة أن طموح الناس جميعًا كان ضيقًا ما خلا طموح المحارب، وطموح المحارب لا يُشبع عادة إلا بأساليب هدامة.

الهند الإسلامية

في حوالى عام ٥٠٠ كانت ثمة علامات تدل على أن الكُبتا كانوا يفقدون سيطرتهم على الأمور، ولم يمض زمن طويل حتى تفكّكت الهند من جديد إلى إمارات صغيرة. وسرعان ما عاد الغزاة لمضايقتها من الشمال الغربي، ولكنهم كانوا في هذه المرة فرعًا من الهون، وقد نجحوا في القضاء على البوذية في أفغانستان إلا أنهم لم يخلفوا أثرًا دائمًا في وادي الهندوس. ثم جاء العرب وفتحوا البنجاب لفترة من

الزمن من دون أن يتركوا فيها تأثيرًا دائمًا أيضًا، إلا أن قدومهم كان بداية قصة الإسلام في الهند.

ثم جاءت موجة ثانية من المسلمين في القرن الحادي عشر أقوى من موجة العرب، وكانت مكونة من شعوب تركيَّة تنوي البقاء، فبنوا خلال عقود قليلة حكمًا إسلاميًا شمل كافة وادي الغانج وكان مركزهم في دلهي. وكان بعض الأتراك متلهفين لنشر دينهم فاضطهدوا الهندوسيَّة ودمَّروا معابدها، ولكنَّهم لم يستمروا طويلاً بدورهم، ففي عام ١٣٩٨ نهب تيمورلنك مدينة دلهي -وكانت تلك نهاية السلاطين الأتراك، وهم أول مسلمين حكموا جزءًا كبيرًا من الهند. إلا أن الإسلام كان قد ترسَّخ في شبه القارة وسوف يشكِّل تحدّياً لقدرتها على تمثل الثقافات الأجنبية لم تعرف مثله من قبل. ومع الإسلام أتت تأثيرات أخرى أيضاً -فمنذ ذلك الحين- صارت ثقافات البلاط في الهند متأثرة بصورة قوية بالأساليب والعادات الفارسية.

أول أباطرة المغول

إن الرجل الذي أعاد إحياء الإمبراطورية الإسلامية في الهند هو بابُر. كان بابُر ينتسب بأبيه إلى تيمورلنك وبأمه إلى جنكيزخان، فكان في عروقه دم مغولي، وسوف تسمى الإمبراطورية التي أنشأها الإمبراطورية «المغولية»، ولو أنه لم يستخدم هذه التسمية. كان بابُر يعتبر نفسه منتميًا للتقاليد الفارسية، وقد نشأ من أحفاد تيمور الذين استقروا في فارس وكانوا في الحقيقة أتراكًا أكثر منهم مغولاً. وكان يحب الشعر الفارسي وفن البستنة الذي يهواه الفرس، وقد أدخل إلى كابُل العنب والبطيخ الأصفر والموز وقصب السكر، وكان أيضًا مغرمًا بجمع الكتب وعلى درجة

عالية من الثقافة، وكان شاعرًا كتب سيرة ذاتية جميلة ورواية من أربعين صفحة عن هندستان في زمن فتحه لها، دوّن فيها عاداتها وبنية طبقاتها الاجتماعية فضلاً عن حياتها البرية وأزهارها. ولكنه كان قبل كل شيء مقاتلاً بارزًا بدأ حياته العسكرية بركوب الخيل إلى جانب والده في المعارك عندما كان في سن العاشرة. وقد كشف عن معدنه عندما استولى على سمرقند وله من العمر أربع عشرة سنة في عام ١٤٩٧. وكانت قاعدته في كابُل، وفي عام ١٥٢٥ دعاه بعض أمراء الهند المسلمين المستائين من حكم الهندوس والمنشقّين عليهم، فاكتسح البنجاب كما أرادوا، وتابع مسيره فاحتل دلهي وقتل سلطانها في المعركة، ولكنه سرعان ما انقلب على الأمراء الذين دعوه، ثم أخضع الأمراء الهندوس بعد أن استغلوا الصراعات بين الحكام المسلمين. وعندما مات في عام ١٥٣٠ كان يحكم إمبراطورية تمتد من كابُل إلى حدود بيهار، وقد دُفن في كابُل بناء على رغبته.

أما حفيده أكبر فقد زاد من بعده الإمبراطورية اتساعًا على اتساع. وقد بهر به الأوربيون فسموه «المغولي الكبير». كان أكبر مقاتلاً شجاعًا، وقد صارع ذات مرة نمرًا بمفرده وقتله بسيفه. وكان منذ صباه يحب ركوب فِيَلته المقاتلة ويؤثر الصيد على الدروس، ولهذا السبب كان أميًا تقريبًا بعكس جميع الأباطرة المغول. ولكنه حافظ على التقاليد الجميلة لسلالته في تقدير الثقافة والفنون وجمع الكتب واللوحات، وكان لديه في بلاطه زمرة من الرسامين الذين يعملون تحت رعايته. وقد بلغت الهندسة وفن التصوير عند المغول ذروتهما على عهده.

لقد حكم أكبر من عام ١٥٥٥ إلى عام ١٦٠٥ -ويوافق حكمه الطويل هذا بالتقريب حكم الملكة إليزابِث الأولى في إنكلترا- وأبدى براعة كبيرة في معالجة أمر الفروق الدينية بين رعاياه، فمن أول أعماله عندما ابتدأ الحكم أنه تزوج أميرة من

شعب الراجبوت -وهي بالتالي هندوسية- وكان قبل ذلك قد سمح للنساء الهندوسيات في حريمه بممارسة دياناتهن. وسرعان ما ألغى ضريبة الأعناق التي فرضها أسلافه على غير المسلمين، كما كان يدير شؤونه المالية وزير هندوسي، وقد أظهر أيضًا رأفة واسعة نحو الأمراء الهندوس المهزومين. وكانت زوجته الهندوسية ابنة أكبر ملوك راجبُتانا، وهو حاكم المنطقة التي تسمى جيبور اليوم، أي أن الزواج قد لعب في دبلوماسيته دور المصالحة أيضًا. وإن الانطباع العام الذي يتركه في النفس حكم أكبر هو انطباع بالتسامح الرشيد، وكان هذا كفيلاً بتسهيل الحكم في تلك الإمبراطورية ذات التنوُّع العظيم.

عندما مات أكبر كانت سلالته أرسخ من أي سلالة حكمت الهند قبلها، خاصة بعد أن فرضت ضريبة جديدة على الأرض أمَّنت المال اللازم للقيام بأود الإمبراطورية من دون الحاجة للمزيد من الفتوحات -بل يبدو أنها أدّت إلى زيادة في الإنتاج الزراعي- وسوف تستمر بعض التحديدات الإدارية التي تمت على عهد إمبراطورية المغول حتى زمن متقدِّم من وجود البريطانيين في الهند. ويبدو أن الطبقة الحاكمة المسلمة كانت تُلطِّفْ من عدائها للهندوسية، مع أن هذه الديانة قد تعتبر عبادة أوثان في نظر الإسلام. كما ظهرت لغة جديدة مشتركة بين أفراد الديانتين هي لغة الأُردو، أي لغة المعسكر، التي استخدمها الفاتحون المسلمون لمخاطبة رعاياهم الهندوس، وهي لغة ذات بنية هندية ومفردات تركية وفارسية. وهي من الأشياء الأخرى التي استمرت حتى القرن العشرين، فقد كانت لغة التخاطب في الجيش الهندي تحت حكم البريطانيين ومازالت مستخدمة بشكل واسع حتى اليوم.

ولكن حكم أكبر قد عرف أيضًا بداية حدث نذير سوف يكون له شأن كبير. كانت موانئ الهند الغربية تتاجر مع البحر المتوسط -منذ أيام الرومان- وفي

القرن السادس عشر بدأت أولى اتصالاتها المنتظمة بالطرف الأطلسي من أوربا أيضًا. وكان البرتغاليون أول الأوربيين الذين وصلوا إلى الهند، وقد ظهروا على ساحل مَلابار قبل عام ١٥٠٠ بقليل، ثم انتقلوا ببطء حول خليج البنغال في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وأسَّسوا لهم هناك محطات للمتاجرة. وقد دعا أكبر بعضهم لإرسال بعثات من علماء دينهم إلى بلاطه لكي يتجادلوا مع علماء الدين المسلمين، ووصل ثلاثة منهم بالفعل في عام ١٥٨٠. وفي يوم ٣١ كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٦٠٠، أي في آخر يوم من القرن السادس عشر، أسس بعض رعايا الملكة إليزابِث الأولى أول شركة إنكليزية للهند الشرقية في لندن، وقد مرت ثلاث سنوات أخرى قبل أن يصل أول المبشّرين الإنكليز إلى بلاط أكبر. ولم تكن حقبة البريطانيين قد أتت بعد، إلا أن هذا الحدث كان معلمًا هامًا في تاريخ الهند وتاريخ إنكلترا معًا، ومنذ ذلك الحين، سوف يفد الأوربيون إلى شبه القارة بأعداد متزايدة، ولن تقدر على تجاهلهم بعد ذلك أبدًا.

الصين الإمبراطورية

كانت توجد وراء حدود الإمبراطورية الرومانية بلاد كثيرة غريبة لا يعلم الرومان عنها الشيء الكثير، إلا أن أكثر تلك البلاد غموضًا إنما هي الصين، فالرومان لم يتَّصلوا بها إلا اتصالاً واهيًا وغير مباشر عن طريق التجارة، ومنها كان يأتي الحرير ولهذا كان الرومان يسمونها Serica أي «ذات الحرير». إن عزلة الصين الطويلة هذه قد أمنت لثقافتها قرونًا طويلة من المناعة، ورغم أن علاقاتها بشعوب آسيا الوسطى كانت وثيقة ومعقّدة فإنها منذ توحدت لم يعد لديها على حدودها دول كبرى يتوجب عليها إقامة علاقات معها. وقد ازدادت عزلتها مع تحوّل مركز

ثقل الحضارة الأوربيّة إلى الغرب والشمال، وظهور حاجز بينهما مكوّن من الدول الوريثة للتركة الهلنستية، أي بيزنطية وفارس الساسانية ثم الإسلام.

ولهذه الأسباب بقيت الصين بعيدة، فلم تصل إليها التيارات التي كانت تغير الأجزاء الأخرى من البر الأوربي الآسيوي، بل ظلت بمنأى عن الاضطرابات التي حلّت بغيرها من الحضارات الكبرى. وحتى عندما أتى الإسلام كان تأثيره فيها أقل من غيرها. وكانت الصين تتمتع أيضًا بقدرة عظيمة على امتصاص التأثيرات الأجنبية التي تفد إليها، وتعتمد قدرة التمثُّل هذه على ثقافة نخبة إدارية استمرت قرونًا طويلة بالرغم من تبدّل السلالات والإمبراطوريات، وهي التي وضعت الصين على مسارها الثابت. كانت هذه الإدارة تحتفظ بسجلات مكتوبة منذ أبكر الأزمان، وقد زوّدتنا سجلاّتها بوثائق لا مثيل لها وغنيّة بالحقائق الموثوقة، ولو أنها من اختيار أقلية صغيرة تعكس اهتماماتها، ولهذا فنحن ندين بقسط كبير من معرفتنا بالصين إلى كتبتها. ويشدِّد التاريخ الذي سجَّله أولئك الكتبة على الاستمرارية والسلاسة في مرور الأحداث، وهو أمر طبيعي في بلد هائل المساحة لأن إدارته لا يمكن أن تنجح إلا إذا تحقّق لها التجانس والانتظام. إلا أن هذه السجلات تغفل أشياء كثيرة، فحتى في الأزمنة التاريخية يصعب علينا أن نعرف كيف كانت الأكثرية العظمى من أهل الصين تعيش حياتها وماذا كانت همومها الحقيقية.

ومن الأسهل قليلاً أن نتحدث عن تاريخ الدولة. يتكون العمود الفقري لتاريخ الصين بعد نهاية مرحلة الدول المتحاربة من صعود السلالات المختلفة وهبوطها، ويمكننا أن نجد تواريخ محدَّدة لهذه السلالات، إلا أن استخدام تلك التواريخ قد يكون مضللاً لأن الأمور لا تنقلب فجأة بين عام وآخر، بل قد تحتاج السلالة عقودًا عديدة لكي تبسط سلطتها الفعلية على الإمبراطورية كلها، وقد

يستغرق فقدانها لسلطتها زمانًا أطول، والحقيقة أنه لا بد من تجاوز الحدود بين السلالات عند الحديث عن تطور الأحداث. فإذا أبقينا هذا التحفُّظ في بالنا يبقى الحديث عن تاريخ الصين بحسب سلالاتها طريقة مفيدة، لأنها تمكّننا من تقسيمه إلى عدد من المراحل الكبرى التي تمتد -حتى القرن العشرين- وإن أولى المراحل التي يهمنا أمرها هما مرحلتا التسين والهان.

التسين

لقد أتت سلالة التسين من دولة في الغرب ظل بعض الصينيين يعتبرونها بربرية -حتى القرن الرابع ق.م- وتُذكّرنا قصتهم هذه بقصة صعود مقدونيا في العالم الإغريقي، لاسيما أنهما قد حدثتا في زمنين متقاربين. وقد ازدهرت سلالة التسين، وربما ساهمت في هذا الازدهار عملية إصلاح جذريَّة للقانون قام بها وزير من وزرائهم في حوالى عام ٣٥٠ ق.م، وربما كان من أسباب نجاحهم أيضًا أنّهم استخدموا سلاحًا جديدًا هو السيف الحديدي الطويل. وقد احتلّوا مقاطعة تسيشوان ثم صاروا مملكة في عام ٣٢٥ ق.م، وكانت ذروة نجاحاتهم هي انتصارهم على آخر خصم لهم في عام ٢٢١ ق.م، وتوحيد الصين للمرة الأولى في إمبراطورية واحدة تحت حكم سلالتهم التي سمّيت البلاد على اسمها. لقد كان هذا الإنجاز إنجازًا عظيمًا، ويمكننا أن نعتبر الصين -منذ ذلك الحين- مركزًا لحضارة واحدة وواعية لهويتها المميّزة. وكانت هناك قبل ذلك علامات تدل على أن الأمور سوف تتطّور في هذا الاتجاه، فالحقيقة أن بعض أجزاء الصين كانت عند نهاية مرحلة الدول المتحاربة تتشابه -فيما بينها- بصورة واضحة تعادل الفروق التي بينها، وعندما جاءت سلالة التسين وحققت للبلاد وحدتها السياسية من خلال قرن كامل من الفتوحات كانت تلك نتيجة طبيعية للاندماج الثقافي الذي كان جاريًا. بل إن

بعض الناس يقولون بإمكانية الشعور بوجود القومية الصينية قبل عام ٢٢١ ق.م، فإذا كان هذا صحيحًا فلا ريب أنه قد سهّل امتداد الفتوحات. إلا أن سلالة التسين قد أطيح بها بعد أقل من عشرين سنة وحلّت محلّها سلالة جديدة.

الهان

قبل أن نتحدَّث عن حكومات الصين في تلك الأزمنة الباكرة، يجب ألا يغيب عن بالنا أن حدودها تبقى تخمينية وأن سلطتها الفعلية ربما كانت أضيق وأضعف مما توحي به المعلومات المتوفرة. ولكن الصين ظلّت على كل حال -أكثر من أربعمئة سنة- أي من عام ٢٠٦ ق.م إلى عام ٢٢٠ م، تحت حكم أباطرة من سلالتين تحملان الاسم نفسه، هما سلالتا الهان. لقد توقّف حكم سلالة الهان "السابقة" لفترة قصيرة (٩-٢٣ م)، ولم تحل سلالة الهان «اللاحقة» محلّها فورًا، ولكن يمكننا مع هذا اعتبار هاتين الحقبتين كيانًا واحدًا، ولو أن بعض الأباطرة كانوا أكثر نشاطًا وفعالية من بعضهم الآخر. إن رسم حدود إمبراطورية الهان على الخريطة هو أمر تخميني جدًا، ومن المؤكّد أنهم لم يحققوا سيطرتهم على المنطقة كلها بل إنها كانت أضعف حتى من سلطة الرومان على إمبراطوريتهم في ذلك الحين. كما أن الحضارة الصينية لم تتخلل أرض الصين الحاليَّة مثلما تخلّلت الحضارة الهلنستية أوروبا الغربية والمتوسط والشرق الأدنى، فلم يتم توحيد الكتابة الصينية حتى عهد التسين -أي مباشرة قبل أزمنة الهان- وكان القسم الأكبر من المنطقة الخاضعة سياسيًا للهان يعيش فيه مجتمع قبلي لم «يتصيَّن» -أي يكتسب نمط الحياة الصيني- فيه إلا عدد قليل من زعمائه، خاصة في الجنوب، ولم تكن هناك بعد روابط قوية على مستوى الحياة اليومية يمكنها أن تساهم في تعزيز النظام وتوطيده.

إلا أن أباطرة الهان قد تمكّنوا من بسط ادعاءات الصين بالسيطرة السياسية على رقعة أوسع من أي سلالة قبلهم، وكانت إمبراطوريتهم في أكبر امتداد لها تعادل حجم الإمبراطورية الرومانية، أقله من الناحية النظرية. وقد تميَّز الإمبراطور وو تي «الإمبراطور العسكري» الذي حكم بين عامي ١٤١-٨٧ ق.م بكثرة ضمه للأراضي، فعلى عهده ضمَّت إلى الإمبراطورية مساحة كبيرة من آسيا الوسطى هي حوض نهر تاريم فضلاً عن جنوب منشوريا — الواقعة شمالي السور العظيم – وقسم كبير من جنوب شرق ساحل الصين. لقد أخضعت أيضًا الشعوب التايلندية المقيمة في وادي نهر الميكونغ، كما قبلت أنّام -في ڤيتنام- بسيادة الهان. وفي مرحلة لاحقة تم طرد شعوب مغولية تسمى الهسيونغ نو من شمال صحراء غوبي، فكانت تلك بداية مسير طويل لهمْ جعل منهم قوة لها وزنها في تاريخ العالم، وقد عُرِفوا باسم «الهون».

لقد زاد هذا التوسُّع اتصالات الصين بالأجزاء الأخرى من العالم، ولكن اتصالها بمنطقة البحر المتوسط بقي اتصالاً غير مباشر، لأن أكثر تجارة الصين كانت عن طريق البر. وكانت أكثر بضائعها رواجًا هي الحرير، الذي كانت تحمله القوافل إلى الغرب -منذ حوالى عام ١٠٠ ق.م- على طول الطريق المسمى «طريق الحرير» عبر آسيا الوسطى. وربما كانت الاتصالات الجديدة بالخيالة البدو المقيمين في الصحارى هي سبب ظهور الأحصنة البرونـــزية الجميلة التي ابتدأ سبكها منذ أزمنة الهان.

الديانة في الصين

وبالرغم من توسُّع اتصالات الصين على هذه الصورة فقد بقيت معزولة عن التأثيرات الخارجية، فلا تجد فيها ما يشبه مثلاً تأثير اليهودية والمسيحية على الحضارة

الإغريقية الرومانية. صحيح أن الإسلام تغلغل في تركستان وفي زوايا الإمبراطورية وازدهر فيها، إلا أنه لم يصل إلى داخلها. وربما كان التحدّي الوحيد لتقاليدها هو الديانة البوذية، التي وصلت إليها على ما يبدو خلال القرن الأول الميلادي عبر الطرق التجارية الآتية من آسيا الوسطى، ولعلها أهم ثقافة استوردتها الصين قبل القرن التاسع عشر. كانت البوذية في جوهرها أغرب عن ديانة الصين من أي ديانة أخرى قبل المسيحية، لأنها تشدّد على الابتعاد عن هذا العالم وليس على أداء الإنسان لواجباته نحو مجتمعه. وربما كان الذين دفعوها إلى الصين هم شعب الكوشانا، لأنهم نشروها في آسيا الوسطى ومن هناك انتقلت إلى شمال الصين خاصة في شكل بوذية مَهايانا. ويظهر بوذا هنا بصورة المخلّص الذي يستطيع المؤمن أن يتطلّع إلى عونه ومساعدته، ولا ريب أن هذه الصورة كانت مريحة ومطَمْئنة في أزمنة الاضطراب والتفكُّك الاجتماعي. والحقيقة أن في البوذية ما يناسب جميع الناس على اختلافهم، ففيها الخرافة للبسطاء وفيها الأفكار الفلسفية التي تُحفِّز أذهان المثقفين، فضلاً عن أنها تتمتَّع بأسلوب فني جذاب وجميل.

وانتشرت البوذية رويدًا رويدًا من قمة المجتمع إلى قاعدته، وراح الطلاب والرهبان يتنقّلون بين الصين والهند بحثًا عن تعاليمها، وقد بلغت أعظم انتصارات لها بين القرنين السادس والتاسع. ولكنها كانت -في الوقت نفسه- تمر بتحوّلات وتغيّرات كثيرة، وقد تطوّرت في بعض الأحيان إلى شيء مختلف تمامًا عن تعاليم غوتاما الأصلية (أي بوذا). لقد صارت البوذية في كل مكان مزيجًا من المعتقدات المتضاربة والمتناقضة، إلا أنها مرَّت في الصين بتطورات خاصة، وظهرت فيها طوائف جديدة -إحداها حركة التأمل التي عرفت لاحقًا باسمها الياباني «زِن»- وكانت العزوبية عقيدة أساسية في التعاليم البوذية الكلاسيكية، ولكن الصينيين كانوا ينفرون من

هذه الفكرة لأن استمرار العائلة وعبادة الأجداد كانا يحظيان بمكانة كبيرة لديهم، وهذا ما دفع بعض رجال الدين البوذيين في الصين إلى التخلي عن مبدأ العزوبية.

لقد ساهمت الدولة في تنظيم شؤون البوذية، فحدَّدت عدد الرهبان والأديرة -من أجل منع ثرواتهم من الهروب من نظام الضرائب- ولكن هذا الأمر كان صعب التحقيق. وقد حدثت من وقت لآخر موجات من الاضطهاد كانت أسوأها في القرن التاسع، وقد منعت خلالها جميع الديانات الأجنبية وتقول المصادر الرسمية إن أكثر من ٤٦٠٠ دير قد دمِّرت وأكثر من ربع مليون راهب وراهبة بوذيين قد خسروا ميزة إعفائهم من الضرائب، بينما كانت الكونفوشية تعيد إحكام قبضتها على المثقفين. وكانت تلك بداية انحسار البوذية في الصين، ولم تبلغ من بعدها مثل تلك القوة -قط- والحقيقة أن البوذية لم تبدِّل الحضارة الصينية، بل أمدتها ببعض العناصر الجديدة وحسب.

لم تؤثّر البوذية إذن في المعتقدات الدينية التي كان أكثر أهل الصين يعيشون بحسبها، كما أن الديانة التقليدية لم تقف منها ولا من غيرها من العقائد موقفًا متشدّداً، ولم تكن الدولة تقدِّم على الاضطهاد إلا عندما يشكل دين جديد خطرًا على البنية السياسية أو الاجتماعية. أما الواجبات التي تفرضها التقاليد الصينية فهي تنحصر بأن يقوم الأشخاص المناسبون بأداء طقوس القرابين وبعادة توقير الأجداد. وقد ثبتت الكونفوشية هذه النـــزعة المتساهلة، وكان مثقفو الصين على درجة عالية من التسامح -وأعجب الأوربيون بهذا الأمر إعجابًا كبيرًا- كما أصدر أحد الأباطرة في زمن لاحق على عهد التانغ مرسومًا يسمح بالتبشير بالمسيحية -التي وصلت إلى الصين عن طريق المبشرين النساطرة- وقد يتوقّع المرء من هذا أن تزدهر في الصين الأفكار الجديدة الوافدة من الخارج، ولكن الحقيقة أنها لم تزدهر. صحيح

أن انهيار المجتمع التقليدي واضطرابه خلال أفول سلالة الهان وما بعده قد دفع الناس إلى البحث عن عقائد ومعتقدات جديدة — مثل ما حدث أثناء انهيار الإمبراطورية الرومانية – إلا أن المستفيد من هذا التّدهور إنما كان العقائد الشعبية والديانة الطّاوِيَّة، التي تطوّرت فصارت مزيجًا من علاج الأمراض عن طريق الإيمان ومن الخرافة والأفكار البوذية.

الحضارة الصينية

بالرغم من تلك التأثيرات الأجنبية إذن، كان المثقفون الصينيون في أزمنة الهان يعتبرون بلدهم مركز العالم ومقر الحضارة الحقة، ولا ريب أن هذه الثقة بحضارتهم هي من أسباب لامبالاتهم بما كان يجري في البلاد الأخرى. إلا أن هناك أسبابًا غير هذه، منها بعد أرض الصين عن الحضارات الأخرى. وقد كان هذا البعد دومًا عاملاً هامًا أمّن للصين الحماية من تخريب القوى الخارجية، ولكنه في الوقت نفسه جعل تجاربها الثقافية ضيقة ومحدودة وحكّامها قليلي الاهتمام بالعالم الخارجي. كما أن الصين كانت مكتفية بذاتها من الناحيتين الاقتصادية والتقنية، فهي غنيَّة بالموارد الطبيعية كما كانت زراعتها وتقنيتها في عصر الهان قادرتين على استغلال بيئتها استغلالاً ناجحًا؛ والحقيقة أنه لم يكن هناك في العالم بلد أكثر منها تطوّرًا. إن آخر الأشياء الجديدة التي أتتها من الخارج قبل الأزمنة الحديثة إنما هو نبات الأرُز، وقد دخلها في عصور قديمة جدًا إما من جنوب شرقي آسيا أو من الهند.

وأتت حقبة الهان بمزيد من التطورات والابتكارات، فقد صنع علماء الهان أول بوصلة مغناطيسية وكان لها قرص مدرّج وإبرة ولكنها لم تكن تستخدم للإبحار بل لتوجيه المعابد توجيهًا صحيحًا عند بنائها، كما ابتكروا أول طريقة لرسم

الخرائط على أساس شبكة من الخطوط المتقاطعة، واخترعوا آلات لتسجيل الزلازل وأدوات للحرفيين لقياس سماكة الأشياء ذات تدريجات عشرية. إلا أنك عندما تستعرض اليوم ابتكارات تلك المرحلة فإن أكثر ما يبهرك بينها هو اكتشاف الصينيين لطريقة صنع الورق -التي أُعلن عنها في ورشات الإمبراطور في عام ١٠٥ للميلاد- وسوف تكون أهمية هذا الاختراع عظيمة جدًا للجنس البشري بأكمله، ولو أن طريقة صنعه لم تصل إلى الغرب إلا بعد قرون عديدة. لقد كان الورق أرخص من ورق البردي والرق -ولو أنه أسرع بلاء من هذا الأخير- كما أنه أسهل صنعًا.

وقد تحسَّن النقل أيضًا خلال أزمنة الهان وتحسَّنت معه المواصلات، فظهرت في القرن الأول ق.م الدفة المثبتة بمؤخرة السفينة لتوجيهها -بدلاً من المجذاف الكبير المتدلي من أحد طرفيها- و لم تعرف السفن الأوروبية هذه الدفة إلا بعد حوالى اثني عشر قرنًا، وعلى عهد سلالة الهان «السابقة» ظهرت أيضًا عدة الحصان التي تغطي صدره، فصار بالإمكان جر أحمال أثقل بكثير من السابق. وبعد نهاية السلالة بقليل سوف يبدأ الصينيون باستعمال الرِّكاب، وهو اختراع ذو أهمية كبيرة في الحرب لأنه يعطي الفارس مقدارًا أكبر من الأمان والسيطرة على فرسه. أما النُشّابية -قوس مثبَّتة على هيكل خشبي ذي أخاديد تستخدم لتوجيه السهام- فقد اخترعت على عهد الهان، وكانت إنجازًا تقنيًا هامًا جدًا لأنها أقوى من أقواس البرابرة وأكثر منها دقة، وكان البرابرة عاجزين عن تقليدها إذ لم يكن أحد غير الصينيين يعرف طريقة صنع الأقفال البرونـــزية اللازمة لها.

إن هذه الاختراعات كلها شواهد على غنى حضارة الهان، وقد كانت تلك بداية حقبة مجيدة، لأن علوم الصينيين ورياضياتهم سوف تنتج خلال الألف سنة

التالية فيضًا من الأفكار الجديدة هو أغزر بكثير مما ظهر في أوربا. ويبدو أن حياة الحكام والأغنياء في الصين على عهد الهان كانت حياة رائعة، وأنها عرفت الكثير من الأشياء المبتكرة الجميلة والمصنوعة من الحرير والخشب الملون، ولو أن أكثرها قد هلكت. وعندما ابتدأ إحراق القصور خلال العقود المضطربة الأخيرة من عمر السلالة ضاعت مجموعات فنيَّة لا تُقَدَّر بثمن. ولكن بالرغم من هذا بقي مقدار كبير من المصنوعات الجميلة لأن الهان كانوا يدفنون الأغنياء والنبلاء مع الكثير من مقتنياهم أو مع نماذج لها. وقد تم مؤخرًا اكتشاف هام لبدلات متقنة الصنع من حجر اليشب دفن فيها أمير وأميرة من سلالة الهان. ونجد على عهد سلالة الهان «اللاحقة» أن المصنوعات البرونــزية، وبالأخص تماثيل الأحصنة، تدل على تطُّور جديد في فن سبك البرونز، وهو واحد من أقدم الفنون في الصين، كما كان الخزّافون يبتكرون أصنافًا جديدة من الميناء الملونة لأعمالهم الخزفية البديعة.

يدل الفن في عهد الهان إذن على أن الحضارة الصينية كانت تنظر إلى الماضي وليس إلى المستقبل، وإن هذه الحقيقة لتصحُّ على حياة الفكر أيضًا. فعلى عهد الهان ابتدأ العلماء بتدوين تواريخ السلالات، عندما وضع سو ما تشين أعظم مؤرخي الصين كتابه «سجلات تاريخية»، وهو عمل يقدِّره المختصون بهذه الأمور تقديرًا عاليًا. إلا أن أهم التطوُّرات الثقافية التي حصلت في أزمنة الهان إنما هو ترسيخ العقيدة الكونفوشية كإيديولوجية رسمية للدولة، وكان هذا انتصارًا لتعاليم ذاك الرجل الحكيم -أو ما اعتبر تعاليمه- لقد أراد العلماء أن يصلحوا الأضرار الجسيمة التي حلت بمعارف الصين ومكتباتها على عهد التسين، إذ كانوا قد تعرَّضوا لأزمة بشعة وإهانة عميقة في عام ٢١٣ ق.م عندما انقلب الإمبراطور على منتقدي نظامه العسكري الاستبدادي، فأحرق الكتب جميعها ولم يُبق إلا على الأعمال «المفيدة»

في العرافة (التنبؤ بالغيب) والطب والزراعة والكتب التي تمجّد السلالة، وقد هلك أكثر من أربعمئة عالم في ذاك الاضطهاد. أما الآن فقد أعاد علماء الهان اكتشاف النصوص الكونفوشية التي ضاعت على عهد التسين. كان أباطرة الهان راغبين بمصالحة المثقفين إذن، ولو أن جوهر هذا التحول ليس واضحًا، فأعادوا مناصب الأستذة في الدراسات الكونفوشية، وأمروا بتقديم القرابين بانتظام لكونفوشيوس في كافة المدارس الحكومية، وبدؤوا يقبلون المتقدّمين للخدمة المدنية على أساس الامتحان في الأعمال الكونفوشية الكلاسيكية. وقد أدّتْ هذه الأمور كلها إلى تحويل العقيدة الكونفوشية إلى عقيدة رسمية ذات عمر مديد، وضعت نصوصها الأساسية بعد عام ٢٠٠ ق.م بقليل، وظلت من بعدها تتمثّل العناصر الفكرية من مدارس أخرى، ولكن مبادئها الأخلاقية بقيت -منذ ذلك الحين- هي المسيطرة في الفلسفة التي سوف تشكّل حكام الصين في المستقبل. وفي عام ٥٨ م أُمر بتقديم القرابين لكونفوشيوس في كافة المدارس الحكوميّة، وأخيرًا باتت المناصب الرسمية على عهد التانغ محصورة بالذين تدرّبوا على تعاليمه. وقد مدَّت الكونفوشية حكام الصين طوال أكثر من ألف سنة بمجموعة من المبادئ الأخلاقية وبثقافة أدبية تكتسب بالاستظهار العنيد، فنشأت بهذا طبقة إدارية هي من أكثر الإدارات التي عرفها العالم حتى اليوم فعالية وتجانسًا إيديولوجيًا.

إلا أن تأييد العلماء لم يكن كافيًا لضمان استمرار سلالة الهان، لأنها واجهت تحدِّيات داخلية وخارجية شديدة، كان أخطرها ثورات الفلاحين المتتالية، إذ تزايد عدد السكان فصار الكثيرون من الفلاحين بلا أرض وغير قادرين على إيجاد المال اللازم لدفع الضرائب وتأمين الطعام -وفي الوقت نفسه- عاد البرابرة يهاجمون البلاد من الخارج، وراح القادة المهيمنون على الجيش يغتصبون السلطة في الأراضي

التي يسيطرون عليها. أما البرابرة الذين سمح لهم بدخول الحدود على أمل تعليمهم أساليب الحياة الصينية فقد انقلبوا على الذين أدخلوهم أصلاً. وفي عام ٢٢١ م تخلّى آخر أباطرة الهان عن عرشه لابن أكبر القادة العسكريين، فعادت الصين لتتفكك من جديد.

لقد ضاع الكثير من تراث ثقافة الهان البديعة وخرّب خلال القرنين الرابع والخامس عندما عاد البرابرة لمضايقة الحدود، وتفكّكت الصين مرة ثانية إلى مجموعة من الممالك كان بعضها تحت حكم سلالات بربرية، ولكن قدرة الصين العجيبة على امتصاص الثقافات الأجنبية تظهر بوضوح حتى خلال هذه الأزمة الكبيرة.

واجتذبت أساليب الحياة في الصين البرابرة إليها رويدًا رويدًا، فخسروا هويّتهم واتخذوا لباس الصينيين ولغتهم، وأصبحوا شعبًا جديدًا من شعوب هذا البلد. والحقيقة أن مكانة الحضارة الصينية بين شعوب آسيا الوسطى كانت مكانة عظيمة، وكان جيرانها غير المتحضرين يميلون إلى اعتبارها مركز العالم وقمّة الثقافة، مثلما كانت الشعوب الجرمانية في الغرب تنظر إلى روما، بل إن أحد حكام التتر قد فرض عادات الصين ولباسها على شعبه فرضًا بمرسوم أصدره في عام ٥٠٠. إلا أن خطر آسيا الوسطى ظل قائمًا وراء الحدود، كما ظهرت في القرن الخامس أول إمبراطورية مغولية في منغوليا. ولكن وحدة الصين لم تكن في خطر كبير عندما استلمت سلالة التانغ الشمالية التفويض السماوي في عام ٦١٨، ولم يكن الانقسام والغزوات البربرية قد خربت أسس حضارتها، التي دخلت –الآن– عصرها الكلاسيكي.

كانت ثقافة الصين في عهد التانغ مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمؤسساتها، وكان الصينيون يعتبرون أن العائلة والدولة هما المصدران الوحيدان للسلطة، ولم تتعرّض هاتان المؤسستان لتحدٍّ يذكر لأن الصين لم تعرف كيانات مثل الكنيسة أو النقابات التي ظهرت في أوروبا حيث أثارت الأسئلة حول مواضيع الحق والحكم وأعطت ثمارها الغنية. لقد كانت الملامح الأساسية للدولة الصينية قائمة منذ عهد التانغ، وسوف تستمر -حتى القرن العشرين- وتستمر معها نظرتها ومواقفها المميزة لها. وكان لجهود الهان الكبيرة في تماسك الدولة وتدعيمها دور كبير في صنع تلك المواقف، أما منصب الإمبراطور كحامل للتفويض السماوي فقد كان راسخًا منذ أيام التسين. والحقيقة أن مكانته لم تتزعزع رغم تبدُّل السلالات، لأن تلك التبدلات كانت تفسَّر دومًا بانتقال التفويض السماوي إلى أيد جديدة، بل إن السلطة الكامنة في مكانة الإمبراطور كانت تنمو بصورة مستمرة. فبعد أن كان في البدء زعيمًا إقطاعيًا كبيرًا سلطته امتداد لسلطة العائلة أو العزبة تطوّر رويدًا رويدًا حتى صار حاكمًا يرأس دولة مركزية ذات طبقة إدارية كبيرة. وكان هذا التطور قد ابتدأ -منذ زمن بعيد- فلو لم تكن الدولة قوية لما تمكّنت من تنظيم تلك الأعداد الكبيرة من البشر على عهد أول أباطرة التسين من أجل ربط أجزاء السور العظيم وبناء حاجز متصل منها ضد البرابرة يربو طوله على الـ ٢٠٠٠ كم -وتقول الأسطورة إن هذا الإنجاز قد كلف حياة مليون شخص- وقد تمكّن أباطرة الهان من فرض احتكارهم لسك النقود ووحّدوا العملة، وعلى عهدهم تم تأسيس الخدمة المدنية أيضًا.

البيرُقراطية

كان توسُّع الأراضي قد اقتضى توسيع الإدارة أيضًا، وقد استمرت تلك الإدارة الموسَّعة رغم مرور البلاد بفترات كثيرة من التفكك -وهذا دليل على قوتها- وبقيت حتى النهاية واحدة من أبرز مؤسَّسات إمبراطورية الصين وأصدقها تعبيرًا عنها. وعندما انهارت سلالات الصين وحلَّت محلَّها دويلات صغيرة متنافسة خسرت البلاد الوحدة التي كانت قد حقَّقتها، وكان لطبقتها الإدارية الكفء الفضل في انتشالها من حقبة التراجع تلك وإعادتها إلى سبيل النهوض والتقدم. وقد ضم هذا الجهاز أُصُر البلاد عن طريق الإيديولوجية فضلاً عن الإدارة، لأن موظفيه كانوا يدرَّبون على الأعمال الكونفوشية الكلاسيكية ويُمتحنون فيها، فضمنوا بذلك اقتران الثقافتين الأدبية والسياسية في الصين بصورة لا مثيل لها في أي بلد آخر.

إن الشيء الوحيد الذي كان يميز أفراد هذه الطبقة الإدارية عن سائر أفراد المجتمع من حيث المبدأ إنما هو تعليمهم -وهو أشبه بحيازة شهادة جامعية في أيامنا- وكان أكثرهم يأتون بالأصل من طبقة النبلاء أصحاب الأراضي، ولكنهم ينفصلون عن هذه الطبقة، ومتى انتُخبوا لمنصبهم عن طريق الامتحان صاروا يتمتَّعون بمكانة لا تعلو عليها إلا مكانة عائلة الإمبراطور، فضلاً عن المزايا المادية والاجتماعية الكثيرة. وكان يتوجَّب عليهم القيام بمهمتين أساسيتين كل سنة، هما جمع بيانات عدد السكان وسجلاّت الأراضي التي يعتمد عليها نظام جبي الضرائب في الصين. أما مهامهم الأخرى فهي قانونية وذات طبيعة رِقابية، إذ كانت الشؤون المحلية تترك بيد نبلاء المقاطعة تحت إشراف حوالى ألفي حاكم مقاطعة من الطبقة الإداريّة. وكان

كل حاكم يعيش في مجمَّع رسمي هو السراي، مع موظفيه وسعاته وخدم بيته من حوله، وكانوا يخضعون لجهاز دولة يقوم بمراقبتهم وتوجيههم ورفع التقارير عن أعمالهم، وقد حكمت هذه الإدارة عندما كانت في أقصى اتساع لها منطقة أكبر بكثير من الإمبراطورية الرومانية.

كانت هذه البنية تتمتَّع بقوة محافظة عظيمة، وقد ضمن نظام الامتحانات أن تنفِّذ سلطة الحكومة بحسب مبادئ مثالية متّفق عليها. وكان من الصعب جدًا على رجل لا يمتلك بعض الثروة أن يقوم بأود نفسه خلال الدراسات الطويلة اللازمة للتحضير للامتحان، إذ إن الكتابة بالأشكال التقليدية وحدها تحتاج سنوات طويلة لإتقانها – ورغم هذا فإن مبدأ التنافس قد ضمن ألا تبقى المواهب محصورة تمامًا بعائلات النبلاء الغنيَّة والقديمة، لذلك كانت الطبقة الحاكمة في الصين تستمد أفرادها من ذوي الجدارة، ولو بصورة محدودة. وكانت تحدث حالات من الفساد وشراء المناصب –من وقت لآخر– ولكن علامات التراجع هذه لا تظهر في السجلات عادة إلا في المراحل الأخيرة من حكم السلالة. وكان إداريو الإمبراطورية في أكثر الحالات يبدون استقلالاً واضحًا عن خلفيتهم، وكانوا نظريًا رجال الإمبراطور، ولم يكن يسمح لهم بأن يمتلكوا أراضي في المقاطعة التي يخدمون فيها، أو أن يخدموا في مقاطعتهم، أو أن يكون لهم أقرباء في نفس الفرع من الحكومة. ولم يكونوا يمثِّلون طبقة ما، بل كانوا نخبة منها تجنَّد بصورة مستقلة وتتجدّد وترقّى عن طريق المنافسة، وهم الذين جعلوا الدولة حقيقة واقعة. وكان بعضهم يرتقون هذا التسلسل الهرمي حتى أعلى مستوياته فيصبحون مستشارين للإمبراطور، ولم يكن ينافسهم في الأهمية إلا الخصيان الذين يعملون في البلاط. فكثيرًا ما كان الأباطرة

يؤمّنون الخصيان على سلطات كبيرة لأنهم غير قادرين على تأسيس عائلات، وكان هؤلاء هم القوة السياسيّة الوحيدة الناجية من قيود العالم الرسمي.

ولم يكن هناك في الصين ثمة تمييز بين الحكومة والمجتمع كما في أوربا، بل كان الرجل الواحد يجمع أدوارًا عديدة مثل الإداري والعالم والنبيل، بينما كانت هذه الأدوار في أوربا تتوزع على أفراد مختصّين في الحكومة وفي سلطات المجتمع غير الرسميّة. وفضلاً عن ذلك كان جمع الأدوار في الصين يتم ضمن إطار من الإيديولوجية هي من المجتمع بمنــزلة القلب من الجسد، ولا تكاد تجد مثل هذا الترتيب إلا في الإسلام. ولم يكن الحفاظ على قيم الكونفوشية بالأمر اليسير، لأنه لا يلبَّى بالكلام وحده. لقد حافظت الإدارة على تلك القيم عن طريق ممارستها سيطرة أدبية تشبه السيطرة المديدة التي كانت لرجال الدين في الغرب – ولم يكن في الصين كنيسة تنافس الدولة. وكانت مبادئها محافظة إلى أبعد الحدود، ومهمتها الملحّة هي الحفاظ على النظام القائم وعلى تماسك المجتمع، وقد تقوم ببعض الأشغال العامة الكبرى –بين حين وآخر– أما معاييرها السائدة فهي الانتظام وترسيخ المبادئ ذاتها في كافة أنحاء تلك الإمبراطورية الهائلة والمتنوعة، والتي يتميّز فيها حكام المقاطعات عن الشعب الذي تحت رعايتهم من كل ناحية حتى من ناحية اللغة. والحقيقة أنها قد نجحت في بلوغ هذه الأهداف نجاحًا باهرًا.

كانت كل سلالة تمر بدورة الصعود ثم الأفول، وتبدأ فترة التراجع عادة بعجز السلالة عن حماية حدودها من الغزوات البربريّة الجديدة الآتية من الخارج، وبالضيق والمجاعة وثورات الفلاحين في الداخل، فتؤدي هذه كلها إلى تعطُّل نظام جبي الضرائب وتداعي القانون والأمن أيضًا، فيظهر –عندئذ– قادة عسكريون محليون يديرون ممالك صغيرة على حسابهم. ولكن هذه الفترات من الفوضى لم تعد

بعد القرن العاشر تخرج عن السيطرة إلى حد يجعل الناس يشكُّون بالمبدأ الأساسي، وهو أن الصين يجب أن يحكمها الإمبراطور كبلد واحدة. صحيح أن الصين في أواخر عهد السونغ انقسمت إلى دولة شماليَّة يحكمها البرابرة ودولة جنوبية يحكمها الصينيون، ولكنَّها لم تتفكَّك قط إلى وحدات صغيرة حتى القرن العشرين.

الاستمرارية

لذلك فإن السجلاَّت التاريخية أقل تفكّكًا وتشويشًا مما قد نخالها للوهلة الأولى. والحقيقة أن أشياء كثيرة استمرت طوال ألف سنة من دون انقطاع يذكر، بالرغم من مرور فترات من الهيجان والغزو -بين وقت وآخر- ومع أن الحكام والسلالات كانوا يتبدّلون، فقد بقيت للعرش الإمبراطوري مهابته، ولو أن انتداب السماء كان يسحب من الرجل أو السلالة التي تحمله في مرحلة ما. وبقيت مكانة الخدمة المدنية بالأخص رفيعة لا يرقى إليها الشك، ولما كان أفرادها يُختارون دومًا بناء على جدارتهم وموهبتهم فلم يكن لها من نظير في العالم كله من حيث فعاليتها وبراعتها. لقد أعاد أباطرة السوي والتانغ امتحانات الدخول التي استهلها الهان، ومن خلال تلك الامتحانات ضمنت الإدارة لنفسها قالبًا فكريًا محافظًا جدًا. ومع أن هذا الأمر قد شكّل عقبة كبيرة على المدى البعيد، فقد أعطى المثقفين في الصين نظرة للعالم استمرت بلا تغيير حتى قرن مضى، ويدل هذا على أنها ظلّت قادرة على تلبية حاجات الصين لزمن طويل.

لقد عمّق نظام الامتحان الهوة بين النخبة الحاكمة المتعلّمة والجماهير غير المتعلّمة. ومع تقدُّم الإمبراطورية بالعمر على مدى القرون الطويلة طرأت على بنيتها الاجتماعية تغيُّرات عديدة، فكان هناك بالإجمال تراجع مستمر في أهمية

الأرستقراطية -ولكن ليس في ثروتها- وصارت مضطرة للتنازل عن سلطاتها السياسية والإدارية للموظّفين المدنيين المحترفين. كما كانت هناك أعداد متزايدة من التجار لا بد من أخذهم بالحسبان مع تطوّر التجارة وتوسّع المدن وازدياد عدد سكانها. ثم إن بعض العقائد الجديدة المختلفة عن العقيدة الكونفوشية الرسميّة للإداريين والنبلاء كانت تحظى بالأهمية -بين حين وآخر- بل إن بعض كبار المجتمع أيضًا قد تحوَّلوا إلى الطاوية والبوذية عندما انهارت سلالة الهان فسنحت الفرصة للأخيرة بالتغلغل في الصين. وكانت بوذية مَهايانا أشد خطرًا من أي قوة إيديولوجية قبل المسيحية، لأنها تدعو إلى نبذ القيم الدنيوية على العكس من الكونفوشية، وهي لم تُستأصل على نحو كامل قط بالرغم من الاضطهاد الذي أصابها على عهد التانغ، وكانت هجماتهم عليها في الأرجح لأسباب مالية وليست إيديولوجية. ولكن الكونفوشية وجدت نفسها مضطرة للتصالح مع البوذية بعد الضرر المادي الكبير الذي ألحقته بها، ولا تجد في الحقيقة ديانة أجنبية غيرها كان لها مثل ذاك الأثر القوي في حكام الصين إلى أن جاءت الماركسية، حتى إن بعض الأباطرة قد كانوا بوذيين.

أما الفلاح فكانت حياته بعيدة جدًا عن تأثير تلك الأفكار الدينية والفلسفية. كان يعيش حياته بين براثن الحروب والمجاعات، لذلك تراه يتحوّل إلى السحر والخرافة. وإن القدر الزهيد الذي نعرفه عن حياته ليشير إلى أنها كانت قاسية لا تحتمل بل رهيبة في بعض الأحيان. وقد ظهرت ثورات الفلاحين أولاً على عهد الهان، ثم صارت حقيقة راسخة في تاريخ الصين تعود لتتكرّر على نحو منتظم مثل تعاقب السلالات. وكان الإداريون يقمعون الفلاحين إما لحساب الحكومة الإمبراطورية التي تحاول جمع الضرائب لتمويل حملاتها في الخارج، أو لحساب

مصالحهم الخاصة كمضاربين بالحبوب، ولهذا كان الفلاحون يلتجئون إلى الجمعيات السرية، وهي موضوع آخر يتكرّر في تاريخ الصين. وكانت ثوراتهم تأخذ عادة أشكالاً دينية، وتجد فيها جميعًا خطًّا مستمرًا يظهر بأشكال عديدة، ويرى العالم دومًا منقسمًا إلى صنفين من الناس، صنف الأخيار وصنف الأشرار، صنف الصالحين وصنف الأثمة، ويؤمن مع ذلك بقدوم عصر من السعادة والعدل بعد هذا الصراع المديد. وكان هذا الخطر يهدِّد بنية المجتمع أحيانًا، ولكن نادرًا ما كتب للفلاحين النجاح لزمن طويل.

كان التغيُّر في مجتمع الصين يسير إذًا على نحو بطيء جدًا، ورغم جميع الابتكارات الثقافية والإدارية لم تتبدَّل حياة الناس في أسلوبها أو مظهرها بصورة كبيرة على مدى القرون. وكان قدوم السلالات ورحيلها يعزى إلى مفهوم انتداب السماء، ورغم إنجازاتها الفكريَّة الكبيرة تبدو حضارة الصين في مراحلها الباكرة منطوية على ذاتها ومكتفية بذاتها ومستقرة إلى حد الجمود. إلا أن التغيُّرات كانت تحدث بالفعل، ولو ببطء شديد. من تلك التغيرات النمو المتزايد للتجارة والمدن، فقد صارت الدولة تستغني عن سخرة الفلاح وتلجأ بدلاً منها إلى فرض الضرائب على هذه الموارد التجارية الجديدة. كما أن السلالات المختلفة راحت توسِّع السور العظيم الذي ابتدأته سلالة الهان وتعيد أحيانًا بناء أجزاء منه. وإنه ما يزال –حتى اليوم– مشهدًا عجيبًا يذهل الناظرين، وهو أعظم بكثير من التحصينات الدفاعية التي بناها الرومان على حدودهم. وقبل بدء حقبة التانغ مباشرة اكتمل أيضًا بناء نظام كبير من الأقنية يربط وادي اليانغ تسي كيانغ بوادي النهر الأصفر في الشمال، وبمدينة هانغ تشو (خَنسة) في الجنوب. وقد استُخدم الملايين من العمال في هذا

المشروع وغيره من مشاريع الري الكبرى، وهي أعمال تضاهي في ضخامتها أهرام مصر وكاتدرائيات أوربا الكبرى التي شُيِّدت في العصور الوسطى.

قصة السلالات اللاحقة

كانت الحضارة الصينية قد حقَّقت إنجازات باهرة عندما ولجت مرحلة نضج جديدة في عام ٦١٨. وإن أسهل طريقة لوصف تطوّرها خلال الألف سنة التالية هي نفسها التي اتبعناها في وصف القرون الثمانية المنصرمة، أي ضمن الإطار الشكلي المكّون من تعاقب السلالات. بعد نهاية عصر الهان حلَّت الفوضى بأرض الصين وأدَّت إلى تمزقها طوال ثلاثمئة وخمسين سنة. ثم جاءها قائد عسكري يمتزج في عروقه الدم الصيني بالدم البربري فأعاد توحيدها في عام ٥٨١، وأسّس سلالة السوي التي لم تدم أكثر من ثلاثين عامًا تقريبًا. ومالبث أن استولى على العرش قائد عسكري آخر -متحدِّر من أصول مختلطة أيضًا- فاستهل سلالة التانغ التي استعادت الصين على عهدها وحدتها -لثلاثة قرون ونصف القرن تقريبًا- ثم مرت مرحلة ثانية من الفوضى، ولكنَّها في هذه المرة لم تستمر إلا خمسين سنة، قبل أن ترتقي العرش الإمبراطوري سلالة السونغ في عام ٩٦٠. ورغم أن السونغ ضيَّعوا سيطرتهم على شمال الصين عندما انتزعته منهم شعوب من منشوريا في القرن الثاني عشر، فقد بقوا متمسكين بالجنوب -حتى عام ١٢٧٩- وفي ذلك العام جاء قُبلاي خان حفيد جنكيز خان فأتمَّ فتح المغول للصين، واتخذ اسمًا صينيًا لسلالته هو «يوان»، وقد حكم خلفاؤه البلاد من العاصمة الجديدة پكين حتى عام ١٣٦٨، عندما حلت محلهم سلالة أسسها ثائر صيني من العامّة هي سلالة المِنغ، التي استمرت حتى عام ١٦٤٤.

إن ثمّة خطوطًا هامة تمتد عبر هذه المراحل المتعاقبة من النظام والفوضى. وأحد تلك الخطوط هو تاريخ السكان. لقد تحوّلت الكتلة السكانية نحو الجنوب أثناء مرحلة التانغ، -ومنذ ذلك الحين- صار أكثر الصينيين يعيشون في وادي نهر اليانغ تسي كيانغ بدلاً من سهل النهر الأصفر القديم. وكانوا يؤمّنون غذاءهم عن طريق تدمير غابات الجنوب واستغلال الأراضي الجديدة من أجل زراعة الأرز، كما توفّرت محاصيل جديدة أيضًا. وقد سمحت هذه التطورات بنمو في عدد السكان تسارع أكثر على عهدي المغول والمنغ، وربما تضاعف عدد السكان خلال القرنين التاليين من ٨٠ مليونًا في القرن الرابع عشر حتى صار عدد رعايا الإمبراطورية حوالى ١٦٠ مليونًا في عام ١٦٠٠، وكان هذا عددًا هائلاً بالقياس إلى أعداد السكان في البلاد الأخرى.

مع تزايد أعداد السكّان صارت كل الأراضي القابلة للزراعة مسكونة، وصارت تزرع بصورة تزداد كثافة، وتتقسَّم إلى بقع أصغر فأصغر، كما ازدادت أعداد الفلاحين الذين لا يملكون أرضًا. وكان المنفذ الوحيد من فك المجاعة هو الثورة، وعندما تبلغ الثورة مبلغًا من الشدة والنجاح فقد تحظى بدعم النبلاء والإداريين، سواء كان ذاك بدافع الحذر منها أو بدافع التعاطف معها -وعندئذ- تكون نهاية السلالة على الأبواب. تقول التعاليم الكونفوشية إن الثورة خطأ إذا كان الحاكم ملكًا بحق، ولكنها تقول أيضًا إن الحكومة التي تسبب ثورة الشعب وتعجز عن السيطرة عليها يتوجب استبدالها، لأنها تكون بحكم ذلك حكومة غير شرعية. وعلى هذه الصورة ظل ضغط السكان قوة محركة أساسية في تاريخ الصين لقرون طويلة، ولو أنها لم تكن تتبدَّى للسلطات إلا بصورة مقنعة وغير مباشرة، أي عندما تدفع المجاعة الناس إلى الثورة. ثم إن الصين عرفت خطرًا آخر أوضح من هذا كان

يهاجمها من الخارج. لقد كانت الصين قوة عالمية كبرى فكرت بيزنطية بالتحالف معها، كما أنها أرسلت جيوشًا لمحاربة العرب واستقبلت سفراء من هارون الرشيد، ولكنَّ مشكلتها كانت في الأساس مثل مشكلة روما، أي وجود حدود طويلة للغاية يقبع وراءها البرابرة. وقد ضعف نفوذ سلالة التانغ على هؤلاء عندما خضعت آسيا الوسطى للإسلام، كما وجد أباطرة التانغ اللاحقون – مثل أباطرة الرومان من قبلهم – أن الاعتماد على الجيش قد يكون أمرًا خطيرًا. وحدثت على عهدهم المئات من الثورات العسكرية، ومهما كانت تلك الثورات قصيرة فإنها كانت تُخلِّف آثارًا مضاعفة، لأنها تمزِّق الإدارة وتخرِّب ترتيبات الري التي يعتمد عليها إنتاج الغذاء، فتقوِّض بالتالي السلام والأمن في الداخل.

وعجز التانغ في النهاية عن حماية حدودهم من الغزوات، كما حلَّت بهم اضطرابات كبيرة في الداخل، فانهاروا في القرن العاشر، وتفكَّكت الصين من جديد في فوضى سياسية عارمة. ولكن إدارتها ومؤسَّساتها الاجتماعية تمكَّنت من تسيير الأمور في البلاد عبر هذه الفوضى بفضل استمراريتها وقدرتها العجيبة على التعافي. والحقيقة أنه كلما تبدلت سلالة من السلالات كان ورثة سلطتها ولو أتوا من الخارج يتكلون على الإداريين القلائل الشاغلين لمناصبهم، فكان هؤلاء يضعون في خدمة كل حكومة القيم الثابتة للنظام الكونفوشي. وعلى هذه الصورة سهلت تعاليم كونفوشيوس تغيير السلالة من دون المساس بالقيم والبنية العميقة للمجتمع. وكان محتمًا على السلالة الجديدة أن تعتمد على الإداريين، وأن تستمدَّهم من طبقة النبلاء أيضًا، ولم يكن الإداريون بدورهم قادرين على تسيير الأمور إلا بما يرضي الوجهاء المحليين عندما تكون الحكومة المركزية ضعيفة.

الصين الكلاسيكية

إلا أن هذا التمزُّق المتكرر لم يمنع حكام الصين وحكماءها وحرفييها من الوصول بحضارتهم إلى ذروتها خلال الألف سنة التي جاءت بعد استهلال عهد التانغ (٦١٨). ويعتبر البعض أن العصر الكلاسيكي للصين كان في القرنين السابع والثامن، أي على عهد التانغ أنفسهم، بينما يراه بعضهم الآخر في عهد سلالة السونغ التي أتت بعدهم. وتعكس حضارة التانغ تأثير اتصالات الصين بالعالم الخارجي، خاصة بآسيا الوسطى. كانت العاصمة -عندئذ- في مدينة شانغ آن الواقعة على نهاية طريق الحرير في مقاطعة شن سي الغربيّة. ويعني اسم شانغ آن "السلام المديد"، وإليها كان يأتي الفرس والعرب وشعوب آسيا الوسطى، فجعلوها واحدة من أكثر المدن عالمية على الأرض. وكانت فيها كنائس نسطورية ومعابد زرادشتية ومساجد إسلامية، وتدل الأشياء الباقية منها على أنها ربما كانت أفخم وأروع عاصمة في أيامها. كما تبيّن مصنوعاتها تذوّق الصينيين للأساليب الفنية الأجنبية، فقد كانوا يقلدون أشغال الفضة الإيرانية مثلاً، وتجد فيها أيضًا الكثير من التماثيل الفخارية للخيّالة والجمال المحمَّلة بالبضائع، وهي صورة حية لحياة آسيا الوسطى تدور في شوارع شانغ آن، التي كانت أشبه ما تكون بمستودع تجاري كبير. وكثيرًا ما كانت تلك التماثيل تلوَّن بطلاءات الميناء المنوعة الجديدة التي ابتكرها خزافو التانغ والتي قلّدها الحرفيون الآخرون حتى في اليابان وبلاد الرافدين. إن هذه الحرف اليدوية وهذه الحركة التجارية النشيطة قد شجعها وجود البلاط، وتكشف لك الرسوم التي وجدت في المدافن شيئًا من حياة أرستقراطية البلاط. فترى الرجال مسترخين في الصيد يصحبهم خدامهم الآتون من آسيا الوسطى، بينما تظهر النساء بتعابير وجه خاوية وملابس فاخرة، وخادماتهن يحملن لهن المراوح وعلب

التجميل وحكّاكات الظهر وسواها من أدوات المخدع. وكانت السيدات الكبيرات في عصر التانغ يفضّلن موضات آسيا الوسطى التي أخذنها عن خادماتهن البيتيات.

إلا أن تاريخ المرأة في الصين يبقى أمرًا غامضًا مثل نواح كثيرة في تاريخ هذا البلد الذي لا تكاد وثائقه تهتم إلا بالثقافة الرسميّة. كانت حياة النساء في الأرجح حياة شاقة، ولا تسمع عنهن الكثير حتى في الأدب ما عدا بعض القصائد وقصص الحب الحزينة. ويفترض أنهنَّ كنَّ يشكّلن حوالى نصف عدد السكان، أو ربما أقل من النصف بقليل، لأن العائلات الفقيرة كانت تعرض طفلاتها للموت في الأزمنة العصيبة. وتدل هذه الحقيقة دلالة قوية على المنـــزلة المتدنيَّة للمرأة في الصين حتى الأزمنة الحديثة. ثم إن هناك عادة أخرى هي عادة ربط قدمي البنت ومنعهما من النمو لأنهم كانوا يحبون القدم الصغيرة عند المرأة، وكانت هذه العادة تسبب تشوهات قبيحة قد تجعل السيدة النبيلة عاجزة عن المشي. وكانت النساء الصينيات معرضات للقمع الشديد حتى بالقياس إلى الشعوب البربرية ذات العادات الوحشيّة، وقد استمر هذا القمع حتى القرن العشرين. وكانت الفلاّحات يقمن بالجزء الأكبر من العمل الشاق في الحقول، وحتى نساء الطبقات العليا لم يكنَّ يتمتَّعن بقدر كبير من الحريّة.

ولا تذكر الثقافة الرسمية في الصين سكان المدن أيضًا، وهم يشكّلون حوالى عشرة بالمئة من سكان البلاد. لقد كانت بعض مدن الصين أكبر المدن في العالم، ويقال إن شانغ آن كانت تضم مئتي مليون نسمة عندما كانت عاصمة للتانغ، ولم يكن في أوربا كلها مدينة بمثل هذا الحجم، أما كانتون وبكين المعاصرتان لها فكانتا أكبر -حتى من هذا- وكانت المجتمعات التي تعيش في هذه المدن الضخمة تزداد تعقيدًا وتطوّرًا بصورة مستمرة، وقد أمَّن تطوّرها البيئة اللازمة لازدهار التجارة،

والحقيقة أن أول عملة ورقيّة قد صدرت في الصين في عام ٦٥٠. وولّد هذا الازدهار حاجات جديدة، منها الحاجة للأدب، الذي تطوّر وخرج عن قيود النماذج الكلاسيكية وصار يكتب بأسلوب عامي أيسر بكثير من اللغة الكلاسيكية المعقّدة. وهكذا أنتجت حياة المدن رويدًا رويدًا ثقافة بديلة عن الثقافة الرسمية، ولما كانت مكتوبة فهي تتيح لك أن ترى للمرة الأولى شيئًا من الحياة غير الرسميّة في الصين. وقد مكّن اختراع الورق من إشباع الحاجة الشعبية المتزايدة، وفي عام ٧٠٠ م جاء أيضًا اختراع الطباعة، التي تعود أصولها إلى صنع الأختام الحجرية في عهد سلالة الهان. وبعد ذلك صارت الطباعة تتم باستخدام كليشيهات خشبية، ثم ظهرت الحروف المتحرّكة في القرن الحادي عشر م، وسرعان ما راحت الكتب تطبع وتنشر في الصين بأعداد كبيرة، وذلك قبل أن تظهر في أي بلد آخر بزمن طويل.

عندما نشبت الثورة في عام ٧٥٦ تمزّقت ثقافة شانغ آن، ولم تتعاف من بعدها قط. وقبل -سنتين فقط- كانت قد تأسّست أكاديمية إمبراطورية للآداب، ولن تظهر مؤسّسة شبيهة بها في أوربا إلا بعد -حوالى تسعمئة سنة- أما في عصر السونغ فقد ظهر المزيد من الأعمال الخزفية البديعة، وتتميّز أشكالها الأبكر، أي في المرحلة الشمالية من تاريخ السونغ، بالأسلوب التقليدي المزخرف والملون، بينما صار حرفيو الجنوب يفضلون الأشكال البسيطة ذات اللون الواحد. واللافت أنهم ارتبطوا بتقليد قديم آخر هو الأشكال التي ابتكرها سبّاكو البرونـــز الكبار في العصور الأبكر. أما فن التصوير فقد بلغ على عهد السونغ ذرى أعلى حتى من فن الخزف العظيم، وكان موضوعه الأسمى هو تصوير الطبيعة. إلا أن أكثر ما يبهرنا في حقبة السونغ إنما هو التبدُّل السريع والعجيب الذي جرى خلالها في مجال الاقتصاد.

لغز حقبة السونغ

يمكننا أن نعزو هذا التطوُّر -جزئيًا- إلى الابتكارات التقنيّة التي تمّت في هذه المرحلة — مثل البارود والحروف الطباعية المتحركة والقائم الخلفي للسفينة، والتي تعود كلها إلى حقبة السونغ — وقد كانت هذه الأشياء في الوقت نفسه نتيجة وسببًا للفورة الاقتصادية الكبيرة التي جرت بين القرنين العاشر والثالث عشر، والتي أدَّت إلى انتقال مركز ثقل الاقتصاد نحو الجنوب ونشوء موانئ جديدة مثل كانتون وفوتشو. ويبدو أن هذا النمو الاقتصادي قد أمّن لأكثر الصينيين ارتفاعًا حقيقيًا في دخولهم ولفترة طويلة بالرغم من استمرار زيادة أعدادهم، وهي حقيقة مذهلة لأنها أول مرة يتمكّن فيها النمو الاقتصادي منْ تجاوز نمو عدد السكان قبل الأزمنة الحديثة. ولا ريب في أن هذا التطوُّر قد هيأ لظهوره اكتشاف واعتماد نوع جديد من الأرز يسمح بتنمية محصولين اثنين في السنة إذا كانت الأرض مروية بشكل جيد، ومحصول واحد من الأراضي المرتفعة التي لا تروى إلا في الربيع. ويبدو من ناحية أخرى أن إنتاج الحديد قد ارتفع ارتفاعًا مفاجئًا أيضًا، إذ تشير إحدى الدراسات إلى أن الصين كانت بعد عام ١٠٦٦ بسنوات قليلة تنتج كمية من الحديد تعادل -تقريبًا- كل ما كانت تنتجه أوربا برمتها بعد ذلك بستة قرون، كما أن إنتاج الأقمشة قد عرف هو الآخر تطورًا سريعًا -خاصة بعد استخدام أجهزة الغزل التي تعمل بالطاقة المائية- و الحقيقة أنه يجوز لنا أن نعتبر هذه الظاهرة التي جرت على عهد السونغ ظاهرة «تصنيع» واضحة ومتميِّزة. أما لماذا حدثت ولماذا لم تستمر بعد ذلك، فهما سؤالان مازال النقاش حولهما محتدمًا.

لقد كان هناك، بلا شك، دخل جديد في الاقتصاد على عهد السونغ بفضل استثمارات الحكومة في الأشغال العامة، خاصة في قطاع المواصلات. ولا ريب -أيضًا-

أن فترات الراحة الطويلة من الغزوات الأجنبية، ومن الفوضى الداخلية قد ساعدت هي الأخرى، ولو أن غياب الفوضى قد يكون نتيجة للنمو الاقتصادي مثلما هو سبب له. ويبدو أن تفسير هذه الظاهرة يكمن في توسّع الأسواق ونهوض اقتصاد مالي يدين للعوامل المذكورة سابقًا، ولكنّه يرتكز بالأساس على ارتفاع الإنتاجية الزراعية. فطالما كانت هذه الإنتاجية أكبر من زيادة عدد السكان كانت الأمور تسير على ما يرام. وقد توفّر رأس المال اللازم لتشغيل المزيد من الأيدي العاملة ولاستغلال التقنيّة عن طريق الاستثمار في الآلات، وارتفعت الدخول ارتفاعًا حقيقيًا. إلا أن هذا التوسُّع الاقتصادي لم يستمر، ومن الصعب أن نعرف السبب. فيبدو أن الدخول الحقيقية المتوسطة في الصين قد ظلّت ثابتة طوال خمسة قرون -تقريبًا- وأن نمو الإنتاجية كان يجاري نمو السكان من دون أن يسبقه، ثم بدأت الدخول بالهبوط، وما برحت تهبط حتى صار الفلاح الصيني في بداية القرن العشرين أشبه ما يكون برجل تغمره المياه حتى عنقه وتكفي أضعف الموجات لإغراقه.

ولم تتطّور الصين بعد النجاحات التي أحرزتها على أيام السونغ لتعطي مجتمعًا ديناميًا وتقدّميًا. فبالرغم من اختراع الطباعة بقيت جماهيرها أميَّة -حتى القرن العشرين- ولم تنتج المدن الكبيرة في الإمبراطورية رغم ضخامتها ونشاطها التجاري الواسع لا الحرية والحصانات التي حمت الناس والأفكار في أوربا، ولا الحياة الثقافية والفكريّة التي قلبت الحضارة الأوربية في النهاية؛ والشيء الأهم هو أنها لم تُحفِّز كما يبدو على الشك الفعّال بالنظام السائد. فحتى في مجال التقنيّة الذي حققت فيه الصين إنجازات كثيرة وسريعة نجد فجوة كبيرة بين خصب أفكارها وضعف قدرتها على إحداث التغيُّرات الجذرية. لطالما أظهر الصينيون قدرة عظيمة على الابتكار، ولكن -منذ- أن انتهت أزمنة الدجو صار ارتفاع الإنتاج يعتمد على توسيع

الأراضي الزراعية وإدخال المحاصيل الجديدة وليس على التطوّر التقني. لقد كانت التحف الفنيّة تسبك من البرونـــز -منذ الألف الثانية ق.م- كما كان الصينيون يسبكون الحديد قبل الأوربيين بألف وخمسمئة سنة، ولكنّهم لم يكتشفوا الإمكانيات الهندسية لتقاليد التعدين القديمة هذه حتى عندما ارتفع إنتاج الحديد لديهم ارتفاعه المذهل. وكانوا يحرقون ما سماه ماركو بولو "نوعًا من الحجر الأسود" عندما رحل إلى هناك قرب نهاية القرن الثالث عشر، وما هو إلا الفحم، ولكنهم لم يخترعوا المحرك البخاري. وكان بحارتهم يعرفون البوصلة المغناطيسية -منذ أزمنة السونغ- وقد أرسلوا حملاتهم البحرية إلى إندونيسيا والخليج الفارسي وعدن وشرق أفريقيا في القرن الخامس عشر، إلا أن الهدف منها كان إبهار تلك البلاد بقوة الصين، وليس جمع المعلومات والخبرات من أجل القيام بالمزيد من الرحلات الاستكشافية الأبعد. ولسرعان ما أحجموا عن حملاتهم تلك على كل حال.

ويمكننا أن نسرد حالات أخرى كثيرة مثل هذه تشير كلها إلى الفكرة ذاتها. ربما كان السبب هو نجاح الحضارة الصينية في سعيها نحو أهداف مختلفة، ألا وهي ضمان الاستمرارية ومنع التغيّر الجذري. فالإدارة والنظام الاجتماعي لم يكونا يشجعان المبتكر، وحتى عائلات التجار كانت تكتفي أثناء فترات الازدهار بالاندماج ضمن الطبقة الإدارية. وكان الصينيون فخورين بتقاليدهم الكونفوشية ومطمئنين إلى الموارد الغنية لبلادهم وبعيدين عن العالم الخارجي، لذلك كان من الصعب عليهم أن يتعلّموا منه. ولكن هذا لا يعني أنهم لم يكونوا متسامحين، فلطالما مارس عندهم اليهود والمسيحيون النساطرة والفرس الزرادشتيون والعرب المسلمون دياناتهم بحرية، بل إن هؤلاء الأخيرين قد نجحوا في هداية بعض الصينيين فخلقوا في الصين أقليَّة مسلمة ما زالت مستمرة -حتى اليوم- وقد كثرت الاتصالات بالغرب

أيضًا، على عهد المغول. إلا أن هذا التسامح الرسمي لم يؤد -قط- إلى جعل ثقافة الصين واسعة التقبّل للتأثيرات الأجنبية.

الصين المغولية

في نهاية القرن الثالث عشر كان المغول قد اكتسحوا الصين كلها، إلا أنها فتنتهم وأسرتهم مثلما أسرت جميع فاتحيها من قبلهم، ولو أن ضربتهم الأولى كانت ضربة قاسية جدًا، إذ ربما قتل حوالى ثلاثين مليون إنسان خلال فتحهم لها، أي أكثر من ربع عدد سكانها في عام ١٢٠٠. وعلى عهد قُبلاي، وهو آخر الخانات الكبار، نقلت الإمبراطورية المغولية مركزها من السهوب إلى پكين، ويمكننا اعتبارها -منذ ذلك الحين- إمبراطورية صينية لا مغولية. كما اتخذ قُبلاي لقبًا سلاليًا في عام ١٢٧١، وانقطع عن نمط حياة السهوب التي طالما تشبث بها قومه، وخفّف من ريبته بالحضارة وإنجازاتها. وسوف يمضي حياته كلها في الصين تقريبًا، ولو أن معرفته باللغة الصينية ظلّت ضعيفة. وقد استسلم أتباعه لثقافة الصين رويدًا رويدًا بالرغم من ارتيابهم بطبقة الإداريين العلماء في البداية. والحقيقة أن الصين قد غيَّرت المغول بأكثر مما غيروها هم، وهكذا نشأت الإمبراطورية الرائعة التي تحدَّث عنها ماركو پولو بإعجاب كبير.

إلا أن المغول قد سعوا للبقاء منفصلين عن أهل البلاد الأصليين، فمنعوهم من تعلّم المغولية ومن التزاوج بهم ولم يسمحوا لهم بحمل السلاح. وكانوا يفضلون استخدام الأجانب بدلاً من الصينيين في الإدارة كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وهو أسلوب تجد نظيرًا له في الخانيات الغربيّة للإمبراطورية المغولية، فقد عمل ماركو پولو ثلاث سنوات في إدارة الخان الكبير، وكان رئيس المكتب الإمبراطوري لعلم

الفلك نسطوريًا، وكان المسلمون من مقاطعة ما وراء النهر (جَيْحون) يُديرون مقاطعة يونان. كما أن المغول علّقوا نظام الامتحان الرسمي لبضع سنوات. وربما كان مسلكهم هذا سبب استمرار عداوة الصينيين للمغول، خاصة في الجنوب.

إلا أن إنجازات المغول كانت باهرة حقًا، وإن توحيد الصين قد أبرز من جديد مدى قوتها العسكرية والدبلوماسية الكبرى. ولم يكن فتح الجنوب التابع لسلالة السونغ بالأمر اليسير، ولكنه عندما اكتمل (في عام ١٢٧٩) ضاعف موارد قُبلاي بأكثر من مثلين، فجمع هذا أسطولاً ضخمًا وراح يعيد بناء دائرة نفوذ الصين في آسيا، فغزا ڤيتنام في الجنوب -واستولى على هانوي ثلاث مرات- كما احتُلت بورما لفترة من الزمن بعد موته. ولكن الحقيقة أن هذه الفتوحات لم تدم زمنًا طويلاً، إذ لم تبق هذه البلاد تحت الاحتلال بل صارت تدفع الجزية بدلاً من ذلك.

وكان النجاح في جزيرة جاوه بإندونيسيا محدودًا أيضًا، فرغم أن سفن الصين قد رست فيها وأخذت العاصمة في عام ١٢٩٢، فإنها عجزت عن الاحتفاظ بها، وكانت اليابان هي البلد الوحيدة التي فشلت محاولات المغزل لغزوها فشلاً تامًا. أما التجارة البحرية مع الهند وشبه الجزيرة العربية والخليج الفارسي التي ابتدأت على عهد السونغ فقد ازدادت تطورًا وازدهارًا.

ولما كان نظام المغول قد عجز عن الاستمرار فلا يمكننا في المحصلة أن نعده نظامًا ناجحًا. ولكن لا بد لنا من ذكر بعض مناقبه، والحقيقة أنه قد أتى بتطورات إيجابية كثيرة خلال قرن واحد أو أكثر بقليل. فقد ازدهرت التجارة الخارجية ازدهارًا لا سابق له، ويقول ماركو پولو إن الخان الكبير كان يطعم بهباته السخية

فقراء پكين، ونحن نعلم أنها كانت مدينة كبيرة. وتروق لنظرة الإنسان الحديث أيضًا معالجة المغول لأمور الدين، فهم في الحقيقة لم يعرقلوا سبيل أحد في التبشير بدينه ما عدا المسلمين، فشجّعوا الطاوية والبوذية، وأعفوا الأديرة البوذية مثلاً من الضرائب -واقتضى هذا بالطبع فرض ضرائب أشد على غيرهم كما هي الحال دومًا عندما تؤيد الدولة دينًا ما، فكان الفلاحون يدفعون ثمن التبشير الديني- إلا أن القرن الرابع عشر قد شهد سلسلة من الكوارث الطبيعية التي حلت بالإمبراطورية، وأثقل عبؤها من عبء الضرائب التي كان الشعب يرزح تحتها، فما لبثت أن اندلعت موجة جديدة من الثورات في الأرياف، وإن هي إلا العلامة الدالة على تراجع السلالة. وعادت الجمعيات السريّة للظهور، واجتذبت إحداها وهي جمعية "العمامات الحمر" تأييد النبلاء والإداريين معًا، فاستولى أحد قادتها وهو راهب يدعى تشو يان تشانغ على نانكينغ في عام ١٣٥٦، وطرد المغول من پكين بعد اثنتي عشرة سنة فابتدأت عندئذ حقبة المِنغ.

المِنغ

لقد تحول تشو يان تشانغ بالتدريج إلى مؤيد للنظام التقليدي، مثل الكثيرين من القادة الثوريين في الصين. وعاشت الصين على عهد السلالة التي أسسها ازدهارًا ثقافيًا عظيمًا، وتمكّنت من الحفاظ على وحدة البلاد السياسية، ولكنها -في الوقت نفسه- شددت على نـــزعة الصين المحافظة وعلى انعزالها. ففي بداية القرن الخامس عشر صدر مرسوم إمبراطوري يحرّم على السفن الصينية الإبحار وراء المياه الساحلية ويمنع الأفراد من السفر إلى الخارج، وسرعان ما فقدت ورشات السفن قدرتها على بناء السفن الكبيرة العابرة للمحيطات، ولم تقدر حتى على الحفاظ على مواصفاتها. ونسي الناس الرحلات الكبرى التي قام بها الخصي تشنغ هو، الذي يذكّرنا

بالمستكشف البرتغالي العظيم ڤاسكو دا غاما. وفي الوقت نفسه حصلت مضايقات للتجار بعد أن كانوا قد ازدهروا في السابق على عهد المغول.

وتراجعت سلالة المنغ في هذه الأثناء، وكان الدليل على ذلك هو تتابع عدد من الأباطرة الذين كانوا في الحقيقة سجناء في قصورهم، بينما راح المحظيون والأمراء يتنازعون على الاستمتاع بأملاك الإمبراطور. وقد عجز المنغ عن الحفاظ على أطراف الإمبراطورية إلا في كوريا، حيث صدوا اليابانيين عند نهاية القرن السادس عشر. فخرجت الهند الصينية من دائرة نفوذ الصين وأفلتت منطقة التبت من قبضتها أيضًا، وفي عام ١٥٤٤ عاد المغول فأحرقوا ضواحي پكين. وفي القرن التالي تعرّض المنغ لخطر شعب آت من شمال السور العظيم هو شعب المَنْشُو، الذي كان يعيش في مقاطعة سميت لاحقًا منشوريا على اسمهم، وعندما راح هؤلاء يتدخّلون في مشاكل الصين الداخلية كانت تلك نهاية المنغ. وفي عام ١٦٤٤ ارتقت العرش سلالة منشورية هي سلالة التشِنغ، وسوف يبقى أباطرتها على العرش حتى القرن العشرين.

دائرة النفوذ الصيني واليابان

إن ذلك التقلُّب المتكرِّر في سلطة إمبراطورية الصين لم ينل في الحقيقة من نفوذ حضارتها وثقافتها الدائم في تلك المنطقة الكبيرة من شرق آسيا، بل كانت الصين دومًا هي القوة العظمى فيها. وطوال القسم الأكبر من التاريخ المسجَّل كان ثلث البشرية كلها -تقريبًا- يعيش في هذه المنطقة الهائلة، وإن السيادة المستمرة لثقافة الصين فيها لحقيقة فائقة الأهمية في تاريخ العالم. وهذه المنطقة على درجة كبيرة جدًا من التنوّع من ناحية المناخ وطبيعة الأرض، ومن الصعب تصنيفها. فبورما مثلاً، مع

أنها من نواح عديدة جزء من العالم الهندي، يسكنها شعب لغته من نفس عائلة اللغة الصينية -ومثلها لغة التايلنديين والڤيتناميين- أما إلى الشرق، فإنك تجد في اللغات آثارًا من مجموعة اللغات الألطائية، وهي لغات غير صينية تتحدّث بها الشعوب التركية، بالرغم من التأثير الواضح للصين في كل من اليابان وكوريا. والمنطقة برمّتها مكتظة بالسكان عمومًا، ومن أسباب ذلك قدرتها على إنتاج محصولين في السنة بالمجهود البشري المكثّف في مناخ يغلب عليه الحر والرطوبة. ولهذا فهي على درجة كبيرة من الغنى من ناحية العادات والثقافات. إلا أن جميع شعوب شرق آسيا تتشابه -فيما بينها- من ناحية كدّها ونشاطها وإقدامها، والاستعداد الكبير عند أفرادها للخضوع للجماعة.

كانت علاقات الصين الرسمية بجيرانها تتأرجح مع تأرجح قوتها العسكرية. لقد رسخت سلالة السوي سيطرتها على شمال ڤيتنام (أنّام) وقامت بفتوحات في التبت وأركعت الفرع الشرقي من الشعوب التركية. ثم اضطر أباطرة التانغ لمعالجة أمر الأتراك من جديد، ولكنّهم أيضًا تابعوا دفع حدود الإمبراطورية نحو الغرب فوصلوا حتى جبال البامير واحتلوا حوض التاريم. وعلى عهدهم أصبحت كوريا دولة تابعة للصين وسار قائد عسكري كوري على رأس جيش عبر جبال البامير لكي يمنع اتصال العرب بأهل التبت، ولكن حملته هذه انتهت بكارثة على يد العرب في تالاس في عام ٧٥١.

وكانت هذه نقطة تحوّل هامة أفَلت من بعدها قوة الصين العسكرية في آسيا الوسطى، وكان هذا هو السبب الأساسي الذي مكّن الإسلام من ترسيخ قدميه هناك. وكان السونغ أقل نجاحًا من أسلافهم في معالجة أمر جيرانهم البرابرة، بل إنهم

في الحقيقة قد اضطروا لدفع الجزية لبعضهم، كما أنهم عجزوا عن استعادة أنام. وأخيرًا استطاع شعب منشوري أن ينتزع شمال الصين من قبضتهم، وتمكّن المغول من إعادة بناء وحدة الإمبراطورية. إلا أن المشكلة العويصة التي واجهت إمبراطورية الصين لم تكن معالجة أمور جيرانها التابعين لها، بل كانت في الحقيقة قدوم شعب بربري من مكان بعيد جدًا، ففي عام ١٥٥٧ أسَّست حفنة من البرتغاليين أول مستوطنة أوربية دائمة في الصين، وسوف يبقون هناك لزمن طويل.

اليابان

في نفس -الوقت تقريبًا- نجح برتغاليون آخرون في دخول اليابان، وهي أهم البلاد ذات الثقافة المتميزة ضمن نطاق الحضارة الصينية، وأكثرها غموضًا في خيال الشعوب غير الآسيوية. ولما كانت اليابان بلدًا مؤلفًا من عدد من الجزر فقد أمّن لها البحر الحماية – والحقيقة أنها لم تُغز بنجاح قط. كما ساهم البحر في إطعام شعبها، وقد بقي السمك يشكّل القسم الأكبر من الغذاء البروتيني في اليابان -حتى وقت قريب- وبفضل البحر استطاعت اليابان دومًا أن تأخذ من العالم الخارجي ما تريد وتترك ما لا تريد، وكان اليابانيون شعبًا بحارًا برع في القرصنة وصيد السمك -مثل الإنكليز في القسم الغربي من إنكلترا- ولكن ليس في المغامرات البعيدة.

إن أقرب أجزاء برّ آسيا إلى اليابان هو كوريا، وقد كان لدى اليابانيين دومًا حساسيّة كبيرة نحو هذا البلد. كان اليابانيون يحتلون أراضي في كوريا في القرن الثامن الميلادي، كما سيطروا عليها طوال قسم كبير من القرن العشرين، إلا أن السيادة الاسمية عليها إنما كانت في أكثر الأحيان للصين. وكانت الصين أيضًا أكثر قوة أجنبية تهتم اليابان لها وتحسب حسابها، وكان تأثيرها في اليابان عميقًا جدًا -منذ

الأزمنة السحيقة القدم- صحيح أن لغتيهما مختلفتان، إلا أن الشعبين الياباني والصيني كليهما مغولانيان -ولو أن هناك بعض أفراد العرق القوقاسي "الأبيض" في شمال جزر اليابان، وهم أحفاد شعب الآينو الأصلي- كما يبدو أن تقنيّة البرونـــز قد انتقلت من الصين إلى اليابان -منذ عصور ما قبل التاريخ- وعندما انهارت سلالة الهان في الصين صار اليابانيون أكثر اهتمامًا بكوريا، فتزايدت اتصالاتهم بحضارة البر الكبرى تزايدًا سريعًا، وانتقلت من الصين إلى اليابان أشياء كثيرة، مثل لقب "إمبراطور" الذي يطلق على حاكم اليابان، والعقيدة الكونفوشية، والبوذية، ومعرفة شغل معدن الحديد. كما جاء الخزافون الصينيون إلى اليابان -منذ زمن باكر- فبنوا فيها الأفران وتزاوجوا مع أهل البلاد، ومن هنا نشأ قسم كبير من إنجازات اليابان الفنية اللاحقة. وكُيفت الكتابة الصينية لتدوين اللغة اليابانية، وبدأ الحكم في اليابان يبدي بعض آثار الصين كذلك. وفي القرنين السادس والسابع، أي عندما كان تأثير الصين في أوجه، قام رجال الدولة المصلحون في اليابان بجهود كبيرة لكي يقيموا فيها حكومة مركزية ذات طبقة إدارية على شاكلة إدارة الصين، مبنيّة على الجدارة وليس على الوراثة، وإمبراطورًا يكون حاكمًا حقيقيًا وليس مجرد رئيس لأهم العشائر وأكثرها توقيرًا.

قد يلوح من هذه الأمور كلها أن اليابان أخذت من الخارج جميع الأشياء التي جعلت منها أمة متحضِّرة، خاصة إذا تذكرنا روعة الصين وإشعاعها على أيام التانغ، والأدلّة الكثيرة على التأثير البوذي في الفن الياباني. ولكن الحقيقة أن الأمر لم يكن على هذا الشكل، بل إن جذور حضارة اليابان ونظام حكمها إنما نشأت من صلب ذاتها.

وتروي أولى سجلّات اليابان التاريخية -التي جمعت في القرن الثامن- كيف قامت الآلهة بصنع أرض اليابان وشعبها، ولكن أول تقسيم زمني موثوق يأتينا من مصادر صينية وكورية تعود إلى -ما قبل ذلك بثلاثة قرون- وهو يبين أن حكومة اليابان كانت -منذ بداية القرن الخامس- متمحورة حول شخص الإمبراطور. كانوا يعتقدون أن الإمبراطور متحدِّر من إلاهة الشمس، وكان يتمتّع بالسيادة العامة على عائلة اليابان الكبرى من أرض أجداده، الواقعة فيما سيصبح لاحقًا مقاطعة ياماتو. وكانت تلك العائلة الوطنية منظَّمة ضمن عشائر، وهي الوحدات الأساسيّة في المجتمع الياباني مثلما كان الأمر في المجتمع الصيني الأبكر. وكانت بعض العشائر تصعد أحيانًا حتى تبلغ من القوة ما ليس للأخريات، وذلك عن طريق التأثير في الأباطرة أو حتى السيطرة عليهم. إلا أن السلالة الإمبراطورية قد استمرت بلا انقطاع -ولو باللجوء إلى أسلوب التبنّي في بعض الحالات- والحقيقة أن الإمبراطور الحالي إنما يرجع بأصل سلالته إلى الإمبراطور الأول، وهو ادعاء ذو دلالة كبيرة على ما للاستمرارية من أهمية في اليابان.

لقد مرت بين عامي ٥٠٠ و ١٥٠٠ مرحلتان هامتان سيطرت في كل منهما على اليابان عشيرة واحدة بمفردها. ففي القرن الثامن بلغت عشيرة فوجيوارا القمة، وسيطرت -طوال قرنين أو ثلاثة- بعد ذلك على الأباطرة بصورة وثيقة عن طريق المصاهرة وما يترتب عليها من علاقات. وكانت عاصمة الإمبراطورية خلال حقبة الفوجيوارا في هيان، أي كِيوتو الحالية، وهناك كان الإمبراطور يعيش ويؤدي واجباته الشعائرية والدينية الشاقة. ولكن سلطة الفوجيوارا قد أفَلت، فراحت العشائر المختلفة تتناحر -فيما بينها- إلى أن قبض على زمام الأمور في عام ١١٨٥ قائد عسكري كفء لا يعرف الرحمة هو ميناموتو يوريتومو. وكانت تلك بداية

سيادة عشيرة ميناموتو -التي تعرف عادة بحقبة الكاماكورا على اسم المقاطعة التي كانت تقع فيها أكثر أراضيها- ولكن عشيرة ميناموتو انهارت هي الأخرى في القرن الرابع عشر، ومالبثت اليابان أن تفسَّخت وتدهورت في سلسلة من الحروب الأهلية العنيفة والدامية التي استمرت حتى القرن السادس عشر.

الشوغونية

قد لا تستدعي هذه التطوّرات اهتمامًا كبيرًا للوهلة الأولى، وهي تبدو أشبه بصراعات النبلاء والعائلات الكبرى في أوربا خلال القرون الوسطى. ولكن الحقيقة أن هذا كان عصرًا هامًا نحت فيه اليابان في تطوّرها مناحي خاصة جدًا. فرغم بعض المحاولات التي جرت عند بداية عهد الفوجيوارا من أجل خلق إدارة مدنية مبنية على الجدارة، ما برحت سيادة الإمبراطور تضمحل باستمرار، بينما ظل النبلاء متشبثين بما بلغوه من سلطة ونفوذ. وقد منع هذا الأمر الاهتمام بالمصالح الأخرى، فتجمَّد مجتمع اليابان وتوقَّف عن التطوّر، وصارت المناصب وراثية، كما منحت حقوق فرض الضرائب الإمبراطورية للذين يتمتعون برضا عشيرة الفوجيوارا. وإن كسوف الأباطرة هذا قد اكتمل في مرحلة الكاماكورا (١١٨٥-١٣٣٣)، عندما انتقل الحكم الفعلي إلى القائد العام لسلالة ميناموتو. كان يلقب "بالشوغون" ويحكم شكليًا باسم الإمبراطور، ولكن الحقيقة أن حكمه كان مستقلاً ولمصلحة عشيرته هو، التي لم تكن أراضيها في منطقة هيان -حيث يعيش الإمبراطور- بل في منطقة كاماكورا. وما برحت الأمور تتطوَّر باطّراد من تآكل سلطة الإمبراطور إلى تآكل فكرة السلطة المركزية أصلاً، وكان هذا التطور مختلفًا جدًا عمَّا حدث في الصين، ولطالما انتهى ذلك بالفوضى والحرب الأهلية بين الزعماء.

ولولا الحماية التي يؤمِّنها البحر لكانت هذه الاضطرابات خطيرة جدًا على البلاد -بل ربما لما كانت قد حصلت أصلاً- لذلك لم تعان اليابان من مشاكل الغزو الخارجي، وكانت مشكلتها «الوطنية» الوحيدة هي السيطرة على البرابرة الآينو. ولم يكن المجتمع الياباني -في ذلك الزمان- على درجة من التطوّر تدفع الناس للمطالبة بحكومة أكثر مركزية، بل يبدو أن أكثر اليابانيين كانوا راضين بقبول سلطة العشيرة والعائلة وعبادتهم الوطنية، أي العبادة الشِّنْتُوية.

من الملامح الأخرى الهامة -لذلك العصر- النمو الكبير للروح العسكرية فيه، إذ بلغت فيه القيم العسكرية من ولاء وجَلَد على الشدائد وشجاعة أعلى مراتب التوقير والتمجيد. ومن أسباب هذا التطوّر أن النبلاء الأصغر ونبلاء الريف قد أصبحوا أكثر استقلالاً مع اقتراب حقبة الفوجيوارا من نهايتها، كما ساهمت في ترسيخه الحروب الأهلية التي كان المحاربون فيها يلتزمون بخدمة سادتهم كأتباع لهم. إن هذا الأمر شبيه بما كان يحدث في أوربا -في نفس الوقت تقريبًا- أي طريقة تنظيم المجتمع التي سميت «إقطاعية»، ولكن على نطاق أوسع بكثير. وقد برزت في اليابان رويدًا رويدًا طبقة جديدة ذات مكانة سامية لا تعلو عليها إلا مكانة النبلاء الكبار هي طبقة «الساموراي»، الذين كانت قيمهم ومثلهم الفروسية دومًا مصدر وحي وإلهام للقوميين اليابانيين، وكثيرًا ما ساهمت أيضًا في طبع مجتمع اليابان بطابع عنيف جدًا.

إن هذا الإجلال الكبير للمحارب كان يرافقه شعور متزايد لدى اليابانيين بأنهم شعب متفوّق لا يُقهر عسكريًا، وتدين هذه النظرة إلى نجاحهم في صد محاولتين قام بهما المغول لغزو بلادهم، كانت أولاهما في -عام ١٢٧٤- والثانية في

عام ١٢٨١. وقد جرت في هاتين الغزوتين عمليات حربية هائلة واستخدمت فيهما أسلحة قوية ومتطوِّرة، واستفاد المغول من التقنية الصينية واستعملوا المناجيق لرمي قنابل تنفجر في الهواء. والحقيقة أن الغزوة الثانية قد قضت عليها عاصفة دمَّرت أسطول المغول هي عاصفة «الكاميكاز» أي «الريح الإلهية»، التي رأى فيها اليابانيون يدَ عونٍ من السماء امتدت لنجدة بلادهم.

أما وضع الفلاح الياباني العادي -خلال- هذه التطورات فكان يسير من سيء إلى أسوأ، فلا الاقتصاد نما، ولا الزراعة تطوّرت من الناحية التقنيّة، ولا المدن اتسعت كما حدث في الصين. صحيح أن اليابان تمكّنت ببطء من زراعة كمية أكبر من الغذاء، إلا أن السبب كان زيادة حجم الأملاك الزراعيّة وبالتالي حجم الأراضي المزروعة، وليس تطوّر التقنيّة. وكان الفلاح يدفع ضرائب باهظة، وهي تذهب في العادة لسيده الذي منحته الشوغونية حق فرضها، وكان يزرع الأرز وهو ما يشكِّل القسم الأكبر من غذاء اليابان. ثم تفاقمت الأحوال بسرعة في القرن الخامس عشر، فانتشرت الأوبئة والمجاعات، وراح الفلاحون يتكتَّلون في جماعات وتحالفات لحماية أنفسهم تحت زعامة المحاربين العاطلين عن العمل، ونجمت عن هذا الأمر حركات الثورة والعصيان.

ولكنَّ هذا الفقر كان هو الأساس الذي قامت عليه حضارة اليابان البديعة. لقد كان بهاء تلك الحضارة على عهد الفوجيوارا محصورًا بحلقة البلاط الإمبراطوري، ولكنه امتد -بعد ذلك- إلى كافة الطبقة الحاكمة. ونبذت اليابان رويدًا رويدًا تأثيرات الثقافة الصينية أو أعادت صياغتها حسب حاجاتها الخاصة،

فظهر أول أدب ياباني وولدت دراما النو، وهي مزيج فريد من الشعر والتمثيل الإيمائي والموسيقى يؤدى بملابس وأقنعة مشغولة بعناية وإتقان. واللافت أن بعض أشهر الكتب اليابانية قد كتبتها سيدات من بلاط هيان، إذ يبدو أن الكتابة باليابانية كانت تعتبر أمرًا يليق بالنساء لأنهن غير قادرات على الإتيان بالأعمال الجديّة، بينما، كان على الرجال أن يستمروا باستخدام اللغة الصينية في تناول أمور الفنون والمعرفة الراقية -مثلما- ظلّ المثقفون في أوربا يستخدمون اللاتينية لغة للعلم.

لقد أثمرت هذه الثقافة أعمالاً فنيّة هي من أروع ما صنعته يد الإنسان على الإطلاق. وكان الفنانون اليابانيون يشدّدون دومًا على التناسب والبساطة والكمال في إتقان الصنعة، وقد تجلّى هذا في الخزف والتصوير وشغل المينا والحرير، فضلاً عن الفنون التي تميِّز اليابان من تنسيق الزهور وتصميم الحدائق الطبيعية وصنع السيوف الجميلة، وكان الفنانون الكبار يحظون بشهرة وتقدير عظيمين. كما أن هذه الفنون كلها قد بلغت في اليابان مرتبة عالية من الإتقان في أكثر مراحل تاريخها اضطرابًا وفوضى، وبالرغم من الضرر الاجتماعي والاقتصادي الذي جرّته على البلاد نـــزاعاتها الأهلية.

إن بعض تلك الأشياء الجميلة التي كان يصنعها اليابانيون قد بدأت تجد طريقها إلى الأسواق في الخارج، فكانت الصين في القرن الخامس عشر زبونًا هامًا، كما لعب الرهبان البوذيون دورًا كبيرًا في تجارتها مع اليابان. وكان لا بد لهذا الأمر من أن ينبّه اهتمام الناس، فصاروا يرغبون بمعرفة المزيد عن إمبراطورية الجزر البعيدة التي تأتي منها تلك التحف الثمينة. وكان الأوربيون من بين أولئك الفضوليين، وإن

أول الذين وصلوا منهم هم البرتغاليون في عام ١٥٤٣ على الأرجح، وسرعان ما تبعهم آخرون. و لم تكن ظروف اليابان الداخلية في -ذلك الحين- تشكّل أي عقبة في طريقهم، ففي عام ١٥٧٠ فتح زعيم ياباني كان قد اعتنق المسيحية قرية ناغازاكي الصغيرة للبرتغاليين، لقد أتى هؤلاء الدخلاء بديانتهم إذاً كما أتوا بالأسلحة النارية التي ألهبت ولع اليابانيين بالاقتتال فيما بينهم وذكّت أُواره. وقد تبنى اليابانيون هذه الأسلحة بشغف كبير ينبّئ بما سيأتون به في المستقبل، أي بعملية التحديث الرشيدة والمدروسة التي سوف ينهضون بها بعد -قرنين ونصف القرن- وهي أعظم عملية تحديث من نوعها قام بها شعب خارج أوربا.

الفصل السابع

صنع أوربا

مسيحية القرون الوسطى: الغرب

إن القرون الممتدّة من نهاية العصور الكلاسيكية القديمة- حتى حوالى عام ١٠٠٠ م- تبدو اليوم أنها كانت العصر الذي تم فيه وضع أسس أوربا، وتجد فيها معالم هامة على هذه الطريق التي رسمت ملامح المستقبل الآتي، ولو أن التغيُّر فيها كان بطيئًا ومتقلقلاً. ثم تلمس ابتداء من القرن الحادي عشر تبدُّلاً محسوسًا في السرعة، إذ صارت التطوّرات الجديدة أكثر بروزًا وبدا من الواضح أنها تمهِّد الطريق لشيء جديد تمامًا. لقد كانت تلك بداية عصر من المغامرة والثورة في أوربا، وسوف يستمر إلى أن يندمج تاريخها بأول عصور التاريخ العالمي. ولهذا السبب كانت فكرة أوربا موجودة في عام ١٥٠٠، بينما، لم تكن موجودة قبل ذلك بألف سنة. فبحلول ذاك العصر كانت هناك مدن موزَّعة في أنحاء القارة الأوربية سوف تصبح التجمّعات المدنية الكبرى للسكان في أيامنا، وكان الناس في أوربا الغربية يحصّلون معيشتهم من موارد غير الزراعة، ويمكنك رؤية أنماط معقدة من التجارة يمتد بعضها لمسافات بعيدة ويتم الكثير منها عن طريق البحر؛ وكانت المهارات التقنيّة تسبّب تغيُّراً أسرع منه في أي مكان آخر في العالم. وكان أكثر الأوربيين يعلمون أن العالم الخارجي مختلف جدًا عن العالم الذي يعيشون فيه، مهما سمّوا ذلك

العالم الخارجي وكيفما تخيَّلوه. لقد كان ذلك العالم عالمًا غير مسيحي، أي أن أوربا كانت متميِّزة لأنها مسيحية، وكانت في نهاية القرن الخامس عشر تحتضن حضارة مسيحية. وإذا ما فكَّر الناس وقتها بحضارتها ككيان واحد فإنَّهم إنما كانوا يعتبرونها «العالم المسيحي»؛ وهنا تبدأ قصتنا.

أصول الغرب المسيحي

عندما انهار جهاز الحكم في الغرب حلَّ محلَّه عدد من الممالك البربرية أسستها كلها الشعوب الجرمانية التي كانت تتدفق إلى الإمبراطورية الغربية ابتداء من القرن الثالث، فما بعد، وكانت في الحقيقة عبارة عن تنظيمات قبلية يسود فيها بعض الرجال الأقوياء. وقد تَرَوْمَن البرابرة بعض الشيء وتنصَّروا رويدًا رويدًا، ولكنَّهم ظلّوا قرونًا طويلة في حالة من التخلُّف، فحتى أكبر ملوك أوربا لم يكونوا أكثر من قادة عسكريين برابرة يتعلّق الناس بهم بحثًا عن حمايتهم وخوفًا مما هو أسوأ. فلقد وُضعت أسس هذه الحضارة الجديدة إذًا في بيئة من البربرية والتخلف. ولم يكن هناك في أوربا الغربيَّة مدينة ولا حتى روما ذات الماضي العظيم تقارب في الفخامة والبهاء مدن القسطنطينية أو قرطبة أو بغداد أو تشانغ آن، ولا كانت عمارة أوربا تقارن بعمارة الماضي الهلنستي أو بيزنطية أو إمبراطوريات آسيا، وعندما نشأت العمارة فيها فإنها استعارت أساليب تلك الحضارات. كما أن أوربا الغربية لم تكن قادرة على إنتاج أي علم أو مدرسة تقارن بما كان في إسبانيا العربية أو آسيا. بل كانت بلادًا نائية متخلِّفة، وبات سكانها معتادين على الحرمان لا على الوفرة، وكانوا يلتمّون معًا تحت حكم محاربيهم لأنهم يحتاجونهم لحمايتهم.

ومن الواضح أن التراث الروماني لم يختف بين ليلة وضحاها. فقد كانت الممالك البربرية تستخدم الكتبة والموظفين -عندما- تريد حفظ السجلات، وكانت تتعلم أساليب الرومان وتمنح الألقاب الرومانية لزعمائها، كما أنها كانت مضطرّة للتعامل مع وجهاء وإداريي الأيام الإمبراطورية السابقة. وقد استمر بعض الماضي الروماني إلى الغرب من الراين والقسم الأعلى من الدانوب، ولو أن من الصعب معرفة مداه. واللغة هي أحد الدلائل على ذلك، إذ مازالت اللغات "اللاتينية" التي تسمى أيضًا «رومانسية» متداولة في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وأماكن غيرها، لأن أعداد البرابرة الوافدين لم تكن كبيرة إلى حد يجرف الأشكال المنتشرة من اللاتينية فيها. وسرعان ما بدأ الكثيرون من أبرز رجال البرابرة يتحدّثون اللاتينية، ويكتبون بها أيضًا إذا كانوا يعرفون الكتابة. أما في الجزر البريطانية فقد اختفت تلك اللغة وحلّت اللغات الجرمانية للغزاة محلّ لغة الرومان البريطانيين، كما أن اللاتينية لم تثبّت قدميها وراء حدود الإمبراطورية قط.

وكانت أهم مؤسّسة خلّفتها الإمبراطورية على الإطلاق هي الكنيسة. كان أساقفة الكنيسة في كافة أنحاء أوربا الغربيّة شخصيات رئيسية في الشؤون المحلية، وراحوا يضطلعون بالمهام التي كانت تقوم بها الإدارة الإمبراطورية في السابق، وكانوا أحيانًا أبناء أسر هامة ذات ثروة وارتباطات قوية تدعم مكانتهم ونفوذهم. وراحت الكنيسة تكتسب بالتدريج مكانة روما السابقة، أي أنها صارت تمثل الحضارة نفسها، والحقيقة أن الخط الفاصل بين المسيحية والوثنية كان هو نفسه الخط الفاصل بين الحضارة الرومانية والبربرية.

البابوية

كان أحد الأساقفة يحظى بمرتبة خاصة من الأهمية، ألا وهو بابا روما. وكانت هناك أسباب عديدة جعلت مكانته ونفوذه ينموان مع مرور القرون، وأهمّها بلا جدال هو انفصال الغرب المتزايد عن الشرق. كان القديسان بطرس وبولس قد استُشهدا في روما، وكانت فيها -منذ عهد بعيد- جالية مسيحية كبيرة، لذلك كانت هي الأسقفية الأهم في الغرب، فكان من الطبيعي أن تستلم قيادة الكنيسة فيه. وعندما اكتسح العرب في زمن لاحق شمال أفريقيا وزالت منه الجاليات المسيحية القديمة ازدادت زعامة روما ثباتًا وترسّخًا. ثم كانت هناك أيضًا تجارة الحج المجزية التي تفد إليها، وكان الناس يعتقدون أن عظام القديس بطرس مدفونة فيها. وقد ساهم في تدعيم مكانتها عندما انهارت الحكومة إثر غزوات البرابرة لإيطاليا أنها كانت -منذ زمن بعيد- عاصمة الإمبراطورية، وأن البابا كان يألف التعامل مع السلطات الإمبراطورية العليا، ومع انهيار الإدارة الإمبراطورية كان رجال البابا في أماكن كثيرة مضطّرين لاستلام زمام الحكم المحلي. وقد ذهب أحد البابوات لرؤية أتّيلا زعيم قبائل الهون، وقال الناس إنّ تدخّله الشخصي هو الذي صدَّ أولئك البرابرة؛ وهكذا كانت أهمية البابوية تعلو باستمرار من نواح عديدة.

إن جزءًا كبيرًا من تاريخ الكنيسة هو بالضرورة تاريخ البابوية، وهي أفضل مؤسّسات المسيحية توثيقًا. لقد اقتضى تقسيم الإمبراطورية القديمة أن تصبح روما هي البطلة الحامية للإيمان في الغرب، وكان ادعاؤها بالسيادة يرتكز على كونها القيّمة على رفات القديس بطرس، فكانت هي الأسقفية الرسولية الوحيدة في الغرب بلا منازع. وبعد عهد البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠-٦٠٤)، وهو مؤسّس

السيادة البابوية في الكنيسة الغربيَّة، لم يعد بالإمكان الحفاظ على فكرة كنيسة مسيحية واحدة في إمبراطورية واحدة، ولو ظل ثمة ممثل لإمبراطور بيزنطية في مدينة راڤينا بإيطاليا. وإن آخر زيارة قام بها إمبراطور بيزنطي إلى روما كانت في –عام ٦٦٣– وآخر زيارة قام بها بابا إلى القسطنطينية كانت في عام ٧١٠.

لقد ساهمت الدبلوماسية البابوية بالتدريج في نشوء نمط من الممالك المسيحية في أوربا البربرية. وواجهتها صعوبات جمة في مسعاها هذا، لأن الكثير من الشعوب الجرمانية كانت وثنيّة، بل إن بعضها كانت تعتنق مذهبًا مسيحيًا هرطقيًا هو المذهب الآريوسي الذي ينكر ألوهية المسيح، ولم يكن بالإمكان أن تقتلع بين ليلة وضحاها التربة التي نشأت فيها هذه المعتقدات وترعرعت. لذلك كانت الكنيسة في العادة تتصرف بحذر كبير، "فتنصّر" المقامات الوثنية القديمة مثلاً عن طريق ربطها بشهيد أو ناسك مسيحي، وتتبنى أيام الأعياد الوثنية وتحوّلها إلى أعياد مسيحية، وهكذا دخل الكثير من السحر والخرافة إلى المسيحية وبقي فيها لزمن طويل. أما في المسائل الجوهرية، مثل إدانة الثأر بالدم أو تأييد مبدأ الزواج المسيحي الأحادي، فقد وقفت الكنيسة موقفًا حازمًا. وعلى هذه الصورة حضّرت رويدًا رويدًا الشعوب التي سوف ينشأ منها الأوربيون الأوائل.

إن الجزء الوحيد من أوربا الغربيّة الذي انقرضت فيه المسيحية هو مقاطعة بريطانيا الرومانية، بينما استمرت هذه الديانة في إيرلندا وعلى حواف اسكتلندا حيث دفعتها غزوات البرابرة. ومن هذا المحيط عادت الحملات التبشيرية في القرن السادس إلى البلد الذي سوف يسمى إنكلترا، خاصة بقيادة القديس كولومبان الذي أسّس ديرًا في أيونا في عام ٥٦٣. ولكن إنكلترا سوف تكون أيضًا هدف

أولى البعثات التبشيرية الكبرى التي أرسلتها روما، فقد أعاد المبشِّرون الرومان الذين كانوا يعملون من كَنتربُري تأسيس المسيحية في إنكلترا في القرن السابع بمساعدة الكنيسة السلتية -مع أنهم كانوا يتنافسون معها- وتم لهم ذلك عن طريق تنصير ملوك الممالك الصغيرة التي أنشأتها شعوب السكسون والجوت والإنكليز التي كانت زوارقها تفد إلى الجزيرة -منذ- أن غادرتها الفيالق الرومانية في عام ٤٠٧.

حركة الرهبنة

لم تكن البابوية المؤسَّسة الوحيدة التي لعبت دورًا حاسمًا في جعل أوربا الغربيَّة مسيحية، بل قامت بجانبها مؤسّسة أخرى هي الرهبنة. وقد ظهرت الرهبنة أول ما ظهرت في مصر والشرق الأدنى، ولكنَّها اتخذت في الغرب شكلاً جديدًا في القرن السادس، خاصة بفضل عمل رجل بارز من رجالها هو القديس بِنديكتُس. فقد أسس بِنديكتُس جماعة رهبانية في جبل كاسينو بجنوب إيطاليا في عام ٥٢٩، فكُتب له من خلالها تأثير هائل على طبيعة هذه الحركة في كافة أنحاء الكنيسة الغربية. ووضع لرهبانه مجموعة من القواعد الثابتة كانت هي البذرة التي نشأت منها حركة من الإصلاح الشامل. وكانت تلك القواعد توصي الرهبان بالعمل والدراسة فضلاً عن تأدية واجباتهم الدينية، وقد حلَّت رهبانيته حتى محل رهبانية القديس كولومبان الإيرلندية بعد أن كانت هذه منافسة جدّية لها. وكان الرهبان البنديكتيون يتّبعون قواعد القديس بنديكتُس بحذافيرها، ومن بعدهم نشأت رهبانيات جديدة اتخذت قواعده نموذجًا لها، فظهرت في كافة أنحاء أوربا جماعات كان الرجال فيها يعملون ويصلون معًا مبشرين الناس المقيمين من حولهم وداعين إياهم لاعتناق المسيحية. وكانت تلك الجماعات مراكز للتعليم والفن وحتى إدارة المزارع، ومن تلك الأديرة صار المزيد والمزيد من الرهبان يخرجون ليصبحوا مستشارين لدى الملوك وأساقفة

ويضعوا هيكلاً لرجال الدين العاديين؛ وقد أصبح أحد الرهبان البابا غريغوريوس الكبير.

وكانت هناك -أيضًا- جماعات رهبنة نسائية. وليست المسيحية بالطبع الديانة العالمية الوحيدة التي أعطت دورًا للنساء، بل وجدت في بلاد أخرى نساء قديسات وكاهنات ومن يمكننا أن نسميهن «راهبات»، إلا أن رهبنات النساء في المسيحية - وهي مبنيّة على نمط رهبانيات الرجال - كانت جديدة تمامًا من حيث حجمها والفرص التي أمّنتها للنساء، وقد وجدت مئات الآلاف منهن مكانًا لهن في تلك الجماعات الدينية المسيحية مع مرور القرون. لقد اتُهمت المسيحية بأنها تركت النساء في مرتبة متدنّية جدًا، أما فيما قدَّمته للراهبات فليس عليها من مأخذ، إذ لم تكن هناك في الحقيقة مهن محترمة متاحة للنساء في أي مجتمع قبل الحقبة المسيحية، والمسيحية هي التي مهّدت الطريق إلى مستقبل سوف تقوم فيه النساء بالتمريض والدراسة وإدارة الأملاك وتكريس أنفسهن للتأمُّل والصلاة، التي كنَّ يعتبرنها أسمى واجباتهن. ولم يعط أي مجتمع آخر مثل هذه الفرص لنسائه، ولو أنهن كن يشترينها بنذور الطاعة والعفة وقبول الحياة المعزولة عن العالم.

بنية أوربية جديدة

إذا نظرت إلى خريطة أوربا في -عام ١٠٠٠ م- أمكنك أن تميِّز فيها عالمًا مسيحيًا غربيًا مؤلفًا من نصف شبه جزيرة إيبريا -تقريبًا- ومن فرنسا الحالية وألمانيا إلى الغرب من نهر الإلب ومن بوهيميا والنمسا وبرّ إيطاليا وإنكلترا. وعلى حواف هذا العالم كانت تقع إيرلندا وإسكتلندا المسيحيتان، كما كانت الممالك الإسكنديناڤية في طور الدخول ضمن نطاقه. أما خارج هذه المنطقة فكان العرب قد

رسَّخوا أقدامهم في جزء كبير من إسبانيا فضلاً عن صقليَّة وكورسيكا وسردينية وجزر البَليار. وإلى الشرق كانت تقبع المسيحية السلافية وبيزنطية، وهما عالمان ثقافيان مختلفان جدًا عن الغرب، ولو أنهما كانا بمثابة درع مسيحي يحميه من هجمات البدو الشرقيين والإسلام. وكانت أوربا الغربيّة معزولة عن البحار تقريبًا؛ فصحيح أن سواحل الأطلسي مفتوحة على مصراعيها إلا أنه لم يكن فيه ثمة مكان يمكن الذهاب إليه بعد أن استقر النروجيون في إيسلندا؛ وأما غرب المتوسط وهو الطريق المؤدّية إلى الحضارات الأخرى وتجارتها فقد كان بحيرة عربية.

وإذا أمعنت النظر أكثر تبدو لك بصورة واضحة بعض التبدّلات الهامة والكبرى التي جرت بعد عصور الظلام التالية لانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية. لقد تحركت ثقافة أوربا وروحها مبتعدة عن البحر المتوسط الذي كان محور الحضارة الكلاسيكية، وإذا كان للحياة في هذه القارة مركز فإنه قد انتقل إلى وادي الراين وروافده، حيث كانت ثروتها القليلة أكثر وفرة. والتغيّر الثاني هو التقدم التدريجي للديانة المسيحية وامتداد عملية الاستيطان نحو الشرق، ففي عام ١٠٠٠ كانت طلائع الحضارة المسيحية قد قطعت مسافة بعيدة وراء الحدود الرومانية القديمة. أما التغيّر الثالث فهو هدأة ضغط البرابرة بعد ثلاثة أو أربعة قرون من الخطر. صحيح أن العالم المسيحي قد تعرض لخطر المغول بعد ذلك بقرنين، ولكنه لم يعد في الحقيقة فريسة للغزاة الغرباء ولا عالمًا سلبيًا تحدد شكله القوى الخارجية، ولو كان من الصعب على الناس أن يشعروا بهذا التغيّر. كانت الضغوط على أوربا قد ارتخت إذن، كما ظهرت فيها بعض ملامح عالم جديد على وشك التوسّع. وفي مركز العالم المسيحي الغربي كانت فرنسا وألمانيا في طور التشكل، بينما ظهرت في

الجنوب بدايات ثقافة ساحلية متوسطية غربية جديدة ضمت في البداية كَتَلونيا واللانغدوك وپروڤانس، ومع مرور الزمن وتعافي إيطاليا من عصر البربرية كانت هذه الثقافة قد امتدت أكثر نحو الشرق والجنوب. ثم كانت هناك منطقة ثالثة متميِّزة ومؤلفة من محيط متنوع في الغرب والشمال الغربي والشمال، حيث كانت توجد دول مسيحية في إسبانيا، وفي إنكلترا وجاراتها السلتيات المستقلات وشبه البربريات أي إيرلندا وويلز وإسكتلندا، وأخيرًا الدول الإسكندناڤية. وكانت ثمة أماكن واقعة بين تلك المناطق الكبرى الثلاث يمكنك أن تصنفها مع الواحدة أو الأخرى منها -مثل أكيتانيا وغَسكونيا وأحيانًا بُرغنديا- إلا أن الفروق بين المناطق تبقى حقيقية ومفيدة لفهم الصورة العامة. وكانت تلك المناطق تتميز بعضها عن بعض بتجاربها التاريخية فضلاً عن اختلاف مناخاتها وعروقها البشرية، ولو أن أهلها كانوا يجهلون هذه الأمور كلها.

الإفرنج

لقد ساهمت الشعوب أيضًا في بلوغ هذا الحد من التمايز ضمن أوروبا بالإضافة إلى العوامل الجغرافية. ففي القرن الرابع كان قد استقر ضمن الحدود الرومانية شعب جرماني هو شعب الإفرنج كحلفاء للإمبراطورية. وكانوا يعيشون بين نهري إسكو والموز، أي في أراضي بلجيكا الحالية، بينما بقي فرع آخر من العرق نفسه إلى الشرق من نهر الراين. وكانت منهم مجموعة ترتبط -فيما بينها- بروابط القربى عرفت بالميروڤيين -أو الميروڤنجيين- وفي عهدهم انقلب الإفرنج في القرن الخامس على مضيفيهم أي حكام غاليا الرومان، ففتحوا جزءًا كبيرًا من البلاد إلى الغرب وحتى نهر اللوار جنوبًا.

لقد حاز أحد أمراء الميروفيين وهو كلوفيس على القبول كحاكم للإفرنج الغربيين والشرقيين معًا، وتزوَّج أميرة برغندية كاثوليكية -في عام ٤٩٦ حسب التقاليد- ثم اعتنق المسيحية إثر معركة تذكرنا بتنصّر قسطنطين، فنال بذلك دعم الكنيسة الغاليّة والبابا، وهذا ما مكّنه من فرض سيادته في كافة أنحاء غاليا على الفيزيغوط والبرغنديين. ونقل عاصمته إلى مدينة صغيرة تقع على جزيرة ضمن نهر السين كان الرومان يسمونها لوتيسيا، وكان سكانها مسيحيين -وكان فيها أساقفة منذ عام ٢٥٠ على الأقل- وكانوا يعرفون بالـ Parisii، وهي اليوم باريس. وفيها دفن كلوفيس في النهاية على الطريقة المسيحية فكان أول ملك إفرنجي يدفن بهذه الصورة. وعندما مات تقسَّمت أراضيه على طريقة الإفرنج المعتادة.

لقد أعيد ضم أجزاء هذه التركة -كما أضاف إليها أحفاد كلوفيس أراضي الأوستروغوط الواقعة إلى الشمال من جبال الألب- ولكنها عادت فتقسَّمت من جديد. إلا أن سيادة الإفرنج استمرت بصورة واضحة على قسم كبير من شمال غربي أوربا وكان هذا الشعب البربري حليفًا جديدًا وهامًا للكنيسة، وقد نشأت منه قوة جديدة، فكانت هذه بداية نظام إفرنجي جديد في الغرب سوف يؤدي بدوره في النهاية إلى أوربا جديدة، وسوف تشكِّل أراضي الإفرنج في العصور الوسطى قلب العالم الغربي. إلا أنها لم تكن بلادًا غنيّة ولا متطوِّرة من الناحية الثقافية، فقد كانت مدنها أقل عددًا مما هي الحال في الجنوب، وكانت الحياة فيها تعتمد على الزراعة، وكان حكّامها عبارة عن مقاتلين برعوا في فن الحرب فاكتسبوا أراضي واسعة. ولكن الإفرنج بعد أن وضعوا هذا الأساس بدؤوا باستيطان ألمانيا، كما صاروا حماة للكنيسة، وتبلورت على أيديهم ملكية مسيحية ذات تقاليد متميزة ورّثوها -فيما بعد- للمستقبل.

لقد استمرت سلالة الميروفيين بعد كلوفيس، ولكن تعاقب على عرشها عدد من الملوك كانوا قد خسروا ثرواتهم فصاروا ضعفاء، واضطروا لإعطاء المزيد من الاستقلال للأرستقراطيين الإفرنج. وكانت بين هؤلاء أسرة من أوسترازيا، أي أراضي الإفرنج الواقعة إلى الشرق من الراين، مازالت تنمو ويشتد عودها حتى طغت على السلالة الميروفية. ومنها جاء القائد شارل مارتل، الذي صدّ تقدّم العرب عند تور في عام ٧٣٢ كما دعم وساند المبشِّر القديس بونيفاتيوس الذي نصّر ألمانيا. وكان لعمليه هذين أثر هام في تاريخ أوربا، وقد ثبتا التحالف مع الكنيسة. وعندما اختار نبلاء الإفرنج الابن الثاني لمارتل، أي «بيبان القصير»، ملكًا عليهم جاء البابا إلى فرنسا ومسحه بالزيت مثلما كان صموئيل قد مسح شاول وداود، ومنحه لقب «نبيل روماني». وكانت البابوية بحاجة لصديقها القوي هذا لأن اللُمبرديين كانوا يُرهبون روما، وما كانت الإمبراطورية الشرقية لتقدِّم لها أي مساعدة -كما أنها كانت حينئذ أقرب إلى الهرطقة في نظر الكاثوليك- وقد هزم بيبان اللُمبرديين وأسَّس في عام ٧٥٦ الدول البابوية عندما منح مدينة رافينا "للقديس بطرس"، فكان هذا معلمًا آخر في تاريخ أوربا، وبداية أحد عشر قرنًا من السلطة الدنيوية للبابوية كان البابا خلالها يحكم أراضيه مثل أي ملك آخر. وأدى هذا أيضًا إلى إصلاح الكنيسة الإفرنجية وإلى مزيد من الاستيطان والتنصير في ألمانيا -من خلال الحروب التي شُنت ضد السكسون الوثنيين- وإلى دفع العرب إلى الطرف الآخر من جبال البيرينه(*)، وهكذا كان هذا المحور الروماني الإفرنجي ذا منفعة كبيرة للكاثوليكية.

(*) البرانس.

شارلمان

لقد تقسَّمت أراضي ببيان مرة ثانية عند موته، إلا أن التركة الإفرنجية بأكملها توحَّدت من جديد في عام ٧٧١ في ابنه الأكبر شارلمان، وهو أعظم رجال هذه السلالة التي صارت تعرف بسلالة الكاروليين، أو -الكارولنجيين- وسرعان ما أضحى شارلمان أسطورة. من الواضح أنه كان يجمع صفتي المحارب والملك جريًا على عادات الإفرنج، فكان يهوى الفتوحات وكانت الحرب نشاطه الأساسي. ولكن الشيء الجديد هو الجدية البالغة بل القداسة التي أظهرها في أداء دوره كملك مسيحي، فقد سعى لتعظيم بلاطه والسمو بمكانته بأن أغناه بالعلوم المسيحية وبرعايته الكبيرة للمعرفة والفنون. وفي مجال الفتوحات تأمّن له ضم أراض كثيرة، وكانت لهذا الأمر نواح دينية أيضًا. لقد أطاح شارلمان باللُمبرديين بعد أن أخضعوا إيطاليا وأرهبوا البابوات، واستولى على عرشهم وعلى أراضيهم في شبه الجزيرة، وظل يخوض الحملات في الشرق ثلاثين سنة تم له فيها تنصير شعب السكسون الوثني بالقوة، كما أن محاربة الأفار والوند والسلاف قد مكنته من ضم كَرينثيا وبوهيميا وفتحت له طريقًا هامة على طول نهر الدانوب إلى بيزنطية. وقد وضع حدودًا دفاعية عبر نهر الإلب من أجل السيطرة على الدنمركيين، وفي بداية القرن التاسع اقتحم إسبانيا ووضع فيها حدودًا مماثلة عبر جبال البيرينه تمتد جنوبًا حتى نهر الإبرو وساحل كَتَلونيا. وقد تجمَّعت لديه بذلك أراض كثيرة.

في يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ قام البابا بتتويج شارلمان ونودي به إمبراطورًا، ومازال المؤرخون -منذ ذلك الحين- يتجادلون حول معنى هذا التتويج. لقد كان هناك إمبراطور يعترف به الجميع ويعيش في القسطنطينية، فهل صار يوجد الآن إمبراطوران اثنان في عالم مسيحي مقسّم مثلما كانت الحال في أواخر الأزمنة

الرومانية؟ كان من الواضح أن لقب الإمبراطور هو ادعاء بالسلطة على شعوب كثيرة، وأن شارلمان باتخاذه هذا اللقب كان يريد أن يقول إنه ليس ملكًا على الإفرنج وحدهم. وربما كانت إيطاليا في البداية هي البلد الأهم بنظره، لأنها تمكّنه من الارتباط بماضيها الإمبراطوري فيكون هذا عاملاً موطدًا لسلطته لا يتيحه أي بلد آخر. وكان ثمة عامل آخر أيضًا، هو عرفان البابا بجميل شارلمان — أو حاجته لدعمه – لأن جنوده كانوا قد أعادوا للتو البابا ليون الثالث إلى عاصمته. ولكن روي أيضًا عن شارلمان قوله إنه لو علم بما كان البابا ينوي أن يفعله لما دخل كنيسة القديس بطرس، فربما كان يكره عجرفة البابا وادعاءه بالسلطة.

مهما كانت دوافع شارلمان فإن ختمه سرعان ما حمل كتابة تقول »إحياء الإمبراطورية الرومانية»، وكان هذا ارتباطًا مقصودًا وصريحًا بالماضي العظيم. وقد اعترفت القسطنطينية لاحقًا بصلاحية لقبه هذا في الغرب، ولكن علاقاته ببيزنطية لم تكن سهلة قط، وليس هذا بالأمر الغريب. وكانت اتصالاته بالخلافة العباسية رسمية ولكنها ودية، ولا ننس أن العرب كانوا يهددون بيزنطية. أما أمويو الأندلس فكانت علاقته بهم دون هذا لأنهم كانوا قريبين منه بحيث يشكلون خطرًا عليه.

كانت حماية الدين من الكفار واجبًا من واجبات الملوك المسيحيين، ولكن هذا لا يعني استقلال الكنيسة، بل لقد أخضعها شارلمان بحزم لسلطته واستخدمها أداة للحكم من خلال أساقفتها. فكان يرأس المجامع الإفرنجية ويفصل في أمور العقيدة بسلطان مثلما كان يفعل يوستينيانُس من قبله، ويبدو أنه كان يأمل بإصلاح الكنيستين الإفرنجية والرومانية وبفرض رهبنة القديس بنديكتُس عليهما. والحقيقة أن أعمال شارلمان كانت بداية فكرة هامة، هي مسؤولية الملك عن رعاية الحياة الدينية في أراضيه فضلاً عن دوره في حماية الكنيسة.

ربما كان بلاط شارلمان في آخن (إكس لا شاپل) بدائيًا بالقياس إلى بلاط بيزنطية، أو حتى بالقياس إلى بلاطات بعض الممالك البربرية الباكرة. ولكن الفن البيزنطي بدأ يخصب تقاليد أوربا الشمالية عندما جلب رجاله المواد والأفكار من راڤينا لتجميل مدينة آخن، كما أن النماذج الكلاسيكية قد أثرت أيضًا في فناني شارلمان. إلا أن أبرز الأشياء التي زها بها بلاطه إنما هي كونه مركزًا للفكر من خلال علمائه الكبار. وكان الكتبة ينسخون النصوص بخط جديد يسمى الخط الكارولي الصغير، وسوف يصبح هذا أداة من الأدوات العظيمة لنشر الثقافة في الغرب. وكان شارلمان يأمل باستخدامه في صنع نسخ أصلية صحيحة من قواعد القديس بنديكتُس لكي يُقدِّمها لكل دير في مملكته، ولكن الأهمية الكبرى لهذا الخط إنما تكمن في صنع نسخ من الكتاب المقدَّس. وكان الكتاب المقدس هو الكتاب الأساسي في مكتبات الأديرة التي صارت تُجمع الآن في كافة الأراضي الإفرنجية، ولم يقتصر هذا الأمر على المغزى الديني، لأن تاريخ اليهود في العهد القديم حافل بالصور المثالية للملوك المحاربين الأتقياء والممسوحين بالزيت، وكان هؤلاء نماذج من المفيد أن يروج لها. وقد استمر نسخ النصوص وانتشارها قرنًا كاملاً بعد أن أُعطي دفعته الأولى في آخن، فكان هذا جوهر ما يسمى «بالنهضة الكارولية». ولم تكن كلمة نهضة تحمل أيًا من معانيها الدنيوية التي اكتسبتها في أزمنة لاحقة، بل كانت نهضة مسيحية جدًا، وكان الغرض منها تدريب رجال الدين من أجل إحياء الكنيسة الإفرنجية وتنشيطها والاستمرار بدفع الإيمان شرقًا عن طريق البعثات التبشيرية. لقد كان هناك عدد من الرجال الإيرلنديين والأنكلوسكسون في مدرسة القصر بآخن، ومنهم العالم المرموق ألكوين من مدينة يورك، التي كانت مركزًا كبيرًا للمعارف الإنكليزية. وكان أشهر تلاميذ ألكوين هو شارلمان نفسه، ولكن كان لديه أيضًا

عدد من التلامذة الآخرين كما كان يدير مكتبة القصر. وقد أصبح رئيسًا للدير في مدينة تور وكانت له فيها مدرسة يشرح فيها الكتّاب الكلاسيكيين لرجال سوف يحكمون الكنيسة الإفرنجية في الجيل التالي.

إن ألكوين هذا دليل لافت على انتقال مركز الثقل الثقافي في أوربا نحو الشمال وابتعاده عن العالم الكلاسيكي. وقد كان هناك عدا عن الإفرنج ڤيزيغوط ولُمبرديون وإيطاليون ساهموا جميعًا في حركة التعليم والنسخ وتأسيس الأديرة الجديدة التي امتدت إلى شرق فرانسيا وغربها. وكان من هؤلاء العالم أينهارد، الذي كتب سيرة لشارلمان نقرأ فيها أنه كان يميل إلى الثرثرة في بعض الأحيان، وأنه كان شغوفًا بالصيد ويحب السباحة والاستحمام في ينابيع المياه الحارة، وهذا سبب اختياره لآخن كمكان إقامة له. ويظهر شارلمان أيضًا في كتاب أينهارد بصورة رجل فكر يتحدث اللاتينية فضلاً عن الإفرنجية ويفهم اليونانية. ويدعم مصداقية الرواية أن كاتبها يتحدّث عن محاولات شارلمان للكتابة وكيف كان يحتفظ بالدفاتر تحت وسادته لكي يكتب وهو في السرير، ثم يضيف أينهارد «ولكن رغم أنه حاول بمجهود كبير فإنه قد ابتدأ في عمر متأخر».

ترتسم لك عن شارلمان صورة حيّة لرجل وقور وجليل، يسعى لكي يتحوّل من زعيم عسكري إلى حاكم إمبراطورية مسيحية كبيرة، وقد أصاب في مسعاه هذا نجاحًا كبيرًا. ومن الواضح أن حضرته كانت مهيبة -إذ يبدو أنه كان أطول قامة بكثير من الرجال الذين من حوله- وكان الناس يرون فيه روح ملك بهيج وعادل وكريم، فضلاً عن صورة البطل التي سيتغنى بها الشعراء والمنشدون طوال قرون عديدة. والحقيقة أن شارلمان قد أضفى على الملكية الجرمانية أبهة جديدة. عندما ابتدأ حكمه كان بلاطه متنقّلاً بعد، فكان يمضي عامه في الترحال بين أراضيه

المختلفة؛ ولكنه عندما مات خلّف قصرًا وخزينة مال في الموقع الذي سوف يدفن فيه. وقد تمكّن من إصلاح الأوزان والمقاييس، وأعطى أوربا تقسيم الجنيه الفضي إلى ٢٤٠ بنسًا -دينارًا- وهو تقسيم سوف يستمر في الجزر البريطانية طوال أحد عشر قرنًا. ولكن سلطته كانت -في الوقت نفسه- سلطة شخصيَّة جدًا، وكانت ترتكز في المحصلة على أراضيه ومنتوجاها الزراعية، وعلى الرجالات الكبار الذين أبقاهم قريبين منه لكي يستطيع مراقبتهم. وكان أتباعه هؤلاء مرتبطين به بأقسام مقدَّسة، ولكن حتى هم بدؤوا يسببون له المتاعب مع تقدّمه بالسن.

بدايات فرنسا وألمانيا

لم يتمتّع خلفاء شارلمان بسلطته ولا بخبرته، وسرعان ما تقسَّمت أراضيه بعد موته وراح الرجال يلتمّون حول بعض الأفراد مشكّلين مجموعة من الولاءات المحليّة. وفي النهاية تقاسم ثلاثة من أحفاده تركة الإفرنج في معاهدة ڤيردان في عام ٨٤٣، وهي تسوية هامة جدًا في تحديد خريطة أوربا المستقبليّة. لقد رسمت معاهدة ڤيردان مملكة في الوسط مؤلفة من أراضي الإفرنج التي مركزها الضفة الغربية لوادي الراين -وتضم مدينة آخن- فأعطتها إلى لوثير وهو الإمبراطور الحاكم -ولهذا سُميِّتْ لوثارينجيا- فضلاً عن «مملكة» إيطاليا. وإلى الشرق منها أعطيت الأراضي ذات اللغة التوتونية الواقعة بين الراين والحدود الألمانية إلى لويس الألماني. وأخيرًا أعطي في الغرب شريط من الأرض يضم غَسكونيا وسپتيمانيا وأكيتانيا إلى أخ غير شقيق لهذين الرجلين هو شارل الأصلع. وكان هذا التقسيم في الحقيقة أول مرة تتميّز فيها فرنسا عن ألمانيا، أما لوثارينجيا فلم تكن تتمتع بوحدة لغوية وإثنية وجغرافية واقتصادية هامة قياسًا إلى المملكتين الأخريين، لأنها إنما اصطنعت بسبب الحاجة

لإرضاء أبناء ثلاثة. وسوف يكون قسم كبير من تاريخ فرنسا وألمانيا عبارة عن محاولات لاقتسام هذه الأرض فيما بينهما.

لقد ضعف الملوك الكاروليون بمرور الزمن، فلم يستمروا في فرانسيا الغربية إلا قرنًا واحدًا بعد شارل الأصلع، وفي نهاية حكمه كانت كل من بريتانيا وفلاندر وأكيتانيا مستقلة من الناحية الفعلية. لذلك استهلت الملكية الإفرنجية الغربية القرن العاشر وقد نال منها الضعف والوهن. وعجز شارل الثالث عن طرد النورمان، فتنازل لقائدهم رولو في عام ٩١١ عن أراض واقعة في نورمنديا الحالية. وتعمَّد رولو في العام التالي وراح يبني الدوقية التي أدى فيها الولاء للكارولِيين، وظل مواطنوه الاسكنديناڤيون يفدون ويستقرون هناك حتى نهاية القرن العاشر، ولكنهم سرعان ما تفرنسوا من ناحيتي اللغة والقانون. وفي هذه الأثناء أدت الفوضى حول موضوع الخلافة في فرانسيا الغربية إلى بزوغ كونت من باريس راح يبني سلطة أسرته باطِّراد حول أراضيهم الواقعة في المنطقة المسماة جزيرة فرنسا -إيل دو فرانس- وسوف تكون هذه نواة فرنسا القادمة. وعندما مات آخر الحكام الكاروليين للإفرنج الغربيين في عام ٩٨٧ انتُخب هوغ كابِه ابن كونت باريس ملكًا، وسوف تحكم عائلته طوال -أربعمئة سنة تقريبًا- وعدا عن هذا، كان الإفرنج الغربيون -عندئذ- مقسمين إلى حوالى اثنتي عشرة وحدة يحكمها زعماء على درجات متباينة من المكانة والاستقلال.

الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة

٨٠٠ م	تتويج شارلمان
٨٤٠-٨٤٣	تقسيم الإمبراطورية الكارولية عند موت لويس الورع. لوثير

	الأول يتخذ لقب إمبراطور (مع إيطاليا ولوثارينجيا).
٩٥٥	معركة لشفلد: أوتو الأول (الكبير) يقضي بهذا النصر أخيرًا على خطر المجر.
٩٦٦-٩٧٢	ثالث حملات أوتو الأول إلى إيطاليا: خلع أحد البابوات وإعادة آخر وترشيح ثالث.
٩٩٨	أوتو الثالث يخلع البابا.
١٠٤٦	هنري الثالث يخلع ثلاثة بابوات متنافسين ويعيد تثبيت حقه بترشيح البابا.
١٠٧٥-١١٢٢	الصراع على تنصيب الأساقفة الذي انتهى بصورة رسمية في اتفاق وُرمز.
١١٢٥	تأسيس مبدأ الانتخاب كطريقة لاختيار الأباطرة مع ارتقاء لوثير الثاني العرش.
١١٣٨	سلالة هوهنشتاوفن الإمبراطورية تبدأ بكُنراد الثالث. يتلوها صراع طويل مع البابوية.
١١٥٢-١١٩٠	فردريك الأول (بربروس) يبدأ باستخدام لقب «الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة».
١١٨٣	صلح كونستانس (بين الإمبراطور والبابا والمدن اللُمبردية) يمهد الطريق لافتراق ألمانيا وإيطاليا تحت السيادة الاسمية للإمبراطور.

١٢٤٥	البابا إنوسنتس الرابع يخلع فردريك الثاني في مجمع ليون.
١٢٦٨	اغتيال آخر أمراء هوهنتشتاوفن.
١٣٥٦	شارل الرابع يضع دستور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة حتى عام ١٨٠٦.

الأباطرة الألمان

أما على الطرف الآخر من الراين فقد تفكَّكت البلاد بعد موت آخر ملك كارولي في عام ٩١١ بصورة وضعت نمط السياسة في ألمانيا -طوال ألف عام بعدها- وصار الزعماء المحلّيون يبدون المزيد من السلطة، وكانت الولاءات القبلية أقوى منها في الغرب، فنتجت عن هذا ست دوقيات قوية. واختار الدوقات حاكم إحداها وهو كُنراد الفرنكوني ملكًا عليهم لأنهم كانوا يريدون زعيمًا قويًا يواجه خطر المجر، وقد مسحه الأساقفة عند تتويجه فكان بذلك أول حاكم للإفرنج الشرقيين يتوج بهذه الطريقة. ولكن كُنراد لم ينجح في معالجة أمر المجر، كما أنه حاول بدعم من الكنيسة أن يعلي من شأن أسرته ومنصبه، فقام الدوقات -عندئذ- بلمّ شعوبهم من حولهم من أجل حماية استقلالهم، وكانت أهم تلك الشعوب أربعة هي السكسونيون والباڤاريون والسوابيون والفرنكونيون -وهو الاسم الذي صار يطلق على الإفرنج الشرقيين- ثم لجأ كُنراد إلى تعيين أحد الثوار خليفة له ووافق عليه الدوقات، وفي عام ٩١٩ أصبح هنري دوق سكسونيا ملكًا -وعرف بلقب هنري «الصياد»- وقد حكم هو وأحفاده أي «الأباطرة السكسونيين» أو «الأوتونيين» الإفرنج الشرقيين حتى عام ١٠٢٤.

لقد تجنَّب هنري الصياد التتويج الكنسي. وكانت لديه أملاك عائلية كبيرة وكان يحوز على ولاءات قبائل السكسون، وقد تمكّن من ردع الزعماء الكبار بفضل كفاءته العسكرية العالية. ثم إنه استولى على لوثارينجيا من الإفرنج الغربيين، ووضع الحدود الدفاعية الجديدة على نهر الإلب بعد حملاته الناجحة ضد الوند، وجعل من الدنمرك مملكة تابعة له وبدأ بتنصيرها، كما هزم المجريين. وبذلك توفرت لابنه أوتو الأول تركة غنيَّة عرف كيف يستفيد منها.

وتابع أوتو الأول عمل أبيه في تأديب الدوقات، وفي عام ٩٥٥ ألحق بالمجريين هزيمة كسرت شوكتهم إلى الأبد، كما أنه أعاد استيطان النمسا أي حدود شارلمان الشرقية. ورغم أنه واجه بعض المعارضة فقد جعل من الكنيسة أداة موالية له، فكان رجال الكنيسة في ألمانيا يتطلّعون إلى الملكية لكي تؤمِّن لهم الحماية من اعتداءات العلمانيين. ويقال إن أوتو قد أنهى مرحلة الفوضى في أوربا الوسطى، وعلى عهده تبدأ تشعر بما يمكن أن يسمى ألمانيا الواعية لذاتها.

لقد تُوج أوتو في آخن في عام ٩٣٦ وقبل المسح بالزيت الذي تجنَّبه أبوه، وخدمه الدوقات الألمان كأتباع له على الطريقة الكارولية القديمة أثناء وليمة تتويجه. وبعد خمس عشرة سنة غزا إيطاليا واتخذ عرشها. وقد بقي البابا عشر سنوات رافضًا أن يتوّجه إمبراطورًا إلى أن قبل أخيرًا فتم التتويج في عام ٩٦٢، فتوحَّد بذلك عرشا ألمانيا وإيطاليا من جديد، وكانت هذه بداية ما سيعرف بالإمبراطورية الرومانية المقدَّسة، التي سوف تستمر -ألف عام تقريبًا- وهي لم تكن واسعة مثل إمبراطورية شارلمان ولا سيطر أوتو على الكنيسة مثله، إلا أنها كانت على كل حال إنجازًا كبيرًا. ومن بعده ظل خلفاؤه يمارسون ما ابتدأه من سلطة إلى الجنوب من جبال الألب، فقد نصّب حفيدُه أوتو الثالث أحدَ أبناء عمومته بابا -فكان هذا أول ألماني

يرتقي كرسي القديس بطرس- كما أنه عين -بعد ذلك- أول بابا فرنسي. ويبدو أن روما قد أسرت قلبه واستحوذت عليه فاستقر فيها، وقد سمى نفسه "أوغسطس" مثل سلفيه المباشرين، كما صارت أختامه تحمل من جديد شعار «إحياء الإمبراطورية الرومانية»، وهي تعني عنده الإمبراطورية المسيحية. وكانت أمه أميرة بيزنطية لذلك اعتبر نفسه قسطنطين جديدًا وكان يحلم بأوربا منظّمة بصورة تسلسل هرمي من الملوك تحت السيادة العليا للإمبراطور، وهو مفهوم شرقي. وبعد موته في عام ١٠٠٢ أُخذ جثمانه إلى آخن كما أمر ليدفن إلى جانب شارلمان.

ولم يخلف أوتو وريثًا له، أما خليفته المنتخب هنري الثاني فقد كان في جوهره حاكمًا ألمانيًا لا إمبراطورًا على الغرب، وتقول الكتابة المحفورة على ختمه "إحياء مملكة الإفرنج"، وكان اهتمامه منصبًا على إحلال السلام في شرق ألمانيا وتنصيرها. صحيح أنه قام بثلاث حملات إلى إيطاليا إلا أن سلطته فيها كانت تعتمد على تأليب الأحزاب بعضها ضد بعض، ومعه بدأ الأسلوب البيزنطي للإمبراطورية الأوتونية بالأفول. ورغم أن فكرة الإمبراطورية الغربيّة ظلّت لها جاذبيتها وسحرها لدى الملوك في بداية القرن الحادي عشر، فإن تركة الكارولبين كانت في الحقيقة قد تفكّكت إلى أجزاء صغيرة -منذ زمن طويل- فكانت ألمانيا حقيقة واقعة، ولو أنها غير متماسكة بعد وغير موجودة في أذهان الناس. كما كان الخط الأساسي لمستقبل فرنسا قد وضع أيضًا، ولو لم يكن بإمكان الناس أن يروه، ورغم أن سيادة الكابيتيين على أجزاء فرانسيا الغربية ظلت ضعيفة، فقد كانت بحوزتهم أراض ملكية ذات موقع مركزي وتضم باريس نفسها، فضلاً عن أنهم كانوا يتمتّعون بصداقة الكنيسة.

أوربا الجنوبية

أما الجزء الآخر الكبير من تركة الكارولِيين فهو إيطاليا. كانت إيطاليا -منذ القرن السابع- تتطوّر مبتعدة عن أوربا الشمالية لكي تعود وتبزغ كجزء من أوربا المتوسطية. وكثيرًا ما ظل البابوات في خطر حتى بعد أن أطاح شارلمان باللُمبرديين، إذ كان عليهم أن يواجهوا سلطة الزعماء الإيطاليين المتزايدة فضلاً عن أرستقراطيتهم الرومانية. وكانت الكنيسة الغربية -عندئذ- في أدنى حالاتها وكان يعوزها التماسك والوحدة، وتُبيِّن معاملة الأوتونيين للبابوية مدى ضعف سلطتها. وقد أدى هذا الوضع إلى انتشار التمزّق والفوضى في أراضي إيطاليا، فكان الشمال عبارة عن دويلات إقطاعية متناثرة، وكانت البندقية -منذ ذلك الحين- جمهورية مستقلة ناجحة وكانت تندفع إلى الأمام في بحر الأدرياتيك، وكان حاكمها قد اتخذ لتوه لقب الدوق، وربما كانت أقرب إلى أن تكون قوة شرقية وأدرياتيكية منها قوة متوسطيَّة. وكانت هناك دول مدن جمهورية في الجنوب في غايتا وأمالفي ونابولي، وعبر منتصف شبه الجزيرة كانت تمتد الدول البابوية، وعليها كلها كان يخيم شبح الغارات الإسلامية حتى بيزا شمالاً، بينما ظهرت إمارات إسلامية في تَرانتو وباري في القرن التاسع. ولن تدوم هذه الإمارات طويلاً، ولكن العرب أتموا فتح صقلية في عام ٩٠٢، وسوف يحكمونها قرنًا ونصف القرن ويتركون فيها آثارًا عميقة.

لقد صاغ العرب أيضًا مصير سواحل أوربا المتوسطية الغربية الأخرى، ففضلاً عن استيطانهم إسبانيا كانت لهم قواعد ثابتة إلى حد ما في منطقة پروڤانس -إحداها في سان تروپِه- لذلك كانت علاقات سكان سواحل أوربا المتوسطية بالعرب معقَّدة، وكان العرب بالنسبة لهم قطَّاع طرق وتجارًا -في الوقت نفسه- وفي جنوب فرنسا وكَتَلونيا كان الفتح الإفرنجي قد حل محل الفتح القوطي، ولكن ظلت فيها

آثار مادية كثيرة تذكر بالماضي الروماني، كما كانت الزراعة المتوسطيّة واسعة الانتشار. ومن الملامح الأخرى المميزة لهذه المنطقة ظهور عائلة من اللغات اللاتينية -الرومانسية- في الجنوب، كانت اللغتان الكَتَلانية والپروڤنسالية أطولها عمرًا.

النورمان (أهل الشمال)

لطالما لعب النورمان الوثنيون دورًا أساسيًا في تشكيل تاريخ الجزر البريطانية والحواف الشمالية للمسيحية. وقد بدأ هؤلاء الاسكندناڤيون بالتحرُّك -منذ القرن الثامن- وكان السبب الأرجح هو زيادة عدد السكان. وكانوا مجهزين بقوارب طويلة ذات مجاذيف وأشرعة قادرة على عبور البحار وصعود الأنهار الضحلة، وقوارب قصيرة وثخينة قادرة على احتواء عائلات كبيرة مع أغراضها وحيواناتها لستة أو سبعة أيام في البحر، وبها اندفعوا ليزرعوا حضارة جديدة سوف تمتد من غرينلَند حتى كييڤ. فالنروجيون كانوا يميلون للاستيطان، والسويديون الذين اقتحموا روسيا وعرفوا في سجلاتها باسم الڤاريغ كانوا أكثر انشغالاً بالتجارة، بينما قام الدنمركيون بالقسم الأكبر من أعمال السلب والنهب والقرصنة. ولكن الحقيقة أن الشعوب الاسكندناڤية المهاجرة قد ساهمت كلها في هذه النشاطات بدرجات مختلفة، ويسمى الذين شاركوا فيها عادة «الڤايكنِغ» بلا تمييز بينهم، وهي كلمة تعني «طوّاف البحر» أو «القرصان».

كان الاستيطان أبهر إنجازات أهل الشمال، فقد حلّوا بشكل كامل محلّ شعب البِكت في أرخبيلي الأوركناي والشتلند، ومنها مدوا حكمهم إلى أرخبيل الفارو -الذي لم يكن يسكنه قبل ذلك إلا عدد قليل من الرهبان الإيرلنديين مع خرافهم- وجزيرة مان أيضًا. وكانت هذه المستوطنات أطول عمرًا وأعمق من

مستوطناتهم في بر اسكتلندا وإيرلندا، حيث بدأت في القرن التاسع. ولكن اللغة الإيرلندية تشهد على أهميتها لأنها أخذت عنها كلمات نورمانية في مجال التجارة، كما أن الفايكنغ أسّسوا مدينة دبلن كمحطة تجارية. إلا أن أنجح مستوطناتهم على الإطلاق إنما كانت جزيرة إيسلندا. وكان الرهبان الإيرلنديون المقيمون فيها يتوقعون هم أيضًا قدوم النورمان، ولكنّهم لم يفدوا بأعداد كبيرة حتى نهاية القرن التاسع، وربما بلغ عددهم فيها حوالى ١٠,٠٠٠ كانوا يعيشون على الزراعة وصيد السمك من أجل تأمين طعامهم وصنع السمك المملح الذي كانوا يتاجرون به. وفي تلك السنة تأسّست الدولة الإيسلندية واجتمع مجلس Althing للمرة الأولى، وهو مجلس مكوَّن من وجهاء الجماعة، وليس بأول «برلمان» أوربي كما رآه البعض لاحقًا.

وبعد إيسلندا نشأت مستوطنات أخرى في غرينلَند في القرن العاشر، وقد بقي النورمان فيها -خمسمئة سنة- قبل أن يزولوا. أما عن استكشافهم واستيطانهم إلى الغرب منها فلا نعرف الشيء الكثير. وتخبرنا قصائد الساغة، وهي قصائد بطولية تدور حول إيسلندا العصور الوسطى، عن استكشاف بلاد «ڤنلَند»، حيث وجد النورمان الكرمة البرية تنمو، وعن ولادة طفل هناك -عادت أمه بعد ذلك إلى إيسلندا وسافرت من جديد حتى روما في رحلة حج قبل أن تستقر في معتزل مقدَّس ببلدها الأصلية- وقد وُجدت في نيوفَوندلَند مستوطنة يُرجَّحْ أن تكون نورمانية، ولكن لا يمكننا في الوقت الحالي أن نذهب إلى أبعد من هذا.

إلا أن نشاطات الفايكنغ الاستيطانية والتجارية هذه قد غابت عن أنظار الناس في أوربا الغربية -منذ البداية- وطغى عليها التأثير الفظيع لعمليات السلب

والنهب التي اشتهروا بها. وكانت لديهم أيضًا بعض العادات المتوحِّشة، مثل التعذيب عن طريق تمديد الأطراف، ولكن الحقيقة أن هذه كانت حال أكثر البرابرة. وكان رجال الكنيسة أكثر من روعتهم هذه الغارات الوثنية، لأن كنائسهم وأديرتهم كانت غنيَّة بالمعادن الثمينة والمؤن الغذائية، فكانت على الدوام هدفًا شهيًا للڤايكنغ. ولم يكن هؤلاء أول من أحرق الأديرة في إيرلندا، ولكن لا ريب أن تأثيرهم على المسيحية الشمالية والغربية كان تأثيرًا مروعًا. فقد هاجموا إنكلترا للمرة الأولى في عام ٧٩٣، وإيرلندا بعدها بسنتين؛ وفي النصف الأول من القرن التاسع بدأ الدنمركيون بمضايقة جزر فريزيا عامًا بعد عام، وراحوا ينهبون المدن نفسها المرة تلو المرة. ثم هاجموا ساحل فرنسا، وفي عام ٨٤٢ نهبوا مدينة نانْت وقاموا فيها بمذبحة كبيرة. وقد كتب مؤرخ إفرنجي متفجّعًا «إن مد الڤايكنغ الذي لا ينتهي ما برح يتنامى». كما هوجمت مدن واقعة في داخل البلاد، مثل باريس وليموج وأورليان وتور وأنغوليم، وسرعان ما عانت منهم إسبانيا والعرب أيضًا، لأنهم اكتسحوا إشبيلية في عام ٨٤٤. بل إنهم أغاروا في عام ٨٥٩ على مدينة نيم ونهبوا مدينة پيزا.

لقد سبَّبت هذه الهجمات الرهيبة تغيُّرات كبيرة في الشعوب التي حلّت بها، خاصة بين الإفرنج الغربيين، لأن الغارات على السواحل كانت مباغتة لا يمكن التنبؤ بها ولا مقاومتها بصورة فعَّالة، وقد ألقت عمليات التخريب مسؤوليات جديدة على عاتق الزعماء المحليين، فراحت السلطة المركزية والملكية تنهار وصار الناس يتطلعون إلى سادتهم المحليين من أجل حمايتهم. ولكن الحقيقة أن محاولات الحكام لمواجهة أخطار الڤايكنغ لم تكن فاشلة على الدوام، بل كان بالإمكان هزمهم –وقد هزموا بالفعل– إذا ما استدرجوا للاشتباك في معارك واسعة، وكان

الدفاع عن المراكز الأساسيَّة في الغرب المسيحي ناجحًا بصورة عامة، ولو أن الحكام كثيرًا ما اضطروا لدفع ما سماه الإنكليز «ضريبة التاج الدنمركي»، وهي عبارة عن جزية كانوا يؤدونها للفايكنغ من أجل أن يدرؤوا شرهم.

إنكلترا

وسرعان ما أصبحت إنكلترا أيضًا هدفًا أساسيًا لغزوات الفايكنغ الدنمركيين. كانت ممالك إنكلترا الوثنية قد تنصَّرت بشكل واسع بحلول القرن التاسع، وكانت البعثة التبشيرية الرومانية التي تأسَّست في كَنتربُري في عام ٥٩٧ قد نافست الكنيسة السلتية الأقدم حتى عام ٦٦٤، وكان ذلك العام حاسمًا إذ عقد فيه مجمع كنسي في وِتبي وأعلن فيه ملك من نورثمبريا عن اتخاذ تاريخ الفصح الذي حدَّدته كنيسة روما، فكان هذا خيارًا رمزيًا حدَّد أن مستقبل إنكلترا سوف يرتبط بالتقاليد الرومانية وليس بالتقاليد السلتية. وكانت بعض الممالك الإنكليزية تقوى -بين حين وآخر- فتصير لها بعض السطوة على الأخريات، ولكن أيًا منها لم تكن قادرة على مواجهة موجة الهجمات الدنمركية المتصاعدة -منذ عام ٨٥١- وقد أدَّت هذه الغزوات إلى احتلال ثلثي البلاد وتأسيس مناطق واسعة من المستوطنات، وصار شعب الأنكلوسكسون في خطر الارتداد إلى الوثنية والاندماج في عالم الثقافة الاسكندينافية، إلا أنه قد أنقذ من هذا المصير عن يد ألفرد الكبير ملك وِسّكس.

إن الملك ألفرد هو أول رجل إنكليزي يجب أن يظهر اسمه في هذا الكتاب، وهو أيضًا أول بطل قومي إنكليزي. عندما كان طفلاً في الرابعة أخذه أبوه إلى روما ومنحه البابا ألقابًا فخرية، وكانت ملكية وِسّكس مرتبطة بالمسيحية ارتباطًا وثيقًا لا تفصم عراه. وكان ألفرد يعتبر نفسه حامي المسيحية من الوثنية وحامي إنكلترا من

الغزاة الأجانب -في الوقت نفسه- وفي عام ٨٧١ ألحق أول هزيمة حاسمة بجيش دنمركي في إنكلترا، واللافت أن الملك الدنمركي قبل -بعد سنوات قليلة- بالانسحاب من وِسّكس وباعتناق المسيحية أيضًا، فكانت هذه علامة على أن الدنمركيين سوف يبقون في إنكلترا، ولكن أيضًا على أن بالإمكان تفريق بعضهم عن بعض. وسرعان ما أصبح ألفرد زعيم الملوك الإنكليز الباقين جميعًا، ولم يبق في النهاية من ملك سواه. وقد استعاد لندن، وعندما مات في عام ٨٩٩ كانت أسوأ مراحل الغارات الدنمركية قد ولّت، وسوف يحكم أحفاده البلاد موحَّدة. وقد قبل بحكمهم الجميع حتى المستوطنين في أراضي «القانون الدنمركي»، وهي الأرض التي حدَّدها ألفرد والتي مازالت تتميَّز -حتى يومنا هذا- بأسماء اسكندينافية للأماكن وأساليب اسكندينافية في الكلام.

لقد أسَّس ألفرد سلسلة من القلاع كجزء من نظام جديد للدفاع عن البلاد عن طريق تجنيد السكان المحليين، ومكَّنت هذه القلاع من زيادة تقليص أراضي القانون الدنمركي، كما وضعت جزءًا كبيرًا من نمط الحياة القادمة في إنكلترا، وبنيت من حولها مدن مازالت مواقعها مسكونة -حتى اليوم- وأخيرًا فإن ألفرد قد أقدم بموارده الضئيلة على عملية إحياء شعبه ثقافيًا وفكريًا، فراح علماء بلاطه ينسخون الأعمال ويترجمونها كما في بلاط شارلمان، وأتاح هذا لنبلاء الأنكلوسكسون ورجال دينهم أن يقرؤوا الكتاب المقدَّس بالأخص وغيره من الكتب بلغتهم. وكانت هذه التحديدات علامة على بداية عصر عظيم في إنكلترا، فقد حدثت نهضة في حركة الرهبنة بعثت الحياة في الكنيسة، وظهرت بنيّة حكوميّة محليّة مكوّنة من مقاطعات -استمرت بعض حدودها حتى عام ١٩٧٤- كما أمكن

ضبط الدنمركيين في مملكة متَّحدة خلال نصف قرن من الاضطرابات. ولم تهن الملكية الأنكلوسكسونية إلا عندما ضاعت الكفاءة من سلالة ألفرد، فقام الفايكنغ -عندئذ- بهجوم جديد ودفعت مبالغ طائلة من المال جزية للتاج الدنمركي. وأطاح أحد الملوك الدنمركيين (وهو مسيحي هذه المرة) بالملك الإنكليزي، ثم مات مخلّفاً ابنًا صغير السن لحكم الأراضي التي فتحها، وكان هذا هو الملك الشهير كَنُوت، الذي أصبحت إنكلترا على عهده لبرهة قصيرة جزءًا من إمبراطورية دنمركية كبيرة (١٠٠٦-١٠٣٥). ثم حلّ بإنكلترا غزو نروجي كبير وأخير في عام ١٠٦٦، ولكنّه تحطّم في معركة ستامفُرد بريدج.

لقد خلّفت الحضارة الاسكندنافية تراثًا هامًا في أوربا، مثل دوقية نورمنديا وأدب الساغة، ولكنها لم تكن في المحصلة إلا مرحلة من مراحل تاريخها. واندمج النورمان رويدًا رويدًا بسكان الأراضي التي استوطنوها، وعلى عهد كَنُوت كان الدنمركيون المقيمون في أراضي القانون الدنمركي أنفسهم يتحدَّثون الإنكليزية ويقبلون القانون الإنكليزي قانونًا لهم. أما أحفاد زعيم النورمان رولو وأتباعه الذين تقدَّموا من نورمنديا لفتح إنكلترا في القرن الحادي عشر فكانوا قد أصبحوا فرنسيين، وإن أغنية الحرب التي كانوا يرددونها في معركة هيستِنغز كانت تتغنى بالبطل الإفرنجي شارلمان، بينما كان سكان بلاد القانون الدنمركي المغزوين قد أصبحوا إنكليزًا -وبالمثل فقد الفايكنغ تميّزهم العرقي في كييف روس وفي موسكوفيا- وأسّس النورمنديون أسرة ملكية وطبقة أرستقراطية جديدتين في إنكلترا في عام ١٠٦٦، ولكن خلال قرون قليلة كانت السلالة وأرستقراطيتها قد أصبحتا كلتاهما إنكليزيتين أيضًا.

اشتداد كنيسة العصور الوسطى وتصلبها

كثيرًا ما شعر قادة الكنيسة في القرون الممتدة من نهاية العالم القديم -حتى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر- بالعزلة والخطر. وكانت خلافات الكاثوليكية مع الأرثوذكسية الشرقية في ازدياد متواصل، حتى انتهى الأمر إلى القطيعة الكاملة -تقريبًا- لذلك كان من الطبيعي أن تتَّصف الكاثوليكية بالتصلُّب والعدوانية، إذ إنها لم تكن تشعر بالأمان. صحيح أن شارل مارتِل قد صد الإسلام في الغرب، إلا أن العرب ظلّوا يشكِّلون خطرًا كبيرًا، أما الفايكنغ فلم يكونوا إلا همجًا وثنيين. وفي الداخل أيضًا شعر رجال الكنيسة أنّهم محاصرون ومطوَّقون، لأنهم كانوا يعيشون في وسط شعوب ما زالت شبه وثنية، فكان عليهم التعايش مع ثقافاتها وترويضها قدر المستطاع مع تقبُّل بعض عاداتها وتقاليدها المحليّة ولكن بحذر شديد. كل هذا كان على الكنيسة أن تقوم به من خلال رجال دين أكثرهم غير معلمين وبلا انضباط كبير ولا روحانية حقيقية. وكان الملوك والزعماء يجوسون من حولهم مقدِّمين لهم العون أحيانًا وطامعين في عونهم -أحيانًا- أخرى، فكانوا بذلك مصدر قوة لهم- وفي الوقت نفسه- خطرًا حقيقيًا على استقلال الكنيسة عن المجتمع الذي يجب عليها أن تسعى لخلاصه.

كانت الكنيسة معتادة على البحث الدائم عمن يحميها، فعندما سقطت رافينا بيد اللُّمبرديين انطلق البابا إسطفانُس إلى بلاط بيبان وليس إلى بلاط بيزنطية، لا لرغبة منه في قطع علاقاته بالإمبراطورية الشرقية، ولكن لأن جيوش الإفرنج كانت قادرة على تأمين حماية لا يمكن للشرق أن يقدِّمها. ثم إن البابوية كانت معرَّضة أيضًا لخطر العرب الذين راحوا يهددون إيطاليا -منذ بداية القرن الثامن- ناهيك عن الزعماء الإيطاليين الذين اشتدوا وصاروا صعاب المراس مع أفول هيمنة

اللُمبرديين. وقد مرَّت أيام عصيبة جدًا -خلال القرنين ونصف القرن- التي تلت تتويج بيبان، فلم تكن بيد روما إلا أوراق قليلة وبدا أنها إنما بدَّلت سيدًا بآخر، وظلَّ البابوات زمنًا طويلاً عاجزين عن الحكم الحقيقي حتى ضمن أراضيهم، إذ لم تكن لديهم قوات مسلَّحة كافية ولا إدارة مدنية. ولما كانوا أصحاب أراض فقد كانوا معرَّضين للسلب والنهب والابتزاز، كما أن بعض الأباطرة كانوا يتولُّون بأنفسهم تنصيبهم وإقالتهم.

مصادر السلطة الكنسية

إلا أن للمعادلة طرفًا آخر، لأن الكنيسة كانت تملك أيضًا عددًا من نقاط القوة. كان بيبان قد منحها أراضي سوف تشكِّل نواة دولة بابوية قوية، وربما كان تتويج البابا للأباطرة يحمل في طياته ادعاءات خفيَّة بأنه هو الذي يعين الإمبراطور الحق، بل ربما رأى البعض أيضًا أن منح البابا التاج للإمبراطور ومهره بخاتم اعتراف الله كان مشروطًا وقابلاً للرد. فصحيح أن تتويج البابا لشارلمان كان بدافع الحاجة الملحة مثل تتويج بيبان، ولكنّه كان يحتوي -في الوقت نفسه- على بذرة كامنة وقوية من السلطة.

أما على المستوى العملي فقد كانت البابوية بحاجة ماسة لسلطة الملوك الأقوياء من أجل ضبط الكنائس المحليَّة ودعم الحملات التبشيرية. ومن هذا التحالف بين البابوية والملكية الإفرنجية في القرن الثامن نشأت بالتدريج فكرة أن البابا هو الذي يحدِّد سياسة الكنيسة، وأنه لا يجوز لأساقفة الكنائس المحليّة أن يحرّفوها. وقد استخدم بيبان سلطته كملك من أجل إصلاح كنيسة بلاده ودفعها بحيث تتوافق مع

كنيسة روما وتزداد ابتعادًا عن التأثيرات السلتية، فكانت جهوده هذه هي الخطوة الأولى في عملية توحيد المعايير الكنسية.

وكانت سلطة البابا في مد وجزر دائمين على مر القرون. لقد ظهرت في القرن الثامن عملية تزوير شهيرة هي «هبة قسطنطين»، التي ادَّعت أن الإمبراطور قسطنطين الكبير كان قد منح أسقف روما السلطة التي كانت للإمبراطورية في إيطاليا- وبعد مئة عام- كان أحد البابوات يخاطب الملوك والأباطرة «وكأنه سيد العالم»، مذكِّرًا إياهم أن بيده أن يعيِّنهم ويخلعهم. والأنكى من هذا أنه استخدم مبدأ سيادة البابا ضد إمبراطور الشرق أيضًا، وفي دعم بطريرك القسطنطينية. وكانت تلك قمة في الادعاء لا يمكن الحفاظ عليها من الناحية العملية- وعندما انهارت سلطة البابا في القرن العاشر أصبح الكرسي البابوي فريسة للأحزاب الإيطالية المتنازعة. أما المهام اليومية في حماية المصالح المسيحية في الأيام الصعبة فقد تركت بأيدي أساقفة الكنائس المحليَّة. وكان هؤلاء مضطرين لمحاباة القوى السائدة والبحث عن حماية الملوك والأمراء وعونهم، لذلك صاروا خاضعين للملوك ولحكَّامهم الدنيويين، مثلما كان كاهن الأبرشية خاضعًا لسيده المحلي، وكانت تلك تبعية مذلة ومهينة.

الإصلاح الكلوني

بدأت في القرن العاشر حركة إصلاح كبيرة وخلاَّقة، كان جوهرها إحياء المُثُل النموذجية للرهبنة. فقام عدد قليل من النبلاء بتأسيس أديرة جديدة الهدف منها إعادة الرهبنة المتدهورة إلى أصولها ومراعاة أصول القانون البنديكتي. وكانت أكثر تلك الأديرة في أراضي الكارولبيين المركزية السابقة، وهي المنطقة التي امتدَّ منها إشعاع الإصلاح، وكان أشهرها دير كلوني في منطقة بُرغنديا. لقد تأسَّس هذا

الدير في عام ٩١٠، وظلّ حافزًا نشيطًا لإصلاح الكنيسة طوال -قرنين ونصف القرن تقريبًا- وكان رهبانه يتّبعون نسخة معدَّلة من القانون البنديكتي، وقد أتوا بشيء جديد كل الجدَّة، لأن الأديرة البنديكتية السابقة كانت مجتمعات مستقلة بينما صارت الأديرة الكلونية الجديدة خاضعة لرئيس دير كلوني نفسه. وأصبح هذا في النهاية القائد العام لجيش مكوَّن من آلاف الرهبان الذين لا يدخلون أديرتهم إلا بعد خضوعهم لفترة من التدريب في الدير الأم. وقد بلغ دير كلوني ذروة سلطته في منتصف القرن الثاني عشر، عندما كان هناك أكثر من ثلاثمئة دير بعضها في بلاد بعيدة مثل فلسطين، تتطلّع كلها إليه للإرشاد والتوجيه، وكان يضم أكبر كنيسة في المسيحية الغربيَّة بعد كنيسة القديس بطرس في روما.

المعرفة والثقافة

إن الحديث عن المؤسَّسات والبنى والقانون أسهل من الحديث عن النواحي الأخرى للحياة الدينية في بداية العصور الوسطى، لأن التاريخ الديني يفقد في العادة جزءًا من بعده الروحي في السجلاّت الإدارية. كان الدين في العصور الوسطى يتمتَّع بمكانة فريدة لا ينازعها عليه منازع، ويتخلل نسيج المجتمع برمّته، وكانت الكنيسة تتفرَّد بالثقافة أيضًا. صحيح أن التراث الكلاسيكي قد تخرَّب بصورة فظيعة وتقلّص بسبب غزوات البرابرة من جهة وتصلُّب المسيحية الباكرة وتعلقها بالأمور الخارجة عن هذا العالم من جهة أخرى، إلا أن ما بقي منه إنما حفظه رجال الكنيسة. فبحلول القرن العاشر كانت جهود الرهبان البنديكتيين والنساخ الذين يعملون في مدارس القصور قد ضمنت أن يصل الكتاب المقدَّس والتصانيف اللاتينية لمعارف الإغريق إلى معاصريهم. وكانت نُسخهم من أعمال پلينُس وبيثيُس مثل

خيط رفيع يربط أوربا في بداية العصور الوسطى بأرسطو وإقليدس. إلا أن معرفة الكتابة كانت مقتصرة على رجال الدين، وحتى الملوك ظلوا في العادة أميين حتى وقت متقدِّم من العصور الوسطى. وكان رجال الدين يسيطرون على جميع منافذ المعرفة المتاحة، ولم تكن هناك جامعات بعد، بل كانت توجد بعض المدارس التابعة للبلاط أو للكنيسة، وهي التي تتيح للمرء علمًا أوسع مما قد يقدِّمه بعض رجال الدين بصورة فردية وفي حالات نادرة. وكان تأثير هذا كله على الفنون والنشاط الفكري تأثيرًا عميقًا، لأن الثقافة العالية لم ترتبط بالدين فحسب بل إنها لم تكن تتشكَّل إلا ضمن بيئة دينية محض، ولم يكن في بداية العصور الوسطى ثمة مكان يمكن للفن أن يتطوَّر فيه من أجل ذاته. لقد لعب كل من التاريخ والفلسفة واللاهوت والتنوير دوره في دعم تلك الثقافة الدينية وتغذيتها، وكان التراث الذي نقلته هو التراث الكلاسيكي مع تأثيراته اليهودية، ولو أنه كان أضيق من التراث الكلاسيكي القديم.

إن أعمال الكنيسة الأهم من الناحية اللاهوتية -بل أهمها على الإطلاق- والتي تمسُّ جماهير المؤمنين الواسعة، إنما هي مهامها اليومية من وعظ وتعليم وتزويج وتعميد وغفران خطايا وصلاة، أي كل الحياة الدينية لرجال الدين والعلمانيين، ومحورها هو منح الأسرار المقدَّسة الأساسيَّة. وقد ظلَّت الكنيسة -قرونًا طويلة- تمارس سلطاتها هذه، واستخدمتها لترويض عالمها البربري وتعليمه الحضارة فنجحت في ذلك نجاحًا هائلاً، ولو أن معلوماتنا المباشرة عن طريقة أدائها لها هي في الحقيقة قليلة جدًا.

إن ما نعرفه عن الأمور الاجتماعية والاقتصادية في الكنيسة أكبر من ذلك بكثير، والحقيقة أن هاتين الناحيتين كان لهما وزن هائل. كانت الكنيسة تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي، فكانت تسيطر بالتالي على جزء كبير من ثروة المجتمع. وكانت أراضيها تلك تؤمِّن لها المصدر الأساسي للدخل، وقد يملك دير واحد أو مجموعة من الكهنة أراضي واسعة جدًا. وقد خلَّف لنا هذا وثائق يمكننا جمع المعلومات منها من أجل تشكيل صورة عن اقتصاد ذلك العصر، الذي كان في الحقيقة اقتصاداً بدائياً جداً عند نهاية العصور القديمة كانت الحياة الاقتصادية في أوربا الغربيّة قد تراجعت في كل مكان، بل انهارت بالكامل في بعض الحالات، ولو أن هذا التراجع لم يؤثّر في الجميع بصورة متساوية. وإن أكثر القطاعات الاقتصادية تطوّرًا هي التي انهارت بصورة أكبر. فقد حلّت المقايضة محل التعامل بالنقد، وعندما عادت الفضة إلى الرواج من جديد كانت كمية النقود المتداولة قليلة – خاصة من الفئات الصغيرة. وكذلك اختفت التوابل من الطعام اليومي، وأصبح النبيذ سلعة كمالية غالية الثمن، وصار أكثر الناس يأكلون الخبز والعصيدة –وهي طعام يصنع من الحبوب المسلوقة– ويشربون الجعة والماء. وصار الكتبة يستخدمون الرق الذي يمكن الحصول عليه محليّاً بدلاً من ورق البردي الذي بات صعب المنال –وكانت هذه ميزة في الحقيقة لأن الكتابة بالخط الصغير ممكنة على الرق، بينما لا يمكن الكتابة على ورق البردي إلا بضربات كبيرة تجعل استخدامه باهظ الثمن– وقد خرَّب الركود الاقتصادي المدن وتفكّك عالم التجارة. صحيح أن الاتصال ببيزنطية والبلاد الأبعد في آسيا بقي قائمًا، ولكن التجارة في غربي المتوسط تقلّصت خلال القرنين السابع والثامن مع استيلاء العرب على ساحل شمال أفريقيا. ثم أعيد إحياؤها

-قليلاً- بفضل العرب أيضًا -ومن علامات ذلك التجارة النشيطة بالعبيد الذين كان أكثرهم من الشعوب السلافية، ومن هنا أتت تسمية العبد باللغة الإنكليزية slave- وفي الشمال أيضًا كان يجري بعض التبادل مع الاسكندينافيين الذين برعوا بالتجارة. إلا أن أكثر الأوربيين إنما كانوا يحصّلون معيشتهم من الزراعة.

كان الكفاف غاية طموح الأوربيين، وكانت الطرق الوحيدة المتاحة لتحسين مردود الزراعة هي إما استخدام روث الحيوانات أو زراعة مساحات أكبر من الأرض. ولكنه كان على كل حال مردودًا زهيدًا بالقياس إلى معاييرنا الحديثة، ولم يتغيَّر هذا الوضع إلا بعد -قرون طويلة- من المجهود الزراعي الشاق. وكان الناس يعانون من نقص النمو ومن داء الإسقربوط(*)، وكانت حيواناتهم أيضًا ناقصة الغذاء والنمو، لأن البيئة نفسها كانت بيئة فقيرة. وكان الفلاحون الأوفر حظًا يحصلون على الدهن من الخنـــزير، أو من الزيت في المناطق الجنوبية، ولم يبدأ مردود التربة من الطاقة بالتحسّن إلا في القرن العاشر مع بدء زراعة نباتات أغنى بالبروتين. ثم حصلت بعض التطوّرات التقنيّة، فازداد عدد الطواحين، وصار المحراث أثقل وزنًا ومزودًا بعجلات وأقدر بالتالي على زراعة سهول الشمال، وهي سهول خصبة ولكنها ذات تربة كثيفة ودبقة. ولما كانت المحاريث الجديدة بحاجة لأزواج عديدة من الثيران لجرها فقد أدى هذا إلى اعتماد طريقة الزراعة بالتناوب: كانت شرائط الأرض الصغيرة التي يزرعها الأفراد موزّعة على حقلين أو ثلاثة هي ملك للجماعة المحليّة، فصارت كل الشرائط الواقعة في حقل واحد تحرث -أو تترك لترتاح في الوقت نفسه- من أجل الاستفادة القصوى من تلك المحاريث بثيرانها

(*) داء ينجم عن عوز غذائي ومن أعراضه تورم اللثة ونزفها.

العديدة. وكان هذا الأسلوب أنجع من أي طريقة عرفتها أوربا في الماضي، كما نتج عنه -أيضًا- توفُّر محاصيل أكثر تنوُّعًا، ومنها الشوفان الذي ازدادت كمياته، وهو طعام مناسب للأحصنة لذلك صار بالإمكان استخدامها بدلاً من الثيران، وسرعان ما أدى هذا إلى ابتكار عدة أفضل للحصان، وبالأخص إلى اختراع العمود الأفقي الذي تُشد إليه العدَّة ويُستخدم لجر المحراث. والحقيقة أن الزراعة كانت قد بدأت تتغيَّر بصورة كبيرة بحلول عام ١٠٠٠ للميلاد.

كان عدد سكان أوربا الغربيَّة في ذلك الزمان أقل منه في أيام الرومان على الأرجح، ولكن يكاد يكون من المستحيل أن نعطي أرقامًا ولو -تقريبية- ويبدو على كل حال أن نمو عدد السكان كان بطيئًا جدًا حتى القرن الحادي عشر، وربما كان عدد سكان أوربا الغربية -يقترب عندئذ من الأربعين مليونًا- أي أنه أقل من عدد سكان المملكة المتحدة وحدها اليوم. في ذلك العالم القليل السكان كانت ملكية الأرض هي العامل الأهم في تحديد المرتبة الاجتماعية. وقد صار محاربو المجتمعات البربرية بصورة تدريجية وبطيئة أصحاب أراض أيضًا، وكان هذا تطورًا طبيعيًا، فأصبحوا هم حكام البلاد إلى جانب وجهاء الكنيسة والملوك. وكانت ملكية الأرض تعني الكثير، إذ إنها تؤمِّن الإيرادات عن طريق تأجيرها وجبي الضرائب، فضلاً عن حق التشريع والقضاء وفرض عمل السخرة. لذلك كان أصحاب الأرض هم سادة المجتمع، وبالتدريج صارت الأهميَّة الأكبر لمكانتهم الوراثية، بينما ضعف التشديد على قوتهم القتالية ومهاراتهم العسكرية. -وأحيانًا- كان الملك نفسه أو أمير كبير يمنح الأرض لبعضهم، ويتوقَّع منهم في هذه الحالة أن يردوا الجميل عن طريق الخدمة. إن منح أراض قابلة للاستثمار مقابل التزامات محدَّدة كان في الحقيقة أمرًا شائعًا جدًا، وهذا المبدأ هو في جوهر ما سماه الناس في عصور لاحقة عندما نظروا

إلى العصور الوسطى في أوربا «النظام الإقطاعي» feudalism - أما أهل العصور الوسطى أنفسهم فلم يستخدموا هذه الكلمة قط إذ لم تكن قد اخترعت بعد.

التبعيات الإقطاعية

كانت كل من التقاليد الرومانية والجرمانية تحبذ مبدأ التبعية. وفي المراحل الأخيرة من الإمبراطورية والأيام المضطربة في غاليا الميروفية صار من الشائع أن يلتزم الناس بسيد كبير لحمايتهم، وأن يؤدوا له بالمقابل أشكالاً خاصة من الولاء والخدمة. وقد اندمجت هذه العادة في تقاليد المجتمع الجرماني بسهولة كبيرة. وعلى عهد الكارولبين بدأت عادة أن يؤدي أتباع الملك الولاء له، أي أن يعترفوا له في احتفالات خاصة كثيرًا ما تجري أمام الملأ بما يترتب عليهم من مسؤوليات تجاهه، فيصبح هو سيدهم ويصبحون هم رجاله. كما كان للأتباع بدورهم أتباع آخرون، بحيث يكون الرجل التابع لأحد السادة سيدًا على رجل آخر. وعلى هذه الصورة كانت هناك سلسلة من الالتزامات والخدمات الشخصية تمتد نظريًا من الملك عبر كبار رجالاته وأتباعهم حتى أدنى الرجال الأحرار. وقد يؤدي هذا الترتيب بالطبع إلى متطلبات معقّدة ومتضاربة، فحتى الملك نفسه قد يكون تابعًا لملك آخر في بعض أراضيه. وفي أسفل الهرم الاجتماعي كان العبيد، وربما كان عددهم أكبر في جنوب أوربا منه في شمالها، ولكن أعدادهم كانت تميل للانخفاض في كل مكان، بينما كانت مرتبتهم ترتفع قليلاً إلى مرتبة العبد المرتبط بالأرض، وهو رجل غير حر يولد مرتبطًا بأرض العزبة التي يعمل فيها، ولكن له مع ذلك بعض الحقوق القليلة.

كان قسم كبير من أرض أوربا مقسَّماً إلى إقطاعات إذًا، وهي كما قلنا أراض يستثمرها صاحبها مقابل التزامات نحو سيده. ولكن مع ذلك بقيت هناك

دومًا مناطق هامة، خاصة في جنوب أوربا، لم تكن إقطاعية بهذا المعنى، وكان هناك أيضًا بعض أصحاب الأراضي الأحرار الذين تختلف أعدادهم من بلد إلى آخر، وهم غير مدينين بأي خدمة مقابل أرضهم بل يملكونها بصورة مباشرة. ومع هذا فإن تلك الالتزامات المعقودة بين الناس على أساس الأرض كانت هي التي تحدِّد نمط حضارة العصور الوسطى. وقد تكون الجمعيات أيضًا مثل الأفراد سيدة أو تابعة، إذ قد يؤدي المستأجر الولاء لرئيس دير رهبان -أو رئيسة دير راهبات- مقابل العزبة التي يديرها في أراضيهم، وقد تشكِّل جماعة من كهنة الكاتدرائية أو من الرهبان وحدة تابعة للملك. وكان هناك مجال كبير للتعقيد والالتباس في هذا الترتيب، إلا أن الحقيقة الأساسية المتمثِّلة بتبادل الالتزامات بين السيد وتابعه كانت تتخلل بنية المجتمع برمّتها، وهي من مفاتيح فهم مجتمع العصور الوسطى.

لقد كان هذا الترتيب حجة لابتزاز الفلاح من أجل إعالة المحارب وبناء قلعته، وعلى هذا الأساس قامت الأرستقراطيات الأوربية ونمت. وظلّت الناحية العسكرية هي الناحية الأهم والأعلى في هذا النظام -فحتى عندما- زالت الحاجة للخدمة الزراعية بقي السيد بحاجة للمحاربين العاملين لدى أتباعه، ثم صار بحاجة لأموالهم من أجل استئجار المحاربين. وكانت أكثر المهارات العسكرية أهمية هي قتال الفارس المدرع من على ظهر الخيل، وعندما استُخدم الرِّكاب في القرن السابع أو الثامن صار الخيال المدرع هو المهيمن في ساحة المعركة، وقد ظلّ كذلك إلى أن ظهرت -فيما بعد- أسلحة أقوى منه. ومن هذا التفوق التقني نشأت طبقة الفرسان، وهي مكوَّنة من خيَّالة محترفين يعيلهم سيدهم إما بصورة مباشرة أو عن طريق منحهم عزبة لإطعامهم وإطعام خيولهم، فكان هذا مصدرًا آخر من مصادر

الأرستقراطية المحاربة في العصور الوسطى، ومن مصادر القيم الأوربية أيضًا لقرون طويلة قادمة؛ و لم يكن الانضمام إلى طبقة الفرسان بالأمر العسير.

ملوك العصور الوسطى

قد تكون سيطرة الملك على أتباعه أضعف من سيطرتهم هم على أتباعهم، ولا ريب أنَّ ظِل السيد المحلي سواء كان زعيمًا علمانيًا أو أسقفًا كان أوسع وأهم في حياة الرجل العادي من ظل ملك أو أمير بعيد قد لا يراه أبدًا، وإنك ترى في القرنين العاشر والحادي عشر في كل البلاد ملوكًا خاضعين لنفوذ الزعماء الكبار. أما في إنكلترا الأنكلوسكسونية فلا يصح هذا الوصف إلا بأضعف درجاته، لأن تقاليدها الملكية كانت الأقوى بينها جميعًا. إلا أن الملوك كانوا على كل حال يتمتَّعون بنقاط من القوة لا تتاح لسواهم، فقد كان منصبهم فريدًا وذا سلطة مقدَّسة وساحرة تثبِّتها الكنيسة إذ تمسحهم بزيتها المقدَّس. وكانوا يتميَّزون عن سواهم من الزعماء بالأبهة والمراسم التي تحيط بهم، والتي كانت أهميتها في حكومات العصور الوسطى مثل أهمية الوثائق الرسميَّة في أيامنا. فإذا كان بحوزة الملك فوق هذا كله أراض واسعة فإنه يكون قادرًا على فرض إرادته أكثر من أي رجل آخر.

و لم يكن أحد غير الملوك وكبار الزعماء يتمتَّع بقدر كبير من الحرية في مجتمع العصور الوسطى الباكرة، لا بالمعنى القانوني للحرية -فقط- ولكن بمعناها العام أيضًا، لأن حياة الناس اليومية كانت حياة محدودة ومقيَّدة، و لم يعرفوا الأشياء الكثيرة التي اعتدنا عليها نحن اليوم. فلم يكن لدى الشخص العادي ما يفعله سوى أن يصلّي ويقاتل ويصطاد ويزرع أو أن يدير عزبة يقوم فيها غيره بأعمال الزراعة بدلاً منه. و لم يكن أمام الناس من مهن فكرية يحترفونها عدا عن العمل في خدمة

الكنيسة، وكان هامش التجديد في روتين الحياة اليومية هامشًا ضئيلاً، وكلما نزلت درجات السلم الاجتماعي كلما صارت الخيارات أضيق، كما أن خيارات المرأة كانت دومًا أضيق من خيارات الرجل. ولم يتغيَّر هذا الأمر إلا بصورة وئيدة ومتدرِّجة مع انتعاش التجارة وحياة المدن وتوسع الاقتصاد.

مفصل القرن الثاني عشر: حق التنصيب

من مفارقات التاريخ أن سيادة الكنيسة في العصور الوسطى كانت هي نفسها خطرًا عليها، لأن تدخل رجال الكنيسة المتزايد في شؤون الدولة قد يحرفها عن هدفها الحقيقي، ألا وهو عبادة الله وخلاص البشر، ويجعل منها مجرد سلاح لدعم الحكام الدنيويين وتأييد سلطتهم. وكان هذا الخطر يكمن وراء الصراع الكبير الذي يعرف بالصراع على حق التنصيب، أي تنصيب الأساقفة أو منحهم السلطة في أبرشياتهم. وقد بلغ ذروته بشكل صدام بين البابوات والحكام الدنيويين، الذين ادعى كل منهم هذا الحق لنفسه. والحقيقة أن هذا الصراع لم يحسم بشكل كامل -قط- بل كان شوطًا واحدًا في حرب طويلة بين الدولة والكنيسة في تاريخ أوربا الغربيَّة -تمتد حتى القرن العشرين- وقد استفادت أوربا من هذا الصراع فائدة جليلة، لأنه جعل الناس يفكِّرون أنه ربما كان من الأفضل ألا تكون الكلمة الأخيرة لا للدولة ولا للكنيسة، وأن بعض الأمور ذات الأهمية العظيمة لا يجوز أن تكون إلا بيد الأفراد الذين تمسُّهم. وعندما ثبَّتتُ هذه الفكرة جذورها كان المفهوم الأساسي لليبرالية قد رأى النور، ألا وهو حرية الفرد واستقلاله.

ولم تستمر المراحل الأساسيَّة من صراع التنصيب هذا أكثر من نصف قرن -تقريبًا- ولم تؤد إلى نتيجة حاسمة. لقد كان من المستحيل على الناس في العصور

الوسطى أن يميزوا بين الكنيسة والدولة تمييزًا واضحًا بالمعنى الحديث، كما أن الطرفين اتفقا على أمور عملية كثيرة، وكان الكثير من رجال الدين يشعرون نحو حكامهم الدنيويين بولاء أكبر من ولائهم لبابا روما. ثم إن الصراع كانت له نواح مادية، هي اقتسام السلطة والثروة ضمن الطبقات الحاكمة التي كان أفرادها أعضاء في كلتا الحكومتين الملكية والكنسية في ألمانيا وإيطاليا، أي في أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة.

وقد جرت أشهر معارك الصراع على التنصيب مباشرة بعد انتخاب البابا غريغوريوس السابع في عام ١٠٧٣ -واسمه الأصلي هِلدبراند- كان غريغوريوس على درجة عالية من الجرأة الشخصية والأخلاقية، ولو أنه ذو طبع منفِّر وبغيض. وقد كافح طوال حياته من أجل استقلال البابوية وسيادتها ضمن المسيحية الغربيّة، وعندما تحوّل الإصلاح إلى مجال السياسة والقانون بدلاً من مجال الأخلاق والسلوك كان ميالاً بحكم طبعه لتأجيج الصراع لا لتجنُّبه، وربما كان الصراع محتمًا على كل حال.

كان الكثير من رجال الكنيسة -منذ سنوات- طويلة على ثقة بأن الكنيسة باتت بحاجة للإصلاح، فكانوا يعتقدون أن على رجال الدين أن يعيشوا حياة مختلفة عن حياة العلمانيين، وأن يشكّلوا مجتمعًا متميّزًا ضمن المسيحية. فهاجموا السيمونيّة -أي شراء المناصب بالمال- وزواج الكهنة، والتدخّل في شؤونهم أيضًا. وربما كان من المحتَّم على الأباطرة أن يتورطوا في صراع مع البابوية -عاجلاً أم آجلاً- لأن الإمبراطورية كان لديها في إيطاليا حلفاء، وأتباع ومصالح لا بد لها من حمايتها -ومنذ القرن العاشر- كانت سيطرة الإمبراطور الفعلية والاسمية على البابوية قد

تراجعت، وقد اتُّبعت طريقة جديدة في انتخاب البابوات لم تترك له إلا حق نقض نظري فحسب. كما أن علاقات العمل بين هاتين القوتين كانت قد تدهورت.

لقد اعتلى غريغوريوس السابع كرسي البابوية من دون أن ينال موافقة الإمبراطور المعتادة، بل اكتفى بأن أخبره بذلك فحسب -وبعد سنتين- أصدر مرسومًا يتعلق بتنصيب الأساقفة لم يصلنا نصه، ولكن من المعروف أنه منع فيه أي رجل علماني من تنصيب رجل دين في منصب أسقف أو أي منصب كنسي آخر، كما حرم من الكنيسة بعض أعضاء المجلس الكنسي الإمبراطوري بتهمة ارتكاب السيمونيّة في شراء مناصبهم. وفوق هذا كله قام باستدعاء الإمبراطور نفسه إلى روما لكي يمثل بين يديه.

ورد هنري على ذلك بأن جعل مجمعًا كنسيًا ألمانيًا يعلن خلع غريغوريوس. فعاد هذا ورد عليه بأن حرمه من الكنيسة، وكان لهنري في ألمانيا أعداء أشداء قاموا الآن ضده بتأييد من البابا، فاضطر للرضوخ في النهاية، وجاء إلى كَنوسّا بمهانة كبيرة ووقف ينتظر حافي القدمين تحت الثلج المنهمر إلى أن قبل غريغوريوس توبته؛ وكانت تلك واحدة من أكثر المواجهات حدة بين السلطتين الدنيوية والروحية. إلا أن غريغوريوس لم يكسب في حقيقة الأمر، لأن تشديده على أن للبابا الحق بأن يخلع الملوك إذا وجدهم غير جديرين أو غير أكفاء كان قلبًا للمفاهيم لا يمكن أن يرضى به الرجال في عالم تسوده قدسيِّة أيمان الولاء، ولا يمكن أن يرضى به أي ملك بالطبع. ولهذا استمر موضوع حق التنصيب خلال الخمسين سنة القادمة، بعد أن أوقع غريغوريوس بين رجال الدين والعلمانيين شقاقًا لا سابق له، وبلغ بادعاءات

سلطة البابا ذروة لا سابق لها أيضًا؛ وسوف يعود بابوات آخرون للتشديد على ادعاءاتهم خلال القرنين التاليين -في الوقت نفسه- كانوا يبنون الجهاز الإداري للكنيسة، وهو عبارة عن طبقة إدارية مثل إدارات ملوك إنكلترا وفرنسا، ومن خلالها أحكموا قبضتهم على الكنيسة، بينما راحت سلطاتهم القضائية تمتد وتتسع وتسحب النــزاعات القضائية من محاكم الكنائس المحلية إلى قضاة البابوية.

الملكية البابوية

لقد تحسَّن موقف الأمراء من روما مع تراجع الصراع على موضوع حق التنصيب، ولم يظهر تحدّ هام لسلطة الكنيسة بالرغم من نشوب نزاع مدوٍّ في إنكلترا حول الامتيازات التي يتمتَّع بها رجال الدين وحصانتهم من القوانين المرعية في البلاد، وهو نزاع أدى إلى مقتل رئيس أساقفة كَنتربُري -ثم تطويبه قديسًا- إلا أن بعض رجال الدين كانوا يكرهون التشديد على سلطة البابا كرهًا شديدًا، ويعتقدون أن المجالس التي تضم الكنيسة كلها هي أولى منه بوضع قوانينها، وسوف يؤدي هذا إلى إثارة حركة قوية وهامة هي الحركة المجلسية، التي ظهرت في القرن الخامس عشر. بينما راح غيرهم يقولون إن سلطة البابا يمكن تجاوزها في أمور كثيرة إذا كان في الكتاب المقدَّس -أو مرجع آخر- أسباب تدعو إلى ذلك. من هذه الأفكار ومن أفكار غيرها سوف تنشأ في النهاية حركة الإصلاح وأشكال عديدة من الهرطقة أيضًا.

من هذه الحركات الجديدة ظهور نوع من التنظيمات الدينية التي تسمى الأخويات، وهي جمعيات لكل منها نظام خاص بها مثل الرهبنات، ولكن أفرادها يعيشون بين الناس لكي يعظوهم ويعلموهم بدلاً من العيش في دير، وكانوا يسمون

«الأخوة المستجْدين» لأنهم يعتمدون في معيشتهم على صدقات الناس. وكانت أهم تلك الأخويات هي أول اثنتين منها، أي أخوية الفرنسيسكان -على اسم مؤسِّسها القديس الإيطالي فرنسيس- وأخوية الدومينيكان -على اسم القديس الإسباني دومينيك- لقد كرَّس الفرنسيسكان رسالتهم للفقراء، بل إن بعضهم قارب الدعوة إلى الثورة الاجتماعية. أما الدومينيكان فقد ركّزوا على محاربة الهرطقة عن طريق المعرفة -وكانوا علماء كبارًا- والوعظ -وما زالوا يسمون الأخوة الواعظين- وملاحقة الهرطقة من خلال جهاز جديد هو محاكم التفتيش. وكان للدومينيكان وجهان متباينان محيِّران لم يعرف الناس أيهما وجههم الحقيقي، الأول يمثله القديس الصقلّي توما الأكويني الذي كان أعظم الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى، وهو الذي صهر معارف عصره كلها ورتَّبها بهيئة نظام فكري مبني على مبادئ أرسطو، أما الوجه الآخر فهو الإسباني توركويمادا، وهو القاضي الذي اضطهد الهراطقة واليهود في إسبانيا القرن الخامس عشر.

وفي -الوقت نفسه تقريبًا- نشأت تحت جنح الكنيسة مؤسّسة أخرى جديدة وهامة، ألا وهي الجامعة. كانت أولاها جامعات بولونيا -مدينة في إيطاليا- وباريس وأوكسفُرد، وفي عام ١٤٠٠ صار هناك أكثر من خمسين جامعة في أوربا الغربيّة. لقد رفعت هذه المؤسسات مستوى التعليم العام بين رجال الدين بصورة سريعة، ومنها أتى رجال الإدارة أيضًا، ولهذا السبب كان الحكام أحيانًا يمنحون الجامعات امتيازات ومنحًا خاصة. وحتى في زمن لاحق عندما صار العلمانيون أيضًا يطلبون العلم في الجامعات ظلت هذه خاضعة لسيطرة الكنيسة - واستمر الأمر على هذه الحال زمنًا طويلاً - فكانت الكنيسة هي التي تحدّد ما يدرّس فيها. ولهذا كانت الجامعات قوة كبيرة أخرى ساهمت في تغلغل الدين ضمن مجتمع العصور

الوسطى. وقد بقي الرجال المثقفون في أوربا مئات السنين يفكرون بحسب المبادئ التي وضعتها الكنيسة، مثلما كان حال المثقفين في الصين مع الكونفوشية.

أولى اندفاعات أوربا فيما وراء البحار: الحروب الصليبية

لقد بادر «الإفرنج» بالاعتداء على الشرق الأدنى قبل زمن طويل من هجوم العثمانيين على أوربا وتهديدهم لها. في القرن الحادي عشر استعاد النورمان صقلية وجنوب إيطاليا من العرب، وبعد ذلك بزمن قصير – أي في عام ١٠٩٥- أطلق البابا للمرة الأولى فكرة الحملات الكبرى التي تسمى الحملات الصليبية، وكان هدفه منها تحرير الأرض المقدَّسة – أي فلسطين- من سيطرة الإسلام. وقد حصلت في الحقيقة أربع حملات هامة. فالحملة الأولى نجحت في الاستيلاء على القدس، ولم يتمكَّن العرب من استردادها إلا بعد حوالى سبعين سنة. وقد جرت في تلك الأثناء حملة صليبية ثانية -١١٤٧-٤٩- اشترك فيها إمبراطور ألماني وملك فرنسي، فابتدأت بداية بشعة بتذبيح اليهود في بلاد الراين، وما لبثت أن انتهت بكارثة. أما الحملة الثالثة (١١٨٩-٩٢) فقد سعت إلى استعادة القدس بعد أن استردها القائد المسلم الكبير صلاح الدين في عام ١١٨٧، ولكنَّها فشلت في ذلك بالرغم من انضمام ملك إنكلترا -ريكاردُس قلب الأسد- إلى الملك الفرنسي والإمبراطور الألماني -الذي مات غرقًا بينما كان في طريقه إلى فلسطين- وغادرت أخيرًا حملة رابعة -لم يكن فيها ملوك- في عام ١٢٠٢ بتمويل من أهل البندقية، ولكنَّها تحوَّلت من توِّها إلى العبث بسياسات بيزنطية الداخلية، وانتهت إلى نهب الصليبيين الفظيع لمدينة القسطنطينية في عام ١٢٠٤، وتأسيسهم «إمبراطورية لاتينية» فيها استمرت لعقود قليلة قادمة. وكانت تلك عملية مشينة، لأن البيزنطيين مسيحيون وهدف الحركة الصليبية إنما هو قبل كل شيء دعم الدين المسيحي. ثم حصلت من بعدها

حملات أخرى عديدة، إلا أن عصر الحملات الكبرى كان قد ولى، ولم تعد بقادرة على أخذ فلسطين.

إن ما كشفت عنه الحملات الصليبية أهم بكثير مما حققته أو لم تحققه، فقد كانت تظاهرًا جليًا لمزاج جديد ونظرة جديدة في المسيحية الغربية. كانت الحملات الصليبية تحظى بتأييد ودعم جماهير تتأجج في قلوبها حماسة دينية حقيقية، وقد شارك فيها الآلاف من الناس البسطاء، ثم هلكوا بصورة يرثى لها بسبب جهلهم وقلة استعدادهم لما كان ينتظرهم.

وكانت الحملات الصليبية جزءًا من حركة الإحياء الديني في القرن الحادي عشر، وهي تدل على افتراق المسيحيتين الشرقية والغربية وتباعدهما. ولم يكن الصراع مع الإسلام في الإمبراطورية الشرقية مقتصرًا على موضوع الدين، بل كان أيضًا صراعًا على السلطة والسياسة والأراضي التي كانت في السابق لبيزنطية. لقد كانت الإمبراطورية والخلافة تعامل كل منهما الأخرى كقوة عظمى، مثلما كان الأمر بين روما وفارس، والحقيقة أن الخلافات الدينية بينهما كثيرًا ما كانت أقل أهمية من الخلافات الأخرى.

ولم يكن الدافع الديني هو الدافع الوحيد في تجنيد الصليبيين، بل إن الكثيرين منهم كانت تحركهم أغراض دنيئة هي الحصول على الأسلاب والغنائم، والأفضل منها الأرض. ومثلما انطلق فرسان النورمان إلى إنكلترا الأنكلوسكسونية وصقلية

الحروب الصليبية

جرت العادة على إطلاق اسم الحملات الصليبية على سلسلة من الحملات التي قامت بها المسيحية الغربيّة نحو الأراضي المقدّسة، وكان الهدف منها استعادة

الأماكن المقدّسة من حكّامها المسلمين. وكانت السلطة البابوية تضمن لمن يشترك فيها أشكالاً معينة من الثواب الروحي والغفران -إلغاء أو تخفيف الزمن الذي يمضيه المرء في المطهر بعد الموت- وأن تكتب لهم الشهادة إذا ماتوا في الحملة. كانت الحملات الأربع الأولى هي الأهم، وهي تشكّل ما يعتبر عادة حقبة الحملات الصليبية.

١٠٩٥ م	البابا أوربانُس الثاني ينادي بالحملة الصليبية الأولى في مجمع كليرمون، والتي بلغت ذروتها في:
١٠٩٩	الاستيلاء على القدس وتأسيس الممالك اللاتينية
١١٤٤	الأتراك السلاجقة يستولون على مدينة إديسّا المسيحية (الرّها – أورفه) التي ألهم سقوطها القديس برنار (برنردُس) بالدعوة إلى حملة جديدة (١١٤٦)
١١٤٧-١١٤٩	الحملة الصليبية الثانية التي باءت بالفشل (ونتيجتها الوحيدة الهامة هي استيلاء أسطول إنكليزي على مدينة لشبونة وإعطاؤها للملك البرتغال)
١١٨٧	صلاح الدين يستعيد القدس للإسلام
١١٨٩	إطلاق الحملة الصليبية الثالثة التي فشلت في استعادة القدس.
١١٩٢	صلاح الدين يسمح للحجاج بدخول قبر المسيح.
١٢٠٢	الحملة الصليبية الرابعة وهي آخر الحملات الكبيرة وقد بلغت ذروتها باستيلاء الصليبيين على القسطنطينية ونهبها (١٢٠٤) وتأسيس «إمبراطورية لاتينية» فيها.

١٢١٢	ما يسمى «بحملة الأطفال»
١٢١٦	الحملة الخامسة تستولي على دمياط في مصر وتخسرها من توّها.
١٢٢٨-٩	الإمبراطور فردريك الثاني (المحروم من الكنيسة) يقوم «بحملة صليبية» ويعيد الاستيلاء على القدس ويتوّج نفسه ملكًا.
١٢٣٩-٤٠	«حملات صليبية» قام بها ثيوبالد الشامپاني وريتشارد الكورنوالي.
١٢٤٤	الإسلام يسترد القدس.
١٢٤٨-٥٤	لويس التاسع ملك فرنسا يقود حملة إلى مصر حيث يؤخذ سجينًا ثم يفتدى ويحج إلى القدس.
١٢٧٠	الحملة الثانية للويس التاسع، وكانت ضد تونس حيث مات.
١٢٨١	سقوط عكا بيد الإسلام، وهي آخر موطئ قدم للإفرنج في بلاد الشام.

لقد حصلت حملات أخرى كثيرة سميت هي الأخرى «صليبية»، أحيانًا بصورة رسميَّة. كان بعضها موجَّهًا ضد غير المسيحيين -مثل مسلمي إسبانيا والشعوب السلافية- وبعضها ضد الهراطقة (مثل الألبيجيين)، وبعضها ضد الملوك الذين أهانوا البابوية. كما حصلت بعدها حملات فاشلة إلى الشرق الأدنى. في عام ١٤٦٤ فشل البابا بيوس الثاني في الحصول على دعم لحملته، وكانت تلك آخر محاولة لإرسال حملات صليبية إلى الشرق الأدنى.

الإسلامية لكي يحصلوا على أملاك لهم، كان الكثير من الصليبيين يعتقدون أن «الممالك اللاتينية» الأربع التي تأسَّست بعد حملتهم الأولى، و«الإمبراطورية اللاتينية» التي نشأت في عام ١٢٠٤ سوف تؤمِّن لهم المال والغنى طوال حياتهم. ومن هنا كانت الحملات الصليبيَّة أول تظاهر لجشع الإستعمار الأوروبي ورغبته بالتوسُّع خارج أراضيه.وكما هو الأمر في عصور لاحقة، امتزجت أهداف نبيلة وحقيرة في نفوس رجال حاولوا زرع مؤسَّسات غربيّة ودخيلة في بيئات بعيدة لا تمتُّ لها بصلة. وكانوا يفعلون ذلك بضمير مرتاح لأنهم كانوا يعتبرون أعداءهم كفَّاراً استولوا على أقدس مقامات المسيحية. تقول قصيدة مشهورة من العصور الوسطى هي أغنية رولان: «المسيحيون على حق، والكفار على باطل»، وإن هذه العبارة لتلخص نمط تفكيرهم.

ولكن الدول الصليبية سرعان ما تداعت عندما استعاد الإسلام عافيته، واشتدَّت العداوة بين المسلمين والمسيحيين. وقد تعلَّمت أوروبا أشياء كثيرة من الثقافة الإسلامية عن طريق إسبانيا وصقلية، فقد تشربت علوم الإغريق من العلماء العرب العظام في قرطبة، كما أن الصليبيين جلبوا معهم عادات جديدة مثل استخدام الملابس الحريرية والعطور والأطعمة الجديدة وعادة الاستحمام المتكرر –وكان الأوربيون بحاجة ماسة له– أما الإسلام فقد ازداد قسوة، وعندما استعاد حكمة في بلاد الشام عانى رعاياه المسيحيون الذين كانوا قد خانوا حكّامهم المسلمين، وبدأت الجماعات المسيحية القديمة في المنطقة تنحسر، بل إن أكثرها قد اختفت تمامًا.

لقد غيَّرت الحملات الصليبية نظرة المسيحيين أيضًا، لأن جهادهم وتصميمهم على الغزو باسم الصليب كان المهد الذي ولد فيه اندفاع الأوربيين العنيد للاستيلاء على العالم في عصور لاحقة. فقد كان أولئك الأوربيون واثقين في قلوبهم مثل الصليبيين بأن الحق إلى جانبهم، وبأن عليهم استخدام القوة لكي يسود هذا الحق.

كما أن هذه الروح نفسها قد تبدَّت في إسبانيا أيضًا. كان كل من الجغرافية والمناخ وانقسام المسلمين قد ساعد المسيحية على البقاء والاستمرار في شبه الجزيرة بعد الفتح الإسلامي لها، وقد ظلَّ الأمراء والزعماء المسيحيون متمسِّكين بمواقعهم في أستوريا وناڤار. ثم ساعدهم تأسيس شارلمان لحدوده الدفاعية في إسبانيا، وتوسَّع تلك الحدود على عهد كونتات برشلونة الجدد، فراحوا -عندئذ- يقرضون من أراضي الإسلام في إسبانيا، وظهرت مملكة ليون في أستوريا واتخذت مكانًا لها إلى جانب مملكة ناڤار. ولكن المسيحيين اختلفوا -فيما بينهم في القرن العاشر- فعاد العرب وأحرزوا تقدمًا عليهم، خاصة عند نهاية القرن عندما أخذ فاتح عربي كبير هو المنصور برشلونة وليون ثم مزار مدينة سانتياغو دي كومبوستيلا نفسه في عام ٩٩٨. إلا أن إسبانيا المسيحية ما لبثت بعد قرون قليلة أن لَمّت شملها بينما وقعت إسبانيا المسلمة فريسة لتفرقها وتفككها. لقد كانت المسيحية في هذا البلد بالذات هي بوتقة القومية، وكانت المواجهة بين الحضارتين هي الوقود الذي يذكِّي نارها؛ والحقيقة أن استعادة إسبانيا التي تمَّت -خلال القرون القادمة- إنما كانت بالنسبة للإسبان عصرًا من الحملات الصليبية.

شرق أوربا

إن هذه الروح العدوانية المندفعة التي كانت تفعل فعلها في بلاد الشام وإسبانيا كانت منتشرة أيضًا على الحدود الشرقية لأوربا، ولكن الفرق أنها كانت هنا موجَّهة ضد شعوب مسيحية ومترافقة بحركات هجرة كبيرة تدعمها وتساندها. وتعود هذه القصة إلى أيام فتوحات شارلمان، فقد أمضى هذا الإمبراطور الشطر الأكبر من سنوات حكمه في الحملات العسكرية، وإنما كانت مكانته العظيمة معتمدة على التوسُّع الدائم، وكانت الفتوحات ضرورية من أجل ملء خزانة ماله

ومن أجل توزيع الأراضي على نبلاء الإفرنج استرضاء لهم. لقد أخضعت بعض حروب شارلمان لسيطرته عددًا من الشعوب المسيحية المجاورة له، ولكن بعضها الآخر كان موجَّهاً ضد شعوب وثنية في بلاد أبعد. فقد كان السكسون يعيشون بين نهري الإلب والراين ويشكِّلون خطرًا على سيطرة الإفرنج في باڤاريا وفريزيا، لذلك تمَّت هزيمتهم ثم تنصيرهم، فوصل هذا بالحدود الشرقية لألمانيا -حتى نهر الإلب- ثم كان هناك شعب الأڤار الوثني الذي يعيش في سهل هنغاريا، وكانوا غزاة أشد بأسًا وخطرًا من السكسون، ولكن هؤلاء أيضًا قد تم تركيعهم.

وقد تحوَّل اندفاع الإفرنج إلى الشرق بين عامي ١١٠٠ و ١٤٠٠ إلى حركة هجرة كبيرة، فراح الألمان يستوطنون البلاد ويبنون المدن على الحدود مع بروسيا وبولندا مبدِّلين بذلك الخريطة العرقية والاقتصادية والثقافية هناك. كما تغلغلوا في أراضي السلاڤيين بصورة مطردة فابتدؤوا بذلك صراعًا بين السلاف والتوتون في أوربا الشرقية استمر -حتى القرن العشرين- ولعله لم يحسم بعد، إذ كان أحدث معالم هذا الصراع هو طرد أعداد هائلة من الألمان من الأراضي البولندية عند نهاية الحرب العالمية الثانية (حوالى سبعة ملايين شخص بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٥٢)، فكان هذا انعكاسًا لتيَّار العصور الوسطى، عندما كان الألمان هم الذين يتقدَّمون ويفرضون مشيئتهم. وكان فرسان التوتون قد لعبوا دورًا هامًا في تقدُّم الألمان هذا، وهم عبارة عن تنظيم ديني مكوَّن من مقاتلين يرتبطون بنذور مقدَّسة ويؤدون واجبهم المسيحي من على ظهور الخيل بقتل الوثنيين الكفار في بروسيا والبلطيق - والسلاڤيين المسيحيين أيضًا.

صعود موسكوفيا

يعود تسلّط الألمان الطويل هذا إلى ضعف الشعوب السلافية، وبعد أن تمزَّقت كييف روس -في القرن الحادي عشر- عاشت الدول التي حلّت محلّها أيضًا سلسلة من الأزمات العصيبة. كان تراجع بيزنطية بالنسبة إلى الأمراء الروس خسارة لأكبر حلفائهم الأرثوذكس، فوجدوا أنفسهم مكرهين على مواجهة المغول بمفردهم، وبعد أن نهب هؤلاء مدينة كييف في عام ١٢٤٠ ظلّت إمارة موسكوفيا الكبرى تدفع الجزية لهم ولخلفائهم التتر من القبيلة الذهبية -طوال قرنين ونصف القرن- و لم تكن الأمور بأرحم في الغرب؛ صحيح أن أمير موسكوفيا ألكسَندر نِفسكي قد تمكّن في -القرن الثالث عشر- من صد فرسان التوتون بنجاح، إلا أن خطر الألمان قد ظل مصدرًا للمرارة في قلوب الروس، وما كانوا كأرثوذكس ليقبلوا بكاثوليكية الألمان المتصلّبة والتوسّعية وتشديدهم على مبدأ سيادة البابا. لهذا ازداد انسحاب الحضارة الروسية مبتعدة عن الغرب، وانتقل مركز ثقلها إلى موسكو، التي كان أمراؤها أكثر طغيانًا واستبدادًا من أمراء الدول الروسية الأخرى، وربما كان هذا ما مكنَّهم من البقاء ومن مد سلطتهم على جيرانهم أيضًا. ومن التغيُّرات الأخرى التي جرت في الشرق ظهور دولة سلافية كاثوليكية جديدة هائلة المساحة ضمت بولندا وكييف، هي دوقية ليتوانيا. ورغم أن الليثوانيين كاثوليك فقد حاربوا الألمان، وإن قواتهم هي التي ألحقت بفرسان التوتون هزيمتهم الساحقة في تاننبرغ في عام ١٤٦٠. وقد ضايق الليثوانيون موسكوفيا أيضًا، ولكنَّها نجحت في البقاء مستفيدة من الانقسامات السياسية بين جيرانها من تتر وكاثوليك معًا.

كان سقوط بيزنطية حدثًا هامًا في تاريخ روسيا، لأنه جعل من موسكو مركز المسيحية الأرثوذكسية بلا منازع، وراح رجال الكنيسة يقولون إن هذا الأمر

كان مقدَّراً من الله وإن موسكو إنما هي «روما الثالثة». وكانت تلك لحظة تاريخية ملائمة لصعود موسكوڤيا، لأن الصراعات الداخلية كانت تمزِّق جيرانها الليثوانيين والتتر، وعند هذا المنعطف التاريخي الهام ارتقى عرشها في عام ١٤٦٢ أمير جديد هو إيڤان الثالث. لقد طرد إيڤان التجار الألمان الذين أغروا المدن الألمانية في البلطيق بالتدخُّل في شؤون موسكوڤيا، كما أنه صدَّ آخر هجمات التتر وضم نوڤغورود، وهي دولة روسية ذات تقاليد أكثر جمهورية من موسكوڤيا. ويعرف إيڤان الثالث بجدارة بأنه أول ملك وطني في روسيا، والحقيقة أنه هو الذي أعطاها بعضًا من التماسك الذي كان ملوك فرنسا وإنكلترا قد حقّقوه لبلادهم. ولكن الملكية التي بناها كانت -في الوقت نفسه- مختلفة عن ملكيات الغرب، فقد اتخذ لنفسه لقب «أوتوقراط بنعمة الله»، وكان هذا اختيارًا مقصودًا لذلك اللقب ...اني القديم. وكان إيڤان أول حاكم روسي يدعى قيصرًا، وهذه علامة ثانية على تبنيه المقصود لتراث القياصرة -كما أنه تزوج ابنة أخ آخر الأباطرة اليونان- وهو الذي خلق الملكية الروسية التي استمرت -حتى عام ١٩١٧- وقد استمر خلفاؤه باستخدام النسر البيزنطي ذي الرأسين الذي تبناه كجزء من شارته الإمبراطورية؛ ويحقُّ له أن يخلَّد في التاريخ باسم «إيڤان الكبير».

كانت موسكوڤيا تتمتَّع دومًا بميزة استراتيجية هامة لأنها واقعة في مركز تتلاقى فيه شبكات أنهار روسيا وبالتالي اتصالاتها، وقد صارت -منذ القرن الخامس عشر- أكبر مركز للسكان في البلاد. وإلى الجنوب منها مباشرة تقع منطقة "الأرض السوداء" المشهورة بتربتها الزراعية الخصبة، كما أنها لم تعرف بين عامي ١٣٨٩ و ١٥٩٨ أي -خلال أكثر من قرنين من الزمن- إلا ستة حكام متتالين، وقد أمَّنت

فترات الحكم الطويلة هذه قدرًا كبيرًا من الاستقرار لحكومتها. وكانت هذه كلها مزايا كبيرة استغلها الحكام النشاط والأكفاء الذين أتوا بعد إيڤان، ولو أن بعضهم كانوا -في الوقت نفسه- مجانين، ومنهم «إيڤان الرهيب»، وهو إيڤان الرابع الذي ارتقى العرش في عام ١٥٣٣. في منتصف القرن السادس عشر كانت مساحة موسكوڤيا قد توسَّعت من ٤٠٠,٠٠٠ كم مربع إلى حوالى ثلاثة ملايين، وفي عام ١٦٠٠ كانت مساحة روسيا تساوي مساحة بقية أوربا المسيحية كلها معًا. كما أن إيڤان الرابع قد زاد من ترسيخ الملكية الروسية عن طريق فرض سيطرته على كافة أراضيه -تقريباً- ورغم أنها سوف تتداعى من جديد في الأزمنة المضطربة التي جاءت على عهد خلفائه فقد كانت دليلاً آخر على النمط الخاص الذي جرى عليه أسلوب الحكم في مُوسكو.

صنع الأمم

يعتقد الكثيرون اليوم أن مبرر قيام دولة ما إنما هو وجود شعب يجمعه شعور مشترك بالانتماء إلى أمة واحدة، وهذه هي العقيدة التي نسميها القوميّة. وتدعي الكثير من الدول الحديثة أنَّها دول قومية.

حرب المئة عام

يطلق هذا الاسم عادة على مرحلة من الصراع المتقطِّع بين الإنكليز والفرنسيين سببه ادعاءات الإنكليز الحق بتاج فرنسا. فبعد أن أدى ملك إنكلترا إدوارد الثالث الولاء للملك فرنسا عن أراضيه في أكيتانيا، عاد فانقلب على سيده وأدى هذا إلى معارك صريحة:

١٣٣٩	إدوارد الثالث يعلن نفسه ملكًا على فرنسا، مدَّعياً أنه ورث هذا الحق عن أمه ونتج عن ذلك:
١٣٤٠	انتصارات الإنكليز في سلويز -معركة بحرية، ١٣٤٠- وكريسي -١٣٤٦- والاستيلاء على كاليه -١٣٤٧-
١٣٥٥-١٣٥٦	الأمير الأسود يغير على فرنسا من الجنوب الغربي والفرنسيون يهزمون في بواتييه.
١٣٦٠	معاهدة بريتيني تنهي المرحلة الأولى من الحرب. إدوار يُمنح دوقية أكيتانيا بعد أن توسَّعت وصارت ذات سيادة.
١٣٦٩	الفرنسيون يعيدون إذكاء الصراع، هزيمة الأسطول الإنكليزي في لاروشيل-١٣٧٢- وخسارة أكيتانيا. ويتبع ذلك تراجع مستمر في وضع الإنكليز.
١٣٩٩	خلع الملك ريتشارد الثاني -الذي تزوج في عام ١٣٩٦ من ابنة شارل السادس ملك فرنسا- يجدد عداوة الفرنسيين.
١٤٠٥-٦	الفرنسيون يرسون في ويلز ويهاجمون أراضي الإنكليز في غيين.
١٤٠٧	اندلاع الحرب الأهلية في فرنسا، التي استغلَّها الإنكليز.
١٤١٥	هنري الخامس يعيد التأكيد على حق الإنكليز بعرش فرنسا. التحالف مع برغنديا وهزيمة الفرنسيين في أجنكور ثم إعادة فتح نورمنديا (١٤١٧-١٩).
١٤٢٠	معاهدة تروا تثبت فتح نورمنديا، زواج هنري الخامس من ابنة ملك فرنسا والاعتراف به وليّاً على عرش فرنسا.
١٤٢٢	موت ملك إنكلترا هنري الخامس وملك فرنسا شارل السادس.

	هنري السادس يرتقي عرش إنكلترا؛ الإنكليز يتابعون الحرب بنجاح حتى:
١٤٢٩	تدخل جان دارك الذي أنقذ أورليان، شارل السابع يتوَّج ملكًا في ريمس.
١٤٣٠	هنري السادس يتوَّج ملكًا على فرنسا.
١٤٣٦	خسارة باريس بعد انهيار التحالف الإنكليزي البرغندي.
١٤٤٤	معاهدة تور: إنكلترا تتنازل عن دوقية مين.
١٤٤٩	الإنكليز يخلون بمعاهدة تور، فتنهار المقاومة الإنكليزية تحت الضغط الفرنسي المنظَّم.
١٤٥٣	هزيمة الإنكليز في كاستيّون تنهي جهودهم لاستعادة غسكونيا، فلا يبقى لهم إلا كاليه وجزر القنال -المانش- ويجرجر الصراع أذياله في حملات فاشلة قاموا بها في عامي ١٤٧٤ و ١٤٩٢.
١٥٥٨	الإنكليز يخسرون كاليه، ولكن ملوك إنكلترا احتفظوا بلقب ملك فرنسا حتى جورج الثالث — بل ظلَّت شارة الملكية الفرنسية تظهر على شعار صحيفة التايمز حتى عام ١٩٣٢.

ولكن القليل منها على هذه الصورة فعلاً. والحقيقة أن هذه الفكرة لم تظهر -حتى عهد قريب- فقد وجدت الدول قبل أن يبدأ الناس بالتفكير بالقومية بزمن طويل، وكثيرًا ما كان وجود الدولة هو أول ما يعطي الناس الشعور بأنهم ينتمون إلى أمة واحدة، أي أن الدول هي التي خلقت القوميات وليس العكس -ولو أن

الناس يقولون اليوم إنّ القوميّة مبرر لقيام دولة- وتظهر هذه الحقيقة بجلاء كبير في أواخر العصور الوسطى، إذ ظهرت في تلك الحقبة بعض أهم الدول والقوميات في أوربا الغربية؛ ففي عام ١٥٠٠ كانت كل من إنكلترا واسكتلندا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال قد اتّخذت أشكالاً لا تختلف كثيرًا عن أشكالها اليوم، وكان الكثيرون من سكانها يشعرون أيضًا بالشعور القومي. ولكن هذا الأمر لا ينطبق على الجميع، إذ كان هناك أناس يشعرون أنهم «ألمان» أو «إيطاليون» لأنهم يتحدّثون اللغة نفسها، ولكن من دون أن يكونوا تحت حكم واحد على الإطلاق. فإيطاليا -مثلاً- لم تكن أكثر من «تعبير جغرافي» -كما قال رجل دولة نمساوي حتى في القرن التاسع عشر- وكان البابا يتمتّع بمكانة خاصة جدًا في أوربا كرأس للكنيسة، ولكنه لم يكن بين الأمراء الإيطاليين إلا واحدًا من حكام كثيرين. وكانت له سلطته الدنيوية على أراضيه -المتميزة عن سلطته الروحية كقائد للكنيسة- وكانت دولته مستقلة، من حيث المبدأ، مثل جمهورية البندقية أو دوقية پارما الصغيرة. أما وضع ألمانيا فكان أكثر تعقيدًا -حتى من هذا- إذ كان القسم الأكبر منها ضمن الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، التي كان أمراؤها ومدنها و«فرسانها الإمبراطوريون» أتباعًا إقطاعيين للإمبراطور، إلا أن قسمًا كبيرًا من هذه الإمبراطورية لم يكن ألمانيًا. وقد جرت محاولات متكرِّرة لتحويل الإمبراطورية إلى بنية أكثر مركزية يكون فيها الإمبراطور أقرب إلى الملك منه إلى السيد الإقطاعي، ولكن تلك المحاولات باءت كلها بالفشل. لذلك بقي الألمان شعبًا يتحدّث أشكالاً مختلفة من اللغة الألمانية ولكنهم رعايا لكيانات كثيرة ومتباينة مثل رئيس أساقفة ماينـــز أو مدن رابطة الهانزا التجارية في الشمال، أو أمير باڤاريا، أو واحدة من مئات الوحدات المستقلة الأخرى التي كان بعضها في الحقيقة صغيرًا جدًا.

إنكلترا وفرنسا

كانت ملكيتا إنكلترا وفرنسا هما أول ملكيتين قوميتين رئيسيتين، وكان الملك ألفرِد بداية قصة إنكلترا، والملك هوغ كابيه بداية قصة الثانية، وسوف يحكم أحفاد هذا الأخير فرنسا طوال أربعمئة سنة. بمرور القرون راح ملوك فرنسا يوسِّعون أراضيهم وسلطتهم رويدًا رويدًا حول النواة المكوّنة من أملاك أسرة كابيه، ولكن فرنسا بقيت لزمن طويل أكثر «إقطاعية» من إنكلترا، أي أن ملكيتها لم تبلغ من السلطة ما يضمن لها ولاء جميع رعاياها بصرف النظر عن عهودهم والتزاماتهم نحو السادة الآخرين. ومع ذلك نجح الكابيتيون نجاحًا كبيرًا، ففي عام ١٣٠٠ كانوا قد أخذوا نورمنديا وغيرها من الإقطاعيات من ملوك إنكلترا -إذ كان هؤلاء يحتفظون بأراض وإقطاعيات في فرنسا منذ فتح النورمان- إلا أن ملوك إنكلترا قد تشبَّثوا بادعاءاتهم، فكانت النتيجة سلسلة من المعارك بين إنكلترا وفرنسا امتدت من عام ١٣٣٧ إلى عام ١٤٥٣ وسميت «حرب المئة عام»، وهي لم تكن في الحقيقة معارك متَّصلة ولكنها كانت هامة جدًا في تقوية الملوك في كل من البلدين - وبالأخص ملوك فرنسا- وفي غرس الشعور بالوطنية -أو على الأقل بالعداوة نحو الأجنبي- في قلوب الفرنسيين والإنكليز على السواء.

لقد كانت إنكلترا هي الخاسرة على المدى البعيد، بالرغم من انتصاراتها الكبيرة في معركتي أجنكور وكريسي، وفي عام ١٥٠٠ لم يعد لملوكها أراض تذكر على القارة الأوربية. ولكن فرنسا هي التي عانت المعاناة الأكبر، لأن الحملات إنما خيضت على أرضها. وفي النصف الثاني من -القرن الخامس عشر- لم تعد الجيوش الإنكليزية تؤرِّق ملوك فرنسا، فانصرف هؤلاء أخيرًا إلى ترتيب أمور بيتهم، وإن زوال غزوات الأجانب ودعمهم للمتمردين قد مكّنهم من معالجة أمر النبلاء

الأقوياء بحزم أكبر، وكان هذا هو الموضوع الأهم في قصة الملكية الفرنسية طوال القرنين القادمين.

لقد ظهرت في -القرن الخامس عشر- بطلة قومية فرنسية مشهورة هي جان دارك، ربما لم يسمع بها على أيامها إلا القليلون من الفرنسيين، ولكنها سوف تصبح على المدى البعيد قدِّيسة وتدخل عالم الأساطير. وعلى هذه الصورة كانت العصور الوسطى المتأخِّرة تذكِّي الشعور بالهويَّة القوميَّة، ففي -القرن الرابع عشر- أصبح القديس جورج هو القديس الحامي لإنكلترا، وصار الجنود الإنكليز يضعون صليبه الأحمر على شاراتهم العسكرية مع أنه في الحقيقة شخصيَّة غامضة لا نعرف الكثير عنه ولا عن أسطورة قتله للتنين، التي لايمكن أن يكون لها أساس واقعي على كل حال، وفي نفس المرحلة -تقريبًا- راح الناس يدونون تواريخ قوميَّة لبلادهم ويكتشفون أبطالاً قوميين في أيامها الماضية. من أولئك الأبطال الملك آرثر، وإذا كان له وجود حقيقي فقد كان على الأرجح أرستقراطيًا رومانيًا من بريطانيا القرن الخامس، وإن الذي اخترعه هو رجل من ويلز في القرن الثاني عشر.

وبدأت بالشيوع -أيضًا- أساطير وقصص كتب بعضها باللغات الدارجة بين الناس وليس باللاتينية التي كانت اللغة التقليدية للعلم. فكان هذا الأدب المكتوب باللغات المحليَّة دليلاً على انقسام شعوب أوربا إلى القبائل البربرية القديمة وتطوُّرها المضطرد نحو القومية. ثم جاء اختراع الكتابة فأعطاه زخمًا عظيمًا، وبدأت تظهر مكتوبة بلغات قريبة من اللغات الحالية بحيث يمكن قراءتها من دون عناء

إسبانيا

من أوائل الأعمال في الأدب الإسباني قصيدة طويلة عن بطل قومي يدعى السيد، والحقيقة أن قصة أمته أي الأمة الإسبانية قد أخذت منحى مختلفًا جدًا عن بقية أمم أوربا. ولم تتطوَّر بنية الدولة في إسبانيا إلا ببطء شديد -فحتى في عام ١٥٠٠ لم تكن بعد مملكة واحدة من الناحية القانونية- ولكنها تطوَّرت بصورة سريعة وقوية على صعيد الشعور الشعبي، والسبب هو أن إسبانيا إنما صنعتها الحرب، أي حرب استعادتها للمسيحية. وقد بقي ميزان القوى بين المسيحيين والمسلمين يتأرّجح لردح من الزمن، ولكنَّ التيار العام كان ضد العرب، لأنهم كانوا يواجهون -في الوقت نفسه- انقسامات داخلية، فيما بينهم -في منتصف القرن الثاني عشر- كانت مدينة طليطلة، وهي مدينة عربية كبرى، قد صارت مسيحية من جديد، كما نشأت مملكة البرتغال المسيحية. وفي منتصف القرن الثالث عشر سقطت إشبيلية بيد ملك قشتالة، بعد أن كانت مركزًا عظيمًا للثقافة العربية، كما أخذت مملكة أراغون مدينة بلنسية العربية. وفي عام ١٤٦٩ اقترن فرديناند ملك أراغون بإيزابيلا ملكة قشتالة، وعرفا في التاريخ الإسباني "بالعاهلين الكاثوليكيين"، وعلى عهدهما اكتملت استعادة إسبانيا وسقطت آخر معاقلها أي مدينة غرناطة الجميلة بيد الإسبان في عام ١٤٩٢وهكذا انتصر الصليب في إسبانيا، وخلال سنوات قليلة تم طرد اليهود والموريسكو- وهو الإسم الذي صار يطلق على العرب والبربر- فكان هذا دليلاً على ارتباط القومية الإسبانية بالديانة المسيحية وبالنقاوة الأيديولوجية بصورة أعمق وأوثق منها في أية أمة أخرى، وقد انتهى هذا الارتباط إلى نتائج مأساوية جمَّة.

الحروب والسلطة

لقد لعبت الحروب دورًا كبيرًا وجليًا في صنع الأمم في أوربا الغربية -فمنذ أيام ألفرِد وما بعد- صارت الأمم الأوربية تبنى على يد أفراد أقوياء قادرين على

شد أواصرها، وكثيرًا ما كانوا يجمعون كلمتها وشملها في مواجهة الغازي الأجنبي. قبل عصر البارود كانت الحرب تعتمد بصورة أساسيَّة على الخيَّالة المدرّعين وعلى بناء القلاع من أجل تمتين انتصاراتهم وترسيخها على المدى البعيد، ولذلك راح النبلاء والملوك يشيدون قلاعًا لأنفسهم، فتمكّن بعضهم من أن يبلغ درجة عالية من الاستقلال. إلا أن تغيّرين هامَّين قد حصلا في القرن الرابع عشر. أولهما استخدام الإنكليز والويلزيين للقوس الطويلة في رمي السهام في معركة كريسي -ثم في معركة أجنكور في القرن التالي- فقد بين هذا أن الخيالة المدرّعين ليسوا قوة لا تقهر بل إن بالإمكان صدَّهم. ولكن هذه السهام لا تكون كافية لهذا الغرض إلا إذا أطلقت بصورة أسراب مركَّزة وكثيفة، فلا بد إذًا من استئجار الرماة بأعداد كبيرة. وكان هذا أمرًا مكلفًا، وكان الملوك أقدر عليه من الزعماء لأنهم أوفر منهم ثروة. فظهر -عندئذ- الجنود المحترفون الذين يقاتلون مقابل أجر يقبضونه جزاء لخدمتهم، ولهذا السبب كنت تراهم يتنقلون دومًا من سيد إلى آخر في أرجاء أوروبا. أما التغيُّر الثاني فقد أتى مع ظهور الأسلحة النارية الأولى. وكانت هذه في البداية أدوات فظّة وضعيفة، ولكن سرعان ما صارت تصنع منها أشكال يمكن لطلقاتها أن تخترق الدروع وتدك الأسوار المنيعة، وما لبثت الأسلحة النارية الأوربية أن أضحت الأفضل في العالم -كما كان صانعوها والمشتغلون بالتعدين يكثرون بأعداد تدل على نمو هام في المهارات والخبرات التقنية- أما الأرستقراطية كطبقة عسكرية مستقلّة فكانت في أيامها الأخيرة، وإذا أتيح لبعض الزعماء أن يمارسوا شيئًا من السلطة بعد فإن ذلك يكون إما من خلال الملك أو بتفويض منه. وكانت عملية تمركز السلطة هذه عملية بطيئة وطويلة، ولكن الحقيقة أن ثورات النبلاء التي طالما أرَّقت الملوك وروضتهم في الماضي قد أصبحت نادرة -ويدين الإنكليز بالوثيقة

الدستورية الهامة والمسماة الوثيقة العظمى Magna Carta إلى إحدى تلك الثورات- إلا أن هذه القصة تمتد إلى أزمنة لاحقة.

في عام ١٥٠٠ كانت بعض البلدان قد سارت شوطًا أكبر من بعضها الآخر نحو خلق دولة حقيقية. وإذا كان الحكم المركزي هو المقياس، فربما كانت أكثر مملكة متقدِّمة في أوربا في ذلك التاريخ هي إنكلترا. لقد ظلَّ بعض النبلاء -حتى القرن الخامس عشر- يعتبرون الحرب استثمارًا طيِّباً لجمع الثروات عن طريق أسر السجناء ثم إعتاقهم مقابل فدية، كما ظلَّت مبادئ الفروسية تدفعهم -أحيانًا- إلى الصراع دفاعًا عن مصالحهم رغم فداحة الثمن، إلا أن تلك الأيام كانت تولي بسرعة، وكانت الحرب تتحوّل إلى شأن قومي، أي أنها تستدعي بالضرورة موارد دولة كبيرة لتمويلها.

مجتمع العصور الوسطى المتأخرة

راحت المدن في أوربا تنمو نموًا حثيثًا بعد عام ١١٠٠، فكان هذا تطوّرًا هامًا وصورة من صور التسارع العام الذي طرأ على الحياة الاقتصادية فيها. وكان الملوك يحبون المدن في البداية لأنها تنشط التجارة، والتجارة يمكن فرض الضرائب عليها، وكثيرًا ما كانوا يمنحونها براءات تضمن لها حقوقها ومزاياها الاقتصادية -بالسيطرة على الأسواق مثلاً، وتجعل من الصعب على الأرستقراطية أن تتدخَّل في شؤونها. لهذا كانت المدن عناصر خارجة عن النظام الإقطاعي المألوف، وكانت تتمتَّع بالحريَّة. وقد ظهرت فيها أشكال جديدة من التنظيم، وصنف جديد من الناس الذين لا يعتمدون في معيشتهم على الأرض رأسًا بل على المهن الحرَّة والتجارة والصناعة. وكانت المدينة تسمى borough (وبالألمانية burg)، وكان الفرنسيون

يسمون سكانها bourgeois (*)، أما زعماؤها فكانت تستمدُّهم من النقابات الخاصة بممارسي حرفة أو مهنة معيّنة.

وهكذا صارت المدن الأوربية متميِّزة عن بقية المجتمع من نواح هامة -ولا يبدو أن هذا قد حدث في مدن الحضارات الأخرى- وكانت تجتذب إليها الأشخاص الذين يكرهون العيش في الريف حيث كانت الكلمة الأخيرة دومًا بيد صاحب الأرض، ويقول المثل الألماني «إن هواء المدينة يجعل المرء حرًّا».

ولكن ليس هناك من صيغة عامة تصحُّ على جميع أنحاء أوربا في العصور الوسطى، لأنها كانت على درجة كبيرة من التنوُّع، ورغم أوجه الشبه -فيما بينها- فإن الفروق بين مكان وآخر كانت كبيرة. ورغم أن المجتمع قد بدأ يزداد تعقيدًا في القرن الثاني عشر، ورغم ازدياد أعداد الناس الذين يحصّلون معيشتهم من ممارسة مهن مثل المحاماة والتجارة والحياكة، فإن الاقتصاد بصورة عامة ظلَّ في المحصِّلة معتمدًا على الأرض، وظلَّت الزراعة تطغى على كل شيء آخر. فكانت المواد المتوفرة لصناعة تلك الأيام هي الصوف، والجلد، والحبوب لحرفة التخمير، والخشب لحرفة البناء. وكانت كل مدينة تعيش على المنتجات الزراعية لمحيطها القريب. حتى السياسة كانت في جوهرها نزاعًا حول ملكية الأرض وحق المشاركة في فائض إنتاجها. وكانت غلة الأرض هي التي تحدِّد نجاة المجتمع من المجاعة أو وقوعه في براثنها، إذ لم يكن بالإمكان جلب الغذاء من مناطق بعيدة في حال عوزه، ولن يصبح هذا الأمر ممكنًا إلا بعد مرور زمن طويل.

(*) ومن هنا أتت تسمية البرجوازي — المترجم.

الموت الأسود وما بعده

رأيت كيف كان الإنتاج الزراعي في شمال أوربا يزداد بصورة وئيدة ولكنها مطَّردة، خاصة عن طريق قطع أشجار الغابات وتحويلها إلى أراض زراعية، وكانت هذه التطوُّرات قد سارت مسافة كبيرة بحلول عام ١١٠٠. وقد ظلَّت هناك مناطق شاسعة من الأراضي البور والغابات -حتى بعد هذا التاريخ- وبقي نمو الزراعة يعتمد بصورة أساسية على توسيع أراضيها. ولكن هذا الوضع تغيُّر في القرن الرابع عشر، فلم يعد ثمة الكثير من الأراضي الجديدة التي يمكن زراعتها بالأساليب المتاحة، وفي هذه المرحلة حلَّت بأوربا موجة عاتية من الجائحات الرهيبة. ويبدو أن الأمر ابتدأ بتفشِّي داء الطاعون الدمّلي في الصين في عام ١٣٣٣، ثم حملت الجرذان هذا المرض عبر الطرق التجارية إلى الشرق الأوسط وروسيا عن طريق القوافل أولاً ثم عن طريق السفن -لأن البراغيث التي يحتوي جسمها على جرثومة الطاعون تعيش على جلد الجرذان- وفي عام ١٣٤٨ ظهر الداء في أوربا الغربية، وفي العام نفسه دخل إلى إنكلترا من خلال مرفأ بحري صغير في دورسِت. وقد نشر الطاعون نتائجه المروعة في كل مكان، بسبب الأعراض الفظيعة التي تتظاهر بها بعض أشكاله، وبسبب الأعداد الهائلة من الأرواح التي راح يحصدها بالجملة، وبقي هذا الطاعون في ذاكرة الأجيال باسم الموت الأسود. لقد هلك ثلث عدد السكان في مدينة بريستُل، وربما كانت هذه أيضًا نسبة الوفيات الإجمالية في إنكلترا. أما في القارة نفسها فكانت الأمور أبشع في بعض الأماكن، لأن الموت الأسود عاد المرة تلو المرة، فكان الناجون من الطاعون يموتون من أمراض أخرى، وبعد كل هذا حلَّت بالناس المجاعة بسبب انهيار إنتاج الغذاء وتقلُّص التجارة. وقد وصل الهلع بالناس أن بعضهم كان يظن أن نظرة واحدة من شخص مريض تكفي لإهلاك من تصيبه.

وجاءت آخر هجماته الشديدة في عام ١٣٩٠، وكان الموت الأسود -عندئذ- قد جلب الخراب والدمار إلى كافة أنحاء أوربا، وبدّل أوضاعها تبديلاً عظيمًا.

لقد أدى هبوط عدد السكان إلى انهيار إنتاج الغذاء على نطاق القارة بأسرها بسبب النقص الكبير في الأيدي العاملة اللازمة لحراثة الحقول وزراعتها. وعلى إثر هذه الأزمة نشب الصراع الاجتماعي بصورة ثورات الفلاحين وانتفاضاتهم. واستفزتهم محاولات أصحاب الأراضي لجعلهم يقومون بنفس المقدار من العمل الذي كانوا يقومون به في السابق رغم تضاؤل أعدادهم. إلا أن عبيد الأرض كانوا يعلمون تمامًا أن نقص عدد الأيدي العاملة يمكّنهم من طلب أجور أعلى تدفع لهم نقدًا. وقد حاول أصحاب الأراضي فرض امتيازاتهم القانونية السابقة، ولكن الحقائق الاقتصادية راحت تكرههم على استئجار اليد العاملة بالمال بدلاً من تشغيلها كجزء من أجار الأرض. وكانت هذه واحدة من العلامات الأولى على بداية زوال نمط قديم من المجتمع، وحلول نمط جديد مبني على العمل مقابل أجر. وهكذا كان الموت الأسود عاملاً أساسيًا في تسريع تغير هام وطويل الأمد.

وأدى هذا أيضًا إلى انتقال ملكية الأرض إلى أيد جديدة، لأن أصحاب الأرض عندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن زراعة أراضيهم صار بعضهم يقسِّم أملاكه الكبيرة ويبيع المزارع للمستأجرين، وهكذا انخفض عدد الأراضي الكبيرة في إنكلترا مثلاً بينما ارتفع عدد الأراضي المتوسطة الحجم بعد وباء الطاعون. كما حدث بعض التضخم لأن كمية المال المتداولة ظلّت على حالها ولكنها توزَّعت على أعداد أقل من الناس. وكانت خسائر الأرواح من وباء الطاعون أشد في بعض الطبقات منها في بعضها الآخر، وكانت فادحة بصورة خاصة بين سكان المدن

ولهذا عانت الجامعات أيضًا، لأنها إنما كانت قائمة في المدن، والحقيقة أن بعض جامعات أوربا قد أغلقت أبوابها ولن تفتحها بعد ذلك أبدًا.

الابتكارات التقنية

ربما تحسَّن مردود الأرض بفضل التبدُّلات التي حصلت في ملكيتها، أي تقسيمها إلى وحدات أصغر وأحسن إنتاجًا، ولكنك لا تجد تقدمًا في تقنية الزراعة مثل ما تم لها قبل عام ١١٠٠. وكان التطوُّر التقني أسرع قليلاً في بعض المجالات الأخرى، مثل تحسن مهارات الحرفيين وإتقانهم لاستخدام أدواتهم، ولكنه لم يتجاوز هذه الحدود الضيقة لكل مهنة. والحقيقة أنه لم يحدث أي تطوُّر سريع أو مفاجئ في أساليب المكننة أو فهمها، بل تراكمت المهارات والتقنيات بصورة بطيئة ومتدرِّجة. ويصح هذا بالأخص على مجال التعدين، إذ تعلَّم الأوربيون أخيرًا -في القرن الثالث عشر- تقنية سبك الحديد عن طريق صبه في قوالب وهو مصهور، فكانوا متأخرين عن الصينيين بأكثر من ألف سنة. وإن التقدُّم الذي أحرزوه لم يحدث على كل حال عن طريق اختراع أشياء جديدة مبتكرة بل عن طريق تبني أساليب كانت معروفة من قبل.

كانت مصادر الطاقة المتاحة لتحريك الآلات في عام ١٥٠٠ وبعده بقرون عديدة أيضًا هي الريح والماء الجاري والعضلات، ولكن هذه المصادر صارت تستخدم -الآن- بصورة أكثر فاعلية بكثير مما كان عليه الحال في الماضي. فالطاحونة الهوائية قد سهَّلت كثيرًا طحن الحبوب وغيره من الأعمال التي كانت تتم بواسطة اليد، خاصة في الأرياف. كما تيسر استخدام الطواحين المائية في الأشغال الصناعية، وسوف يظل الماء الجاري هو الطاقة الأساسيَّة في تسيير الآلات في أوربا

والعالم كله لقرون عديدة بعد. وفي القرن الثالث عشر بدأت هذه الطاقة تستخدم لتحريك الأكيار التي تنفخ الهواء في أفران الحدادين، وفي تغليظ القماش أي تنظيفه وتثخينه، وفي تشغيل المطارق وتقطيع الخشب في المناشر. ومع هذا ظلّت أكثر الأعمال تعتمد على عضلات الحيوان والإنسان، ولم تحدث التغيُّرات إلا باكتشاف طرق أكثر فعالية في استخدام تلك الطاقة، مثل تحسين عدّة الأحصنة والثيران، وإيجاد استخدامات جديدة للأدوات الحديدية، التي يحتاج العمل بها جهدًا أقل من الأدوات الخشبية والعظمية.

إلا أن أكبر أشكال الصناعة وأعظمها أثرًا في النفس إنما كانت حرفة البناء، التي بلغت درجة رفيعة من التخصُّص. صحيح أن معماريي العصور الوسطى لم يقوموا بأشغال عامة كبرى مثل التي قام بها الرومان، ولكنهم شيدوا سلسلة مذهلة من الأبنية كانت أجملها وأروعها هي الكاتدرائيات القوطية الكبرى. كانت هذه الكاتدرائيات تتطلّب مهارات عالية في الهندسة وقطع الأحجار، وقد وسع هذا الأمر أعداد الحرفيين وزاد من أهميتهم. وصارت تنشأ مناطق تصنيع مختصَّة تتجمَّع فيها أعداد كبيرة من العمال الفرديين والورشات الصغيرة ولم تكن فيها معامل كبيرة، وإنك تجد هذا النمط قائمًا اليوم في بعض أنحاء آسيا. وكان أبرز الحرفيين وأغناهم هم المختصون بصناعة الأقمشة، وقد ظهروا أولاً في إيطاليا، وبعد ذلك ظهرت المدن الغنيَّة المختصَّة بهذه الصناعة في منطقة فلاندر -التي تمتد في فرنسا وبلجيكا الحاليتين- وكان الصوف الإنكليزي بضاعة هامة تصدَّر إليها. وتشهد على غنى المختصين بصناعة القماش، كنائس الأبرشيَّات البديعة التي تراها في مناطق صناعة الصوف وحياكته في إنكلترا، حيث راح التجار يستثمرون أموالهم في

تشييدها من أجل تمجيد الله وضمان الحياة الآخرة. وكانت العمارة والنحت المرافق لها من أعظم أشكال الفن في العصور الوسطى، ولكن ظهرت أشكال أخرى غيرها تدل هي أيضًا على تزايد الثروات المطرد. فقد أتقن فن تزويق المخطوطات وتخطيطها، وصارت صناعة المجوهرات فنًا يقدِّره الناس تقديرًا عظيمًا وكانت لها دومًا سوق رائجة بين الأغنياء. كما ارتقى فن شغل الزجاج، وكانت أجمل أشكال الزجاج الملوّن توجد في الكنائس، بينما، لم يستخدم لنوافذ البيوت في العادة لأنه كان باهظ الثمن. أما فن التصوير فقد ظلَّ مقتصرًا على المواضيع الدينية، ولكنه تحرَّر شيئًا فشيئًا من سلطان الكنيسة. ومن الفنون المتأخِّرة فن صنع شعارات النبالة، وقد عمل به عدد كبير من الرسامين والنحاتين والخطاطين.

الحياة اليومية

إلا أن نمو الثروة لا يعني أن حياة جماهير الأوربيين قد أصبحت أريح بكثير أو أن تغذيتهم قد تحسَّنت. فقد كان طعامهم تفهًا لا تنويع فيه، مثل حال أكثر الناس في الشطر الأكبر من التاريخ، وكانوا يأكلون ما يتيسر الحصول عليه في أماكن عيشهم، وهو في العادة مكوَّن من الحبوب، خاصة القمح والشعير، التي تسلق وتحضر بأشكال مختلفة من العصيدة أو الثريد، ولا بأس بهذا الطعام من حيث أنه يملأ المعدة ويسد الرمق، إلا أن طعمه لم يكن بالمستساغ، ولم يكن بحوزتهم مواد لتحسين نكهته إلا بعض العسل أو خثارة الحليب أو الحليب الحامض. وقد يسهِّل ابتلاعه بما كانوا يشربون معه من أنواع الجعة -التي تصنع من تخمير الحبوب- عدا عن الحليب والماء العادي. وكان بعض الأوربيين القاطنين في مناطق معيّنة يستطيعون في حالات قليلة أكل السمك الطازج أو غيره من ثمار البحر، أو لحم

الحيوانات التي يصطادونها. وكانت الخضار وافرة في بعض المناطق، أما في شمال أوربا فكان التنويع في الطعام مقتصرًا على المكسَّرات وبعض أنواع التوت والفواكه البرية، وعلى شواطئ المتوسِّط كان الناس يزرعون الزيتون والعنب. وكان اللحم والزبدة والجبن أوفر في أوربا منها في أماكن أخرى، ولكنها لم تكن متاحة عادة إلا للأغنياء. ولا ريب أن هؤلاء كانوا أقوى بنية من الفقراء، ولكن حتى هم لم يكونوا يتمتَّعون بصحة جيدة. وكان أكثر الناس لا يحصلون على القدر الكافي من الدهن والفيتامينات الضرورية لمقاومة الأمراض ومواجهة الحياة الشاقة التي يعيشونها. وكانوا يموتون في أعمار مبكِّرة، ويقعون فريسة للأمراض بسهولة كبيرة، ويعانون من أمراض الجلد ونخر الأسنان -بسبب الطعام الرديء- أكثر بكثير مما هي عليه حال سكان العالم اليوم ماعدا أكثر بقاعه فقرًا. وكانت النساء معرَّضات فوق هذا لأخطار إضافية لأن الحمل المتكرِّر والعمل الشاق في الحقول يضعفان أجسادهن، ولما كان الجهل بالأمور الطبيَّة تامًا فقد كانت عملية الولادة بحد ذاتها تشكِّل خطرًا كبيرًا.

ولم يعرف الناس شيئًا ذا بال عن أسباب انتشار الأمراض وطرق معالجتها، لذلك لم يكونوا يتخذون شيئًا من الاحتياطات التي نعتبرها اليوم بديهية. فلم تكن المجارير مثلاً في أية مدينة أوربيَّة في العصور الوسطى بجودة ما عرفته مدن رومانية كثيرة قبل ذلك بقرون عديدة، أو حتى مثل التي كانت في موهنجو دارو -في حضارة الهند الباكرة- وكانت القمامة والقاذورات تترك لتتراكم في الطرقات، جالبة الذباب والروائح الكريهة والعدوى إلى أن ينـــزل المطر ويجرفها. ونادرًا ما كان المصابون بالأمراض يبعدون عن الآخرين، ولو أن الموت الأسود قد أدى إلى أولى محاولات الحجر الصحي على السفن القادمة من الشرق. كما أن الأمراض

كانت أحيانًا تهاجم الناس بشراسة كبيرة عندما تنتقل من مكان لآخر، لأن المناعة ضدها كانت مقتصرة على مناطق محدودة.

لقد تحسَّنت فرص العيش حتى سن متقدِّمة في النهاية عن طريق اكتشاف طرق جديدة لزراعة كميَّات أكبر من الغذاء. أما الطب فما كانوا يلتفتون إليه إلا بعد الإصابة بالمرض، ولم يكن الطب في أوربا على كل حال إلا مزيجًا من السحر والخرافة مع بعض الملاحظات العمليَّة القليلة عن فوائد بعض الأعشاب والأدوية، ويبدو أن أكثر الممارسات السليمة التي عرفوها كانوا قد تعلموها من العرب. ولم يكن ليخطر ببال أحد في ذلك الزمان أن وجود الطبيب إلى جانب المريض قد لا يقل فائدة عن وجود الكاهن، وربما كان غياب الطبيب أرحم في الحقيقة بالنظر إلى قلة الدراية بالطب. كان النجاح الأساسي الوحيد في مجال الطب هو القضاء على داء البرص قضاء شبه مبرم، فقد بنيت مشاف للبُرص خارج أسوار المدن كان المرضى التعساء يقضون حياتهم فيها بعيدًا عن بقية البشر.

قلب حضارة

رغم أن هذا المجتمع كان قد سار خطوات كبيرة- منذ نهاية العصور القديمة- فإنه يبقى بعيدًا جدًا عن مجتمعنا اليوم، وقد كانت بذور التغيير كامنة فيه بعد، ولم تصدر عنه إلا علامات ضعيفة ومتفرقة عن تطوره المقبل. وإن أكثر ما يميزه عن مجتمعنا إنما هو المكانة المحورية التي كانت للدين فيه، فقد كانت أوربا في نظر أكثر أهلها هي العالم المسيحي، وقد ازداد وعيها لهذا الأمر حدة بعد عام ١٤٥٣ - سقوط القسطنطينية- وكان الدين يرسم حياتها برمتها -تقريبًا- كما كانت الكنيسة

عند أكثر الناس هي الوحيدة التي تسجِّل وتصدِّق على اللحظات الكبرى في وجودهم، من زواجهم، وولادة أطفالهم وتعميدهم، وموتهم أيضًا.

وكان الكثيرون من الناس ينذرون حياتهم للكنيسة، وكانت نسبة الرجال والنساء الذين يدخلون في السلك الديني أكبر بكثير مما هي الحال عليه اليوم. وكان بعضهم يسعون للاعتزال في الأديرة بعيدًا عن الحياة اليومية المنفِّرة، وحتى العالم العادي خارج الأديرة لم يكن في الحقيقة علمانيًا مثل عالمنا. فقد كانت المعرفة وأعمال الخير والإدارة والعدالة وقطاعات واسعة من الحياة الاقتصادية واقعة كلها ضمن نطاق الدين وتحت سيطرته، وحتى عندما كان الناس يهاجمون رجال الكنيسة كانوا يفعلون ذلك باسم المعايير التي علَّمتهم إياها الكنيسة نفسها وبالاحتكام إلى معرفة إرادة الله حسبما أخذوها عنها. وهكذا كان الدين أعمق ينابيع حضارة أوربا، وكان يشكِّل حياة الناس جميعًا ويحدِّد لهم الهدف والغاية من تلك الحياة.

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

الفصل الثاني: أبكر الحضارات

الصفحة

الفصل الثالث: أسس عالمنا

الصفحة

الفصل الرابع: العالم الروماني

الصفحة

الفصل الخامس: نزاعات الحضارات

الصفحة

الفصل السادس: التقاليد الكبرى في آسيا

الصفحة

الفصل السابع: صنع أوربا

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٤

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

مطابع وزارة الثقافة

٢٠٠٤

سعر النسخة داخل القطر ٢٠٠ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٤٠٠ ل.س

Bibliotheca Alexandrina
0645518